



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ غُضُنِ الْأَشْدَّ لِعُرَى الرَّطَلِيَّةِ

وَذَكَرَ تَرْبِيَّتَهَا سَاهِ الْيَتِيمَةِ بِنْتِ الْمَطْلُوبِ

لِلشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْقُرَيْشِيِّ الْقَائِمِ فِي

أَجْرَةِ الْخَالِيسِ

تَحْقِيقِ

بَيْنَ مَدِينَتَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ

إِثْرَاتِ

مَكْتَبَةِ الْبَحْثِ وَالنِّدْوَاتِ

بِ

دَارِ الْمَكَّةِ

الطَّبَاعَاتِ وَالنَّشْرِ وَالنَّوَيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

كاتب:

مقرى، احمد بن محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالفكر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

- ٥ الفهرس
- ١٩ نفج الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد ٥
- ١٩ اشارة
- ١٩ [تتمة القسم الاول]
- ١٩ صلة الباب السابع
- ١٩ اشارة
- ١٩ [أبو عبد الله بن عائشة؛ ترجمته و بعض شعره]
- ٢٠ [من شعر أبي عمرو يزيد بن عبد الله اللخمي الإشبيلي]
- ٢١ [من شعر ابن الحداد و أبي الحسن بن حريق]
- ٢١ [من شعر على بن محمد الإيادي التونسي]
- ٢٢ [من شعر أبي عمر القسطلي و ابن خفاجة و ابن الأبار]
- ٢٣ [من شعر أبي العباس الأعمى و عبيد الجليل بن وهبون]
- ٢٣ [من شعر ابن خفاجة و عبيد الله بن جعفر الإشبيلي و أبي الحسن على بن جحدر الزجال]
- ٢٤ [من شعر أحمد المعروف بالكساد و أبي القاسم الحضرمي المنيشي و أبي زيد عبد الرحمن العثماني]
- ٢٥ [من شعر أبي زكريا يحيى بن محمد الأركشي و أبي عمران الطرياني و أبي عمرو بن الحكم و أبي الحسن على بن الجعدى القرموني]
- ٢٥ [من شعر أبي الحسن بن لبال و أبي العباس الشريشي و أبي جعفر الشريشي و عمرو بن غياث]
- ٢٦ [من شعر الوزير أبي بكر بن أبي مروان و أبي القاسم بن أبي بكر و عبد الله الجزيري]
- ٢٧ [من شعر عبد الملك الجزيري]
- ٢٧ [من شعر أبي الحسن على بن حفص الجزيري]
- ٢٨ [من شعر أبي الحسن بن سعيد و أحمد بن بلال]
- ٢٩ [من شعر أبي الوليد القسطلي و أبي كثير الطريفي و أبي عامر بن الجد]
- ٢٩ [من شعر أبي عبد الله الشلبي و أبي بكر محمد بن الملح]
- ٣٠ [من شعر أبي بكر محمد بن عبد القادر الشلبي و أبي الحسن على ابن السيد البطلبيوسي]

- ٣٠ [من شعر أبي بكر محمد بن الروح الشلبي و أبي بكر بن المنخل]
- ٣١ [من شعر ابن صارة في ابن الأعلم]
- ٣١ [من شعر الرمادى و أبي الفضل بن الأعلم و ترجمته و ترجمة أبيه]
- ٣٢ [من شعر أبي على إدريس بن اليماني العبدري]
- ٣٢ [مهاجاة بين ابن طيفور و الحافظ الهيثم]
- ٣٣ [من شعر الحجارى صاحب المسهب و بحث في ضبط كلمة المسهب]
- ٣٤ [أخبار تتعلق بسبيويه و كتابه في النحو]
- ٣٤ اشارة
- ٣٧ [نسب سبيويه و تفسير لقبه]
- ٣٨ [من شعر الإلبيرى و ابن صارة و ابن هانئ الأندلسى]
- ٣٨ [من شعر القسطلى و أبي العباس الجراوى و أبي بحر صفوان بن إدريس]
- ٣٩ [من شعر أبي بكر بن مجبر و بعضهم في الباذنجان و ابن خروف في وصف دمشق]
- ٤٠ [من شعر أبي القاسم بن هشام و أبي الوليد الوقشى]
- ٤٠ [من شعر أبي الحسن بن عيسى و أبي ذر الخشنى]
- ٤٠ [من شعر محمد بن أبي خالص الرندى و عبد الملك بن مفوز و ابن زيدون]
- ٤١ [من شعر الهيثم فيمن أصابه جرب و أبي الحسين النفزى]
- ٤١ [من شعر ابن صارة و المعتمد بن عباد]
- ٤٣ [من شعر ابن زيدون و المعتمد بن عباد]
- ٤٣ [و من تطير الرشيد بن المعتمد]
- ٤٤ [من شعر المعتمد]
- ٤٤ [بين المعتمد و ابن اللبائى و من شعر ابن اللبائى]
- ٤٥ [من شعر لسان الدين بن الخطيب]
- ٤٦ [ابن زيدون يمدح المعتمد بن عباد]
- ٤٦ [من شعر أبي القاسم أسعد يمدح المعتمد و من شعر ابن خالص المكفوف]

- ٤٧ [من شعر ابن الحداد]
- ٤٨ [من شعر ابن وهبون و ابن أبى وهب و ابن اللبانه]
- ٤٨ [من شعر القزاز و أبى الحسن بن الحاج]
- ٥٠ [من شعر ابن خفاجه]
- ٥١ [من شعر ابن الرفاء و أبى محمد بن عبد البر و أبى القاسم السمسير]
- ٥٢ [من شعر ابن شاطر السرقسطى و الحصرى و عبد الصمد]
- ٥٢ [من شعر ابن عبد الحميد البرجى و عباده و ابن المطرف المنجم]
- ٥٣ [من شعر أبى الحسن بن اليسع و بين المستنصر و ابن سيد الناس و من شعر أبى العباس الرصافى]
- ٥٣ [من شعر أبى الربيع بن سالم و أبى القاسم بن الأبرش و أبى الحسن بن حريق]
- ٥٤ [من شعر أبى القاسم بن العطار الإشبلى و أبى العباس اللص و أبى إسحاق الإلبيرى]
- ٥٥ [من شعر الوزير أبى الوليد بن مسلمه و أبى الطاهر إسماعيل الخشنى و أبى المعالى الإشبلى]
- ٥٥ [من شعر أبى القاسم بن الأنقر السرقسطى و أبى وهب الزاهد و أبى عبد الله بن محمد بن فتح و أبى القاسم محمد بن نصير]
- ٥٦ [ابن محمد بن ميمون و أبيه فى جارية]
- ٥٦ [من شعر المعتمد بن عباد و أبى عامر البريانى]
- ٥٧ [من شعر السمسير و أبى بكر بن منخل]
- ٥٧ [من شعر محمد بن عبد الحق الإشبلى و أبى محمد بن صاره و أبى محمد الطائى]
- ٥٧ [من شعر الحافظ ابن حزم و أبى عبد الله الجبلى الطيب و محمد بن عبد الله الحضرمى]
- ٥٨ [من شعر ابن الأبار و جوابه على استدعاء و من شعر التجانى]
- ٥٩ [من شعر أبى الحسين بن مفوز و أبى العباس بن مكنون]
- ٦٠ [أول اتصال الحجارى بابن سعيد]
- ٦١ [من شعر ابن مرزقان فى وصف شمعه]
- ٦١ [من شعر ابن الأصغ الإشبلى و ابن حجاج الغافقى]
- ٦٢ [من شعر أبى وهب النحوى و محمد بن يحيى القلفاط و أحمد بن المبارك الحبيبى]
- ٦٣ [من شعر أبى محمد المروانى و إبراهيم بن إدريس العلوى]

- ٦٣ [البازى الأشهب أحد اللصوص فى عصر المعتمد بن عباد]
- ٦٤ [منصور بن عبد المؤمن و شيخ مغفل بناء]
- ٦٤ [أحمد المقرنى المعروف بالكساد]
- ٦٤ [محمد بن أحمد القرموطى المرسى]
- ٦٥ [من شعر أبى عبد الله محمد بن سالم القيسى و أبى عبد الله الإشبلى الخطيب و أبى زيد العثمانى]
- ٦٥ [من صاحب دانية إلى المنصور بن أبى عامر الأصغر]
- ٦٦ [من شعر بعض الهجائين فى رندة و حبلاص الشاعر الرندى]
- ٦٦ [من شعر أبى بكر الرندى و أرقم أحد بنى ذى النون و أبى محمد بن سفيان]
- ٦٧ [من شعر ابن أرفع رأسه و أحمد عبد المؤمن الطليطلى و أبى محمد عبد الله بن العسال]
- ٦٧ [من شعر الوزير أبى جعفر الوقشى]
- ٦٨ [من شعر أبى الوليد هشام الوقشى و أبى الحسين بن أبى جعفر الوزير]
- ٧٠ [من شعر أبى الحسين على بن الحمارة]
- ٧٠ [تبحر اهل الاندلس فى العلوم]
- ٧٠ [ابن ابن حبيش و اليفرنى فى استعمال ما ذا]
- ٧٣ [أبو زكريا يحيى بن على بن سلطان اليفرنى]
- ٧٣ [من شعر صالح بن شريف الرندى]
- ٧٤ [نقد جماعة لكتاب المقرب لابن عصفور]
- ٧٥ [من شعر أبى جعفر بن صفوان الملقى و محمد بن إدريس الأصبهونى]
- ٧٥ [من شعر محمد التطلى الهدلى]
- ٧٦ [ابن يحيى السرقسطى و ابن حسداى الوزير]
- ٧٧ [من شعر أبى الحسن بن الحداد و أبى زكريا بن مطروح]
- ٧٨ [من شعر أبى البركات بن الحاج البلفيقى و أبى الحجاج يوسف الفهرى]
- ٧٨ [من شعر بعضهم فى الرثاء و أبى جعفر البغيل]
- ٧٨ [من شعر أبى جعفر أحمد بن أيوب الملقى و أبى جعفر أحمد بن طلحة]

- ٧٨ [من شعر أبي جعفر الغساني و أبي بكر يحيى بن بقى و المتوكل بن الأفسس]
- ٧٩ [من شعر أبي عبد الله بن خلصة و ابن اللبائنة و أبي علي بن اليماني]
- ٨٠ [من شعر أبي جعفر بن الدودي و ابن أبي الخصال و غالب الحجام و ابن عائشة]
- ٨٠ [من شعر أبي محمد بن سفيان و ابن الزرقاني و يحيى السرقسطي]
- ٨١ [من شعر الرصافي و أبي بكر الصابوني و ابن أبي ركب]
- ٨٢ [من شعر الرصافي و بين ابن حزم و بعض الأدباء]
- ٨٢ [من شعر أبي بكر بن مجير]
- ٨٣ [ابن الوقشي و ابن سراج]
- ٨٣ [من شعر أبي الحسن بن أضحي و الوزير أبو الحسن بن أضحي و بعض أخباره]
- ٨٥ فمن النساء المشهورات بالأندلس:
- ٨٥ أم السعد بنت عصام الحميري
- ٨٥ و منهن حسانة التميمية بنت أبي المخشي الشاعر.
- ٨٦ و منهن أم العلاء بنت يوسف الحجارية.
- ٨٧ و منهن أمه العزيز.
- ٨٧ و منهن أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ملك المريّة.
- ٨٧ و منهن الشاعرة الغسانية البجانية
- ٨٨ و منهن حفصة بنت الحاج الركونية
- ٩٢ [أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي]
- ١٠٠ [ابن أبي جعفر و ابن سيد المعروف باللص]
- ١٠٥ [من شعر ابن سيد المعروف باللص]
- ١٠٥ [ابن أبي الحكم بن هرودس و أبي جعفر و من نظم أبي الحكم بن هرودس]
- ١٠٦ [من نظم أخيل بن إدريس]
- ١٠٦ [عود إلى أخبار أبي جعفر بن سعيد]
- ١٠٧ [رجع إلى أخبار النساء.]

- ١٠٧ [ولادة بنت المستكفي]
- ١١٠ [اعتماد جارية المعتمد بن عباد]
- ١١٢ [حديث عن المعتمد بن عباد عن الفتح]
- ١١٣ [حديث آخر عن المعتمد]
- ١١٤ [ثورة عبد الجبار بن المعتمد بن عباد]
- ١١٨ [زيارة لسان الدين لقبر المعتمد]
- ١١٨ [امن شعر ابن عبدون و من شعر اللورقي يهجو آل عباد]
- ١١٩ [الفتح يتحدث عن أولية بني عباد]
- ١٢٠ [الأديب أبو جعفر بن البني]
- ١٢٢ [أبو الحسن بن لسان]
- ١٢٣ [الأديب أبو بكر عبد المعطي]
- ١٢٤ [أبو بكر يحيى بن بقي]
- ١٢٧ [الأبي عبد الله الحوضي يمدح سلطان تلمسان]
- ١٢٧ [عود إلى بني عباد]
- ١٢٨ [وصف ابن اللبانة للمعتض]
- ١٢٩ [ابن جاح يرد على المعتض]
- ١٣٠ [المعتمد على الله بن المعتض بن عباد]
- ١٣١ [ترجمة الفتح للراضى بالله بن المعتمد]
- ١٣٥ [أولاد المعتمد و من مدائح الداني في بني عباد مقتل بني المعتمد وراثاء ابن حمديس]
- ١٣٦ [امن شعر الداني في المعتمد]
- ١٣٧ [راثاء أبي بحر عبد الصمد للمعتمد]
- ١٣٧ [بين الداني و ابن عمار و امرأة تلقى المعتمد و ابن عمار بغير حياء]
- ١٣٨ [ابن وهبون و المعتمد]
- ١٣٨ [أبو العرب الصقلي و المعتمد]

- ١٣٩ [بحث المعتمد فى بيت للمتنبى]
- ١٣٩ [كلام للصفدى فى بيت المتنبى]
- ١٣٩ [المعتمد و جارية من جواربه]
- ١٣٩ [الابن وهبون فى وصف فيل من الفضه فى قصر المعتمد و من شعر العزيز ابن الملح]
- ١٤٠ [الابن زيدون يرثى المعتضد و يمدح المعتمد]
- ١٤٢ [من ابن زيدون إلى المعتمد بن عباد]
- ١٤٢ [أهدى ابن زيدون تفاحا إلى المعتمد و كتب معه و و كتب إلى المعتمد أيضا]
- ١٤٣ [ابن زيدون يعمى بيت فيفكه المعتمد]
- ١٤٣ [مما كتب به ابن زيدون إلى المعتمد]
- ١٤٤ [ابن حمديس و المعتمد بن عباد و من شعر ابن حمديس]
- ١٤٥ [عود إلى ذكر اعتماد الرميكية حظية المعتمد]
- ١٤٥ [بنات المعتمد يزرنه فى سجنه بأغمت يوم عيد، كاسفات البال، فيقول فيهن شعرا]
- ١٤٦ [المعتمد يحمل فى السفين من الأندلس إلى العدو، و شعر له فى ذلك و فى هذا يقول ابن اللبانه]
- ١٤٦ [القصر الزاهى من قصور المعتمد، و شعر له يشتاقه فيه و هو أسير بسجن أغمت]
- ١٤٧ [الحجارى يحدث عن جارية أهدها ابن تاشفين إلى المعتمد بن عباد]
- ١٤٧ [الفتح بن خاقان يتحدث عن حصار المعتمد]
- ١٤٨ [من حكايات مجالس أنس المعتمد ما حدث به الفتح بن خاقان عن ذخر الدولة]
- ١٤٩ [و منها ما حكاه الفتح أيضا عن ابن اللبانه]
- ١٤٩ [حديث مجلس آخر يحكيه الفتح عن ذخر الدولة]
- ١٤٩ [حديث مجلس آخر بالسند السابق]
- ١٥٠ [حديث مجلس آخر يحكيه الفتح عن إقبال الدولة بن مجاهد]
- ١٥٠ [للمعتمد فى غلام رآه طالعا من ثنيات الوغى]
- ١٥١ [رجع إلى أخبار النساء]
- ١٥١ [و منهن العبادية جارية المعتضد عباد]

- ١٥١ و منهن: بثينة بنت المعتمد بن عباد
- ١٥٢ و منهن حفصة بنت حمدون
- ١٥٣ و منهن زينب المرية
- ١٥٣ و منهن غاية المنى
- ١٥٣ و منهن حمدة، و يقال حمدونة بنت زياد المؤدب من وادي آش
- ١٥٥ و منهن عائشة بنت أحمد القرطبية
- ١٥٥ و منهن مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري
- ١٥٦ و منهن أسماء العامرية
- ١٥٦ و منهن أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية،
- ١٥٦ و منهن مهجة القرطبية صاحبة ولادة رحمهما الله تعالى
- ١٥٧ و منهن هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي،
- ١٥٧ و منهن الشلبية،
- ١٥٨ و منهن نزهون الغرناطية
- ١٥٩ رجع إلى أخبار نزهون [بنت القليعي]
- ١٦٠ [من شعر ابن الزقاق]
- ١٦١ [من شعر الخفاجي و ابن صارة]
- ١٦٢ [للأديب أبي القاسم بن العطار]
- ١٦٢ [من شعر ابي جعفر بن خاتمة و الوزير ابن جزى و أبي الحجاج النصري (السلطان)]
- ١٦٣ [من شعر ابي القاسم بن حاتم و الفقيه ابن سعيد يخاطب الفقيه الفخار و ابن جبير اليحصبي]
- ١٦٣ [من شعر إبراهيم البدوي]
- ١٦٤ [حديث عن مصحف بجامع العدبس بإشبيلية]
- ١٦٤ [من شعر ابن عبدون و ابي عبد الله بن المناصف قاضي بلنسية]
- ١٦٤ [للوزير ابن عمار ردا على أبي المطرف بن الدباغ و قد شفع عنده في غلام طر عذاره]
- ١٦٥ [من شعر ابي الوليد الوقشي و ابن الصفار]

- ١٦٥ [من شعر ابى مروان الجزيرى و ابن المصيصى]
- ١٦٥ [أبيات لأبى عمرو بن مهيب و أبيات لعبد الله الجذامى،]
- ١٦٦ [لعبد الله بن أحمد الملقى، أبيات كتبها إلى أبى نصر الفتح بن خاقان صاحب «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس»]
- ١٦٦ [من شعر محمد بن الحسن المذحجى و محمد بن عبد الرحمن الغرناطى]
- ١٦٧ [من شعر ابى محمد الكلاعى الجيانى و قد دخل على القاضى ابن رشد فقام له]
- ١٦٧ [من شعر أبى عبد الرحمن بن حجاج البلنسى و ابى محمد بن برطله و ابن وضاح، و أنشده أبو بكر بن حبيش]
- ١٦٨ [للوزير الكاتب أبى بكر بن القبطرنة يستجدى بازيا من المنصور بن الأفتس]
- ١٦٩ [ابن ابن عمار و المعتمد بن عباد و قد أهديت للمعتمد باكورة نرجس، فكتب يستدعى حضوره لمجلس أنس]
- ١٦٩ [ابن عمار يكتب للمعتمد و قد أصطحب مع أم الربيع فى يوم غيم و احتجب عن الندماء]
- ١٦٩ [ابن ابن عمار و بعض إخوانه، و قد كتبوا له يستدعون منه شرابا و بين ذى الوزارتين القائد أبى عيسى بن لبون، و ابن اليسع]
- ١٧٠ [من شعر الحجارى فى وصف زيه البدوى و أبى العباس بن خليل]
- ١٧٠ [من شعر أبى محمد عبد الحق الإشبلى و محمد بن صالح الكنانى و ابن الغماز البلنسى]
- ١٧١ [من شعر أبى إسحاق الإلبيرى الغرناطى]
- ١٧٢ [من شعر أبى عبد الله بن العريف و أبى القاسم بن الأبرش و أبى العباس بن صقر الغرناطى]
- ١٧٢ [من شعر ابن الأبار القضاعى و من ترجمه ابن الأبار عن الغبرينى فى كتابه «عنوان الدراية»]
- ١٧٣ [ابن علوان يحدث عن اتصال سنده به و المؤلف يحدث عن اتصال سنده به]
- ١٧٣ [من شعر ابن عبد ربه و أبى العلاء بن قاسم القيسى و الاعمى التطيلى]
- ١٧٣ [من شعر أبى العباس التطيلى و القاضى أبى العباس بن الغماز البلنسى]
- ١٧٤ [من شعر أبى إسحاق الإلبيرى و أبى الطاهر الجيانى المعروف بابن أبى ركب]
- ١٧٥ [ابن ابن ركب و ابن زرقون]
- ١٧٥ [من شعر أبى عبد الله بن خميس الجزائرى]
- ١٧٥ [من شعر أبى محمد بن هارون القرطبى و ابن صارة]
- ١٧٦ [من شعر أبى عبد الله بن الحاج البكرى الغرناطى و أبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى]
- ١٧٦ [من شعر أبى بكر يحيى التطيلى]

- ١٧٦ [ابن بعض المغاربة و الملك الكامل بن العادل بن أيوب]
- ١٧٧ [من شعر بن عبد البر النمري الحافظ]
- ١٧٧ [من شعر ابن عياش الأزدي و ابن خفاجة]
- ١٧٨ [من شعر عبد الوهاب القيسي المالقي و عبد الحق الإشبيلي الأزدي و أبي الفضل عبد المنعم]
- ١٧٨ [من شعر عبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القضاعي الطرطوشي و أبي الحكم عبد المحسن البلنسي]
- ١٧٨ [من شعر أبي حاتم عمر بن محمد بن فرج و غانم بن الوليد المخزومي المالقي]
- ١٧٩ [من شعر أبي العباس أحمد بن العريف و أبي محمد المحاربي]
- ١٧٩ [من شعر غريب الثقفى القرطبي و ابن الطراوة النحوى المالقي]
- ١٨٠ [من شعر أبي الربيع بن سالم و أبي الحسن الباهلي الإشبيلي]
- ١٨٠ [من شعر أبي بكر الزبيدي اللغوى و أبي الوليد هشام بن محمد، القيسي، الشلبى، المعروف بابن الطلال]
- ١٨١ [من شعر ابن حوط الله ترجمته عن «الإحاطة»]
- ١٨١ [من شعر أبي المتوكل الهيثم بن أحمد السكوتى الإشبيلي]
- ١٨١ [من شعر ابن أفيولة و أبي بكر يحيى ابن مجبر أبي الحجاج يوسف بن أحمد الأنصارى المنصفى البلنسي]
- ١٨٢ [من شعر ابن الصائغ القرشى الأموى و أبي عبد الله الحميدى]
- ١٨٣ [ابن الحميدى و من ذم أهل الحديث]
- ١٨٤ [من شعر ابن محرز الزهرى البلنسى و أحمد بن سعيد بن حزم و أبي العباس أحمد بن الغماز]
- ١٨٤ [من شعر ابن الزقاق و أبي عبد الله الكنانى الشاطبي]
- ١٨٥ [من شعر أيمن به محمد الغرناطى و أبي بكر الزبيدي اللغوى]
- ١٨٦ [من شعر بعض فقهاء طليبرة و أبي بكر بن مفاوز و ابن صفوان الخطيب و بعض قدماء الأندلس]
- ١٨٦ [من شعر أبي جعفر أحمد السياسى القيسى المرى و أبي إسحاق بن أبي العاصى و أحمد بن الزيات المالقي]
- ١٨٧ [من شعر ابن صارة و أبي محمد بن صاحب الصلاة، الدانى]
- ١٨٨ [من شعر أبي الحكم عبيد الله الأموى مولاهم و أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيرى و أبي جعفر بن خاتمة]
- ١٨٩ [من شعر حافظ أبي عبد الله الحميدى و أبي بكر مالك بن جبير و أبي عبد الله محمد بن جبير اليعصبى]
- ١٩٠ [من شعر أبي زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلنى]

- ١٩٠ الباب الثامن ذكر تغلب العدو النصراني على الأندلس
- ١٩٠ اشارة
- ١٩٠ [أول من جمع فلول النصارى]
- ١٩١ [رواية عيسى بن أحمد الرازى]
- ١٩١ [رواية المسعودى صاحب مروج الذهب]
- ١٩١ [أول ما استرد الفرنج من بلادهم، و ما قيل فى ذلك من الشعر]
- ١٩٢ [وصف طليطلة]
- ١٩٢ [وصف قصر بناه يحيى بن ذى النون فى طليطلة، عن ابن بدرون]
- ١٩٢ [تاريخ أخذ طليطلة، عن ابن خلكان و غيره و وقعة الزلاقة التى نشأت عن أخذ طليطلة]
- ١٩٣ [رواية ابن الأثير فى كتابه «الكامل»]
- ١٩٤ [رواية أبى عبد الله الحميرى فى «الروض المعطار»]
- ١٩٦ [رواية ابن خلكان]
- ١٩٦ [عود إلى رواية صاحب «الروض المعطار»]
- ١٩٩ [كتاب من ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية]
- ٢٠١ [بعض أخبار المعتمد بن عباد، عن ابن القطاع]
- ٢٠١ [أو عن ابن بسام فى «الذخيرة»]
- ٢٠١ [من غدر ابن تاشفين]
- ٢٠٢ [ابن تاشفين فى ضيافة ابن عباد]
- ٢٠٣ [ملك على بن يوسف بن تاشفين، و الثورة عليه]
- ٢٠٣ [ملك عبد المؤمن بن على بالأندلس]
- ٢٠٤ [يوسف بن عبد المؤمن بن على]
- ٢٠٤ [ملك يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن]
- ٢٠٦ [ملك محمد الناصر بن يعقوب]
- ٢٠٦ [المستنصر بن الناصر]

- ٢٠٦-----[عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن و العادل ابن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، و من بعده من بنى تاشفين]
- ٢٠٧-----[ابنو الأحمر]
- ٢٠٧-----[ابنو مرين]
- ٢٠٧-----[و كتاب من السلطان أبى الحسن المرينى إلى الملك الصالح بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر]
- ٢١١-----[اجواب سلطان مصر على هذا الكتاب من إنشاء خليل بن أيبك]
- ٢١٤-----[السلطان أبو الحسن المرينى يكتب بيده ثلاثة مصاحف و يهديها للمساجد الثلاثة و وصف بعض المشاركة للسلطان أبى الحسن المرينى]
- ٢١٤-----[هدية من السلطان أبى الحسن إلى السلطان الملك الناصر برواية الخطيب أبى عبد الله بن مرزوق]
- ٢١٥-----[رواية المقريزى مؤرخ مصر لهذه الهدية]
- ٢١٦-----[و من إنشاء لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه إلى أحد السلاطين من بنى السلطان أبى الحسن المرينى]
- ٢١٩-----[من إنشاء لسان الدين لاستنهاض صاحب فاس لنصرة الأندلس]
- ٢٢١-----[و من إنشاء لسان الدين فى مخاطبة سلطان فاس أيضا، فى المعنى السابق]
- ٢٢٣-----[كتاب آخر من سلطان الاندلس إلى سلطان فارس (إنشاء لسان الدين)]
- ٢٢٥-----[و من إنشاء لسان الدين على لسان الفتى مخاطبا لسلطان فاس و المغرب أبى عنان]
- ٢٢٧-----[و من إنشاء لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى على لسان سلطانه ما خاطب به الأمير السعيد المذكور إذ قلده والده جبل الفتح، و هو:]
- ٢٢٨-----[و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب أبا عنان سلطان المغرب]
- ٢٣٠-----[و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أمير المسلمين عبد الله يوسف بن أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر إلى سلطان المغرب]
- ٢٣١-----[و من إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بالأندلس و انقطاعها، و أنها لا غنى لها عن بر العدو]
- ٢٣٣-----[و من إنشاء لسان الدين من جملة رسالة على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب الرعايا]
- ٢٣٤-----[و من إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بضيق حال المسلمين ببلاد الأندلس]
- ٢٣٤-----[و من رسالة أخرى من إنشاء لسان الدين فى المعنى السابق]
- ٢٣٥-----[أخذ الكفار قواعد بلاد الأندلس و أخذهم طليطلة و أخذهم بننسية]
- ٢٣٦-----[أخذهم بربشتر قصبه بلد برطانية]
- ٢٣٧-----[ذكر بعض فظائع الإفرنج التى كانوا يعملونها حين يستولون على البلاد]
- ٢٣٩-----[أخذ الإفرنج مدينتى تطيلة و طرشونة]

- ٢٤٠ [القصيدة السينية التي ألهاها ابن الأبار القضاعي بين يدي أبي زكريا بن أبي حفص سلطان إفريقية و قد أقبل عليه يستغيثه]
- ٢٤٢ [تغلب الإفرنج على بلنسية و وقعت كتنده]
- ٢٤٢ [استيلاء العدو على لوشة و المرية]
- ٢٤٣ [عودة المرية إلى المسلمين ثم فقدانها]
- ٢٤٤ [أخذ الإفرنج كورة ماردة و الملك المظفر محمد بن المنصور بن الأفطس ملك بطليوس و ماردة]
- ٢٤٥ [أبو عبد الله محمد الفازازي (ترجمة)]
- ٢٤٦ [أخذ الإفرنج جزيرة ميورقة]
- ٢٤٧ [شعر بعض أهل جزيرة ميورقة]
- ٢٤٧ [أخذ العدو جزيرة شقر و أخذ مدينة سرقسطة]
- ٢٤٧ [أخذ شرق الأندلس شاطبة و غيرها و أخذ مدينة قرطبة و أخذ مدينة مرسية و حصار إشبيلية]
- ٢٤٨ [واقعة أنيجه و لابن الأبار يرثي شيخه أبا الربيع الكلاعي، و قد مات في حصار أنيجه]
- ٢٤٨ [من شعر الحافظ أبي الربيع الكلاعي]
- ٢٤٩ [ترجمة الحافظ الكلاعي و ذكر تصانيفه]
- ٢٥٠ [عبارة للقاضي أبي بكر بن العربي عن نزول العدو الكافر بلاد الأندلس]
- ٢٥٠ [قصيدة لأبي جعفر الوقشي البلنسي يمدح يوسف بن تاشفين و يصف حال الأندلس و يحث على الجهاد]
- ٢٥١ [من القصائد الموجهة إلى أبي زكريا عبد الواحد بن أبي حفص ليغيث بلاد الأندلس من الإفرنج]
- ٢٥٤ [قصيدة لبعض الشعراء يندب طليطلة]
- ٢٥٧ [القصيدة أبي البقاء صالح بن شريف الرندي في رثاء الأندلس]
- ٢٥٨ [من بديع نظم صالح بن شريف الرندي]
- ٢٥٩ [رسالة أبي المطرف بن عميرة المخزومي إلى ابن الأبار، في أخذ الفرنج بلنسية]
- ٢٦١ [قصيدة ختم بها أبو المطرف رسالته لابن الأبار]
- ٢٦٢ [عود إلى الحديث عن تبدد شمل الجيرة، و طى بساط الجزيرة (الأندلس)]
- ٢٦٢ [لابن رشيد في رحلته يصف أبا المطرف]
- ٢٦٢ [رسالة الحافظ ابن الأبار التي أجابه عنها القاضي أبو المطرف برسالته السابقة]

- ٢٦٤ [من إنشاء ابن الأبار في كتابه المسمى «درر السمط، في خبر السبط»]
- ٢٦٧ [للأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادى آشى نزيل تلمسان، في ضياع بلاد الأندلس]
- ٢٦٨ [وصف ابن الحداد لخزانة دار النصرية و ما كان فيها من المتاع و التحف]
- ٢٦٩ [انحياز المسلمين إلى غرناطة بعد استيلاء الفرنج على قواعد بلاد الأندلس]
- ٢٦٩ [قصد ملوك الإفرنج غرناطة]
- ٢٦٩ [بنو الأحمرء و حروبهم و جهادهم إلى نهاية ملك المسلمين بالأندلس]
- ٢٧٠ [موقعة «الحامة» و «لوشة» و «مالقة و بلش» و «رندة» و حصار «مالقة»]
- ٢٧٢ [اشتداد المعارك بين الإفرنج و المسلمين و موقعة «البيرة» و عود إلى «مالقة و بلش»]
- ٢٧٤ [سقوط «بسطة» و غيرها]
- ٢٧٥ [موقعة «شلوبانية» و موقعة مرج غرناطة]
- ٢٧٦ [استيلاء النصارى على الحمراء و صورة من شروط الصلح]
- ٢٧٧ [نقض النصارى للعهد]
- ٢٧٨ [ذكر السلطان الذى ضاعت على عهده بلاد الأندلس]
- ٢٧٨ [رسالة سلطان الأندلس المخلوع إلى سلطان فاس، (إنشاء العقيلي)]
- ٢٨٨ [كلمة عن أبي عبد الله العقيلي، منشئ الرسالة المذكورة و من شعره]
- ٢٩١ فهرس الرسائل و الخطب و الاجازات للجزء الخامس من كتاب نفح الطيب
- ٢٩٢ فهرس موضوعات الجزء الخامس
- ٢٩٢ اشارة
- ٣٠٤ الباب الثامن من القسم الأول فى خروج الأندلس عن يد المسلمين
- ٣٠٨ تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد ٥

إشارة

نام كتاب: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب

نويسنده: مقرى، احمد بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ١٠٤١ هـ. ق

محقق / مصحح: بقاعى، يوسف

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ١٠

ناشر: دار الفكر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ١٤١٩ هـ. ق

[تتمه القسم الاول]

صلة الباب السابع

إشارة

فى نبذة مما من الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان

[أبو عبد الله بن عائشة: ترجمته و بعض شعره]

وقال الأديب أبو عبد الله بن عائشة فى فتى طرزت غلالة خده، و ركب من عارضه سنانا على صعدة قدّه: [الطويل]

إذا كنت تهوى خده و هو روضه به الورد غصّ و الأقاح مفلج

فزد كلفا فيه و فرط صباية فقد زيد فيه من عذار بنفسج

و حلّاه فى المطمح بأن قال: اشتهر صوتنا و عفافا، و لم يخطب بعقيلة حظوة زفافا، فأثر انقباضا و سكونا، و اعتمد إليها ركونا، إلى أن

أنهضه أمير المسلمين إلى بساطه فهبّ من مرقد خموله، و شبّ لبلوغ جدوة مأموله، فبدا منه فى الحال انزواء، فى تسنّم تلك الرسوم و

التواء، و قعود عن مراتب الأعلام، و جمود لا يحمد فيه و لا يلام، إلّا أنّ أمير المسلمين ألقى عليه منه محبّه، جلبت إليه مسرى الظهور

و مهبه، و كان له أدب واسع المدى، يانع كالزهر بلّله الندى، و نظم مشرق الصفحه، عقب النفحه، إلّا أنه قليلا ما كان يحلّ ربه، و

يذيل له طبعه، و قد أثبت له منه ما يدع الألباب حائرة، و القلوب إليه طائرة فمن ذلك قوله فى ليلة سمحت لى بفتى كان يهواه، و

نفحت له هبة وصل أبدت جواه: [السريع]

لله ليل بات عندى به طوع يدى من مهجتى فى يديه

و بت أسقيه كؤوس الطلا و لم أزل أسهر شوقا إليه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤

عاطيته حمراء ممزوجة كأنها تعصر من و جنتيه
و خرج من بلنسية يوما إلى منية الوزير الأجلّ أبى بكر ابن عبد العزيز، و هى من أبداع منازل الدنيا، و قد مدّت عليها أدواحها الأفياء، و
أهدت إليها أزهارها العرف و الزّيّا، و النهر قد غصّ بمائه، و الروض قد خصّ بمثل أنجم سمائه، و كانت لبني عبد العزيز فيها أطراب،
تهيئاً لهم فيها من الأيام آراب، فلبسوا فيها الأانس حتى أبلوه، و نشروا فيها الحظ و طووه، أيام كانوا بذلك الأفق طلوعا، لم تضمّ عليهم
التّوب ضلوعا، فقعّد أبو عبد الله مع لمة من الأدباء تحت دوحه من أدواحها، فهبت ريح أنس من أرواحها، سطت بإعصارها، و
أسقطت لؤلؤها على باسم أزهارها، فقال: [مخلع البسيط]

و دوحه قد علت سماء تطلع أزهارها نجوما

هفا نسيم الصّبا عليها فأرسلت فوقنا رجوما

كأنما الجوّ غار لّمّا بدت فأغرى بها النسيما

و كان فى زمان عطلته، و وقت اصفراره و علته، و مقاساته من العيش أنكده، و من التّخوّف أجهده، كثيرا ما ينشرح بجزيرة شقر و
يسترىح، و يستطيب هبوب تلك الريح، و يجول فى أجارع واديها، و ينتقل من نواديها إلى بواديها، فإنها صحيحة الهواء، قليلة الأدواء،
خضلة العشب و الأزاهر، قد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور، و الأيكة قد نشرت ذوائبها على صفحيه، و الروض قد عطر
جوانبه بريجه، و أبو إسحاق ابن خفاجة هو كان منزع نفسه، و مصرع أنسه، نفع له بالمنى عقب و شذا، و مسح عن عيونه مسراته
القذى، و غدا على ما كان وراح، و جرى متهافتا فى ميدان ذلك المراح، قريب عهد بالفطام، و دهره ينقاد فى خطام، فلّمّا اشتعل رأسه
شيبا، و زرت عليه الكهولة جيبا، أقصر عن تلك الهنات، و استيقظ من تلك السيئات، و شبّ عن ذلك الطّوق، و أقصر عن الهوى و
الشوق، و قنع بأدنى تحيئه، و ما يشعره فى وصف تلك العهد من أريحيه، فقال: [الطويل]

ألا خلياني و الأسي و القوافيا أرددها شجوا و أجهش باكيا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥

أآمن شخصا للمسرّة باديا و أندب رسما للشيبه باليا

تولّى الصّبا إلّا توالى فكرة قدحت بها زندا و ما زلت و اريا

و قد بان حلو العيش إلّا تعلّنه تحدّثنى عنها الأمانى خاليا

و يا برد هذا الماء هل منك قطرة تهلّ فأستسقى غمامك صاديا

و هيات حالت دون حزوى و أهلها ليال و أيام تحاكي اللياليا

فقل فى كبير عاده صائد الظبّا إليهنّ مهتاجا و قد كان ساليا

فيا راكبا يستعمل الخطو قاصدا ألا عج بشقر رائحا أو مغاديا

وقف حيث سال النهر ينساب أرقما و هبّ نسيم الأيكة ينفث راقيا

و قل لأثيلات هناك و أجرع سقيت أثيلات و حييت و اديا

انتهى ببعض اختصار.

و ابن عائشة أشهر من أن يطال فى أمره، و ليس الخبر كالعيان.

[من شعر أبى عمرو يزيد بن عبد الله اللخمي الإشبيلي]

و قال أبو عمرو يزيد بن عبد الله بن أبى خالد اللخمي الإشبيلي الكاتب فى فتح المهديّة سنة ٦٠٢: [الكامل]

كم غادر الشعراء من متردّم ذخرت عظامه لخير معظّم

تبعاً لمذخور الفتوح فإنه جاءت له بخوارق لم تعلم
من كل سامية المنال إذا انتمت رفعت إلى اليرموك صوت المنتمى
و توسطت في النهروان بنسبه كرمت ففازت بالمحل الأكرم
وقال ابن الأبار في «تحفة القادام»: هو صدر في نبهائها و أدبائها، يعنى إشبيليه، و ممن
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦

له قدر في منجيها و نجبائها، و إلى سلفه ينسب المعقل المعروف «بحجر بن أبى خالد»، و توفي بها سنة ٦١٢، و أورد له قوله:
[الطويل]

و يا للجوارى المنشآت و حسنها طوائر بين الماء و الجوّ عوّما
إذا نشرت في الجوّ أجنحة لها رأيت به روضا و نورا مكمّما
و إن لم تهجه الرياح جاء مصافحا فمدّت له كفّا خضيبا و معصما
مجازف كالحيات مدّت رؤوسها على و جل في الماء كى تروى الظّما
كما أسرعت عدّا أنامل حاسب بقبض و بسط يسبق العين و الفما
هى الهدب فى أجفان أكحل أوظف فهل صنعت من عندم أو بكت دما

[من شعر ابن الحداد و أبى الحسن بن حريق]

قال ابن الأبار: أجاد ما أراد فى هذا الوصف، و إن نظر إلى قول أبى عبد الله بن الحداد يصف أسطول المعتصم بن صمادح:
[الخفيف]

هام صرف الردى بهام الأعداى أن سمت نحوهم لها أجياد
و تراءت بشرعها كعيون دأبها مثل خائفها سهاد
ذات هذب من المجاذيف حاك هذب باكك لدمعه إسعاد
حمم فوقها من البيض نار كلّ من أرسلت عليه رماد
و من الخطّ فى يدي كلّ درّ ألف خطّها على البحر صاد
قال: و ما أحسن قول شيخنا أبى الحسن بن حريق فى هذا المعنى من قصيدة أنشدنيها:

[الكامل]

و كأنما سكن الأراقم جوفها من عهد نوح خشية الطوفان
فإذا رأين الماء يطفح نضضت من كلّ خرق حية بلسان

[من شعر على بن محمد الإيادى التونسى]

قال: و لم يسبقهم إلى الإحسان، و إنما سبقهم بالزمان، على بن محمد الإيادى التونسى فى قوله: [الكامل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧
شرعوا جوانبها مجاذف أتعبت شادى الرياح لها و لّمّا تتعب
تنصاع من كذب كما نفر القطا طورا و تجتمع اجتماع الزّرب
و البحر يجمع بينها فكأنه ليل يقرب عقربا من عقرب

و كأنما البحر استعار بزئيم ثوب الجمال من الريح المعجب
و من هذه القصيدة الفريدة في ذكر الشراع:
و لها جناح يستعار يطيرها طوع الرياح و راحة المتطرب
يعلو بها حذب العباب مطاره في كلّ لّج زاهر مغلوب
يسمو بأخر في الهواء منصّب عريان منسرح الذؤابة شوذب
يتنزل الملاح منه ذؤابة لو رام يركبها القطا لم يركب
و كأنما رام استراقه مقعد للسمع إلّا أنه لم يشهب
و كأنما جنّ ابن داود هم ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواهرم بينها فتقاذفوا منها بألسن مارج متلهّب
من كل مسجون الحريق إذا انبرى من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يقدمه الدخان كأنه صبح يكرّ على ظلام غيبه
و من أولها:

أعجب بأسطول الإمام محمد و بحسنه و زمانه المستغرب
لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المتعجب
من كلّ مشرفة على ما قابلت إشراف صدر الأجدل المنتصب
و منها:

جوفاء تحمل موكبا في جوفها يوم الرهان و تستقلّ بموكب
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨
و هي طويلة من غرر القصائد، و قد سرد جملة منها صاحب «المنهاج» و غيره..

[من شعر أبي عمر القسطلی و ابن خفاجة و ابن الأبار]

و قال أبو عمر القسطلی: [الوافر]
و حال الموج بين بنى سبيل يطير بهم إلى القول ابن ماء
أغرّ له جناح من صباح يرفرف فوق جناح من سماء
و أخذه أبو إسحاق بن خفاجة فقال: [الوافر]
و جارية ركبت بها ظلما يطير من الصباح بها جناح
إذا الماء اطمأنّ و رقّ خصرا علا من موجه ردف رداح
و قد فغر الحمام هناك فاه و أتلع جیده الأجل المتاح
و لا يخفأك حسن هذه العبارة الصقيلة المرأة، فالله تعالى يرحم قائلها!

و قال ابن الأبار: و قد قلت أنا في ذلك: [البسيط]
يا حبذا من بنات الماء سابعة تطفو لما شبّ أهل النار تطفئه
تطيرها الريح غربانا بأجنحة ال حمام البيض للأشراك ترزؤه
من كلّ أدهم لا يلقى به جرب فما لراكبه بالقار يهنؤه

يدعى غرابا و للفتحاء سرعته و هو ابن ماء و للشاهين جؤجؤه

و اجتمع ابن أبي خالد و أبو الحسن بن الفضل الأديب عند أبي الحجاج بن مرطير الطيب بحضرة مراکش، و جرى ذكر قاضيها حينئذ
أبي عمران موسى بن عمران بينهم، و ما كان عليه من القصور و البعد عما أتيح له، و أوتر به، فقال أبو الحجاج: [الرملة]
ليس فيه من أبي موسى شبه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩

فقال أبو الحسن: فأبوه فضة و هو شبه

فقال ابن أبي خالد:

كم دعاه إذ رآه عزة و أباه إذ دعاه يا أبه

[من شعر أبي العباس الأعمى و عبيد الجليل بن وهبون]

و قال أبو العباس الأعمى: [البسيط]

بهيمه لو جرى في الخيل أكبرها لغابت الريح في الأحجال و الغرر

تجرى فللماء ساقا عائم درب و للرياح جناحا طائر حذر

قد قسمتها يد التقدير بينهما على السواء فلم تسبح و لم تطر

و قال عبد الجليل بن وهبون يصف الأسطول: [الكامل]

يا حسنها يوما شهدت زفافها بنت الغضاء إلى الخليج الأزرق

و رقاء كانت أيكه فتصورت لك كيف شئت من الحمام الأورق

حيث الغراب يجز شمله عجبه و كأنه من غزه لم ينق

من كل لابسه الشباب ملاءه حسب اقتدار الصانع المتأق

شهدت لها الأعيان أن شواهدنا أسماؤها فتصحفت في المنطق

من كل ناشرة قوادم أجنح و على معاطفها و هاده سودق

زأرت زئير الأسد و هي صوامت و زحفن زحف مواكب في مازق

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠

و مجاذف تحكى أرقام ربوة نزلت لتكرع من غدیر متأق

[من شعر ابن خفاجة و عبيد الله بن جعفر الإشبيلي و أبي الحسن علي بن جدر الزجال]

و قال ابن خفاجة: [مخلع البسيط]

سقى لها من بطاح خز و دوح نهر بها مطل

فما ترى غير وجه شمس أظل فيه عذار ظل

و هو من بديع الشعر، و كم لابن خفاجة من مثله.

و قال عبيد الله بن جعفر الإشبيلي، و قد زار صاحبها له مرات و لم يزره هو، فكتب على بابه: [البسيط]

يا من يزار على بعد المحل و لا يزورنا مرة من بين مرات

زر من يزورك و احذر قول عاذله تقول عنك: فتى يوتى و لا يأتى

و من مجونياته سامحه الله تعالى: [الوافر]
 و أغيد ليس تعدوه الأمانى و لو حكمت عليه باشتطاط
 سقيت الراح حتى مال سكرًا و نام على النمارق و البساط
 و أسلم لى على طول التجنى و أمكننى على فرط التعاطى
 فأولجت المقادر جيد بكر و لا كفران فى سم الخياط
 و غناني بصوت من حاشاه فأطربنى و بالغ فى نشاطى
 فما نقر المثلث و المثانى بأطرب من تلاحين الضراط
 و لولا الريق لم أظفر بشيء على عدم اهتبالى و احتياطى
 فلا تسخر بريق بعد هذا فإن الريق مفتاح اللواط
 و قال أبو الحسن على بن جحدر الزجال: [الخفيف]
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١
 كيف أصبحت أيهذا الحبيب؟ نحن مرضى الهوى و أنت الطيب
 كل قلب إليك يهفو غراما و تجافى على منك القلوب
 إن تلح حومت عليك هياما أو تغب حنّها عليك الوجيب
 غير أنى من بينهم مستريب حين تبدو و ليس لى ما يريب
 كل ما قد ألقاه منك و منى دون هذا له تشقّ الجيوب

[من شعر أحمد المعروف بالكساد و أبى القاسم الحضرمى المنيشى و أبى زيد عبد الرحمن العثمانى]

و قال أحمد المعروف بالكساد، فى موسى الذى كان يتغزل فيه شعراء إشبيلية: [الخفيف]
 ما لموسى قد خرّ لله لَمّا فاض نورا غشاه ضوء سناه
 و أنا قد صعقت من نور موسى لا أطيع الوقوف حين أراه
 و لله درّه فى رثاء موسى المذكور إذا قال: [السريع]
 فرّ إلى الجنّة حوريّها و ارتفع الحسن من الأرض
 و أصبح العشاق فى ماتم بعضهم يبكى إلى بعض
 و قوله فيه: [الرملة]
 هتف الناعى بشجو الأبد إذ نعى موسى بن عبد الصمد
 ما عليهم ويحهم لو دفنوا فى فؤادى قطعة من كبدى
 و لقب بالكساد لقوله: [الوافر]
 و بيع الشعر فى سوق الكساد
 و قال أبو القاسم بن أبى طالب الحضرمى المنيشى: [المنسرح]
 صاغت يمين الرياح محكمة فى نهر واضح الأسارير
 فكلما ضاعفت به حلقا قام لها القطر بالمسامير
 و قال أبو زيد عبد الرحمن العثمانى، و هو من بيت إمارة: [الخفيف]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢
لا تسلني عن حالتى فهى هذى مثل حالى لا كنت يا من يرانى
ملنى الأهل و الأخلء لما أن جفانى بعد الوصال زمانى
فاعتبر بى و لا يعزك دهر ليس منه ذو غبطة فى أمان

[من شعر أبى زكريا يحيى بن محمد الأركشى و أبى عمران الطريانى و أبى عمرو بن الحكم و أبى الحسن على بن الجعدى القرمونى]

و قال أبو زكريا يحيى بن محمد الأركشى: [البسيط]
لا حبذا المال و الإفضال يتلفه و البخل يحميه و الأقدار تعطيه
و قال: [البسيط]
لا تبكين لإخوان تفارقهم فإننى قبلك استخبرت إخوانى
فما حمدتهم فى حال قربهم فكيف فى حال إبعاد و هجران
و قال أبو عمران موسى الطريانى لما دخل يوم نيروز إلى بعض الأكابر، و عادتهم أن يصنعوا فى مثل هذا اليوم مدائن من العجين لها
صور مستحسنة، فنظر إلى صورة مدينة، فأعجبه، فقال له صاحب المجلس: صفها و خذها: [مجزوء الرجز]
مدينة مسوره تحار فيها السحره
لم تنبها إلا يدا عذراء أو مخدره
بدت عروسا تجتلى من درمك مزعفره
و ما لها مفاتيح إلا البنان العشره
و قال أبو عمرو بن حكيم: [السريع]
حاشا لمن أملككم أن يخيب و ينثنى نحو العدا مستريب
هذا و كم أقرانى بشركم نصر من الله و فتح قريب
و قال أبو الحسن على بن الجعدى القرمونى: [الكامل]
إياك من زلل اللسان فإنه قدر الفتى من لفظه المسموع
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣
فالمراء يختبر الإناء بنقره ليرى الصحيح به من المصدوع

[من شعر أبى الحسن بن لبال و أبى العباس الشريشى و أبى جعفر الشريشى و عمرو بن غياث]

و قال الفقيه أبو الحسن على بن لبال فى محبرة عناب محلاة بفضة: [المنسرح]
منعلة بالهلال ملجمه بالنسر مجدولة من الشفق
كأنما حبرها تميع فى فرضتها سائلا من الغسق
فأنت مهما ترد تشبهها فى كل حال فانظر إلى الأفق
و قال فى محبرة آبنوس: [الكامل]
و خديمة للعلم فى أحشائها كلف بجمع حرامه و حلاله
لبست رداء الليل ثم توشحت بنجومه و تتوجت بهلاله

و قال أبو العباس أحمد بن شكيل الشريشي: [المنسرح]

تفاحة بت بها ليلتي أبتها سرى و الشكوى

أضمتها معتنقا لاثما إذا ذكرت خد من أهوى

و قال: [السريع]

تفاحة حامضة عضها في ثمل من قطب الوجها

و لم أخل من قبلها محسنا يجزى عليه العض و النجها

و قال أبو جعفر أحمد الشريشي: [الطويل]

على حسن نور الباقلاء أدرهما على الصب كأسى خمره و جفون

يذكرنى بلق الحمام و تاره يؤكد للأشجان شهل عيون

و قال أبو عمرو بن غياث: [الطويل]

و قالوا مشيب قلت وا عجا لكم أ ينكر صبح قد تخلل غيها

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤

و ليس مشيبا ما ترون و إنما كميت الصبا لما جرى عاد أشها

[من شعر الوزير أبي بكر بن أبي مروان و أبي القاسم بن أبي بكر و عبد الله الجزيري]

و قال الوزير أبو بكر محمد ابن ذى الوزارتين أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز يخاطب ابن عبدون: [البسيط]

فى ذمة الفضل و العلياء مرتحل فارقت صبرى إذ فارقت موضعه

ضاعت به برهه أرجاء قرطبه ثم استقلّ فسدّ البين مطلعته

عذرا إلى المجد عنى حين فارقتى ذاك الجلال فأعيا أن أشيعه

قد كنت أصحابته قلبى و أقعدنى ما كان أودعنى عن أن أودعه

و فيهم يقول ابن عبدون: [الوافر]

بحور بلاغة و نجوم عزّ و أطواد رواس من جلال

و قال الوزير الكاتب أبو القاسم بن أبي بكر بن عبد العزيز: [الوافر]

نديمى لا عدمتك من نديم أدرها فى دجى الليل البهيم

فخير الأنس أنس تحت ستر يسان عن السفه أو الحليم

و قال الشاعر أبو عبد الله الجزيري: [المجتث]

فى أمّ رأسى سرّ بيدو لكم بعد حين

لأبلغنّ مرادى إن كان سعدى معينى

أو لا فأكتب ممن سعى لإظهار دين

و سبب قوله هذا أن بنى عبد المؤمن لما غيروا رسم مهديهم، و صيروا الخلافة ملكا، و توسّعوا فى الرفاهية، و أهملوا حقّ الرعيّة، جعل

يتستّر، و قال هذه الأبيات، و شاع سرّه فى مدة ناصر بنى عبد المؤمن، فطلبه، ففرّ، و لم يزل يتنقل مستخفيا مع أصحابه إلى أن حصل

فى حصن قولية من عمل مدينة بسطة، فبينما هو ذات يوم فى جامعها مع أصحابه و هم يأكلون بطيخا و يرمون قشره فى صحن الجامع،

إذ أنكر ذلك رجل من العامة، و قال لهم: ما تتفون

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥

اللّه تعالى؟! تتهاونون بيت من بيوته؟ فضحكوا منه، و استهزءوا به، و أهل تلك الجهة لا تحتمل شيئاً من ذلك، فصاح بفتية من العامة، فاجتمع جمع و حملوا إلى الوالى فكان عند الوالى من عرفه، فقتلوا جميعاً، و أمر الناصر أن يرفع عن جميع أرض قولية جميع تكاليف السلطان.

[من شعر عبد الملك الجزيرى]

و لَمَّا عتب المنصور بن أبى عامر على الكاتب عبد الملك الجزيرى، و سجنه فى الزاهرة، ثم صفح عنه، قال و كتب به إليه: [السريع] عجبت من عفو أبى عامر لا بدّ أن تتبعه منه كذلك الله إذا ما عفا عن عبده أدخله الجنة فاستحسن ذلك، و أعاده إلى حاله.

و قال على لسان بهار العامريه، و هو النرجس: [الكامل] حدق الحسان تقرّ لى و تغار و تضلّ فى وصفى النهى و تحار طلعت على قضبى عيون تمانى مثل العيون تحفها الأشفار و أخصّ شىء بى إذا شبّهته درّ تمنطق سلكه دينار أنا نرجس، حقاً بهرت عقولهم ببديع تركيبى فقيل بهار و قال فى بنفسجها: [الكامل]

شهدت لنوار البنفسج ألسن من لونه الأحوى و من إيناعه بمشابه الشعر الأحمّ أعاره ال قمر المنير الطلق نور شعاعه و لربما جمد النجيع من الطلى فى صارم المنصور يوم قراعه فحكاه غير مخالف فى لونه لا فى روائحه و طيب طباعه و قال فى القمر حين جعل يختفى بالسحاب و يبدو أمام المنصور: [الوافر]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦
أرى بدر السماء يلوح حيناً فيظهر ثم يلتحف السحاباً
و ذلك أنه لما تبدى و أبصر وجهك استحيا و غابا

[من شعر أبى الحسن على بن حفص الجزيرى]

و قال الحجارى فى «المسهب»: سألت أبا الحسن على بن حفص الجزيرى أن ينشدنى شيئاً من شعره، فقال: يا أبا محمد، إذا لم ينظم الإنسان مثل قول شرف: [البيسط]

لم يبق للجور فى أيامكم أثر إلا الذى فى عيون الغيد من حور
فالأولى له أن يترك نظم الشعر، إلى أن خرجت معه يوماً إلى سيف الجزيرة الخضراء، فلقى غلاماً قد كدر رونق حسنه السفر، و أثر فى وجهه آثار الكلف فى القمر، فصافحه، ثم قال: [الكامل]
بأبى الذى صافحته فتورّدت و جناته و أناء نحوى قدّه
قمر بدا كلف السرى فى خده لما توالى فى الترحل جهده

لكن معالم حسنه تمت كما قد تم في صدى الحسام فرنده
 فحفظتها من سمعه، ثم قلت له: قد أخذت عنك من نظمك، بغير شكرك، فضحك وقال: فاحفظ هذا، و أنشد: [مجزوء الرمل]
 لا تقولن فلان صاحب قبل اختبار
 و انتظر ويحك نقد اللي ل فيه و النهار
 أنا جرّبت فلم أل ف صديقا باختيارى
 و أنشد: [الكامل]

كم قد بكرت إلى الرياض و قضبها قد ذكّرتنى موقف العشاق
 يا حسنها و الريح يلحف بعضها بعضا كأعناق إلى أعناق
 و الورد خدّ و الأفاحى مبسم و غدا البهار ينوب عن أحداق
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧
 لم أنفصل عنها بكأس مدامه حتى حملت محاسن الأخلاق

[من شعر أبى الحسن بن سعيد و أحمد بن بلال]

و لما كتب أبو الحسن بن سعيد إلى الأديب القائد أبى العباس أحمد بن بلال يستدعيه ليوم أنس بقوله: [الوافر]
 أبا العباس، لو أبصرت حولى ندامى بادروا العيش الهيتا
 يببسون المدام و لا انتقاد و قارهم و يزدادون غيا
 و هم مع ما بدا لك من عفاف يجنون الصبيئ و الصبيئا
 و يهونون المثالث و المثانى و شرب الراح صباحا أو عشيا
 على الروض الذى يهدى لطرف و أنف منظرا بهجا و ريا
 فلا تلم السرى على ارتياح حكى طربا بجانبه سريا
 و بادر نحو ناد ما خلا من نداك فقد عهدتك لوذعيا
 أجابه بقوله: [الوافر]

أبيت سوى المعالى يا عليا فما تنفك دهرك أريحيا
 تميل إذا النسيم سرى كغصن و تسرى للمكارم مشرفيا
 و ترتاح ارتياحا بالمثانى و تفتض الصبيئ و الصبيئا
 و تهوى الروض قلده نداءه و ألبسه مع الحلل الحليا
 و إن غنى الحمام فلا اصطبار و إن خفق الخليج فنيث حيا
 تذكرنى الشباب فلست أدري أصبحا حين تذكر أم عشيا
 فلو أدركتنى و الغصن غضّ لأدركت الذى تهوى لديا
 و لم أترك و حقك قدر لحظ و قد ناديتنى ذاك النديا
 و قال بعض أهل الأندلس: [الوافر]

و فرع كان يوعدنى بأسر و كان القلب ليس له قرار
 فنادى وجهه لا خوف فاسكن «كلام الليل يمحوه النهار»

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨
و لست على يقين أن قائلهما أندلسي، غير أني رأيت في كلام بعض الأفاضل نسبتها لأهل الأندلس، والله تعالى أعلم.

[من شعر أبي الوليد القسطلي و أبي كثير الطريفي و أبي عامر بن الجدي]

و قال أبو الوليد القسطلي: [الوافر]
و فوق الدوحة الغنا غدير تلاًلاً صفحاً و سجا قرارا
إذا ما انصبّ أزرق مستقيماً تدور في البحيرة فاستدارا
يجزده فم الأنوب صلتا حساما ثم يفلته سوارا
و لأبي كثير الطريفي يمدح الناصر بن المنصور: [الطويل]
فتوح لها يهترّ شرق و مغرب كما أطردت في السمهرية أكعب
تجلّت على الدنيا شمس منيرة فلم يبق في ليل الكآبة غيهب
أقام بها الإسلام شدو معرّد و ظلت بأرض الشرك بالخطب تخطب
فلا سمع إلّا و هو قد مال نحوها و لا قلب إلّا في مناهها يقلب
و قال أبو عامر بن الجدي: [البسيط]

لله ليلة مشتاق ظفرت بها قطعتها بوصول اللثم و القبل
نعمت فيها بأوتار تعلّني أحلى من المنّ أو أمتية الغزل
أحبب إليّ بها إذ كلّها سحر أراحت الصّب من عذر و من عدل

[من شعر أبي عبد الله الشلبي و أبي بكر محمد بن الملح]

و قال الكاتب أبو عبد الله محمد الشلبي، كاتب ملك إفريقيه عبد الواحد بن أبي حفص: [السريع]
مدّ إلى الكاس من لحظه لا يحوج الشرب إلى الكاس
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩
و منذ حيّاني بأس فلم أياس و لكن كان لي آسى
و قال لو لا الناس قبلته ما أشأم الناس على الناس
و قال أبو بكر محمد بن الملح، و هو من رجال الذخيرة، على لسان حال سوار مذهب: [البسيط]

أنا من الفضة البيضاء خالصة لكن دهنتي خطوط غيرت جسدي
علقت غصنا على أحوى فأحسدني جرى الوشاح و هذى صفرة الجسد
و ما أحسن قوله من قصيدة في المعتضد والد المعتضد: [المنسرح]

غرّته الشمس و الحيا يده بينهما للنجيع قوس قزح

و أما ابنه أبو القاسم فهو من رجال «المسهب» و كان اشتغل أوّل أمره بالزهد، و كتب التصوّف، فقال له أبوه: يا بني، هذا الأمر ينبغي أن يكون آخر العمر، و أمّا الآن فينبغي أن تعاشر الأدباء و الظرفاء، و تأخذ نفسك بقول الشعر، و مطالعة كتب الأدب، فلمّا عاشهم زيّنوا له الراح، فتهتك في الخلاعة، و فرّ إلى إشبيلية، و تزوّج بامرأة لا تليق بحاله، و صار يضرب معها بالدف، فكتب إليه أبوه: [مخلع]

[البسيط]

يا سخنة العين يا بتيا ليتك ما كنت لى بتيا
 أبكيت عيني، أطلت حزني أمت ذكرى و كان حينا
 حططت قدرى و كان أعلى فى كل حال من الثريا
 أما كفاك الزنى ارتكابا و شرب مشموله الحميا
 حتى ضربت الدفوف جهرا و قلت للشرجىء إلتيا
 فاليوم أبكيك ملء عيني إن كان يغنى البكاء شيئا
 فأجاب أباه بقوله: [مخلع البسيط]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠
 يا لائم الصب فى التصابى ما عندك يغنى البكاء شيئا
 أو جفت خيل العتاب نحوى و قبل أو ثبتها إلتيا
 و قلت هذا قصير عمر فاربح من الدهر ما تهيا
 قد كنت أرجو المتاب ممتنت جهلا به و غيا
 لو لا ثلاث شيوخ سوء أنت و إبليس و الحميا

[من شعر أبى بكر محمد بن عبد القادر الشلبى و أبى الحسن على ابن السيد البطلوسى]

و قال أبو بكر محمد بن عبد القادر الشلبى يستدعى: [الطويل]
 فديتك باكر نحو قبته روضة تسيح بها الأمواه و الطير تهتف
 و قد طلعت شمس الدنان بأفقهها و نحن لديها فى انتظارك وقف
 فلا تتخلف ساعة عن محله صدودك عمّن حلّ فيها تخلف
 و قال أخو إمام نحاة الأندلس أبى محمد عبد الله بن السيد البطلوسى، و هو أبو الحسن على بن السيد: [الكامل]
 يا ربّ ليل قد هتكت حجابيه بزجاجة وقادة كالكوكب
 يسعى بها ساق أغنّ كأنها من خده و رضاب فيه الأشنب
 بدران بدر قد أمنت غروبه يسعى بيدر جانح للمغرب
 فإذا نعمت برشف بدر طالع فانعم بيدر آخر لم يغرب
 حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرة ررب فى مشرب
 و الليل منحفز يطير غرابه و الصبح يطرده بياز أشهب

[من شعر أبى بكر محمد بن الروح الشلبى و أبى بكر بن المنخل]

و لى مدح أبو بكر محمد بن الروح الشلبى الأمير إبراهيم الذى خطب به الفتح فى القلائد، و هو ابن أمير المسلمين يوسف بن
 تاشفين، و كان يدلّ عليه و ينادمه، بقصيدته التى أولها: [الطويل]
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١
 أنا شاعر الدنيا و أنت أميرها فما لى لا يسرى إلى سرورها
 أشار الأمير إلى مضحكك له كان حاضرا أن يحق له لقوله «أنا شاعر الدنيا» فقال له ابن الروح: على من حقت؟ يعنى أنه يحتمل أن

يكون ذلك الفعل لقوله «أنا شاعر الدنيا» أو لقوله «و أنت أميرها» ففطن الأمير لما قصده، و ضحك و تغافل.

و قال أبو بكر بن المنخل الشلبي: [الكامل]

كم ليلة دارت عليّ كواكب للخمر تطلع ثم تغرب في فمي

قبلتها في كفّ من يسعى بها و خلطت قبلتها بقبله معصم

و كأنّ حسن بنانه مع كأسه غيم يشير لنا ببعض الأنجم

و قال ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار: [المتقارب]

قرأت كتابك مستشفعا بوجه أبي الحسن من رده

و من قبل فضّ ختام الكتاب قرأت الشفاعة في خده

و قال: [المجتث]

غزا القلوب غزال حجّت إليه العيون

قد خطّ في الخدّ نونا و آخر الحسن نون

قال الحجارى: و إكثار ابن عمار في المعذّرين و إحسانه فيهم يدلّك على أنه، كما قيل عنه، كان مشغوفا بالكاس، و الاستلقاء من غير

نعاس.

[من شعر ابن صارة في ابن الأعلم]

و كان أبو الفضل بن الأعلم من أجمل الناس و أذكاهم في علم الأدب و النحو، و أقرأ علم النحو قبل أن يلتحق، فقال ابن صارة فيه:

[الكامل]

أكرم بجعفر اللبيب فإنه ما زال يوضح مشكل «الإيضاح»

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢

ماء الجمال بخده مترقّق فالعين منه تجول في ضحضاح

ما خده جرحته عيني، إنما صبغت غلالته دماء جراحی

لله زاي زبرجد في عسجد في جوهر في كوثر في راح

ذى طرّة سبجيّة ذى غرّة عاجيّة كالليل و الإصباح

رشأ له خدّ البرىء و لحظه أبدا شريك الموت فى الأرواح

[من شعر الرمادى و أبى الفضل بن الأعلم و ترجمته و ترجمه أبيه]

و قال الرمادى: [مجزوء الرجز]

و نور غيث مسبل و قهوة تسلسل

تدور بين فتية بخلقهم تمثّل

و الأفق من سحابه ظلّ ضعيف ينزل

كأنه من فضّة برادة تغربل

و قال: [السريع]

بدر بدا يحمل شمساً بدت و خدها فى الحسن من خده

تغرب في فيه و لكنها من بعد ذا تطلع في خده
و من نظم أبي الفضل بن الأعلم السابق الذكر: [الكامل]
و عشية كالسيف إلا حده بسط الربيع بها لنعلى خده
عاطيت كأس الأنس فيها واحدا ما ضره أن كان جمعا وحده
و هو جعفر ابن الوزير أبي بكر محمد ابن الأستاذ الأعلم، من رجال «القلائد» و «المسهب» و «سمط الجمان»، و كان قاضي شتيريه، و
الأستاذ الأعلم هو إمام نحاة زمانه أبو الحجاج يوسف بن عيسى من رجال «الصلة» و «المسهب» و «السمط»، و هو شارح الأشعار الست،
و من نظمه يخاطب المعتمد بن عباد: [البيسط]
يا من تملكني بالقول و العمل و مبلغى فى الذى أمّلته أملى
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣
كيف الثناء و قد أعجزتنى نعماً مالى بشكرى عليها الدهر من قبل
رفعت للوجود أعلاماً مشهرة فبابك الدهر منها عامر السبل

[من شعر أبى على إدريس بن اليمانى العبدري]

و قال أبو على إدريس بن اليمانى العبدري: [المديد]
قبله كانت على دهش أذهبت ما بى من العطش
و لها فى القلب منزلة لو عدتها النفس لم تعش
طرقتنى و الدجا لبست خلعا من جلده الحبش
و كأنّ النجم حين بدا درهم فى كفّ مرتعش
و سأله المعتضد أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التى مدح بها ابن حمّود فقال له: أشعاري مشهورة، و بنات صدرى
كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها، فقد عرف مهرها، و كانت جائزته مائة دينار.
و من مشهور شعره بالمغرب و المشرق قوله: [الكامل]
ثقلت زجاجات أتتنا فرغا حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت و كذا الجسوم تخفّ بالأرواح

[مهاجاة بين ابن طيفور و الحافظ الهيثم]

و كانت بين الأديب الحسيب أبى عمرو بن طيفور و الحافظ الهيثم مهاجاة، فقال فيه الحافظ: [مجزوء الرمل]
لابن طيفور قريض فيه شوك و غموض
عدمت فيه القوافى و المعانى و العروض
و قال فيه ابن طيفور: [مجزوء الرمل]
إنما الهيثم سفر من كلام الناس ضخم
لا تطالبه بفهم ليس للديوان فهم
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤
و قال أبو عمران بن سعيد: أخبرنى والدى أنه زار ابن حمدى بقرطبة فى مدة يحيى بن غانية، قال فوجدته فى هالة من العلماء و

الأدباء، فقام و تلقاني، ثم قال: يا أبا عبد الله، ما هذا الجفاء؟ فاعتذرت بأني أخشى التثقيب، و أعلم أن سيدي مشغول بما هو مكب عليه، فأطرق قليلا ثم قال: [الكامل]

لو كنت تهوانا طلبت لقاءنا ليس المحب عن الحبيب بصابر
فدع المعاذر إنما هي جنّة لمخادع فيها، و لست بعاذر
فقلت: تصديق سيدي عندي أحب إليّ و إن ترتبت عليّ فيه الملامة من منازعته منتصرا لحقّي، فاستحسن جوابي، و قال لي: كرره فإنه
و الله ماح لكل ذنب، ثم سألته كتب البيتين عنه، فقال لي: و ما تكتب فيهما؟ فقلت: [أليس في الإنعام ذلك] لأجد ما أخبر به والدي
إذا أبت إليه؟ فأملاهما عليّ، فقلت: من قائلهما؟ قال: قائلهما، فعلمت أنهما له، و قنعت بذلك.

[من شعر الحجاري صاحب المسهب و بحث في ضبط كلمة المسهب]

و قال الحجاري صاحب «المسهب»، في أخبار المغرب: [الكامل]

كم بت من أسر الشهاد بليلة ناديت فيها هل لجنحك آخر
إذا قام هذا الصبح يظهر ملّة حكمت بأن ذبح الظلام الكافر
و على ذكر «المسهب» فقد كنت كثيرا ما أستشكل هذه التسمية، لما قال غير واحد: إن المسهب إنما هو بفتح الهاء، كقولهم سيل
مفعم- بفتح العين- و الفقرة الثانية و هي «المغرب» تقتضى أن يكون بكسر الهاء، و لم يزل ذلك يتردد في خاطري إلى أو وقفت على
سؤال في ذلك رفعه المعتمد بن عباد سلطان الأندلس إلى الفقيه الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشتمري
المشهور بالأعلم، و نص السؤال:

سألك- أبقاك الله- الوزير الكاتب أبو عمرو بن غطمش، سلّمه الله، عن «المسهب» و زعم أنك تقول بالفتح و الكسر، و الذي ذكر
ابن قتيبة في «أدب الكاتب» و الزبيدي في «مختصر العين» أسهب الرجل فهو مسهب إذا أكثر الكلام، بالفتح خاصّة، فين لي- أبقاك
الله تعالى!- ما تعتقد فيه، و إلى أي كتاب تسند القولين، لأقف على صحّة من ذلك.

فأجابه: وصل إليّ- أدام الله تعالى توفيك!- هذا السؤال العزيز، و وقفت على ما

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥

تضمّنه، و الذي ذكرته من قول ابن قتيبة و الزبيدي في الكتابين موضوع كما ذكرته، و الذي أحفظه و أعتقد أنه المسهب بالفتح
المكثّر من غير صواب، و أن المسهب بالكسر البليغ المكثّر من الصواب، إلّا أنني لا- أسند ذلك إلى كتاب بعينه، و لكنني أذكره عن
أبي عليّ البغدادي عن كتاب «البارع» أو غيره، معلقا في عدة نسخ من كتاب «البيان و التبيين» على بيت في صدره لمكي بن سواده و
هو: [الخفيف]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٢٥

حصر مسهب جرىء جبان خير عى الرجال عى السكوت

و المعلقة: «تقول العرب: أسهب الرجل فهو مسهب و أحصن فهو محصن و أفلج فهو ملفج، إذا افتقر، قال الخليل: يقال رجل مسهب و
مسهب، قال أبو عليّ: أسهب الرجل فهو مسهب بالفتح إذا أكثر في غير صواب، و أسهب فهو مسهب بالكسر إذا أكثر و أصاب، قال
أبو عبيدة: أسهب الرجل فهو مسهب إذا أكثر من خرف و تلف و ذهن، و قال أبو عبيد عن الأصمعي: أسهب الرجل فهو مسهب بالفتح
إذا خرف و أهتر، فإن أكثر من الخطأ قيل: أفند فهو مفند»، انتهت المعلقة. فرأى مملوكك- أيّدك الله تعالى!- و اعتقاده أن المسهب
بالفتح لا- يوصف به البليغ المحسن، و لا- المكثّر المصيب، ألا ترى قول الشاعر «حصر مسهب» أنه قرن فيه المسهب بالحصر و ذمّه
بالصفتين، و جعل المسهب أحقّ بالعي من الساكت و الحصر فقال:

[الخفيف]

خير عى الرجال عى السكوت

و الدليل على أن المسهب بالكسر يقال للبلغ المكثر من الصواب أنهم يقولون للجواد من الخيل مسهب بالكسر خاصة لأنها بمعنى الإجادة و الإحسان، و ليس قول ابن قتيبة و الزبيدي فى المسهب بالفتح هو المكثر من الكلام بموجب أن المكثر هو البليغ المصيب؛ لأن الإكثار من الكلام داخل فى معنى الذم، لأنه من الثثرة و الهدر، ألا تراهم قالوا: رجل مكثار، كما قالوا:

ثرثار، و مهذار، و قال الشاعر: [البيط]

فلا تمارون إن ماروا ياكثار

فهذا ما عندى، و الله تعالى الموفق للصواب.

قال الأعلام: ثم نظمت السؤال العزيز و الجواب المذكور، فقلت: [المتقارب]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦

سلام الإله و ريحانه على الملك المجتبى المنتحل

سلام امرئ ظل من سيه خصيب الجناب رحيب المحل

أتانى سؤالك أعزز به سؤال مبر على من سأل

يسائل عن حالتي مسهب و مسهب المبتلى بالعلل

لم اختلفا فى بناء يهما و حكمهما واحد فى فعل

أتى ذا على مفعل لم يعل و ذاك على مفعل قد أعل

فقلت مقالا على صدقه شهيد من العقل لا يستزل

بناء البليغ أتى سالما سلامته من فضول الخطل

و أسهب ذاك مسيئا فزل ذليلا ثنى متنه فانخذل

و أحسن ذا فجرى وصفه على سنن المحسن المستقل

فهذا مقالى مستبصرا و لست كمن قال حدسا فضل

تقلدت فى رأيه مذهبا يخصك بين الظبا و الأسل

سموك فى الروح مستشرفا إلى مهجة المستميت البطل

كأنك فيها هلال السما يزيد بهاء إذا ما أهل

بل أنت مطل كبدر السماء يمضى الظلام إذا ما أطل

قلت: رأيت فى بعض الحواشى الأندلسية: أن ابن السكيت ذكر فى بعض كتبه فى بعض ما جعله بعض العرب فاعلا و بعضهم مفعولا: رجل مسهب و مسهب، لكثير الكلام، و هذا يدل على أنهما بمعنى واحد، انتهى.

[أخبار تتعلق بسبويه و كتابه فى النحو]

إشارة

و سأل بعض الأدباء الأستاذ الأعلام المذكور عن المسألة الزنبرية، المقترنة بالشهادة الزورية، الجارية بين سبويه و الكسائى أو الفراء، و القضاء بينهم فيها، و هى «ظننت أن العقرب

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧

أشدّ لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو إياها» و عن نسب سيويه: هل هو صريح أو مولى؟

و عن سبب لزومه الخليل بعد أن كان يطلب الحديث و التفسير، و عن علّة تعرضه لمناظرة الكسائي و الفراء، و عن كتابه الجارى بين الناس: هل هو أول كتاب أو أنشأه بعد كتاب أول، ضاع كما زعم بعض الناس؟

فأجاب: أما المسألة الزنبورية الماثورة بين سيويه و الكسائي، أو بينه و بين الفراء على حسب الاختلاف فى ذلك، بحضرة الرشيد، أو بحضرة يحيى بن خالد البرمكى فيما يروى، فقد اختلفت الرواة فيها: فمنهم من زعم أن الكسائي أو الفراء قال لسيويه: كيف تقول «ظننت أن العقرب أشدّ لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو إياها»؟ فأجاب سيويه- بعد أن أطرق شيئاً- «فإذا هو إياها» فى بعض الأقاويل، و زعم آخرون أنه قال «فإذا هو هي» فيها من الاختلاف عنهم ما ترى، فإن كان أجاب إذا هو هي، فقد أصاب لفظاً و معنى، و لم تدخل عليه فى جوابه شبهة، و لا علقه لمعترض؛ لأن «إذا» فى المسألة من حروف الابتداء المتضمنة للتعليل بالخبر، فإذا اعتبرت المضميرين بعدها بالاسمين المظهرين لزمك أن تقول «فإذا الزنبور العقرب» أو «اللسعة لللسعة» أى مثلها سواء، فلو قلت «فإذا هو إياها» بنصب الضمير الأخير للزمك أن تقول: فإذا الزنبور العقرب، بالنصب، و هذا لا وجه له، فإذا لم يجر نصب الخبر المظهر فكيف يجوز نصب الخبر المضمير الواقع موقعه؟ و يروى فى المسألة أن الكسائي أو الفراء قال لسيويه بعد أن أجاب برفع الضميرين على ما يوجبه القياس: كيف تقول يا بصرى «خرجت فإذا زيد قائم، أو قائماً؟» فقال سيويه: أقول «قائم» و لا يجوز النصب، فقال الكسائي: أقول قائم و قائماً، و القائم و القائم، بالرفع و النصب فى الخبر مع النكرة و المعرفة، فتأول الكسائي و الفراء فى اختيارهما «فإذا هو إياها» حمل الخبر المضمير فى النصب على الخبر المظهر المعرفة مع الإعراب بوجه النصب، فكأنه قال: فإذا الزنبور العقرب، كما تقول: فإذا زيد القائم، فيجرى المعرفة فى النصب مجرى النكرة، و قولهما فى هذا خطأ من جهتين: إحداهما:

أن نصب الخبر بعد إذا لا يكون إلّا بعد تمام الكلام الأول فى الاسم مع حرف المفاجأة، و مع كون الخبر نكرة، كقولك: خرجت فإذا زيد قائماً؟ لأنك لو قلت «خرجت فإذا زيد» تم الكلام، لتعلق المفاجأة بزيد على معنى حضوره، ثم تبين حاله فى المفاجأة المتعلقة به فتقول «قائماً» أى: خرجت ففاجأنى زيد فى هذا الحال، و قوله فى المسألة «إياها» لا يتم الكلام فى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨

الاسم الأول دونها، ألا ترى أنك لو قلت «ظننت أن العقرب أشدّ لسعة من الزنبور فإذا هو» و سكت، لم يتم الكلام أولاً، و لا أفدت بذكر المفاجأة و تعليقها بالزنبور فائدة، و إنما المفاجأة للضمير الآخر، فلا بدّ من ذكره و الاعتماد عليه، و هذا يوجب الرفع فى الخبر؛ لأنّ الظرف له، لا للمخبر عنه، فهذا بين واضح، و الجهة الأخرى فى غلطهما أن «إياها» معرفة، و الحال لا تكون إلّا نكرة، فقد اجتمع فى قولهما أن أتيا بحال لم يتم الكلام دونها، معرفة، و الحال لا تكون إلّا بعد تمام الكلام و مع التنكير، فقد تبين خطأهما و إصابة سيويه فى لزوم الرفع فى الخبر فقط.

و أما من زعم عن سيويه أنه قال «خرجت فإذا زيد قائم» بالرفع لا- غير فباطل، و كيف ينسب إليه و هو علمنا أن الظرف إذا كان مستقراً للاسم المخبر عنه نصب الخبر، و إذا كان مستقراً للخبر رفع الخبر، و نحن نقول «خرجت فإذا زيد» فبتم الكلام، و نظرت فإذا الهلال طالع» فيتبعه الخبر رفعا، كما تقول «فى الدار زيد قائم، و قائماً» و «اليوم سيرك سريع، و سريعاً» و لكن الخبر إذا كان الظرف له و لم يتعلّق إلّا به لم يكن إلّا رفعا، كقولك «اليوم زيد منطلق، و غدا عمرو خارج»؛ لأنّ الظرف لا يكون مستقراً للاسم المخبر عنه إذا كان زماناً، و المخبر عنه جثّة، و كذلك المفاجأة إذا كانت للخبر لم يكن إلّا مرفوعاً، معرفة كان أو نكرة، فإذا كانت للمخبر عنه و الخبر نكرة انتصب على الحال، فجرى قولك «ظننت أن العقرب أشدّ لسعة من الزنبور فإذا هو هي، و ظننت زيدا عالماً فإذا هو جاهل» فى لزوم الرفع فى الخبر مجرى «اليوم زيد منطلق، و غدا عمرو خارج» كما جرى «خرجت فإذا زيد قائم، و قائماً» فى جواز الرفع و النصب مجرى «فى الدار زيد جالس، و جالسا» فتأمل الفرق بينهما و حصّله، فإنّ النحويين المتقدمين و المتأخرين قد أغفلوا الفرق بين

المفاجأتين.

و أما نصب الخبر المعرفة بعد إذا، تم الكلام أو لم يتم، فباطل لا تقوله العرب، و لا يجيزه إلا الكوفيون.

و إن كان سيبويه، رحمه الله تعالى، أجاز بقوله «إذا هو إياها» كما روى بعضهم فظاهر جوابه مدخول؛ لما قدمت، و الخطأ فيه بين من جهة القياس كما ذكرنا، فإن كان قاله و التزمه دون الرفع فقد أخطأ خطأ لا مخرج له منه، و إن كان قد قاله و هو يرى أن الرفع أولى و أحق، إلا أنه أثر النصب للإعراب حملا- على المعنى الخفى، دون ما يوجب القياس و اللفظ الجلى، فلجوابه عندى و جهان حسنان:

أحدهما: أن يكون الضمير المنصوب و هو «إياها» كناية عن اللسعة، لا عن العقرب، و الضمير المرفوع كناية عن الزنبور، فكأنه قال «ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩

الزنبور لسعة العقرب» أى فإذا الزنبور يلسع لسعة العقرب، فاخترت الفعل لما تقدم من الدليل عليه، بعد أن أضمر اللسعة متصلة بالفعل، فكأنه قال «إذا الزنبور يلسعها» فاتصل الضمير بالفعل لوجوده، فلما اخترت الفعل انفصل الضمير، لعدم الفعل.

و نظير هذا من كلام العرب قولهم «إنما أنت شرب الإبل» أى: إنما أنت تشرب شرب الإبل، فاخترت الفعل، و بقى عمله فى المصدر، و لم يرفع، لأنه غير الاسم الأول، فلو أضمرت شرب الإبل بعد ما جرى ذكره فقلت «ما يشرب زيد شرب الإبل،» إنما أنت تشربه» لاتصل الضمير بالفعل، فلو حذفته لانفصل الضمير فقلت إنما أنت إياه» فتدبره تجده منقادا صحيحا.

و الوجه الآخر أن يكون قوله «إذا هو إياها» محمولا- على المعنى الذى اشتمل عليه أصل الكلام من ذكر الظن أولا- و آخرا، لأن الأصل فى تأليف المسألة «ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فلما لسعنى الزنبور ظننته هو إياها» فاختصر الكلام لعلم المخاطب، و حذف الظن آخرا لما جرى من ذكره أولا، و دلت «إذا» لما فيها من المفاجأة على الفعل الواقع بعد لما الدالة على وقوع الشئ لوقوع غيره، فإذا جاز حذف الكلام إثارا للاختصار مع وجود الدليل على المحذوف كان قولنا «إذا هو إياها» بمنزلة قولنا «فلما لسعنى الزنبور ظننته هو إياها» فحذف الظن مع مفعوله الأول، و بقى الضمير الذى هو العماد و الفصل مؤكدا للضمير المحذوف مع الفعل و دالما على ما يأتى بعده من الخبر المحتاج إليه، فيكون فى حذف المخبر عنه لما تقدم من الدليل عليه مع الإتيان بالعماد و الفصل المؤكد له المثبت لما بعده من الخبر المحتاج إليه مثل قوله و لا يحسببن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم [سورة آل عمران، الآية: ١٨٠] فحذف البخل الذى هو المفعول الأول لقوله «يحسبن» و بقى الضمير مؤكدا له مثبتا لما بعده من الخبر، و جاز حذفه لدلالة «يبخلون» عليه، و المعنى: لا- يحسبن الذين يبخلون البخل هو خيرا لهم، فهو فى المسألة عماد مؤكدا للضمير الزنبور المحمول على الظن المضمرة و مثبت لما يجىء بعده من الخبر الذى هو «إياها» فتفهمه فإنه متمكن من جهة المعنى، و جار من الاختصار لعلم المخاطب على قياس و أصل، و شاهده القرآن فى الحذف و استعمال العرب النظائر، و هى أكثر من أن تحصى، فمنها قولهم «ما أغفله عنك شيئا» أى تثبت شيئا ودع الشك، و قولهم لمن أنكر عليه ذكر إنسان ذكره «من أنت زيدا» أى: من أنت تذكر زيدا، و ربما قالوا «من أنت زيد» بالرفع على تقدير: من أنت ذكرك زيد، فحذفوا الفعل مرة و أبقوا عمله،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠

و حذفوا المبتدأ أخرى و أبقوا خبره، و كل ذلك اختصار؛ لعلم المخاطب بالمعنى، و كذلك قولهم «هذا و لا زعماتك» أى هذا القول و الزعم الحق و لا- أتوهم زعماتك، فحذف هذا لعلم السامع مع تحصيل المعنى و قيامه عند المخاطب، و الحمل فى كلامهم على المعنى أكثر من أن يحصى.

فإن كان الضمير الأول فى المسألة للزنبور و الضمير الآخر للعقرب لم يجز البتة إلا رفع الضميرين بالابتداء و الخبر، على حد قولك «ظننت زيدا عاقلا- فإذا هو أحق، و حسبت عبد الله قاعدا فإذا هو قائم» و لو تقدم ذكر الخبر و المخبر عنه لقلت «إذا هو هو» و لم

يجز فإذا هو إياه البتة. و يجوز في المسألة أن تقول «فإذا هي هو» على التقديم و التأخير على حدّ قولك «فإذا العقرب الزنبور» أى سواء فى شدة اللسعة كما تقول «خرجت فإذا قائم زيد» على تقدير فإذا زيد قائم، و يجوز أن يكون «هو» كناية عن اللسع بدلالة اللسعة عليه، و تكون «هى» كناية عن اللسعة على تقدير: فإذا لسع الزنبور لسعة العقرب، و يجوز «فإذا هي هو» على إضمار اللسعة و اللسع، و التقدير: فإذا لسعة الزنبور لسع العقرب، و هذا كله لا- يجوز فيه إلّا الرفع عند البصريين؛ لأنّ الآخر هو الأول، و الخبر معرفة متعلّق بالمفاجأة فلا- يجوز فيه الحال، و الكوفيون يجيزون النصب كما تقدّم، و هو غلط بين، و خطأ فاحش، لا تقوله العرب، و لا تعلق له بقياس، فاعلمه.

و يجوز فى المسألة «فإذا هو هو» على تقدير: فإذا اللسع اللسع، و يجوز «فإذا هي هي» على تقدير: فإذا اللسعة اللسعة، و فى هذا كفاية إن شاء الله تعالى.

[نسب سيبويه و تفسير لقبه]

و أمّا نسب سيبويه ففارسي مولى لبنى الحارث بن كعب بن علة بن خلدة بن مالك، و هو مذحج، و اسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، و كنيته أبو بشر، و لقبه الذى شهر به سيبويه، و معناها بالفارسية رائحة التفاح، و كان من أطيب الناس رائحة، و أجملهم وجهاً، و قيل: معنى «سى» ثلاثون، و معنى «بويه» رائحة، فكأنّ معناها: الذى ضوعف طيب رائحته ثلاثين مرّة.

و أمّا سبب تعويله على الخليل فى طلب النحو- مع ما كان عليه من الميل إلى التفسير و الحديث- فإنه سأل يوماً حماد بن سلمة فقال له: أحدثك هشام بن عروة عن أبيه فى رجل رعى فى الصلاة، بضم العين، فقال له حماد: أخطأت، إنما هو رعى بفتح العين، فانصرف

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١

إلى الخليل، فشكا إليه ما لقيه من حماد، فقال له الخليل: صدق حماد، و مثل حماد يقول هذا، و رعى بضم العين لغة ضعيفة، و قيل: إنه قدم البصرة من البيداء من قرى شيراز من عمل فارس، و كان مولده و منشؤه بها، ليكتب الحديث و يرويه، فلزم حلقة حماد بن سلمة، فبينما هو يستملى على حماد قول النبى، صلى الله عليه و سلم «ليس من أصحابى إلّا من لو شئت لأخذت عليه، ليس أبا الدرداء» فقال سيبويه «ليس أبو الدرداء» بالرفع، و ظنه اسم ليس، فقال له حماد:

لحنت يا سيبويه، فقال سيبويه: سأطلب علما لا تلحننى فيه، فلزم الخليل، و برع فى العلم.

و أمّا سبب وفوده على الرشيد ببغداد و تعرّضه لمناظرة الكسائى و الفراء، فلما كانا عليه من تمكّن الحال، و القرب من السلطان، و علوّ همّته، و طلبه للظهور مع ثقته بعلمه؛ لأنه كان أعلم أهل زمانه، و كان بينه و بين البرامكة أقوى سبب، فوفد على يحيى بن خالد بن برمك و ابنه جعفر و الفضل، فعرض عليهم ما ذهب إليه من مناظرة الكسائى و أصحابه فسعوا له فى ذلك، و أوصلوه إلى الرشيد، فجرى بينه و بين الكسائى و الفراء ما ذكر و اشتهر، و كان آخر أمره أنّ الكسائى و أصحابه لما ظهوروا عليه بشهادة الأعراب على حسب ما لقنوا أن قال يحيى بن خالد أو الكسائى للرشيد: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن لا يرجع خائباً فعلت، فأمر له بعشرة آلاف درهم، و انصرف إلى الأهواز، و لم يعرج على البصرة، و أقام هنالك مدّة إلى أن مات كمداً، و يروى أنه ذربت معدته فمات، فيرون أنه مات غمّاً، و يروى أنّ الكسائى لما بلغه موته قال للرشيد: ده يا أمير المؤمنين، فإنى أخاف أن أكون شاركت فى دمه، و لمّا احتضر وضع رأسه فى حجر أخيه فقطرت دمه من دموعه على خده، فرفع عينيه و قال: [الطويل]

أخيين كنا فزق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى، و من يأمن الدهرا

و مات على السنّة و الجماعة، رحمه الله تعالى!

و أمّا كتابه الجارى بين الناس فلم يصحّ أنه أنشأه بعد كتاب آخر قبله، على أن ذلك قد ذكر.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢

فهذا ما حضر فيما سألت عنه؛ فمن قرأه و أشرف فيه على تقصير فليسط العذر فإنه لساعتين من نهار، إملاء يوم الثلاثاء عشى النهار لثمان خلون لصفر سنة ٤٧٦ انتهى.

[من شعر الإلبيري و ابن صارة و ابن هانيء الأندلسي]

و قال الإلبيري، رحمه الله تعالى: [الكامل]

لا شيء أخسر صفقة من عالم لعبت به الدنيا مع الجهال

فغدا يفرق دينه أيدي سبا و يذيله حرصا بجمع المال

لا خير في كسب الحرام، و قلما يرجي الخلاص لكاسب لحلال

فخذ الكفاف و لا تكن ذا فضلة فالفضل تسأل عنه أى سؤال

و كان أبو الفضل بن الأعلم من أحسن الناس وجها، و أذكاهم في علم النحو و الأدب، و أقرأ النحو في صباه، و فيه يقول ابن صارة

الأندلسي، رحمه الله تعالى: [الكامل]

أكرم بجعفر اللبيب فإنه ما زال يوضح مشكل «الإيضاح»

ماء الجمال بوجهه مترقرق فالعين منه تجول في ضحضاح

ما خده جرحته عيني، إنما صبغت غلالته دماء جراحی

لله زاي زبرجد في عسجد في جوهر في كوثر في راح

ذى طرة سبجيه ذى غرة عاجيه، كالليل و الإصباح

رشأ له حد البريء، و لحظه أبدا شريك الموت في الأرواح

و قال محمد بن هانيء الأندلسي من قصيدة: [الكامل]

السافرات كأنهنّ كواكب و الناعمات كأنهنّ غصون

ما ذا على حلال الشقيق لو أنها عن لابسها في الخدود تبين

لأعطشنّ الروض بعدهم و لا يرويه لى دمع عليه هتون

أ أعير لحظ العين بهجة منظر و أخونهم؟ إني إذن لحوون

لا الجوّ جوّ مشرق و إن اكتسى زهوا، و لا الماء المعين معين

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣

لا يبعدن إذ العبير له ثرى و البان روح، و الشموس قطين

الظلّ لا متنقل، و الحوض لا متكدر، و الأمن لا ممنون

[من شعر القسطلي و أبي العباس الجراوى و أبي بحر صفوان بن إدريس]

و قال القسطلي في أسطول أنشأه المنصور بن أبي عامر من قصيدة: [الطويل]

تحمل منه البحر بحرا من القنا يروع بها أمواجه و يهول

بكلّ ممالات الشراع كأنها و قد حملت أسد الحقائق غيل

إذا سابت شأ الرياح تخيلت خيولا مدى فرسانهنّ خيول

سحائب تزجيهما الرياح فإن وقت أطافت بأجساد النعام فيول
 ظباء شمام ما لهنّ مفاحص و زرق حمام ما لهنّ هديل
 سواكن في أوطانهنّ كأن سما بها الموج حيث الراسيات نزول
 كما رفع الآل الهوادج بالصّحى غداة استقلّت بالخليط حمول
 أراقم تحوى ناقع السمّ مالها بما حملت دون العداة مقيل
 وقد أظنب الناس في وصف السفن و أطابوا، و قرطسوا القريض و أصابوا، و قد ذكرنا نبذة من ذلك في هذا الكتاب.
 و قال أبو بحر صفوان بن إدريس التّجيبى: حدّثنى بعض الطلبة بمراكش أنّ أبا العباس الجراوى كان في حانوت وراق بتونس، و
 هناك فتى يميل إليه، فتناول الفتى سوسنة صفراء، و أوماً بها إلى خديّه مشيراً، و قال: أين الشعراء؟ تحريكا للجراوى، فقال ارتجالاً:
 [الوافر]

علوىّ الجمال إذا تبدّى أراك جبينه بدرا أنارا
 أشار بسوسن يحكيه عرفا و يحكى لون عاشقه اصفرارا
 قال أبو بحر: ثم سألتنى أن أقول فى هذا المعنى: فقلت بديها: [المنسرح]
 أومى إلى خدّه بسوسنة صفراء صيغت من وجنتى عبده
 لم تر عيني من قبله غصنا سوسنه نابت إذا ورده
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤
 أعملت زجرى فقلت ربّما قرّب خدّ المشوق من خدّه

[من شعر أبى بكر بن مجبر و بعضهم فى الباذنجان و ابن خروف فى وصف دمشق]

فحدّثنى المذكور أنه اجتمع مع أبى بكر بن يحيى بن مجبر - رحمه الله تعالى!- قبل اجتماعه بى فى ذلك الموضع الذى اجتمع فيه
 بى بعينه، فحدّثه بالحكاية كما حدّثنى، و سأله أن يقول فى تلك الحال، فقال بديها: [المنسرح]
 بى رشاً و سنان مهما انتنى حار قضيب البان فى قدّه
 مذولى الحسن و سلطانه صارت قلوب الناس من جنده
 أودع فى و جنته زهرة كأنها تجزع من صدّه
 و قد تفاءلت على فعله أنى أرى خدى على خدّه
 فتعجبت من توارى خاطرنا على معنى هذا البيت الأخير.
 قال أبو بحر: ثم قلت فى تلك الحال: [السريع]
 أبرز من و جنته وردة أودعها سوسنة صفرا
 و إنما صورته آية ضمّنها من سوسن عشرا
 و قال بعضهم فى الباذنجان: [الطويل]
 و مستحسن عند الطعام مدحرج غذاه نمير الماء فى كلّ بستان
 تطلّع فى أقماعه فكأنه قلوب نعاج فى مخالب عقبان
 و قال ابن خروف، و يقال: إنها فى وصف دمشق: [الوافر]
 إذا رحلت عروبة عن حماها تأوّه كلّ أوّاه حلیم

إلى سبت حكي فرعون موسى يجمع كل سحر عليم
فتبصر كل أملود قويم يميمس بكل ثعبان عظيم
إذا انسابت أراقمها عليها تذكرنا بها ليل السليم
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥
و شاهدنا بها في كل حين حبالا ألقيت نحو الكليم

[من شعر أبي القاسم بن هشام و أبي الوليد الوقشي]

و قال أبو القاسم بن هشام ارتجالا في وسيم عضّ وردة ثم رمى بها، و سئل ذلك منه امتحانا: [الكامل]
و معجز الأوصاف و الوصاف في بردى جمال طرزا بالتيه
سوسان أنمله تناول وردة فغدا يمزقها أقاحى فيه
فكأننى شبهت و جنته بها فرمى بها غضبا على التشبيه
و قال أيضا فيمن عضّ كلب و جنته: [الطويل]
و أعيد وضاح المحاسن باسم إذا قامر الأسياف ناظره قمر
تعمد كلب عضّ و جنته التي هي الورد إيناعا و أبقى بها أثر
فقلت لشهب الأفق كيف صماتكم و قد أثر العواء في صفحة القمر
و قال آخر يصف شجة في خدّ وسيم: [الطويل]
عذيري من ذى صفحة يوسفية بها شجة جلت عن اللثم و اللمس
يقولون من عجب: أ تحسن وصفها فقلت: هلال لاح في شفق الشمس
و قال القاضي أبو الوليد الوقشي فيمن طرّ شاربه: [الكامل]
قد بينت فيه الطبيعة أنها لبديع أفعال المهندس باهره
عنيت بمبسمه فحطت فوقه بالمسك خطأ من محيط الدائر

[من شعر أبي الحسن بن عيسى و أبي ذر الخشني]

و قال أبو الحسن بن عيسى: [الكامل]
عابوه أسمر ناحلا ذا زرقة رمدا و ظنوا أنّ ذاك يشينه
جهلوا بأنّ السمهرى شبيهه و خضابه بدم القلوب يزينه
و قال الأستاذ أبو ذر الخشني: [السريع]
أنكر صحبى إذ رأوا طرفه ذا حمرة يشفى بها المغرم
لا تنكروا ما احمرّ من طرفه فالسيف لا ينكر فيه الدم
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦

[من شعر محمد بن أبي خالص الرندي و عبد الملك بن مفوز و ابن زيدون]

و قال أبو عبد الله محمد بن أبي خالص الرندي: [الكامل]

يا شادنا برز العذار بخده و ازداد حسنا، ليته لم يبرز
الآن أعلم حين جدّ بي الهوى كم بين مختصر و بين مطرّز
و قال أبو الحسين عبد الملك بن مفوّز المعافري: [الكامل]
و معذّر من خده و رقيه شغلان حلّا عقد كلّ عزيمة
خدّ و حبّ عيل صبرى منهما هذا بنمنمة و ذا بنميمة
و قال أبو الوليد بن زيدون فيمن أصابه جدريّ: [الخفيف]
قال لي اعتلّ من هويت، حسود قلت: أنت العليل ويحك لا هو
ما الذى قد أنكرت من بثرات ضاعفت حسنه و زانت حلاه
جسمه فى الصفاء و الرقة الماء فلا غرو أن حباب علاه
و قال الهيثم: [الكامل]
قالوا: به جرب فقلت لهم قفوا تلك الندوب مواقع الأبصار
هو روضة و القدّ غصن ناعم أ رأيتم غصنا بلا نوار

[من شعر الهيثم فيمن أصابه جرب و أبى الحسين النفزى]

و قال أبو بكر محمد بن عياض القرطبي فى مخضوبة الأنامل: [الكامل]
و علقتها فتانة أعطافها تبرى بغصن البانة المياد
من للغزاة و الغزال بحسنها فى الخدّ أو فى العين أو فى الهادى
خضبت أناملها السواد و قلّما أبصرت أقلاما بغير مداد
و قال أبو الحسين النفزى: [المجزوء الخفيف]
بدا يوسفا و شدا معبدا فللعين ما تشتهى و الأذن
كأنّ بأعلاه قمرية تغرّد من قدّه فى غصن
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧

[من شعر ابن صارة و المعتمد بن عباد]

و قال ابن صارة: [مخلع البسيط]
مقام حرّ بأرض هون عجز لعمري من المقيم
سافر فإن لم تجد كريما فمن لثيم إلى لثيم
و قال المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى: [مخلع البسيط]
مولاي، أشكو إليك داء أصبح قلبى به قريحا
سخطك قد زادنى سقاما فابعث إلى الرضا مسيحا
قال بعضهم: و قوله «مسيحا» من القوافى التى يتحدّى بها.
و كتب إلى أبيه جوابا عن تحفة: [السريع]
يا مالكا قد أصبحت كفه ساخرة بالعارض الهائل

قد أفحمتني منة مثلها يضيق القول على القائل
و إن أكن قصرت في وصفها فحسنها عن وصفها شاغلي
و كتب إلى وزيره ابن عمار: [الكامل]
لما نأيت نأى الكرى عن ناظري و رددته لما انصرفت عليه
طلب البشير بشاره يجزي بها فوهبت قلبي و اعتذرت إليه
و قال في جاريه له كان يحبها، و بينما هي تسقيه إذ لمع البرق فارتاعت: [السريع]
يروعها البرق و في كفها برق من القهوة لئاع
يا ليت شعري و هي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع
و من توارد الخواطر أن ابن عباد أنشد عبد الجليل بن وهبون البيت الأول، و أمره أن يذيله، فقال: [السريع]
و لن ترى أعجب من آنس من مثل ما يمسك يرتاع
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨
و قال المعتمد رحمه الله تعالى: [الكامل]
داوى ثلاثه بلطف ثلاثة فثنى بذاك رقيه لم يشعر
أسراره بتستر، و أواره بتصير، و خباله بتوقر
و كانت له جارية اسمها «جوهرة» و كان يحبها، فجرى بينهما عتاب، و رأى أن يكتب إليها يسترضيها، فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها،
فقال: [السريع]
لم تصف لي بعد و إلا فلم لم أر في عنوانها جوهرة
درت بأنى عاشق لاسمها فلم ترد للغيط أن تذكره
قالت: إذا أبصره ثابتا قبله، و الله لا أبصره
و قال في هذه الجارية: [السريع]
سرورنا بعدكم ناقص و العيش لا صاف و لا خالص
و السعد إن طالعنا نجمة و غبت فهو الآفل الناكص
سموك بالجوهرة مظلومة مثلك لا يدركه غائص
و قال فيها أيضا: [مجزوء الرمل]
جوهرة عذبنى منك تمادى الغضب
فزفرتي في سعد و عبرتي في صعب
يا كوكب الحسن الذى أزرى بزهر الشهب
مسكنك القلب فلا ترضى له بالوصب
و قال في جارية اسمها و داد: [الخفيف]
اشرب الكأس فى و داد و دادك و تأنس بذكرها فى انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآه و سكناه فى سواد فؤادك
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩
و قال: [الطويل]

لك الله كم أودعت قلبي من أسى و كم لك ما بين الجوانح من كلم
لحاظك طول الدهر حرب لمهجتي ألا رحمة تثنيك يوماً إلى سلمى
و قال: [مجزوء الرجز]

قلت متى ترحمنى؟ قال و لا طول الأبد
قلت فقد أياستنى من الحياة قال قد

[من شعر ابن زيدون والمعتمد بن عباد]

و أهدى أبو الوليد بن زيدون باكورة تفاح إلى المعتضد والد المعتمد، و كتب له معها:
[مجزوء الكامل]

يا من تزيتت الرياسة حين ألبس ثوبها
جاءتك جامدة المدام فخذ عليها ذوبها
و قال المعتمد و قد أمره أبوه المعتضد أن يصف مجناً فيه كواكب فضة: [المتقارب]
مجنّ حكى صانعوه السما لتقصر عنه طوال الرماح
و قد صوروا فيه شبه الثريا كواكب تقضى له بالنجاح

[و من تطير الرشيد بن المعتمد]

و قال ابن اللبائنة: كنت بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس أنسه، فورد الخبر بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ٤٨٣، فتفجع و
تلهف، و استرجع و تأسف، و ذكر قصر غرناطة، فدعونا لقصره بالدوام، و لملكه بتراخي الأيام، و أمر عند ذلك أبا بكر الإشيلي
بالغناء، فغنى:

[البسيط]

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت و طال عليها سالف الأبد
فاستحالت مسرته، و تجهمت أسرته، و أمر بالغناء من ستارته، فغنى:

[البسيط]

إن شئت أن لا ترى صبيرا لمصطبر فانظر على أي حال أصبح الظلل
فتأكد تطيره، و اشتد اربداد وجهه و تغيره، و أمر مغنية أخرى من سراريه بالغناء، فغنت: [البسيط]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠

يا لهف نفسي على مال أفزقه على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ما لست أملك من إحدى المصيبات
قال: فتلافيت الحال بأن قلت: [البسيط]

محلّ مكرمة لا هدّ مبناه و شمل مأثرة لا شئت الله
البيت كالبيت لكن زاد شرفاً أنّ الرشيد مع المعتد ركناه
ثاو على أنجم الجوزاء مقعده و راحل في سبيل السعد مسراه
حتم على الملك أن يقوى و قد وصلت بالشرق و الغرب يمناه و يسراه

بأس تو قد فاحمرّت لواحظه و نائل شبّ فاحضرت عذاراه

فلعمري لقد بسطت من نفسه، و أعادت عليه بعض أنسه، على أنى وقعت فيما وقع فيه الكل لقولى «البيت كالبيت» و أمر إثر ذلك أبا بكر بالغناء، فغنى: [الطويل]

و لما قضينا من منى كلّ حاجة و لم يبق إلّا أن ترمّ الركائب
فأيقنا أنّ هذا التطير، يعقبه التغير.

و قد كان المعتضد بن عباد- حين تصرّمت أيامه، و تدانى حمامه- استحضر مغنيا يغنيه ليجعل ما يبدأ به فألا، و كان المغنى السوسى، فأول شعر قاله: [البسيط]

نطوى المنازل علما أن ستطينا فشعشعينا بماء المزن و اسقينا
فمات بعد خمسة أيام، و كان الغناء من هذا الشعر فى خمسة أبيات.

[من شعر المعتمد]

و قال المعتمد بعد ما خلع و سجن: [الرمل]

قبح الدهر فماذا صنعا؟ كلّمنا أعطى نفيسا نزعنا
قد هوى ظلما بمن عاداته أن ينادى كلّ من يهوى: لعنا
من إذا قيل الخناصمّ و إن نطق العافون همسا سمعا
قل لمن يطمع فى نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلّا دعوة جبر الله العفاه الضيعا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١

[بين المعتمد و ابن اللبانه و من شعر ابن اللبانه]

و قال ابن اللبانه: كنت مع المعتمد بأغمات، فلما قاربت الصدر، و أزمعت السفر، صرف حيله، و استنفد ما قبله، و بعث إلّى مع شرف الدولة ولده- و هذا من بنيه أحسن الناس سمنا، و أكثر هم صمنا، تخجله اللفظة، و تجرحه اللحظة، حريص على طلب الأدب، مسارع فى اقتناء الكتب، ماثب على نسخ الدواوين، مفتوح فيها من خطّه زهر الرياحين- بعشرين مثقالا مرابطية و ثوبين، غير مخيطين، و كتب معها أبياتا منها: [الوافر]

إليك النزر من كفّ الأسير و إن تقنع تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياء و إن عذرت حالات الفقير

فامتنت من ذلك عليه، و أجبته بأبيات منها: [الوافر]

تركت هواك و هو شقيق دينى لئن شقت برودى عن غدور
و لا كنت الطليق من الرزايا إذا أصبحت أجحف بالأسير
جذيمة أنت، و الزباء خانت و ما أنا من يقصر عن قصير
تصرّف فى الندى حيل المعالى فتسمح من قليل بالكثير
و أعجب منك أنك فى ظلام و ترفع للعفاه منار نور
رويدك سوف توسعنى سرورا إذا عاد ارتقاؤك للسريير

و سوف تحلّنى رتب المعالى غداة تحلّ فى تلك القصور

تزيد على ابن مروان عطاء بها و أزيد ثمّ على جرير

تأهب أن تعود إلى طلوع فليس الخسف ملتزم البدور

و أتبعها أبياتا منها: [الخفيف]

حاش لله أن أجيح كريما يتشكى فقرا و قد سدّ فقرا

و كفانى كلامك الرطب نيلا كيف ألغى درّا و أطلب تبرا

لم تمت إنما المكارم ماتت لا سقى الله بعدك الأرض قطرا

و رأى ابن اللبابة أحد أبناء المعتمد، و هو غلام و سيم، و قد اتّخذ الصياغة صناعة، و كان

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢

يلقب أيام سلطانهم من الألقاب السلطانية بفخر الدوله، فنظر إليه و هو ينفخ الفحم بقصبه الصائغ، و قد جلس فى السوق يتعلّم

الصياغة، فقال: [البيط]

شكاتنا لك يا فخر العلا عظمت و الرزء يعظم ممّن قدره عظما

طوّقت من نائبات الدهر مخنقة ضاقت عليك و كم طوّقتنا نعما

و عاد طوقك فى دكان قارعه من بعد ما كنت فى قصر حكى إرما

صرّفت فى آله الصوّاع أنمله لم تدر إلّا الندى و السيف و القلما

يد عهدتك للتقيل تبسطها فتستقلّ الثريا أن تكون فما

يا صائغا كانت العليا تصاغ له حليا و كان عليه الحلّى منتظما

للفخ فى الصّور هول ما حكاه سوى هول رأيتك فيه تنفخ الفحما

وددت إذ نظرت عينى إليك به لو أنّ عينى تشكو قبل ذاك عمى

ما حطّك الدهر لما حطّ عن شرف و لا تحيف من أخلاقك الكرما

لح فى العلا كوكبا، إن لم تلح قمرا و قم بها ربوة، إن لم تقم علما

و اصبر فربتما أحمدت عاقبه من يلزم الصبر يحمد غبّ ما لزم

و الله لو أنصفتك الشهب لا نكسفت و لو وفى لك دمع الغيث لانسجما

أبكى حديثك حتى الدرّ حين غدا يحكيك رهطا و ألفاظا و مبتسما

[من شعر لسان الدين بن الخطيب]

و قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى: و قفت على قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات فى حركة راحة أعملتها إلى الجهات

المراكشية، باعثها لقاء الصالحين و مشاهدة الآثار سنة ٧٦١، و هو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض، و قد حفّت به سدره، و إلى جانبه

قبر اعتماد حظيته مولاة رميك، و عليهما هيئة التغرّب و معاناة الخمول من بعد الملك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها، فأنشدت

فى الحال: [البيط]

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا و يا سراج الليالى المدلهّمات

و أنت من لو تخطّى الدهر مصرعه إلى حياتى لجادت فيه أبياتى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣
 أناف قبرك في هضب يميزه فتننتحيه حفيات التحيات
 كرمت حيا و ميتا و اشتهرت علا فأنت سلطان أحياء و أموات
 ما رىء مثلك في ماض، و معتقدى أن لا يرى الدهر في حال و فى آتى
 و قد زرت أنا قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات سنة ١٠١٠، و رأيت فيه مثل ما ذكره لسان الدين رحمه الله تعالى، فسبحان من لا
 يبىء ملكه! لا إله إلا هو.
 و أخبار المعتمد كثيرة.

[ابن زيدون يمدح المعتمد بن عباد]

و قال وزيره أبو الوليد بن زيدون: [الوافر]
 متى أخف الغرام يصفه جسمى بألسنة الضنى الخرس الفصاح
 فلو أن الثياب نزعن عنى خفيت خفاء خصرك فى الوشاح
 و قال يخاطب المعتمد: [المتقارب]
 و طاعة أمرك فرض أراه من كل مفترض أو كدا
 هى الشرع أصبح دين الضمير فلو قد عصاك لقد أهدا
 و قال فيه: [الرملى]
 يا ندى يمنى أبى القاسم عم يا سنا بشر المحيا أشمس
 و ارتشف معسول ثغر أشنب لحبيب من عجاج العس
 و قال: [الكامل]
 مهما امتدحت سواك قبل فإنما مدحى إلى مدحى لك استطراد
 تغشى الميادين الفوارس حقه كىما يعلمها التزال طراد
 و قال: [الوافر]

يحيينى بريحان التجنى و يصحبنى معتقه السماح
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٤
 فها أنا قد ثملت من الأيدى إذا اتصل اغتباقى باصطباحى
 و كتب إلى أبى عامر يستدعيه: [السريع]
 أبا المعالى، نحن فى روضة فانقل إلينا القدم العالیه
 أنت الذى لو نشترى ساعة منه بدهر لم تكن غاليه
 و تذكرت هنا قول بعض المشاركة فيما أظن: [الكامل]
 لله أيام مضت مأنوسه ما كان أحسنها و أنضرها معا
 لو ساعة منها تباع شريتها و لو انها بيعت بعمرى أجمعا

[من شعر أبى القاسم أسعد يمدح المعتصم و من شعر ابن خلىصة المكفوف]

رجع - و قال أبو القاسم أسعد من قصيدة المعتصم بن صمادح: [الطويل]
 و قد ذاب كحل الليل فى دمع فجره إلى أن تبدى الليل كاللثة الشمطا
 كأنّ الدجا جيش من الزنج نافذ و قد أرسل الإصباح فى إثره القبطا
 و منها:

إذا سار سار الجود تحت لوائه فليس يحطّ المجد إلّا إذا حطّا
 و قال ابن خلصة المكفوف النحوى من قصيدة: [البيسط]
 ملك تملك حرّ المجد، لا يده نالت بظلم و لا مالت إلى البخل
 مهذب الجد ماضى الحدّ مضطلع لما تحمله العلياء من ثقل
 أغرّ، لا وعده يخشى له أبدا خلف و لا رأيه يؤتى من الزلل
 قد جاوزت نطق الجوزاء همّته به، و ما زحلت عن مرتقى زحل
 يأبى له أن يحلّ الدمّ ساحته ما صدّ من جلل أو سدّ من خلل
 و منها:

إن لم تكن بكم حالى مبدلة فما انتفاعى بعلم الحال و البدل
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٥

[من شعر ابن الحداد]

و قال ابن الحداد يمدح المعتصم بن صمادح: [الكامل]
 عج بالحمى حيث الغياض العين فعسى تعنّ لنا مهاه العين
 و استقبلن أرج النسيم فدارهم ندّية الأرجاء لا دارين
 أفق إذا ما رمت لحظ شموسه صدّتك للثقع المثار دجون
 أنى أراع لهم و بين جوانحى شوق يهون خطبهم فيهون
 أنى أراع لهم و بين جوانحى شوق يهون خطبهم فيهون
 أنى يصاب ضرابهم و طعانهم صبّ بالحاظ العيون طعين
 فكأنما بيض الصّفاح جداول و كأنما سمر الرماح غصون
 ذرنى أسر بين الأسنة و الظبا فالقلب فى تلك القباب رهين
 يا ربّه القرط المعير خفوقه قلبى، أما لحراكه تسكين
 توريد حدّك للصبا به مورد و فتور طرفك للنفوس فتون
 فإذا رمقت فوحى حبك منزل و إذا نطقت فإنه تلقين
 و منها فى وصف قصر:

رأس بظهر النون إلّا أنه سام، فقبتته بحيث النون
 هو جنة الدنيا تبوأ نزلها ملك تملكه التقى و الدين
 فكأنما الرحمن عجلها له ليرى بما قد كان ما سيكون
 و كأنّ بانيه سنّمار فما يعدوه تحسين و لا تحصين

و جزاؤه فيه نقيض جزائه شتان ما الإحياء و التحيين
و منها فى المديح:

لا تلتح الأحكام حيفا عنده فكأنها الأفعال و التنوين
و منها:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٦
و بدا هلال الأفق أحنى ناسخا عهد الصيام كأنه العرجون
فكأن بين الصوم خطط نحوه خطا خفيا بان منه التون

[من شعر ابن وهبون و ابن أبى وهب و ابن اللبانه]

و قال عبد الجليل بن وهبون: [الكامل]
زعموا الغزال حكاه قلت لهم: نعم فى صدّه عن عاشقيه و هجره
و كذا يقولون المدام كريقه يا ربّ ما علموا مذاقه ثغره
و قال أبو الحسن على بن أحمد بن أبى وهب الأندلسى: [المنسرح]
قالوا: تدانيت من وداعهم و لم نر الصبر عنك مغلوبا
فقلت: للعلم إنتى بغد أسمع لفظ الوداع مقلوبا
و هذا كقول بعض شعراء اليتيمه: [مخلع البسيط]
إذا دهاك الوداع فاصبر و لا يرو عنك البعاد
و انتظر العود عن قريب فإنّ قلب الوداع عادوا
و قال ابن اللبانه: [الخفيف]
إن تكن تبتغى القتال فدعنى عنك فى حومه القتال أحامى
خذ جنانى عن جنّه، و لسانى عن سنان، و خاطرى عن حسام

[من شعر القزاز و أبى الحسن بن الحاج]

و قال القزاز يمدح ابن صمادح، و خلط النسيب بالمديح: [المتقارب]
نفى الحبّ عن مقلتي الكرى كما قد نفى عن يدى العدم
فقد قرّ حبك فى خاطرى كما قرّ فى راحتك الكرم
و قرّ سلوك عن فكرتى كما قرّ عن عرضه كلّ ذمّ
فحبى و مفخره باقيا ن لا يذهبان بطول القدم
فأبقى لى الحبّ خال وجدّ و أبقى له الفخر خال و عم
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٧
و قال أبو الحسن بن الحاج: [الطويل]
أذوب اشتياقا يوم يحجب شخصه و إنى على ريب الزمان لقاسى
و أذعر منه هيبه و هو المنى كما يذعر المخمور أول كاس

و قال: [المنسرح]

من لى بطرف كأنتى أبدا منه بغير المدام مخمور
ما أصدق القائلين حين بدا: عاشق هذا الجمال معذور

و قال: [المتقارب]

أبا جعفر، مات فيك الجمال فأظهر خدك لبس الحداد
و قد كان ينبت نور الربيع فقد صار ينبت شوكة القتاد
فهل كنت من عبد شمس فأخشى عليك ظهور شعار السواد
و قال، ما أحكمه: [السريع]

ما عجبى من بائع دينه بلذة يبلغ فيها هواه

و إنما أعجب من خاسر يبيع أخراه بدنيا سواه

و قال من مخمسة يرثى فيها ابن صمادح، و يندب الأندلس زمن الفتنة: [الرجز]

من لى بمجبول على ظلم البشر صحف فى أحكامه حاء الحور

مرّ بنا يسحب أذيال الخفر ما أحسد الظبى له إذا نفر

و أشبه الغصن به إذا خطر

كافورة قد طرزت بمسكك جوهرة لم تمتهن بسلك

نبذت فيها و رعى و نسكى بعد لجاجى فى التقى و محكى

فاليوم قد صح رجوعى و اشتهر

نهيت قدما ناظرى عن نظر علما بما يجنى ركوب الغرر

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٨

و قلت عزج عن سبيل الخطر فاليوم قد عاين صدق الخبر

إذ بات وقفا بين دمع و سهر

سقى الحيا عهدا لنا بالطاق معترك الألباب و الأحداق

و ملتقى الأنفس و الأشواق أياس فيه الدهر عن تلاقى

و ربما ساءك دهر ثم سرّ

أحسن به مطلقا ما أغربا قابل من دجلة مرأى معجبا

إن طلعت شمس و قد هبت صبا حسبته ينشر بردا مذهبا

بمنظر فيه جلاء للبصر

يا رب أرض قد خلت قصورها و أصبحت أهله قبورها

يشغل عن زائرها مزورها لا يأمل العودة من يزورها

هيئات: ذاك الورد ممنوع الصدر

تنتحب الدنيا على ابن معن كأنها ثكلى أصيبت بابن

أكرم مأمول و لا أستثنى أثنى بنعماه و لا أثنى

و الروض لا ينكر معروف المطر

عهدي به و الملك في ذماره و النصر فيما شاء من أنصاره
يطلع بدر التّم من أزراره و تكمن العفة في إزاره
و يحضر السؤدد أيان حضر
قل للنوى جدّ بنا انطلاق ما بعدت مصر و لا العراق
إذا حدا نحوهما اشتياق و من دواء الملل الفراق
و من نأى عن وطن نال وطر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٤٨
سار بذى برد من الإصباح راكب نشوى ذات قصد صاح
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٩
مسوّدّه مبيّضه الجناح تسبح بين الماء و الرياح
بزورها عن طافح الموج زور
يقتحم الهول بها اغترارا في فتيه تحسبها سكارى
قد افترشن المسد المغارا حتى إذا شارفت المنارا
هبّ كما بلّ العليل المحتضر
يؤمّ عدل الملك الرضى الهاشمى الطاهر النقى
و المجتبى من ضضىء النبى من ولد السفّاح و المهديّ
فخر معدّ و نزار و مضر
حيث ترى العباس يستسقى به و الشرف الأعظم فى نصابه
و الأمر موقوفا على أربابه و الدين لا تختلط الدنيا به
و سيرة الصّديق تمضى و عمر

[من شعر ابن خفاجة]

و قال ابن خفاجة فى صفة قوس: [الكامل]
عوجاء تعطف ثم ترسل تارة فكأنما هى حيّة تنساب
و إذا انتحت و السهم منها خارج فهى الهلال انقضّ منه شهاب
و قال: [الكامل]
و عسى الليالى أن تمنّ بنظمننا عقدا كما كُنّا عليه و أكملنا
فلربّما نثر الجمان تعمّدا ليعاد أحسن فى النظام و أجملا
و هو من قول مهيار: [المتقارب]
عسى الله يجعلها فرقة تعود بأكمل مستجمع
و قول المتنبي: [الوافر]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٠
سألت الله يجعله رحيلا يعين على الإقامة فى ذراكا

و قال: [السريع]

اقض على خلك أو ساعد عشت بجد في العلا صاعد
فقد بكى جفنى دما سائلا حتى لقد ساعده ساعدى

و قال: [السريع]

و أسود يسبح في بركة لا تكتنم الحصباء غدرانها
كأنها في صفوها مقله زرقاء و الأسود إنسانها

و قال: [الكامل]

حيا بها و نسيمها كنسيمه فشربتها من كفه في ودّه
منساعه فكأنها من ريقه محمره فكأنها من خده

و قال: [الطويل]

لعمري لو أوضعت في منهج التقى لكان لنا في كل صالحه نهج
فما يستقيم الأمر و الملك جائر و هل يستقيم الظلّ و العود معوج

و قال يرثى صديقا من أبيات: [الطويل]

تيقن أن الله أكرم جيره فأزمع عن دار الحياه رحيلاً
فإن أفقرت منه العيون فإنه تعوض منها بالقلوب بديلاً
و لم أر أنسا قبله عاد وحشه و بردا على الأكباد عاد غليلاً
و من تلك أيام السرور قصيره به كان ليل الحزن فيه طويلاً

و قال: [المتقارب]

تفاوت نجلا أبى جعفر فمن متعال و من منسفل

فهذا يمين بها أكله و هذا شمال بها يغتسل

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥١

[من شعر ابن الرفاء و أبى محمد بن عبد البر و أبى القاسم السمسير]

و قال ابن الرفاء: [الطويل]

ولما رأيت الغرب قد غصّ بالدجا و فى الشرق من ضوء الصباح دلائل

توهمت أن الغرب بحر أخوضه و أن الذى يبدو من الشرق ساحل

و قال أبو محمد بن عبد البر الكاتب: [مجزوء الكامل]

لا تكثرن تأملا و امسك عليك عنان طرفك

فلربما أرسلته فرماك فى ميدان حتفك

و قال أبو القاسم السمسير: [مخلع البسيط]

يا آكلا كل ما اشتهاه و شاتم الطبّ و الطيب

ثمار ما قد غرست تجنى فانتظر السقم عن قريب

يجتمع الداء كل يوم أغذية السوء كالذنوب

و كان كثير الهجاء، و له كتاب سماه ب «شفاء الأمراض، فى أخذ الأعراض» و العياذ بالله تعالى
و من قوله: [مخلع البسيط]

ختمتم فهنتم و كم أهنتم زمان كنتم بلا عيون
فأنتم تحت كلّ تحت و أنتم دون كلّ دون
سكنتم يا رياح عاد و كلّ ريح إلى سكون

و قال: [مخلع البسيط]

يا مشفقا من خمول قوم ليس لهم عندنا خلاق
ذلّوا و يا طالما أذلّوا دعهم يذوقوا الذى أذاقوا

و قال: [الطويل]

وليتم فما أحستتم مذ وليتم و لا صنتم عمّن يصونكم عرضا
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٢
و كنتم سماء لا ينال منالها فصرتم لدى من لا يسائلكم أرضا
ستسترجع الأيام ما أقرضتكم ألا إنها تسترجع الدين و القرضا

[من شعر ابن شاطر السرقسطى و الحصرى و عبد الصمد]

و قال ابن شاطر السرقسطى: [الكامل]

قد كنت لا أدرى لأية علّة صار البياض لباس كلّ مصاب
حتى كسانى الدهر سحق ملاءة بيضاء من شيبى لفقد شبابى
فبذا تبين لى إصابه من رأى لبس البياض على نوى الأحباب
و هذه عادة أهل الأندلس، و لهذا قال الحصرى: [الوافر]
إذا كان البياض لباس حزن بأندلس فذاك من الصواب
ألم ترنى لبست بياض شيبى لأنى قد حزنت على الشباب
و ما أحسن قوله رحمه الله تعالى: [الكامل]

لو كنت زائرتى لراعك منظرى و رأيت بى ما يصنع التفريق
و لحال من دمعى و حرّ تنفسى بينى و بينك لجّه و حريق
و قال ابن عبد الصمد يصف فرسا: [الطويل]

على سابح فرد يفوت بأربع له أربعا منها الصبا و الشمائل
من الفتح خوار العنان كأنه مع البرق سار أو مع السيل سائل

[من شعر ابن عبد الحميد البرجى و عبادة و ابن المطرف المنجم]

و قال ابن عبد الحميد البرجى: [الوافر]

أرح متن المهند و الجواد فقد تبعا بجذك فى الجهاد
قضيت بعزمه حقّ العوالى فقضّ براحه حقّ الهوادى

و قال عبادة: [الرمل]

إنما الفتح هلال طالع لاح من أزراره في فلك
خده شمس، و ليل شعره من رأى الشمس بدت في حلك
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٣
و قال ابن المطرف المنجم: [البيسط]
يرى العواقب في أثناء فكرته كأن أفكاره بالغيب كهان
لا طرفه منه إلا تحتها عمل كالدهر لا دورة إلا لها شان

[من شعر أبي الحسن بن اليسع وبين المستنصر وابن سيد الناس و من شعر أبي العباس الرصافي]

و قال أبو الحسن بن اليسع: [مخلع البسيط]
راموا ملامي و كان إغرا و ذم حبي و كان إطرا
لو علم العاذلون ما بي لانقلبت فيه لامهم را
و قال: [المجتث]
لما قدمت و عندي شطر من الشوق وافي
قدمت قلبي قبلي فضنه حتى أوافي
و لما خاطب المستنصر ملك إفريقية ابن سيد الناس بقوله: [البيسط]
ما حال عينيك يا عين الزمان فقد أورتني حزنا من أجل عينيك
و ليس لي حيلة غير الدعاء فيا رب براوى الصحيحين حنانيك
أجابه الحافظ أبو المطرف بن عميرة المخزومي خدمه عن الحافظ أبي بكر بن سيد الناس: [البيسط]
مولاي حالهما و الله صالحه لما سألت فأعلى الله حاليك
ما كان من سفر أو كان من حضر حتى تكون الثريا دون نعليك
و قال الأديب أبو العباس الرصافي، و هو من أصحاب أبي حيان: [الكامل]
هذا هلال الحسن أطلع بيننا و جميعنا بحلى محاسنه شغف
لما رأى صل العذار بخده ماء النعيم أتى إليه ليرتشف
فكأن ذاك الخد أنكر أمره فاحمر من حنق عليه و قال قف
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٤
و قال: [الكامل]
و عشية نعمت بها أرواحنا و الخمر قد أخذت هنالك حقها
و كأنما إبريقنا لما جثا ألقى حديثا للكؤوس و قهقهها

[من شعر أبي الربيع بن سالم و أبي القاسم بن الأبرش و أبي الحسن بن حريق]

و قال الإمام الحافظ أبو الربيع بن سالم: [السريع]
كأنما إبريقنا عاشق كل عن الخطو فما أعمله

غازل من كأسى حبيبا له فكلما قبله أخجله
 و قال أبو القاسم بن الأبرش: [الوافر]
 رأيت ثلاثة تحكى ثلاثا إذا ما كنت فى التشبيه تنصف
 فتنجو النيل منفعه و حسنا و شترين مصر، و أنت يوسف
 و قال فى غريق، و قيل: إنه ممّا تمثّل به: [السريع]
 الحمد لله على كلّ حال قد أطفأ الماء سراج الجمال
 أطفأه ما كان محيا له قد يطفئ الزيت ضياء الذبال
 و هو القائل أيضا: [البسيط]

لو لم يكن لى آباء أسود بهم و لم يؤسس رجال الغرب لى شرفا
 و لم أتل عند ملك العصر منزله لكان فى سيبويه الفخر لى و كفى
 فكيف علم و مجد قد جمعتهما و كلّ مختلق فى مثل ذا وقفا
 و قال أبو الحسن بن حريق: [الرملى]
 أصبحت تدمير مصر كاسمها و أبو يوسف فيها يوسف

[من شعر أبى القاسم بن العطار الإشبلى و أبى العباس اللص و أبى إسحاق الإلبيرى]

و قال أبو القاسم بن العطار الإشبلى فى بعض الهوزنيين و قد غرق فى نهر طليبره عند فتحها: [الطويل]
 و لّمّا رأوا أن لا مقرّ لسيفه سوى هامهم لاذوا بأجرأ منهم
 فكان من النهر المعين معينهم و من ثلم السدّ الحسام المثلّم
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٥
 فيا عجباً للبحر غالته نطفه و للأسد الصرغام أرداد أرقم
 و قال أبو العباس اللص: [المتقارب]
 و قائله و الضنا شاملى علام سهرت و لم ترقد
 و قد ذاب جسمك فوق الفراش حتى خفيت على العود
 فقلت و كيف أرى نائما و رائى المتية بالمرصد
 و لّمّا قرىء عليه ديوان أبى تمام، و مرّ فيه وصف سيف، قال: أنا أشعر منه حيث أقول:
 [الوافر]

تراه فى غداة الغيم شمسا و فى الظلماء نجما أو ذبالا
 يروعههم معاينه و وهما و لو ناموا لروعههم خيالا
 و قال أبو إسحاق الإلبيرى: [الطويل]

تمر لداتى واحدا بعد واحد و أعلم أنى بعدهم غير خالد
 و أحمل موتاهم و أشهد دفنهم كأنى بعيد عنهم غير شاهد
 فها أنا فى علمى لهم و جهالتى كمستيقظ يرنو بمقلة راقد
 قيل: و قال فى البيت الثانى.

كأني عنهم غائب غير شاهد
لكان أحسن و أبدع و أبرع في الصناعة الشعرية، قاله ابن الأبار رحمه الله تعالى.

[من شعر الوزير أبي الوليد بن مسلمه و أبي الطاهر إسماعيل الخشني و أبي المعالي الإشبيلي]

و قال الوزير أبو الوليد بن مسلمة: [المتقارب]
إذا خانك الرزق في بلدة و وافاك من همها ما كثر
فمفتاح رزقك في بلدة سواها فردها تنل ما يسر
كذا المبهمات بوسط الكتاب مفتاحها أبدا في الطرر
و قال أبو الطاهر إسماعيل الخشني الجياني المعروف بابن أبي ركب، و قيل: إن أخاه الأستاذ أبا بكر هو المعروف بذلك: [مجزوء
الوافر]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٦
يقول الناس في مثل تذكر غائبا تره
فمالي لا أرى سكنى و لا أنسى تذكره
و أنشد أبو المعالي الإشبيلي الواعظ بمسجد رحبة القاضي من بلنسية أبياتا منها: [مجزوء الرمل]
أنا في الغربة أبكى ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي من بلادى بمصيب
عجبا لي و لتركى وطننا فيه حبيب

[من شعر أبي القاسم بن الأنقر السرقسطى و أبي وهب الزاهد و أبي عبد الله بن محمد بن فتح و أبي القاسم محمد بن نصير]

و قال أبو القاسم بن الأنقر السرقسطى: [الكامل]
احفظ لسانك و الجوارح كلها فلكل جارحة عليك لسان
و اخزن لسانك ما استطعت فإنه ليث هصور و الكلام سنان
و قال أبو القاسم خلف بن يحيى بن خطاب الزاهد، مما نسبه لأبي وهب الزاهد:
[الخفيف]

قد تخيرت أن أكون مخفيا ليس لي من مطيهم غير رجلى
فإذا كنت بين ركب فقالوا قدّموا للرحيل قدّمت نعلى
حيثما كنت لا أخلف رحلا من رأنى فقد رأنى و رحلى
و قال أبو عبد الله بن محمد بن فتح الأنصارى الثغرى: [البيسط]
كم من قوى قوى في قلبه مهذب الرأى عنه الرزق ينحرف
و من ضعيف ضعيف الرأى مختبل كأنه من خليج البحر يغترف
و قال أبو القاسم محمد بن نصير الكاتب: [الوافر]
مضت أعمارنا و مضت سنونا فلم تظفر بذى ثقة يدان
و جربنا الزمان فلم يقدنا سوى التخويف من أهل الزمان

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٧

[بين محمد بن ميمون و أبيه في جارية]

و حكى عن الفقيه الأديب النحوى أبى عبد الله محمد بن ميمون الحسينى، قال: كانت لى فى صبوتى جارية، و كنت مغرى بها، و كان أبى، رحمه الله، يعذلى و يعرض لى ببيعها؛ لأنها كانت تشغلنى عن الطلب و البحث عليه، فكان عدله يزيدنى إغراء بها، فرأيت ليله فى المنام كأن رجلا يأتينى فى زى أهل المشرق كل ثيابه بيض، و كان يلقي فى نفسى أنه الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهما، و كان ينشدنى: [الكامل]

تصبو إلى مئى، و مئى لا تنى تزهو ببلواك التى لا تنقضى

و فخارك القوم الألى ما منهم إلّا إمام أو وصى أو نبى

فائن عنانك للهدى عن ذى الهوى و خف الإله عليك ويحك و ارعوى

قال: فانتبهت فزعا مفكرا فيما رأيته، فسألت الجارية: هل كان لها اسم قبل أن تتسمى بالاسم الذى أعرفه؟ فقالت: لا، ثم عاودتها حتى ذكرت أنها كانت تسمى مئى، فبعثتها حينئذ، و علمت أنه وعظ و عظنى الله به عزّ و جلّ، و بشرى.

و قال ابن الحداد أول قصيدته «حديقة الحقيقة»: [الخفيف]

ذهب الناس فانفرادى أنيسى و كتابى محدثى و جليسى

صاحب قد أمنت منه ملالا و اختلالا و كل خلق بيئس

ليس فى نوعه بحى و لكن يلتقى الحى منه بالمرموس

و قال بعض أهل الجزيرة الخضراء: [السريع]

الحاظكم تجرحنا فى الحشا و لحظنا يجرحكم فى الخدود

جرح بجرح فاجعلوا ذا بدا فما الذى أوجب جرح الصدود

و قال ابن النعمة: إنهما لابن شرف، و قد ذكرناهما مع جوابهما فى غير هذا الموضع.

[من شعر المعتمد بن عباد و أبى عامر البربانى]

و قال المعتمد بن عباد: [البسيط]

اقنع بحظك فى دنياك ما كانا و عزّ نفسك إن فارقت أوطانا

فى الله من كل مفقود مضى عوض فأشعر القلب سلوانا و إيماننا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٨

أكلما سنحت ذكرى طربت لها مّجت دموعك فى خديك طوفانا

أما سمعت بسطان شبيهك قد بزّته سود خطوب الدهر سلطانا

وطّن على الكره و ارقب إثره فرجا و استغفر الله تغنم منه غفرانا

و قال أبو عامر البربانى فى الصنم الذى بشاطبة: [البسيط]

بقيّة من بقايا الروم معجبه أبدى البناء بها من علمهم حكما

لم أدر ما أضمروا فيه سوى أمم تتابعت بعد سمّوه لنا صنما

كالمبرد الفرد ما أخطا مشبهه حقّا لقد برد الأيام و الأمما

كأنه واعظ طال الوقوف به ممّا يحدث عن عاد و عن إرما
فانظر إلى حجر صلد يكلمنا أسمى و أوعظ من قسّ لمن فهما
قيل: لو قال مكان «حكما» «علما» لأحسن.

[من شعر السمسير و أبي بكر بن منخل]

و قال السمسير: [المتقارب]
إذا شئت إبقاء أحوالكا فلا تجر جاها على بالكا
و كن كالطريق لمجتازها يمرّ و أنت على حالكا
و قال: [مجزوء الرمل]
هن إذا ما نلت حظا فأخو العقل يهون
فمتى حطّك دهر فكما كنت تكون
و قال أبو الربيع بن سالم الكلاعي: أنشدني أبو محمد الشلبي، أنشدني أبو بكر بن منخل، لنفسه: [الطويل]
مضت لي ستّ بعد سبعين حجّة ولي حركات بعدها و سكون
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى يكون الذي لا بدّ أن سيكون
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٥٩

[من شعر محمد بن عبد الحق الإشبيلي و أبي محمد بن صارة و أبي محمد الطائفي]

و قال أبو محمد عبد الحق الإشبيلي: [البيسط]
لا يخذعنك عن دين الهدى نفر لم يرزقوا في التماس الحقّ تأييدا
عمى القلوب عروا عن كلّ فائدة لأنهم كفروا بالله تقليدا
و قال أبو محمد بن صارة: [الوافر]
بنو الدنيا بجهل عظموها فعزّت عندهم و هي الحقيرة
يهارش بعضهم بعضا عليها مهارشة الكلاب على العقيرة
و قال: [الكامل]
اسعد بمالك في الحياة و لا تكن تبقى عليه حذار فقر حادث
فالبخل بين الحادثين، و إنما مال البخل لحادث أو وارث
و دخل أبو محمد الطائفي القرطبي على القاضي أبي الوليد بن رشد، فأنشده ارتجالا:
[مخلع البيسط]
قد قام لي السيّد الهمام قاضي قضاء الوري الإمام
فقلت قم بي و لا تقم لي فقلما يؤكل القيام

[من شعر الحافظ ابن حزم و أبي عبد الله الجبلي الطيب و محمد بن عبد الله الحضرمي]

و قال الحافظ أبو محمد بن حزم: [الخفيف]

لا تلمنى لأن سبقت لحظّ فات إدراكه ذوى الألباب
يسبق الكلب وثبّة اللّيث فى العد و يعلو النّخال فوق اللّباب
و قال أبو عبد الله الجبلى الطيب القرطبي: [البسيط]
اشدد يديك على كلب ظفرت به و لا تدعه فإنّ الناس قد ماتوا
قلت: تذكرت بهذا قول الآخر: [البسيط]
اشدد يديك بكلب إن ظفرت به فأكثر الناس قد صاروا خنازيرا
و قال محمد بن عبد الله الحضرمى مولى بنى أمية: [مجزوء الخفيف]
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٠
عاشر الناس بالجمي ل و سدّد و قارب
و احترس من أذى الكرام و جد بالمواهب
لا يسود الجميع من لم يقم بالنوائب
و يحوط الأذى و يرعى ذمام الأقارب
لا تواصل إلّا الشرى ف الكريم المناصب
من له خير شاهد و له خير غائب
و اجتنب وصل كلّ و غ د دنىء المكاسب

[من شعر ابن الأبار و جوابه على استدعاء و من شعر التجاني]

و قال الكاتب الحافظ أبو عبد الله بن الأبار: [مجزوء الكامل]
لله نهر كالحباب ترقيشه سامى الحباب
يصف السماء صفاؤه فحصاه ليس بذى احتجاب
و كأنما هو رقّة من خالص الذهب المذاب
غارت على شطيه أب كار المنى عصر الشباب
و الظلّ يبدو فوقه كالخال فى خدّ الكعاب
لا بل أدار عليه خوف الشمس منه كالنقاب
مثل المجرّة جرّ فى ها ذيله جون السحاب
و قال: [الكامل]

شّتى محاسنه، فمن زهر على نهر تسلسل كالحباب تسلسلا
غربت به شمس الظهيرة لاتنى إحراق صفحته لهيبا مشعلا
حتى كساه الدوح من أفنانه بردا بمزن فى الأصيل مسلسلا
و كأنما لمع الظلال بمتته قطع الدماء جمدن حين تحلّلا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦١
و قال يمدح المستنصر صاحب إفريقية: [الكامل]
إنّ البشائر كلّها جمعت للدين و الدنيا و للأمم

فى نعمتين جسيمتين هما براء الإمام و بيعه الحرم
قال ابن الأبار: و أخبرنى بعض أصحابنا- يعنى أبا عمرو بن عبد الغنى- أنه أنشدهما الخليفة فسبقه إلى عجز البيت الثانى، فقلت له
على البديهة: [البسيط]

فخر لشعري على الأشعار يحفظه خليفه الله كان الله حافظه
و أشار بقوله «و بيعه الحرم» إلى ما ذكره ابن خلدون و غير واحد من المؤرخين أن أهل مكة خطبوا للمستنصر صاحب تونس بعرفه، و
كتبوا له بيعه من إنشاء ابن سبعين المتصوف، و قد ذكر ابن خلدون نص البيعة فى ترجمه المستنصر، فليراجعها من أرادها.
و قال ابن الأبار: [الوافر]

ألا اسمع فى الأمير مقال صدق و خذه عن امرئ خدم الأميرا
متى يكتب ترد و شلا أجا و إن يركب ترد عذبا نميرا
و قال مجيبا للتجاني: [الخفيف]
أيها الصاحب الصفى، مباح لك عنى فيما نصت الروايه
إن عنانى إسعاف قصدك فيها فلکم لم تزل بها ذا عنايه
و لها شرطها فحافظ عليه ثم كافىء و صيتى بالكفايه
و تحام الإخلال جهدك، لاقى ت من الله عصمه و حمايه
و نص استدعاء التجاني: [الخفيف]

إن رأى سيدى الذى حاز فى العلم م مع الحلم و العلا كل غايه
و حوى المجد عن حدود كرام كلهم فى السماح و الفضل آيه
أن أرى عنه بالإجازة أروى كل ما فيه لى تصح الروايه
من حديث و كل نظم و نثر و فنون له بهن درايه
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٢
فله فى ذاك الثواب من اللّه و منا الثناء دون نهايه
دام فى رفعة و عزّ و سعد و أمان و مكنه و حمايه
ما تولى جيش الظلام هزيما و علت للصباح فى الأفق رايه
و لابن الأبار ترجمه واسعة ذكرتها فى «أزهار الرياض، فى أخبار عياض، و ما يناسبها ممّا يحصل به للنفس ارتياح و للعقل ارتياض»
فلترجع فيه.

و أمّا التجاني أبو عبد الله هذا المذكور فقد وصفه قريبه أبو الفضل محمد حفيد عمّه فى كتابه «الحلى التيجانية، و الحلل التيجانية»؛ قال
ابن رشيد: و جمعه باسمنا حفظه الله تعالى و شكره، و قال فى موضع آخر: إنه باسمه و اسم صاحبه الوزير ابن الحكيم، رحمهما الله
تعالى! انتهى.

[من شعر أبى الحسين بن مفوز و أبى العباس بن مكنون]

و قال ابن مفوز أبو الحسين: [مجزوء الرجز]

إذا عرتك عيلة يعجز عنها ما تجد

فلتقتصد فإنه ما عال قَطّ مقتصد

و قال [أيضا]: [مجزوء الخفيف]

حاز دنياه كلها محرزا أكبر المنن

من حوى قوت يومه آمنا سالم البدن

و قال [مجزوء الرجز]

أعن أحاك في الذي يأمله و يرتجيه

فالله في عون الفتى ما كان في عون أخيه

و قال: [مجزوء الرجز]

أنفس ما أودعته قلبك ذكرى موقظه

و خير ما أتلفته مال أفاد موعظه

و قال أبو البركات القميحي: أنشدنا أبو العباس بن مكنون، و قد رأى اهتزاز الثمار و تمايلها، مرتجلا: [الرجز]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٣

حارت عقول الناس في إبداعها أ لسكرها أم شكرها تتأود

فيقول أرباب البطالة: تنشى و يقول أرباب الحقيقة: تسجد

قال الشيخ أبو البركات القميحي: قلت لابن مكنون: ما الذى يدل على أنهما فى وصف الثمار؟ فقال: وطئ أنت لهما، فقلت: [الكامل]

يا من أتى منتزها فى روضة أزهارها من حسنها تتوقد

أنظر إلى الأشجار فى دوحاتها و الريح تنسف و الطيور تعرد

فترى الغصون تمايلت أطرافها و ترى الطيور على الغصون تعربد

قال ابن رشيد: غلط المذكور فى نسبه البيتين لابن مكنون، و إنما هما لأبى زيد الفازازى من قصيدة أولها: [الكامل]

نعم الإله بشكره تتقيد فالله يشكر فى النوال و يحمد

مدت إليه أكفنا محتاجة فأنالها من جوده ما تعهد

و البيتان فى أثنائها، غير أن أولهما فى ديوانه هكذا: [الكامل]

تاهت عقول الناس فى حر كاتها

انتهى.

و رأيت فى «روضة التعريف» للسان الدين بعدهما بيتا ثالثا، و هو: [الكامل]

و إذا أردت الجمع بينهما فقل فى شكر خالقها تقوم و تقعد

[أول اتصال الحجارى بابن سعيد]

و حكى أن حافظ الأندلس إمام الأدباء، و رئيس المؤلفين، حسن الزمان، نادرة الإحسان، أبا محمد عبد الله بن إبراهيم الصنهاجى

الحجارى صاحب كتاب «المسهب» كان سبب اتصاله بعبد الملك بن سعيد جدّ على بن موسى صاحب «المغرب» أنه وفد عليه فى

قلعته، فلما وقف ببابه و هو بزى بداوة ازدراه البوابون، فقال لهم: استأذنوا لى على القائد، فضحكوا به، و قالوا له: ما كان وجد القائد

من يدخل عليه فى هذه الساعة إلا أنت؟ فمدّ يده إلى دواة فى حزامه و سحاه، و كتب بها: بباب القائد الأعلى - لا زال أهلا بأهل

الفضيلة! - رجل وفد عليه من شلب بقصيدة مطلعها: [الوافر]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٤

عليك أحالني الذّكر الجميل

فإن رأى سيدى أن يحجب من بلده شلب و من قصيده هذا فهو أعلم بما يأتى و يذر، و لا عتب على القدر، و رغب إلى أحد غلماناه، فأوصل الورقه، فلمّا وقف عليها القائد قال: من شلب، و هذا مطلع قصيدته، ما لهذا إلّا شأن، و لعله الوزير ابن عمّار، و قد نشر إلى الدنيا، عَجّلوا بالإذن له، فدخل و بقى واقفا لم يسلم و لا كلم أحدا، فاستثقله الحاضرون، و استبردوا مقصده، و نسبوه للجهل و سوء الأدب، فقال له أحدهم: ما لك لا- تسلّم على القائد، و تدخل مداخل الأدباء و الشعراء؟ فقال: حتى أخجل جميعكم قدر ما أخجلتمونى على الباب مع أقوام أنذال، و أعلم أيضا من هو الكثير الفضول من أصحاب القائد أعزّه الله تعالى فأكون أتقيه إن قدّر لى خدمته، فقال له عبد الملك: أ تأخذنا بما فعل السفهاء منّا؟ قال: لا، و الله، بل أغفر لك ذنوب الدهر أجمع، و إنما هى أسباب نقصدها لنحاور بها مثلك أعزك الله تعالى، و يتمكن التأنيس، و ينحلّ قيد الهيبة، ثم أنشد من رأسه و لا ورقه فى يده: [الوافر]

عليك أحالني الذّكر الجميل فصّح العزم و اقتصر الرحيل
و ودّعت الحبيب بغير صبر و لم أسمع لما قال العذول
و أسلبت الظلام علىّ سترا و نجم الأفق ناظره كليل
و لم أشك الهجير و قد دعانى إلى أرجائك الظلّ الظليل
و هى طويلة، فأكرمه و قرّبه، رحم الله تعالى الجميع!.

[من شعر ابن مرزقان فى وصف شمعة]

و أهديت للمعتمد بن عباد شمعة، فقال فى وصفها أبو القاسم بن مرزقان الإشبيلي و هو ممّن قتل فى فتنه المعتمد: [السريع]
مدينة فى شمعة صوّرت قامت حماة فوق أسوارها
و ما رأينا قبلها روضة تتقد النار بنوارها
تصير الليل نهارا إذا ما أقبلت ترفل فى نارها
كأنها بعض الأيادى التى تحت الدّجى تسرى بأنوارها
من ملك معتمد ماجد بلاده أوطان زوّارها
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٥

[من شعر ابن الأصبغ الإشبيلي و ابن حجاج النافقى]

و قال أبو الأصبغ بن رشيد الإشبيلي: لَمّا هطلت بإشبيلية سحابة بقطر أحمر يوم السبت الثالث عشر من صفر عام أربعة و ستين و خمسمائة: [المتقارب]
لقد آن للناس أن يقلعوا و يمشوا على السنن الأقوم
متى عهد الغيث يا غافلا كلون العقيق أو العندم
أظنّ الغمام فى جَوْها بكت رحمة للورى بالدم
و فيها أيضا: [الخفيف]
لا تكن دائم الكآبة ممّا قد غدا فى الثرى نميرا نجيعا
لطم البرق صفحة المزن حتى سال منه على الرياض نجيعا
و له فى دولاب: [البسيط]

و منجنون إذا دارت سمعت لها صوتا أجشّ و ظلّ الماء ينهمل
كأنّ أقداسها ركب إذا سمعوا منها حداء بكوا للبين و ارتحلوا
و له فيمن اسمه مالك: [الوافر]

غزاليّ الجفون شقيق بدر تبسم عن عقيق فوق درّ
له نفحات مسك أيّ مسك له نفثات سحر أيّ سحر
شكوت له الهوى و الهجر منه فقال: عليك باسمي سوف تدرى
تعلمت القساوة من سمّي و أحرقت القلوب بنار هجرى
و قال أبو بكر بن حجاج الغافقي في موسى و سيم إشبيلية الذي كان شعراؤها يتغزلون فيه: [الكامل]
من مبلغ موسى المليح رسالة بعثت له من كافر عشاقه
ما كان خلق راغبا عن دينه لو لم تكن توراته من ساقه
و قال: [السريع]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٦
إنّ الزويليّ فتى شاعر قد أعجب العالم من نظمه
و أنت يا موسى قد اخترته و اختار موسى قبل من قومه
و قال: [البسيط]

على معاذ قرون لو يعاينها فرعون ما قال أوقد لي على الطين
قالت له عرسه إذ جاء ينكحها ما ذا دهيت به من كل عّين
هلا استعنت بميمون، فقال لها إني استعنت على نفسي بميمون

[من شعر أبي وهب النحوي و محمد بن يحيى القلفاط و أحمد بن المبارك الحبيبي]

و قال أبو وهب عبد الرؤوف النحوي، و كان له حظّ في قرص الشعر، و كان سناطا: [السريع]
ليس لمن ليست له لحيه بأس إذا حصّلتته، ليا
و صاحب اللحيه مستقبح يشبه في طلعتة التيسا
إن هبّت الريح تلاهت به و ماست الريح به ميسا
و قال أبو عبد الله محمد بن يحيى القلفاط: [مجزوء الرمل]
يا غزالا عنّ لي فاب ترّ قلبي ثم ولى
أنت منى بفؤادى يا منى نفسى أولى
و قال أحمد بن المبارك الحبيبي في الناصر قبل أن يلي عهد جدّه: [السريع]

يا عابد الرحمن فقت الورى بهذه العليا و هذا الكرم
ما جعل الله الندى في امرئ إلّا و قد جنبه كلّ ذم

و استدعى الوزير عبيد الله بن إدريس أبا بكر أحمد بن عثمان المرواني، و نادمه ليلة، فلما قرب الصباح قال له: أين ما يحدث عنك
من حسن الشعر؟ فهذا موضعه، فقال: الدواة و القرطاس، فأمر له بإحضارهما، فجعل يفكر و يكتب إلى أن أنشده هذه الأبيات:

[البسيط]

بتنا ندامى صفاء يستحث لنا في جامد الفضة التبر الذي سبكا
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٧
 كل مصيخ إلى ما قال صاحبه و لا يبالي أصدقا قال أم إفا
 موقرون خفاف عند شربهم و لا يخافون فيما أحدثوا دركا
 لا تعد من إذا أبصرتهم فرحا أما ترى الصبح من بشر بهم ضحكا

[من شعر أبي محمد المرواني و إبراهيم بن إدريس العلوي]

و قال أبو محمد عبد الله المرواني في الخيري: [الطويل]
 عجبت من الخيري يكتم عرفه نهارا و يسرى بالظلام فيعرب
 فتجنى عروس الطيب منه يد الدجي و يبدو له وجه الصباح فيحجب
 و قال إبراهيم بن إدريس العلوي: [الكامل]
 للبين في تعذيب نفسى مذهب و لنائبات الدهر عندي مطلب
 أما ديون الحادثات فإنها تأتي لوقت صادق لا يكذب
 و خرج الأديب النحوي هذيل الإشبيلي يوما من مجلسه، فنظر إلى سائل عارى الجسم، و هو يردد و يصيح: الجوع و البرد، فأخذ بيده،
 و نقله إلى موضع بلغته الشمس، و قال له:
 صح الجوع، فقد كفاك الله مؤونة البرد.

و مرّ المعتمد بن عباد ليلة مع وزيره ابن عمار بباب شيخ كثير التندير و التهكم، يمزج ذلك بانحراف يضحك الثكلي، فقال لابن
 عمار: تعال نضرب على هذا الشيخ الساقط بابه حتى نضحك معه، فضربا عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقال ابن عباد: إنسان يرغب أن
 تقد له هذه الفتيلة، فقال: و الله لو ضرب ابن عباد بابي في هذا الوقت ما فتحته له، فقال: فإني ابن عباد، فقال: مصفوع ألف صفعة،
 فضحك ابن عباد حتى سقط إلى الأرض، و قال لوزيره:
 امض بنا قبل أن يتعدى الصفح من القول إلى الفعل، فهذا شيخ ركيك، و لما كان من غد تلك الليلة و جه له ألف درهم، و قال
 لموصلها: قل له هذه حقّ الألف صفعة التي كانت البارحة.

[البازي الأشهب أحد اللصوص في عصر المعتمد بن عباد]

و كان في زمان المعتمد السارق المشهور بالبازي الأشهب، و كان له في السرقة كل
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٨
 غريبة، و كان مسلطا على أهل البادية، و بلغ من سرقة أنه سرق و هو مصلوب؛ لأن ابن عباد أمر بصلبه على ممر أهل البادية لينظروا
 إليه، فبينما هو على خشبته على تلك الحال إذ جاءت إليه زوجته و بناته؛ و جعلن يبكين حوله و يقلن: لمن تتركنا نضيع بعدك؟ و إذا
 بدوى على بغل و تحته حمل ثياب و أسباب، فصاح عليه: يا سيدي، انظر في أى حالة أنا، ولى عندك حاجة فيها فائدة لى و لك؟
 قال: و ما هي؟ قال: انظر إلى تلك البئر، لما أرهقنى الشرط رميت فيها مائة دينار، فعسى تحتال في إخراجها، و هذه زوجتى و بناتى
 يمسكن بغلك خلال ما تخرجها، فعمد البدوى إلى حبل و دلى نفسه فى البئر بعد ما اتفق معه على أن يأخذ النصف منها، فلما حصل
 أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل، و بقى حائرا يصيح، و أخذت ما كان على البغل مع بناتها، و فرّت به، و كان ذلك فى شدة
 حرّ، و ما سبب الله شخصا يغيبه إلما و قد غيب عن العين و خلصن، فتحيّل ذلك الشخص مع غيره على إخراجها، و سألوه عن حاله،

فقال: هذا الفاعل الصانع احتال عليّ حتى مضت زوجته وبناته بثيابي وأسبابي، ورفعت هذه القصة إلى ابن عباد، فتعجب منها، وأمر بإحضار البازي الأشهب، وقال له: كيف فعلت هذا مع أنك في قبضة الهلكة؟ فقال له: يا سيدي، لو علمت قدر لذتي في السرقة خليت ملكك و اشتغلت بها، فلعنه وضحك منه، ثم قال له: إن سرحتك وأحسنك إليك وأجريت عليك رزقا يقلك أتوب من هذه الصنعة الذميمة؟ فقال: يا مولاي، كيف لا أقبل التوبة وهي [التي] تخلصني من القتل؟ فعاهده وقدمه على رجال أنجاد، وصار من جملة حراس أحواز المدينة.

[منصور بن عبد المؤمن و شيخ مغفل بناء]

و يحكى أن منصور بن عبد المؤمن لما أراد بناء صومعة إشبيلية العظيمة القدر أحضر لها العرفاء والصيغ من مظانهم، فعرف بشيخ مغفل صحيح المذهب عارف بالبناء الذي يجهله كثير من الصناع، فأحضر، فقال له المنصور: كم تقدّر أن ينفق على هذه الصومعة؟ فضحك وقال:

يا سيدي، البنيان إنما هو مثل ذكر ليس يقدر حتى يقوم، فكاد المنصور يفتضح من الضحك، و صرف وجهه عنه، و بقيت حكايته يضحك عليها زمانا.

[أحمد المقريني المعروف بالكساد]

و كان أحمد المقريني المعروف بالكساد شاعرا و شاحا زجالا إشبيليا، و قال في موسى الذي تغزل فيه ابن سهل: [الخفيف]

ما لموسى قد خرّ لله لما فاض نور أغشاه ضوء سناه

و أنا قد صعقت من نور موسى لا أطيق الوقوف حين أراه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٦٩

و قال في رثائه: [السريع]

فرّ إلى الجنة حوريها و ارتفع الحسن من الأرض

و أصبح العشاق في ماتم بعضهم يبكي على بعض

و قال فيه: [الرملي]

هتف الناعي بشجو الأبد إذ نعى موسى بن عبد الصمد

ما عليهم ويحهم لو دفنوا في فؤادي قطعة من كبدي

و لابن سهل الإسرائيلي في موسى هذا ما هو مثبت في ديوانه.

[محمد بن أحمد القرموطي المرسي]

و كان محمد بن أحمد بن أبي بكر القرموطي المرسي من أعراف أهل الأندلس بالعلوم القديمة: المنطق و الهندسة و العدد و الموسيقى و الطب، فيلسوفا طيبا ماهرا، آية الله في المعرفة بالأندلس، يقرئ الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها و في تعلمها، و لما تغلب طاغية الروم على مرسية عرف له حقه، فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين و النصراري و اليهود، و قال له يوما و قد أدنى منزلته: لو تنصرت و حصلت الكمال كان لك عندى كذا، و كنت كذا، فأجابه بما أقنعه؛ و لما خرج من عنده قال لأصحابه: أنا عمري كله أعبد إلهها واحدا، و قد عجزت عما يجب له، فكيف حالي لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك مني؟ انتهى.

[من شعر أبي عبد الله محمد بن سالم القيسي و أبي عبد الله الإشبيلي الخطيب و أبي زيد العثماني]

و قال أبو عبد الله محمد بن سالم القيسي الغرناطى يخاطب السلطان على ألسنة أصحابه الأطباء الذين ببابه موزيا بأسمائهم: [الخفيف]
 قد جمعنا ببابكم سطر علم لبلوغ المنى و نيل الإراده
 و من اسمائنا لكم حسن فال سالم ثم غالب و سعاده
 و قال أبو عبد الله بن عمر الإشبيلي الخطيب: [المتقارب]
 و كلّ إلى طبعه عائد و إن صدّه المنع عن قصده
 كذا الماء من بعد إسخانه يعود سريعا إلى برده
 و قال الكاتب أبو زيد عبد الرحمن العثماني لما تغير حاله بإشبيلية: [الخفيف]
 لا تسلى عن حالتى فهى هذى مثل حالى لا كنت يا من يرانى
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٠
 ملنى الأهل و الأخلاء لما أن جفانى بعد الوصال زمانى
 فاعتبر بى و لا يغرّك دهر ليس منه ذو غبطة فى أمان
 و دخل الأديب النحوى أبو عمران موسى الطريانى إلى بعض الأكابر يوم نيروز، و عادتهم أن يصنعوا فى مثل هذا اليوم مدائن من
 العجين لها صور مستحسنه، فنظر إلى مدينه أعجبه، فقال له صاحب المجلس: صفها و خذها، فقال: [مجزوء الرجز]
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٧٠
 مدينه مسوره تحار فيها السحره
 لم تنبها إلا يدا عذراء أو مخدره
 بدت عروسا تجتلى من درمك مزعفره
 و ما لها مفاتح إلا البنان العشره
 و رفع إلى القائد أبى السرور صاحب ديوان سبتة قصيده يعرض له فيها بزاد، و قد عزم على سفر، فأنعم عليه بذلك، ثم أتبعه بتحف
 ممّا يكون فى الديوان ممّا يجعله الإفرنج إلى سبتة، و لم يكن التمس منه ذلك و لا خطر بخاطره، فكتب إليه: [المتقارب]
 أيا سابقا بالذى لم يجلب بفكرى و لم بيد لى فى خطاب
 و يا غائضا فى بحار الندى و يا فاتحا للعلا كلّ باب
 كذا فلتكن نعم الأكرمين تفاجى بنيل المنى و الطلاب
 و لم أر أعظم من نعمه أتننى و لم تك لى فى حساب
 سأشكرها شكر عهد الرضى و أذكرها ذكر غضّ الشباب

[من صاحب دانية إلى المنصور بن أبى عامر الأصغر]

و كتب مجاهد صاحب دانية إلى المنصور بن أبى عامر الأصغر ملك بلنسية رقعة، و لم يضمّنْها غير بيت الحطيئة: [البيسط]
 دع المكارم لا ترحل لبغيتها و اقعّد فإنك أنت الطاعم الكاسى
 فأخرجت المنصور، و أقامته و أقعّده، فأحضر وزيره أبى عامر بن التاكرنى فكتب عنه:
 [الكامل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧١

شتمت موالها عبيد نزار شيم العبيد شتيمه الأحرار
فسلا المنصور عمّا كان فيه.

و من شعر المذكور في المنصور: [الكامل]

انهض على اسمك إنه منصور و ارم العدو فإنه مقهور
و لو اغتنت عن النهوض كفتهم فبذكر بأسك كلهم مذعور
و لتبلغن مدى مرادك فيهم و يكون يوم في العدا مشهور

و قال له المنصور يوما: و الله لقد سئمت من هؤلاء الجند، و وددت الراحة منهم، فقال له: يصبر مولاي فلا بدّ من السامة، فهي على حالتين: إما ممّن يكون أمرك إليه، أو يكون أمره إليك، و الحمد لله الذي رفعه عن الحالة الأولى!.

[من شعر بعض الهجائين في رندة و حبلص الشاعر الرندي]

و قال بعض الهجائين في رندة: [مجزوء الكامل]

قبحا لرندة مثل ما قبحت مطالعة الذنوب

بلد عليه وحشة ما إن يفارقه القطوب

ما حلها أحد فين وى بعد بين أن يؤوب

لم آتتها عند الضحى إلّا و خيل لى الغروب

أفق أغمّ و ساحة تملا القلوب من الكروب

و قال حبلص الشاعر الرندي: [الكامل]

لا تفرحن بولاية سوغتها فالثور يعلف أشهرها كى يذبحا

و له فى بعض رؤساء الملتمين من قصيدة: [الطويل]

و لو لم تكن كالبدر نورا و رفعة لما كنت غزا بالسحاب ملثما

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٢

و ما ذاك إلّا للنوال علامة كذا القطر مهما لثم الأفق انهمى

فاهترّ الملتّم و أعجبه، و أمر له بكسوة و ذهب.

[من شعر أبى بكر الرندي و أرقم أحد بنى ذى النون و أبى محمد بن سفيان]

و لمّا ذكر أبو بكر بن عمر الرندي فى مجلس بعض الرؤساء بحضرة أبى الحسن على بن سعيد، و أطنب فى الثناء عليه، و عمر

المجلس بشكره، و أخبر بذلك، أطرق ساعة ثم قال: [الكامل]

لا تذكرن ما غاب عنى من ثنا أطنبت فيه فليس ذلك يجهل

فمتى حضرت بمجلس و جرى به خبرى فإنّ الذكر فيه يجمل

و لمّا نفى بنو ذى النون أرقم من نسبهم لأنه كان ابن أمه مهينة، واقعها أبو الظافر فى حال سكره، و لم يكن فيهم من ينظم و يتولّع

بالأدب غيره، و ولى ابنه يحيى، و كان أحسد من طلعت عليه الشمس، فمال على أرقم بالأذية حتى فرّ عن مملكته، و قال مرتجلا:

[الطويل]

لئن طبتم نفسا بتركى دياركم فنفسى عنكم بالفرق أطيّب

إذا لم يكن لى جانب فى دياركم فما العذر لى أن لا يكون تجنّب
 زعمتم بأنى لست فرعا لأصلكم فهلاً علمتم أننى عنه أرغب
 وحسبى إذا ما البيض لم ترع نسبة بأنى إلى سيفى ورمحى أنسب
 و إن مدّت الأيام عمرى للعلا يشرق ذكرى فى الورى و يغزّب
 و كتب الوزير الكاتب أبو محمد بن سفيان إلى أبى أمية بن عصام قاضى القضاة بشرق الأندلس «عين زمانه»، فوعدت نقطة على العين،
 فتوهّمها، و ظنّ أنه أبهمها و اعتقدها، و عددها و انتقدها، فقال: [الكامل]

لا تلزمنى ما جنته يراعه طمست بريقتها عيون ثناء
 حقدت علىّ لزامها فتحوّلت أفعى تمجّ سماها بسحاء
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٣
 غدر الزمان و أهله عرف و لم أسمع بغدر يراعه و إباء

[من شعر ابن أرفع رأسه و أحمد عبد المؤمن الطليطلى و أبى محمد عبد الله بن العسال]

و شرب المأمون بن ذى النون مع أبى بكر محمد بن أرفع رأسه الطليطلى و حفل من رؤساء ندمائه كان لبون و ابن سفيان و ابن الفرج
 و ابن المثنى، فجرت مذاكرة فى ملوك الطوائف فى ذلك العصر، فقال كل واحد ما عنده بحسب غرضه، فقال ابن أرفع رأسه
 ارتجالاً: [البسيط]

دعوا الملوك و أبناء الملوك فمن أضحى على البحر لم يشق إلى نهر
 ما فى البسيطة كالمأمون ذو كرم فانظر لتصديق ما أسمعت من خبر
 يا واحدا ما على عليه مختلف مذجاد كفك لم نحتج إلى المطر
 و قد طلعت لنا شمساً فما نظرت عين إلى كوكب يهدى و لا قمر
 و قد بدوت لنا وسطى ملوكهم فلم نعرّج على شذر و لا درر
 فداخل ابن ذى النون من الارتياح ما ليس عليه مزيد، و أمر له بإحسان جزيل عتيد.

و قال أبو أحمد عبد المؤمن الطليطلى: [الطويل]

رأيت حياى قادحا فى معيشتى و يصعب تركى للحياء و يقبح
 و قد فسد الناس الذين عهدتهم و قد طال تأنيبى لمن ليس يصلح
 و له: [الطويل]

و لما غدوا بالغيد فوق جمالهم طفقت أنادى لا أطيع بهم همسا
 عسى عيس من أهوى تجود بوقفه و لو كوقوف العين لاحظت الشمساً
 و قال الزاهد أبو محمد عبد الله بن العسال: [الطويل]

أعندكم علم بأنى متيم و إلّا فما بال المدامع تسجم
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٤
 و ما بال عيني لا تغمض ساعة كأنى فى رعى الدرارى منجم

[من شعر الوزير أبى جعفر الوقشى]

و كان الوزير أبو جعفر الوقشي تياها معجبا بنفسه، و من شعره فى عرضه الفاسد: [الطويل]
 إذا لم أعظم قدر نفسى و إننى عليم بما حازته من عظم القدر
 فغيرى معذور إذا لم يبرنى و لا يكبر الإنسان شىء سوى الكبر
 و له: [الطويل]

يرومون بى غير المكان الذى له خلقت، و بعضى منكر ذاك من بعضى
 فقولوا لبدر الأفق يترك سماءه و يحتلّ من أجل التواضع فى الأرض
 و قال: [الطويل]

تكبر و إن كنت الصغير تظاهرا و باعد أخا صدق متى ما اشتهى قربا
 و كن تابعا للهزّ فى حفظ أمره أ لست تراه عندما يبصر الكلبا

و قال له بعض ندماء ملكه يوما صاحب جيان، ابن همشك: يا أبا جعفر، أنت جملة محاسن، و فيك الأدوات العلية التى هى أهل لكلّ
 فضيلة، غير أنك قد قدحت فى ذلك كله بكثرة عجبك، و إذا مشيت على الأرض تشمئزّ منها، فقال له: كيف لا أشمئزّ من شىء
 أشارك معك فى الوطء عليه؟ فضحك جميع من حضر من جوابه. و له، جوابا لمن اعتذر عن غيبته عنه: [الطويل]

لك الفضل فى أن لا تلوح لناظرى و تبعد عنى ما بقيت مدى الدهر
 فوجهك فى لحظى كما صور الردى و لفظك فى سمعى حديث عن الفقر
 و من حاز ما قد حزته من ركاكة و غاب فلا يحتج إلى كلفة العذر
 و له أيضا: [الخفيف]

لك يومان لم تلح لعيانى و لك الفضل فى زيادة شهر
 و لك الفضل فى زيادة عام و لك الفضل فى زيادة دهر
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٥
 و لك الفضل أن تغيب عنى ذلك الوجه ما تطاول عمرى

و له، و قد شرب على صهريج فاختنق الأسد الذى يرمى بالماء، فنفخ فيه رجل أبخر، فجرى: [السريع]
 ليث بديع الشكل لا مثل له صيغ من الماء له سلسله
 يقذف بالماء على حينه كأنه عاف الذى قبله

[من شعر أبى الوليد هشام الوقشى و أبى الحسين بن أبى جعفر الوزير]

صو قال أبو الوليد هشام الوقشى: [السريع]

برّح بى أن علوم الورى اثنان ما إن فيهما من مزيد
 حقيقة يعجز تحصيلها و باطل تحصيله لا يفيد

و قال: [السريع]

و فاره يركبه فاره مرّ بنا فى يده صعده

سنانها مشتمل لحظه و قدّها منتحل قدّه

يزحف للنساک فى جحفل من حسنه و هو يرى وحده

قلت لنفسى حين مدّت لها ال آمال و الآمال ممتدّه

لا تطمعى فيه كما الشَّعر لا يطمع فى تسويده خدّه

و قال: [الخفيف]

عجبا للمدام ما ذا استعارت من سجايا معذبي و صفاته

طيب أنفاسه و طعم ثنياه و سكر العقول من لحظاته

و سنا وجهه و توريد خدى ه و لطف الديباج من بشراته

و التداوى منها بها كالتداوى برضا من هويت من سطواته

و هى من بعد ذا على حرام مثل تحريمه جنى رشفاته

و من تأليفه «نكت الكامل للمبرد»، و قد مرّ ذكر هذا الرجل الفرد قبل هذا.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٦

و حضر يوما مجلس ابن ذى النون، فقدّم نوع من الحلوى يعرف بأذان القاضى، فتهافت جماعة من خواصّه عليها يقصدون التندير فيه،

و جعلوا يكثرون من أكلها، و كان فيما قدم من الفاكهة طبق فيه نوع يسمى عيون البقر، فقال له المأمون: يا قاضى، أرى هؤلاء يأكلون

أذنيك، فقال: و أنا أيضا أكل عيونهم، و كشف عن الطبق، و جعل يأكل منه، و كان هذا من الاتفاق الغريب.

و كان الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبى جعفر الوقشى آية الله فى الظرف، و كيف لا و والده الوزير أبو جعفر، و صهره أبو الحسين

بن جبير، و شيخه فى علم الموسيقى و التهذيب و الظرف و التدريب أبو الحسين بن الحسن بن الحاسب شيخ هذه الطريقة، و قد رزق

أبو الحسن المذكور فيها ذوقا مع صوت بديع، أشهى من الكأس للخليج، قال أبو عمران بن سعيد: ما سمعته إلّا تذكّرت قول الرصافى:

[الكامل]

و مطارح ممّا تجسّ بنانه لحنا أفاض عليه ماء وقاره

يثنى الحمام فلا يروح لو كره طربا و رزق بنيه فى منقاره

و كنت أرتاح إلى لقائه، ارتياح العليل إلى شفائه، و لم أزل أقرع بابا بابا، و أخرج للاتصال حجابا حجابا، حتى هجمت مع شفيع لا

يرد عليه، و جلست بين يديه، فحينئذ حرّضه حسبه على الإكرام، و تلقى بما أوسع من البشر و السلام، و قال: ليعلم سيدى أنى كنت

أودّ الناس فى لقائه، و أحبّهم فى إخوانه، و الحمد لله الذى جعلنى أنشد: [الطويل]

و ليس الذى يتّبع الوبل رائدا كمن جاءه فى داره رائد الوبل

ثم قام إلى خزانه، فأخرج منها عود غناء يطرب دون أن تحبس أوتاره، و تلحن أشعاره، و اندفع يغنى دون أن أسأله ذلك، و لا

أتجشّم تكليفه الدخول فى تلك المسالك: [الطويل]

و ما زلت أرجو فى الزمان لقاء كم فقد يسّر الرحمن ما كنت أرتجى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٧

فذكر كم ما زلت أتلهه دائبا إذا ذكروا ما بين سلمى و منعج

فلما فرغ من استهلاله و عمله قبلت رأسه، و قلت له: لا أدرى علام أشكرك قبل، هل على تعجيلك بما لم تدعنى أسألك فى شأنه أم

على ما تفردت بإحسانه؟ فما هذا الصوت؟

قال: هذا نشيد خسروانى من تلحينى، قال: و أنشدنى لنفسه: [الطويل]

حننت إلى صوت النوايع سحرة فأضحى فوادى لا يقرّ و لا يهدا

و فاضت دموعى مثل فيض دموعها أطارحها تلك الصباة و الوجدا

و زاد غرامى حين أكثر عاذلى فقلت له أقصر و لا تقدح الرّندا

أهيم بهم في كلّ واد صبايةً و أزداد مع طول البعاد لهم وداً
و أنشدني لنفسه: [الكامل]
و لقد مررت على المنازل بعدهم أبكى و أسأل عنهم و أنوح
و أقول إن سألوا بحالي في النوى ما حال جسم فارقته الروح
قال: و كتب إليّ: [البسيط]
يا حسرة ما قضت من لذّة و طرا أين الزمان الذي يرجي به الخلف
أبكيك ملء جفوني ثم يرجعني إلى التصبر أنى سوف أنصرف
قال أبو عمران: و كنت في أيام الفتنة إذا ركنت إلى الآمال، هونت على نفسي ما ألقى من أهوالها بقولي مع خاطري قوله:
أين الزمان الذي يرجي به الخلف
انتهى.

[من شعر أبي الحسين علي بن الحمارة]

و كان أبو الحسين علي بن الحمارة مّمن برع في الألحان و علمها، و هو من أهل غرناطة، و اشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الشعراء،
فيقطع العود بيده، ثم يصنع منه عودا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٨
للغناء، و ينظم الشعر و يلحنه، و يغني به، فيطرب سامعيه، و من شعره قوله: [الطويل]
إذا ظنّ و كرا مقلتي طائر الكرى رأى هدبها فارتاع خوف الحبائل
و قال بعض العلماء في حقّه: إنه آخر فلاسفة الأندلس، قال: و أعجب ما وقع له في الشعر أنه دخل سلا و قد فرغ ابن عشرة من بناء
قصره، و الشعراء تنشده في ذلك، فارتجل ابن الحمارة هذين البيتين، و أنشدهما بعدهم: [البسيط]
يا واحد الناس قد شيّدت واحدة فحلّ فيها محلّ الشمس في الحمل
فما كدارك في الدنيا لذى أمل و لا كدارك في الأخرى لذى عمل
و سيأتي ذكر هذين البيتين.

[تبحر اهل الاندلس في العلوم]

و كان أهل الأندلس في غاية الاستحضار للمسائل العلمية على البديهة، قال ابن مسدى:
أملى علينا ابن المناصف النحوى بدانية على قول سيوييه «هذا باب ما الكلم من العريية» عشرين كراسا، بسط القول فيها في مائة و
ثلاثين وجها، انتهى..
و هذا و أشباهه يكفيك في تبحر أهل الأندلس في العلم، و ربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مطالعة و
نظر، فلم يحتاج إلى ذلك، و يذكر من فكره ما لا يحتاج معه إلى زيادة.

[بين ابن حبيش و اليفرنى في استعمال ما ذا]

و من الحكايات في مثل ذلك أنّ الأديب البليغ الحافظ أبا بكر بن حبيش لما قال في تخميسه المشهور: [الطويل]
بماذا على كلّ من الحقّ أوجبت

اعترض عليه أبو زكريا اليفرنى بما نصّه: استعمل الخمس «ما ذا» فى البيت كثيرا و خيرا، و المعروف من كلام العرب استعمالها استفهاما، فجاوبه بقوله: أما استعمالها استفهاما كما قال فكثير، لا يحتاج إلى شاهد، و أما استعمالها فى ألسن فصحاء العرب للكثرة فكثير لا يحتاج إلى شاهد لو وصل بحث، و استعمل مكث، فلم يعترض على ولى، و لا تشكك فى جلى: [الوافر]

و ليس يصحّ فى الأفهام شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

قال الله تعالى فى سورة يونس قُلِ أَنْظَرُوا مَا ذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَ النَّذُرُ

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٧٩

عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) [سورة يونس، الآية: ١٠١] و وقع فى صحيح البخارى فى رثاء المقتولين من المشركين يوم بدر: [الوافر]

و ما ذا بالقلب قلب بدر من الفتیان و الشرب الكرام

و ما ذا بالقلب قلب بدر من الشيزى تكلل بالسنام

و فى السير فى رثاء المذكورين أيضا: [مجزوء الكامل]

ما ذا ببدر فالعقن قل من مرابضة ججاج

و هذا الشعر لأمية بن أبى الصلت الثقفى، و وقع فى الأغانى للوليد بن يزيد يرثى نديما له يعرف بابن الطويل: [مجزوء الكامل]

لله قبر ضمنت فيه عظام ابن الطويل

ما ذا تضمن إذ ثوى فيه من رأى الأصيل

و الخبر طويل، و أجلى من هذا و أعلى، و أحقّ بكل تقديم و أولى، و لكن الواو لا تفيد رتبة، و لا تتضمن نسبة، قول رسول الله صلى

الله عليه و سلم «ما ذا أنزل الليلة من الفتن» و هو فى الصحاح، و وقع فى الحماسة، و قد أجمعوا على الاستشهاد بكل ما فيها: [الكامل]

ما ذا أجال و ثيرة بن سماك من دمع باكية عليه و باك

و فى الحماسة، أيضا و أظنها لأبى دهب: [البسيط]

ما ذا رزنا غداة الحلّ من زمع عند التفرق من خيم و من كرم

و وقع فى نوادر القالى لكعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار: [الطويل]

هوت أمّه ما يبعث الصبح غاديا و ما ذا يردّ الليل حين يؤوب

و وقع فى شعر الخنساء ترثى أباها صخرا: [الطويل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٠

ألا ثكلت أمّ الذين غدوا به إلى القبر ما ذا يحملون إلى القبر

و ما ذا يوارى القبر تحت ترابه من الجود فى بؤسى الحوادث و الدهر

و لجريرو هو فى الحماسة: [الكامل]

إن الذين غدوا بلبك غادروا و شلا بعينك لا يزال معينا

غئضن من عبراتهن و قلن لى ما ذا لقيت من الهوى و لقينا

و فى الحماسة أيضا: [البسيط]

ما ذا من العبد بين البخل و الجود

و وقع فى الحماسة أيضا، و هو لامرأة: [الطويل]

هوت أمهم ما ذا بهم يوم صرّعوا بجيشان من أسباب مجد تصرّما

أرادت ما ذا تصرّم لهم يوم صرّعوا بجيشان من أسباب مجد تصرّما.

و مما يستظهر به قول أبي الطيب المتنبى: [البسيط]
 ما ذا لقيت من الدنيا و أعجبها أنى بما أنا باك منه محسود
 و قوله أيضا: [المتقارب]
 و ما ذا بمصر من المضحكات و لكنه ضحك كالبكا
 و من ملح المتأخرين: كان بمرسى أبو جعفر المذكور فى المطمح، و كان يلقب بالبقيرة، فقال فيه بعض أهل عصره: [البسيط]
 قالوا البقيرة يهجوننا فقلت لهم ما ذا دهيت به حتى من البقر
 هذا و ليس بشور بل هو ابنته و أين منزلة الأنتى من الذكر
 و أنشد صاحب الزهر، و لا أذكر قائله: [البسيط]
 ما ذا لقيت من المستعربين و من قياس قولهم هذا الذى ابتدعوا
 إن قلت قافية بكرا يكون لها معنى يخالف ما قالوا و ما وضعوا
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨١
 قالوا لحن و هذا الحرف منتصب و ذاك خفض و هذا ليس يرتفع
 و ضربوا بين عبد الله و اجتهدوا و بين زيد فطال الضرب و الوجع
 و قال صاحب الزهر: أنشد أبو حاتم و لم يسم قائله: [الطويل]
 ألا فى سبيل الله ما ذا تضمنت بطون الثرى و استودع البلد القفر
 هذا ما حضر بفضل الله من الاستشهاد على أن «ما ذا» تستعمل بمعنى الخبر و التكثير، و و الله الذى لا إله غيره ما طالعت عليه كتابا، و
 لا فتحت فيه بابا، و إنما هو ثماله من حوض التذكار، و صبابة مما علق به شرك الأفكار، و أثر مما سدك به السمع، أيام خلوة الذرع،
 و عقدت عليه الحبي، فى عصر الصبا، و رحم الله من تصفح، و تلمح فتسمع، و صحح ما وقع إليه من الاعتلال، و أصلح ما وضع لديه
 من الاختلال، فخير الناس، من أخذ بالبر و الإيناس، فبصر من جهله، و اذكر عن وهله، و إنما المؤمنون إخوة، و تحابهم فى الله رفعة و
 حظوة، و لهم فى السلف الكريم، و محافظتهم على الود القديم، أسوة كريمة و قدوة.
 قال ابن الطراح: انظر إلى تحصيل هذا الإمام الرئيس، و الأسمى النفيس، و استحضاره كلام الأدباء، و سير النقاد و البلغاء، و مساجلته
 مع فرسان المعانى، و وصفه تلك المغانى، و قد كان حامل لواء الأدب، و فائق أبناء جنسه فى مراقب الطلب، و هذه الكلمة - أعنى «ما
 ذا» - جرت بسببها مناظرة بين الأستاذ أبى الحسين بن أبى الربيع النحوى المشهور و بين مالك بن المرحل بسببه، حتى ألف مالك
 كتاب «الرمى بالحصا، و الضرب بالعصا» و فيه هنات لا ينبغى لعاقل أن يذكرها، و لا لذى طى فى البيان أن ينشرها، و فى ذلك قال
 الأستاذ أبو الحسين رحمه الله تعالى: [المديد]
 كان ما ذا ليتها عدم جنبوها قربها ندم
 ليتنى يا مال لم أرها إنها كالنار تضطرم
 و قوله «يا مال» ترخيم مالك.
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٢
 و حكى الأستاذ ابن غازى أنهم اختلفوا: هل يقال: كان ما ذا أم لا؟ و قال: إن الأستاذ ابن أبى الربيع تطفل على مالك بن المرحل فى
 الشعر، كما أن ابن المرحل تطفل عليه فى النحو، قال: و من نظم مالك بن المرحل فى هذه القضية: [مجزوء الرمل]
 عاب قوم كان ما ذا ليت شعرى كان ما ذا
 إن يكن ذلك جهلا منهم فكان ما ذا

و من نظم ابن حبيش المذكور قوله: [الوافر]
إذا ما شئت أن تحيا هنيئا رفيع القدر ذا نفس كريمه
فلا تشفع إلى رجل كبير ولا تشهد ولا تحضر وليمه
وله أيضا: [البسيط]

لأعملن إلى لقياكم قدمي ولو تجشمت بين الطين والماء
لأن بيل ثيابي الغيث أهون بي من أن تحرق نار الشوق أحشائي

[أبو زكريا يحيى بن علي بن سلطان اليفرنى]

و أبو زكريا المعترض على ابن حبيش هو الفقيه النحوى الأديب أبو زكريا يحيى بن علي بن سلطان اليفرنى، و له سنة ٦٤١، و برع فى العريية، و كان يلقب فى المشرق «جبل النحو» و كان عند نفسه مجتهدا، و كان لا يجيز نكاح الكتابيات، خلافا للإمام مالك، و هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، و يتمسك بقوله تعالى: وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً [سورة الروم، الآية: ٢١] و كان يرى أن الطلاق لا يكون إلا مرتين: مرة للاستبراء، و مرة للانفصال، و لا يقول بالثلاث، و هو خلاف الإجماع، و كان يقول فى نهيه عليه الصلاة و السلام عن أكل ذى ناب من السباع: أى مأكول كل ذى ناب، و تبقى هى على الإباحة، و يدل عليه قوله تعالى: وَ مَا أَكَلَ السَّيِّئُ [سورة المائدة، الآية: ٣] و كان يقول فى قوله تعالى إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ [سورة طه، الآية: ٦٣] إن الهاء اسم إن، و ذان لساحران جملة خبر لأن، و لا تحتاج لربط لأنها تفسيرية، و المعنى عنده و أسروا النجوى قالوا إنها أى نجوانا هذان لساحران، أى قولنا هذان لساحران، تشبيها للناس عن اتباعهما، و خط المصحف يرده، لكن فى المصحف أشياء كتبت على غير المصطلح، مثل (مال هذا) و (لا أوضعا) و (لا أذبحة). قال ابن الطراح: و رأيت هذا المعنى لغيره، و أظنه ابن النحاس، و توفى اليفرنى المذكور سنة ٧٠٠، و من شعره: [البسيط]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٣
ما ذا على الغصن الميأس لو عطفنا على صباية صب حالف الدنفا
يا رحمة لفؤادى من معدّبه كم ذا يحمله أن يحمل الكلفا
و يا رعى الله دهرا ظلّ يجمعنا فى ظلّ عيش صفا من طيبه و ضفا
مودّة بيننا فى الحبّ كاملة و نحن لا نعرف الإعراض و الصّلفا

[من شعر صالح بن شريف الرندى]

رجع إلى كلام الأندلسيين.
قال صالح بن شريف الرندى رحمه الله تعالى فى سكين الكتابة: [الخفيف]
أنا صمصامة الكتابة، مالى من شبيه فى المرهفات الرّفاق
فكأنى فى الحسن يوم وصال و كأنى فى القطع يوم فراق
و قال فى المقصّ: [الوافر]
و مصطحبين ما اتّهما بعشق و إن و صفا بضمّ و اعتناق
لعمر أيبك ما اجتمعا لشيء سوى معنى القطيعة و الفراق
و لبعض الأندلسيين: [الكامل]

هَلَّا اقتدى ذو خَلَّةٍ بفعالنا فيكون واصل خَلَّه كوصالنا
 مهما يجيء أحد ليقطع بيننا نقطعه ثم نعد لأحسن حالنا
 و جرح بعض الكتاب يده بالمقص، فأشده أحد جلسائه، و غالب ظني أنه أندلسي:
 [الوافر]

عداوة «لا» لكفك من قديم فلا تعجب لمقراض لئيم
 لئن أدماك فهو للا شبيه و قد يعدو اللئيم على الكريم

[نقد جماعة كتاب المقرب لابن عصفور]

و لَمَّا أَلَّفَ ابن عصفور كتابه «المقرب» فى النحو انتقده جماعة من أهل قطره الأندلسيين و غيرهم، منهم ابن الصائغ و ابن هشام و
 الجزيرى، و له عليه «المنهج المعرب، فى الرد على المقرب» و فيه تخليط كثير و تعسف: [الطويل]
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٤
 و فى تعب من يحسد الشمس نورها و يأمل أن يأتى لها بضرب
 و منهم ابن الحاج و أبو الحسن حازم القرطاجنى الخزرجى، و سمّاه «شدّ الزيار، على جحفة الحمار» و ابن مؤمن القابسى، و بهاء
 الدين بن النحاس.

و من شعر حازم الأندلسى المذكور قوله: [الكامل]
 لم تدر إذ سألتك ما أسلاكها أبكت أسى أم قطعت أسلاكها
 و عارضه التجانى بقوله: [الكامل]
 يا ساحر الألباح يا فتاكها فتيا جواز الصّد من أفتاكها
 و من حكاياتهم فى المجون و ما يجرى مجراه أنّ الوزير أبا بكر بن الملح كان له ابن شاب، فاسترسل مع الأدب إلى أن خرج من
 القول إلى الفعل، و أتى بأشياء لا تليق بمثله، فكتب إليه أبوه: [مخلع البسيط]

يا سخنة العين يا بتيا ليتك ما كنت لى بتيا
 أبكيت عيني، أطلت حزنى أمت صيتى و كان حيا
 حططت قدرى و كان أعلى فى كلّ حال من الثريا
 أما كفاك الزنى ارتكابا و شرب مشموله الحميا
 حتى ضربت الدفوف جهرا و قلت للشّر: جىء إلينا
 فاليوم أبكيك ملء عيني لو كان يغنى البكاء شيا
 فأجابه ابنه بقوله: [مخلع البسيط]

يا لائم الصب فى التصابى ما عنك يغنى البكاء شيا
 أوجفت خيل العتاب نحوى و قبل و بُتتها إلينا
 و قلت عمر الهنا قصير فاربح من العيش ما تهينا
 قد كنت أرجو المتاب ممّا فتنت جهلا به و غيا
 لو لا ثلاث شيوخ سوء أنت و إبليس و الحميا
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٥

[من شعر أبي جعفر بن صفوان المالقي و محمد بن إدريس الأصبهوني]

و قال أبو جعفر بن صفوان المالقي رحمه الله تعالى: [الرجز]
سألته الإتيان نحوى مقبلا فقال سل نحوى كى تحصلا
قرأت باب الجمع من شوقى له و هو بالاشتغال عنى قد سلا
للاستغائة ابتدأت تاليا و هو لأفعال التعدى قد تلا
و كلما طلبت منه فى الهوى عطفا غدا يطلب منى بدلا
و إن أرم محض إضافة له أعمل فى قطعى عنه الحيلة
فى ألف الوصل ظللت باحثا و هو بباب الفصل قد تكفلا
فلست موصولا و ليس عائدا و ليس حالى عن أسى منتقلا
فيا منى نفسى و من لفهمه دانت فهوم الأذكاء النبلا
و جدى موقوف عليك لا أرى عنك مدى الدهر له تنقلا
فما الذى يمنع من تسكينه و الوقف بالتسكين حكم أعمالا
و الحب مرفوع إليك مفرد فلم ترى لضمى مستثقلا
فالضّم للرفع غدا علامة فى مفرد مثلى فأوضح مشكلا
لا زلت للهيام عنى رافعا للوصل ناصبا، لقولى معملا
للشوق مسكنا، لهجرى صارفا بالقرب من حال البعاد مبدلا
تجزم أمرا فى الأمانى ماضيا و تبتدى بما تشا مستقبلا
و قال محمد بن إدريس القضاعى الأصبهوني: [الطويل]
علاه رياض أو رقت بمحامد تنور بالجدوى و تثمر بالأمل
تسح عليها من نداء غمامة تروى ترى المعروف بالعلّ و التهل
و هل هو إلّا الشمس نفسا و رفعة فيقرب بالجدوى و يبعد بالأمل
تعم أياديه البرية كلّها فدان و قاص جود كفيه قد شمل

[من شعر محمد التطيلي الهذلي]

و قال محمد التطيلي الهذلي، من أعيان غرناطة: [الكامل]
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٦
جارت على لواحظ الآرام لما رمت أجفانها بسهام
حكمت على بحكمها فتبسّمت فغدا الضنى منها لدى أحكام
يا قاتلى عمدا بسيف لحاظه اغمد ظباه قبل وقع حمام
كم رمت وصلك و الصدود يصدنى و يقلّ عزمى أمره و مرامى
إنى عدت النفس يوم فراقكم و البين أسلمها إلى الإعدام
كيف المقام و أصل جسمى ناحل إنّ النفوس مقيمة الأجسام

صعب العلاج فليس يمكن برؤها حتى يعود الشهر مثل العام
 قد كنت أفرح بالسلوّ فيها أنا قد زمّ قلبى فى الهوى بزمام
 مالت به نحو الفتون بدائع من شادن يحكيه بدر تمام
 فقوام أنفسنا بلذّة و صلّه و جميع أعيننا عليه سوام
 قد أبرزت خداه روض محاسن عظمت على الأفكار والأوهام
 تندی بماء شبيبه و تنعم فيروق منها الزهر فى الأكمام
 فكأنما و جناتها فى لونها ورد الرياض ربا بصوب غمام
 و كأنما درع الدّجى من شعره قد حاكه منها يد الإظلام
 و كأنما ريق حواه ثغره مسك أذيف بعنبر و مدام
 و كأنما سيف نضت ألحاظه سيف الأمير ممهد الإسلام
 ذاك الأمير محمد بن محمد ناهيك من ملك أغرّ همام
 ملك علا فوق السماك علاؤه و سما فأدرك غايه الإعظام
 لو كان يعتقل السّها لأتاه فى شكل الفتاة ملثما بلثام
 أو كان يرضى بالمجرّة أجردا لجرت إلى الإسراج و الإلجام
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٧
 فالسعد يفعل للأمانى قولها و النصر يخدمه مع الأيام
 و اليوم يعيشه و يحسد ليله فيه كعشق سيوفه للهام
 نامت عيون الشّرك خوف سنانه لولاه ما اكتحلت بطيف منام
 بهر الأنام بسيفه و بياسه فسبى و أنعم أيما إنعام
 فالمعتقى يجنى جزيل هباته و المعتدى يصلى الردى بحسام
 مهما استعنت به فضيغم معرك و إذا استجرت به فطود شمام
 أجرى مياه العدل بعد جفوفها و أزال نار الظلم بعد ضرام
 كم من كتيبه جحفل قد هدّها فى معرك بمهتد صمصام
 المقتفى الجرد المذاكى عدّه للكّر فى الأعداء و الإقدام
 من كلّ مبيضّ كأنّ أديمه لون الصباح أتى عقيب ظلام
 و منها:

يا خير من ركب الجياد و قادها تحت اللواء، و عمدة الأقوام
 لا زلتم و السعد يخدم أمركم فى غبطة موصوله بدوام
 حتى يصير الأمن فى أرجائنا عبدا يقوم لنا على الأقدام
 و الله ينصركم و يعلى مجدكم ما سخّ إثر الصحو ماء غمام

[بين يحيى السرقسطى و ابن حسداى الوزير]

و كان يحيى السرقسطى أديبا، فرجع إلى الجزارين، فأمر الحاجب ابن هود أبا الفضل بن حسداى أن يوبّخه على ذلك، فكتب إليه:

[الوافر]

تركت الشعر من عدم الإصابه و ملت إلى التجاره و القصابه

فأجابه يحيى: [الوافر]

تعيب على مألوف القصابه و من لم يدر قدر الشىء عابه

و لو أحكمت منها بعض فنّ لما استبدلت منها بالحجابه

و لو تدرى بها كلفى و وجدى علمت علام أحتمل الصّبابه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٨

و إنك لو طلعت علىّ يوما و حولى من بنى كلب عصابه

لهالكك ما رأيت و قلت هذا هزبر صير الأوضام غابه

و كم شهدت لنا كلب و هزّ بأنّ المجد قد حزنا لبابه

فتكنا فى بنى العزرى فتكا أقرّ الذعر فيهم و المهابه

و لم نقلع عن الثورى حتى مزجنا بالدم القانى لعابه

و من يغتتر منهم بامتناع فإنّ إلى صوارمنا إياه

و يبرز واحد منّا لألف فيغلبهم و ذاك من الغرابه

و منها:

أبا الفضل الوزير أجب ندائى و فضلك ضامن عنك الإجابه

و إصغاء إلى شكوى شكور أطلت على صناعته عتابه

و حقّك ما تركت الشعر حتى رأيت البخل قد أوصى صحابه

و حتى زرت مشتاقا خليلى فأبدى لى التحيل و الكآبه

و ظنّ زيارتى لطلاب شىء فنافرنى و غلظ لى حجابه

[من شعر أبى الحسن بن الحداد و أبى زكريا بن مطروح]

و قال الأديب أبو الحسن بن الحداد: [مجزوء الكامل]

قالت و أبدت صفحهُ كالشمس من تحت القناع

بعث الدفاتر و هى آخر ما يباع من المتاع

فأجبتها و يدى على كبدى و همّت بانصداع

لا تعجبنى ممّا رأى ت فنحن فى زمن الصّبياع

و قال الأديب أبو زكريا بن مطروح من أهل مدينة باغهُ، و قد عزل وال فنزل المطر على إثره، و هو من أحسن شعر قاله، و كان الوالى

غير مرضى: [السريع]

و ربّ وال سرّنا عزله فبعضنا هنّاه البعض

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٨٩

و قد واصلتنا السّحب من بعده و لذّ فى أجفاننا الغمض

لو لم يكن من نجس شخصه ما طهّرت من بعده الأرض

[من شعر أبي البركات بن الحاج البليقي و أبي الحجاج يوسف الفهرى]

و قال القاضى أبو البركات بن الحاج البليقى، رحمه الله تعالى: [الكامل]
 و عشيتُه حكمت على من تاب من أهل الخلاعة أن يعود لما مضى
 جمعت لنا شمل السرور بفتية جمعوا اللذات شملا مرتضى
 ما عاقنى عن أن أسير بسيرهم إلّا الرياء مع الخطابة و القضا
 و قال أبو الحجاج يوسف الفهرى من أهل دانية: [الطويل]
 أبى الله إلّا أن أفارق منزلا يطالعنى وجه المنى فيه سافرا
 كأنّ على الأيام أن لا أحله رويدا فما أغشاه إلّا مسافرا

[من شعر بعضهم فى الرثاء و أبى جعفر البغيل]

و قال بعضهم فى الرثاء: [الخفيف]
 عبرات تفيض حزنا و شكلا و شجون تعمّ بعضا و كلاً
 ليس إلّا صباية أضرمتها حسرة تبعث الأسى ليس إلّا
 و لأبى جعفر البغيل أحد شعراء المريّة و كتابها: [الطويل]
 عزاء على هذا المصاب الذى دهى و شتت شمل الأنس من بعد ما انتهى
 بفرع علاء فى منابت سؤدد تسامى رقتا فى المعالى إلى السها
 أصبت به من بعد ما تمّ مجده و قد شمخت منه الشماريح و ازدهى
 فأية شمس فيه للمجد كوّرت و أىّ بناء للمكارم قد و هى
 فصبرا عليه لا رزئت بمثله فمثلك من يعزى إلى الحلم و النهى

[من شعر أبى جعفر أحمد بن أيوب المالى و أبى جعفر أحمد بن طلحة]

و قال الكاتب الماهر أبو جعفر أحمد بن أيوب اللمائى المالى: [الكامل]
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٠
 طلعت طلائع للربيع فأطلعت فى الروض وردا قبل حين أوانه
 حيا أمير المؤمنين مبشرا و مؤملا للنيل من إحسانه
 ضنت سحائبه عليه بمائه فأتاه يستسقيه ماء بنانه
 دامت لنا أيامه موصولة بالعزّ و التمكين فى سلطانه
 و قال أبو جعفر أحمد بن طلحة من جزيرة شقر: [السريع]
 يا هل ترى أظرف من يومنا قلّد جيد الأفق طوق العقيق
 و أنطق الورق بعيدانها مطربة كلّ قضيب و ريق
 و الشمس لا تشرب خمر الندى فى الروض إلّا بكؤوس الشقيق

[من شعر أبى جعفر الغسانى و أبى بكر يحيى بن بقى و المتوكل بن الأفضس]

و قال أبو جعفر الغساني من أهل وادي آش، و استوطن غرناطة، ثم مات بالمريّة، فكتب على حمالة قراب لموطي الإمام مالك، بعد ما استنجد قرائح أدباء عصره، و استصرخ اختراعاتهم لنصره، فكلّهم قصر عن غرضه، و أداء مفترضه، فقال هو: [المجتث]

يا طالبا لكمال حفظي أتمّ كمالك

فما تقلّدت مثلي إذ لم تقلّد كمالك

و قال أبو بكر يحيى بن بقى: [الكامل]

خذها على وجه الربيع المخصب لم يقض حقّ الروض من لم يشرب

هممي سماء علا و همي ماردا فارجمه من تلك الكؤوس بكوكب

و هو رحمه الله تعالى صاحب الأبيات المشهورة: [الكامل]

زحزحته عن أضلع تشتاقه كيلا ينام على فراش خافق

و انتقد عليه بعض اللطفاء فقال: إنه كان جافى الطبع حيث قال «زحزحته» و لو قال * باعدت عنه أضلعا تشتاقه * لكان أحسن.

و قال السلطان المتوكل بن الأقطس صاحب بطليوس يستدعي: [مخلع البسيط]

انهض أبا طالب إلينا و اسقط سقوط الندى علينا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩١

فنحن عقد بغير وسطى ما لم تكن حاضرا لدينا

و تذكّرت هنا قول بعض المشاركة فيما أظنّ و الله تعالى أعلم: [مجزوء الرمل]

نحن في مجلس أنس ما به غير محبّك

فتصدّق بحضور و اجمع الوقت بقربك

و خف الآن عتابي مثل خوفي عند عتبك

[من شعر أبي عبد الله بن خلسة و ابن اللبانة و أبي علي بن اليماني]

رجع - و قال أبو عبد الله بن خلسة الضرير: [الطويل]

و لو جاد بالدنيا و ثنى بمثلها لظنّ من استصغارها أنه ضنا

و لا عيب في إنعامه غير أنه إذا منّ لم يتبع مواهبه منّا

و له أيضا [الكامل]

يا مالكا حسدت عليه زمانه أمم خلت من قبله و قرون

ما لي أرى الآمال بيضا و ضحا و وجوه آمالي حوالك جون

أنا آمن فرق وراج آيس و رو صد و مسرّح مسجون

لا تعدني أنواء سيبك لا عداك النصر و التأييد و التمكين

و قال ابن اللبانة: [الطويل]

كرمت فلا بحر حكاك و لا حيا و فتّ فلا عجم شأتك و لا عرب

و أوليتني منك الجميل فواله عسى السحّ من نعماك يتبعه السكب

و قال أبو علي بن اليماني: [الخفيف]

أبنات الهديل أسعدن أوعدن قليل العزاء بالإسعاد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٢
 بيد أنى لا أرتضى ما فعلت ن فأطوقكن فى الأبياد

[من شعر أبى جعفر بن الدودى و ابن أبى الخصال و غالب الحجام و ابن عائشة]

و قال أبو جعفر أحمد بن الدودى من كلمة: [الكامل]

فغدت غوادى الحى عنك عجائباً و أسلن الحاظ الرباب ربابا

و قال ابن أبى الخصال فى مליحة لها أربع جوار قبيحات: [المنسرح]

و ليلة طولها على سنة بات بها الجفن نادبا و سنه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٩٢

بأربع بينهنّ واحدة كسيئات و بينها حسنه

و قال غالب بن تمام الملقب بالحجام: [الوافر]

صغار الناس أكثرهم قبيحا و ليس لهم بصالحه نهوض

ألم تر فى سباع الطير نسرا يسالمننا، و يؤذينا البعوض

و قال ابن عائشة: [مخلع البسيط]

و روضة قد علت سماء تطلع أزهارها نجوما

هفا نسيم الصبا عليها فخلتها أرسلت رجوما

كأنما الجوّ غار لَمَا بدت فأغرى بها النسيما

و له يصف فرسا، و هو من بدائعه: [الكامل]

قصرت له تسع و طالت أربع و زكت ثلاث منها للمتأمل

و كأنما سال الظلام بمتنه و بدا الصباح بوجهه المتهلّل

و كأنّ راكبه على ظهر الصبا من سرعة أو فوق ظهر الشمال

و قال: [المنسرح]

تربه مسك، و جوّ عنبرة و غيم ندى، و طش ما ورد

كأنما جائل الحباب به يلعب فى جانبه بالنرد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٣

و تروى هذه الأبيات لغيره.

و قال: [الطويل]

هم سلبونى حسن صبرى إذ بانوا بأقمار أطواق مطالعها بان

لئن غادرونى باللوى إنّ مهجتي مسايرة أظعانهم حيثما كانوا

[من شعر أبى محمد بن سفيان و ابن الزرقانى و يحيى السرقسطى]

و قال أبو محمد بن سفيان، و هو من أبداع التخلص: [الطويل]

فقلت و جفنى قد تداعت شؤونه و حرّ ضلوعى مقعد و مقيم

لئن دهمت دهم الخطوب و آلمت فإنّ أبا عيسى أغرّ كريم
و قال ابن الزقاق: [الكامل]

بأبى و غير أبى أغنّ مهفهف مهضوم ما تحت الوشاح خميصه
لبس الفؤاد و مزّفته جفونه فأتى كيوسف حين قدّ قميصه
و قال: [الطويل]

سلام على أيامكم ما بكى الحيا و سقيا لذاك العهد ما ابتسم الزّهر
كأن لم نبت فى ظلّ أمن تضمنا عن الليلة الظّلماء أرويه خضر
و لم نغتيق تلك الأحاديث قهوة و كم مجلس طيب الحديث به خمر
ألا فى ضمان الله فى كلّ ساعة يجدد لى فيها بشوقى له ذكر
يذكرنيه البرق جذلان باسما و يذكرنى إسفار غرّته الفجر
و ما رقّ زهر الروض إلّا تمثّلت لناظر عيني منه آدابه الزّهر
و قال يحيى السرقسطى: [الخفيف]

هاتها عسجديّة كوثرية بنت كرم رحيقة عطريه
كلّما شفّها النحول تقوّت فاعجبوا من ضعيفه و قويه
ربّ خمّاره سرّيت إليها و الدّجا فى ثيابه الزّنجيه
و منها:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٤
كم عقار بدّلته بعقار و ثياب صبغتها خمرية
إنّ خير البيوع ما كان نقدا ليس ما كان آجلا بنسيه
و له: [السريع]

نسبتم الظلم لعمالكم و نتمم عن قبح أعمالكم
و الله لو حكمتم ساعة ما خطر العدل على بالكم

[من شعر الرصافى و أبى بكر الصابونى و ابن أبى ركب]

و قال الرصافى فى الدولاب: [مخلع البسيط]
و فى حين يكاد شجوا يختلس الأنفس اختلاسا
إذا غدا للرياض جارا قال لها المحل: لا مساسا
يبتسم الروض حين يبكى بأدمع ما رأين باسا
من كلّ جفن يسّل سيفا صار له عقده رياسا
و خرج أبو بكر الصابونى لنزهة بوادى إشبيلية، و كان يهوى فتى اسمه على، فقال:
[مجزوء الوافر]

أبا حسن أبا حسن بعادك قد نفى و سنى
و ما أنسى تذّكره فهل أنسى فيذكرنى

و يشبه هذا قول أبي الطاهر بن أبي ركب: [مجزوء الوافر]

يقول الناس في مثل تذكر غائبا تره

فمالي لا أرى سكنى و ما أنسى تذكره

و كتب بعض الأدباء إلى ابن حزم الأندلسي بقوله: [المتقارب]

سألت الوزير الفقيه الأجل سؤال مدلّ على من سأل

فقلت أيا خير مسترشد و يا خير من عن إمام نقل

أ يحرم أن نالني قبله غزال ترشف فيه الغزل

و عانقني و الدجا خاضب فبتنا ضجيعين حتى نصل

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٥

و جئتك أسأل مسترشدا فيئن فديت لمن قد سأل

فأجابه ابن حزم بقوله: [المتقارب]

إذا كان ما قلته صادقا و كنت تحزيت جهد المقل

و كان ضجيعك طاوى الحشا أعار المهاء احمرار المقل

قريب الرضا و له غنة تميت الهموم و تحيي الجذل

ففي أخذ أشهب عن مالك عن ابن شهاب عن الغير قل

بترك الخلاف على جمعهم على أن ذلك حلّ و بل

[من شعر الرصافي و بين ابن حزم و بعض الأدباء]

و نظر الرصافي يوما إلى صبي يبكي، و يأخذ من ريقه و يبلّ عينيه، كى يحكى أثر البكاء، فارتجل الرصافي: [الطويل]

عذيري من جدلان يبدى كآبه و أضلعه ممّا يحاوله صفر

أميلد مئاس إذا قاده الصبا إلى ملح الإدلال أيده السحر

يبلّ مآقى مقلتيه بريقه ليحكى البكا عمدا كما ابتسم الزهر

أ يوهم أنّ الدمع بلّ جفونه و هل عصرت يوما من النرجس الخمر

و كان المذكور- أعنى الرصافي- يميل في شببته لبعض فتیان الطلبة، و أجمع الطلبة على أن يصنعوا نزهة بالوادي الكبير بمالقة،

فركبوا زورقا للمسير إلى الوادي، فوافق أن اجتمع في الزورق شمل الرصافي بمحبوبه، ثم إنّ الريح الغربية عصفت و هاج البحر، و نزل

المطر، فنزلوا من الزورق، و افترق شمل الرصافي من محبوبه، فارتجل في ذلك، و يقال: إنها من أول شعره: [مخلع البسيط]

غار بي الغرب إذ رأني مجتمع الشمل بالحبيب

فأرسل الماء عن فراق و أرسل الريح عن رقيب

فلما سمع ذلك أستاذة استنبهه، و قال له: إنك ستكون شاعر زمانك.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٦

[من شعر أبي بكر بن مجبر]

و حكى أن أبا بكر بن مجبر قال في ابن لأبي الحسن بن القطان بمحضر والده: [مجزوء الرجز]

جاء وفي يساره قوس وفي اليمنى قدح

كأنه شمس بدت و حولها قوس قرح

يا لائمي في حبه ما كل من لام نصح

فقال ابن عياش الكاتب: هذه أبيات لأندلسي استوطن المشرق في تركيا، فأقسم أبو بكر أنه لم يسمع شيئاً من ذلك، وإنما ارتجلها، و قيل: إنها لأبي الفتح محمد بن عبيد الله من أهل بغداد، و أولها:

جدّ بقلبي و مزح

فالله أعلم بحقيقته الأمر.

و خرج أبو بكر بن طاهر و أبو ذر الخشني و القاضي أبو حفص بن عمر، و هو إذ ذاك و سيم، فأثرت الشمس في وجهه، فقال أبو ذر: [المديد]

و سمتك الشمس يا قمر سمه في القلب تنشر

فقال الآخر: [المديد]

علمت قدر الذي صنعت فأنت صفراء تعتذر

و قال أبو الحسين البلنسي الصوفي: كان لي صديق أمي لا يقرأ و لا يكتب، فعلق فتى، و كان خرج لنزهة فأثرت الشمس في وجهه، فأعجبه ذلك، و أنشد: [البيسط]

رأيت أحمد لما جاء من سفر و الشمس قد أثرت في وجهه أثرا

فانظر لما أثرت الشمس في قمر و الشمس لا ينبغي أن تدرك القمر

[بين الوقشي و ابن سراج]

و اجتمع أبو الوليد الوقشي و أبو مروان عبد الملك بن سراج القرطبي، و كانا فريدي عصرهما حفظا و تقدّما، فتعارفا، و تسالما، ثم بادر أبو الوليد بالسؤال، و قال: كيف يكون قول القائل: [الطويل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٧

و لو أنّ ما بي بالحصا فعل الحصا و بالريح لم يسمع لهّن هبوب

ما ينبغي أن يكون مكان «فعل الحصا» فقال أبو مروان «فلق الحصا» فقال: و همت، إنما يكون «قلق الحصا» ليكون مطابقاً لقوله «لم يسمع لهّن هبوب» يريد أنّ ما به يحرك في شأنه السكون و يسكن ما شأنه الحركة، فقال أبو مروان: ما يريد الشاعر بقوله: [الطويل]

و راعه في ظلّ غصن منوطه بلؤلؤة نيطت بمنقار طائر

و كان اجتماعهما في مسجد، فأقيمت الصلاة إثر فراغ ابن سراج من إنشاد البيت، فلما انقضت الصلاة قال له الوقشي: ألغز الشاعر باسم أحمد، فالراعه الحاء، و الغصن كناية عن الألف، و اللؤلؤة الميم، و منقار الطائر الدال، فقال له ابن سراج: ينبغي أن تعيد الصلاة لشغل خاطر ك بهذا اللغز، فقال له الوقشي: بين الإقامة و تكبيره الإحرام فككته.

و البيت الأول لعبد الله بن الدمينه، و بعده: [الطويل]

و لو أنني أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب عليّ ذنوب

[من شعر أبي الحسن بن أضحي و الوزير أبو الحسن بن أضحي و بعض أخباره]

و قال الوزير أبو الحسن بن أضحي: [الطويل]

و مستشفع عندى بخير الورى عندى و أولاهم بالشكر منى و بالحمد

و صلت فلما لم أقم بجزائه لففت له رأسى حياء من المجد

و كان سبب قوله هذين البيتين أنه كتب إليه أحد الوزراء شافعا لأحد الأعيان، فلما وصل إليه برّه و أنزله و أعطاه عطاء استعظمه و استجزله، و خلع عليه خلعا، و أطلعه من الأحمال بدر لا يمكن مطالعا، ثم اعتقد أنه قد جاء مقصيرا، فكتب إليه معذرا بالبيتين، هكذا حكاه الفتح، و قال بعد ذلك ما صورته: و من باهر جلاله، و طاهر خلالاه، أنه أعف الناس بواطن، و أشرفهم فى التقى مواطن، ما علمت له صبوة، و لا حلت له إلى مستنكر حبو، مع عدل لا شىء يعدله، و تحجب عما يتقى مما يرسل عليه حجابيه و يسدله، و كان لصاحب البلد الذى كان يتولّى القضاء به ابن من أحسن الناس صورة، و كانت محاسن الأقوال و الأفعال عليه مقصورة، مع ما شئت من لسن، و صوت حسن، و عفاف، و اختلاط بالبهاء و التفاف، قال

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٨

الفتح: و حملنا لإحدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نهر، أحسن من شادن مهر، تشقها جداول كالصلال؛ و لا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال، و معنا جملة من أعيانها، فأحضرنا من أنواع الطعام، و أرانا من فرط الإكرام و الإنعام، ما لا يطاق و لا يحد، و يقصر عن بعضه العد، و فى أثناء مقامنا بدا لى من ذلك الفتى المذكور ما أنكرته، فقابلته بكلام أعتقده، و ملام أحقده، فلما كان من الغد لقيت منه اجتنابه، و لم أر منه ما عهدته من الإنابة، فكتبت إليه مداعبا له، فراجعنى بهذه القطعة: [الطويل]

أتنتى أبا نصر نتيجة خاطر سريع كرجع الطرف فى الخطرات

فأعربت عن وجد كمين طويته بأهيف طاو فاتر اللحظات

غزال أحّم المقلتين عرفته بخيف منى للحين أو عرفات

رماك فأصمى و القلوب رمية لكل كحيل الطرف ذى فتكات

و ظن بأن القلب منك محصّب فلنباك من عينيه بالجمرات

تقرب بالنسك فى كل منسك و ضحى غداة النحر بالمهجرات

و كانت له جيان مئوى فأصبحت ضلوعك مئواه بكل فلاة

يعز علينا أن تهيم فتنتوى كئيبا على الأشجان و الزفات

فلو قبلت للناس فى الحب فديء فديناك بالأموال و البشرات

و من إيشار ديانتته، و علامة حفظه للشرع و صيانتته، و قصده مقصد المتورعين، و جريه جرى المتشرعين، أن أحد أعيان بلده كان متصلا به اتصال الناظر بسواده، محتلا فى عينه و فواده، لا يسلمه إلى مكروه، و لا يفرد فى حادث يعروه، و كان من الأدب فى منزلة تقتضى إسعافه، و لا- تورده من تشفيعه فى مورد قد عافه، فكتب إليه ضارعا فى رجل من خواصه اختلط بمرأة طلقها، ثم تعلقها، و خاطبه فى ذلك بشعر، فلم يسعفه، و كتب إليه مراجعا: [المتقارب]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٩٩

ألا أيها السيد المجتبى و يا أيها الألمعى العلم

أتنتى أبياتك المحكمات بما قد حوت من بديع الحكم

و لم أر من قبلها مثلها و قد نفتت سحرها فى الكلم

و لكنه الدين لا يشتري بنثر و لا بنظام نظم

و كيف أبيع حتمى مانعا و كيف أحلل ما قد حرم

ألست أخاف عقاب الإله و نارا مؤججة تضطرم

أَصْرَفَهَا طَالِقًا بَتَّةً عَلَى أَنْوَكٍ قَدْ طَعَى وَاجْتَرَمَ
 وَ لَوْ أَنَّ ذَاكَ الْغَوَىَّ الزَّرَىَّ تَثَبَّتْ فِي أَمْرِهِ مَا نَدِمَ
 وَ لَكِنَّه طَاشَ مُسْتَعْجَلًا فَكَانَ أَحَقَّ الْوَرَىَّ بِالنَّدَمِ
 انْتَهَى كَلَامَ الْفَتْحِ الَّذِي أُرِدْتُ جَلْبَهُ هُنَا.
 وَ لَا خَفَاءَ أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَةَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي حِكَايَاتِ عَدْلِ قَضَاءِ الْأَنْدَلَسِ.
 وَ مِنْ نَظْمِ ابْنِ أَضْحَى الْمَذْكُورِ مَا كَتَبَ بِهِ إِلَى بَعْضِ مَنْ يَعْزُ عَلَيْهِ: [البسيط]
 يَا سَاكِنَ الْقَلْبِ رَفَقًا كَمْ تَقَطَّعَهُ اللَّهُ فِي مَنْزِلٍ قَدْ ظَلَّ مَثْوَاكَ
 يَشِيدُ النَّاسَ لِلتَّحْصِينَ مِنْزِلَهُمْ وَ أَنْتَ تَهْدِمُهُ بِالْعَنْفِ عَيْنَاكَ
 وَ اللَّهُ وَ اللَّهُ مَا حَبَى لِفَاحِشَةٍ أَعَاذَنِي اللَّهُ مِنْ هَذَا وَ عَافَاكَ
 وَ لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ: [البسيط]
 رُوحِي إِلَيْكَ فَرْدِيهِ إِلَى جَسَدِي مِنْ لِي عَلَى فَقْدِهِ بِالصَّبْرِ وَ الْجِلْدِ
 بِاللَّهِ زُورِي كَثِيرًا لَا عِزَاءَ لَهُ وَ شَرَّ فِيهِ وَ مَثْوَاهُ غَدَاةُ غَدِ
 لَوْ تَعْلَمِينَ بِمَا أَلْقَاهُ يَا أَمَلِي بَايَعْتَنِي الْوَدَّ تَصْفِيهِ يَدَا بِيَدِ
 عَلَيْكَ مِنْ سَلَامِ اللَّهِ مَا بَقِيَتْ آثَارُ عَيْنَيْكَ فِي قَلْبِي وَ فِي كَبْدِي
 وَ إِذْ وَصَلْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْأَنْدَلَسِ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَذْكَرَ جَمَلَةٍ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْأَنْدَلَسِ اللَّاتِي لَهَنَّ الْيَدَ الطَّوْلَى فِي
 الْبَلَاغَةِ، كَيْ يَعْلَمَ أَنَّ الْبِرَاعَةَ فِي أَهْلِ الْأَنْدَلَسِ كَالْغَرِيزَةَ لَهُمْ، حَتَّى فِي نِسَائِهِمْ وَ صَبِيَانِهِمْ.
 نَفْعُ الطَّيْبِ مِنْ غَصْنِ الْأَنْدَلَسِ الرَّطِيبِ، ج ٥، ص: ١٠٠

فمن النساء المشهورات بالأندلس:

أم السعد بنت عصام الحميري

من أهل قرطبة، و تعرف بسعدونته، و لها رواية عن أبيها و جدّها و غيرهما، كما حكاها ابن الأبار في ترجمتها من «التكملة».
 و أنشدت لنفسها في تمثال نعل النبي صلى الله عليه و سلم تكملة لقول غيرها ما صورته: [السريع]
 سألتهم التمثال إذ لم أجد للثم نعل المصطفى من سبيل
 لعلني أحظى بتقبيله في جنة الفردوس أسنى مقيل
 في ظلّ طوبى ساكنا آمننا أسقى بأكواس من السلسيل
 و أمسح القلب به علّه يسكن ما جاش به من غليل
 فطالما استشفى بأطلال من يهواه أهل الحبّ في كلّ جيل
 و أنشدني ابن جابر الوادى آشى عن شيخه المحدث أبى محمد بن هارون القرطبي لجدّته سعدونته، و أظنّها هذه: [مجزوء الكامل]
 آخ الرجال من الأبا عد و الأقارب لا تقارب
 إنّ الأقارب كالعقارب أو أشدّ من العقارب
 هكذا نقله الخطيب ابن مرزوق، و رأيت نسبة البيتين لابن العميد، فالله أعلم.

و منهن حسانة التميمية بنت أبى المخشى الشاعر.

تأذبت و تعلّمت الشعر، فلما مات أبوها كتبت إلى الحكم، و هي إذ ذاك بكر لم تتزوج:
[البسيط]

إني إليك أبا العاصي موجّعه أبا المخشى سقته الواكف الدّيم
قد كنت أرتع في نعماه عاكفه فالיום آوى إلى نعماك يا حكم
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠١
أنت الإمام الذي انقاد الأنام له و ملكته مقاليد النهى الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفًا آوى إليه و لا يعرفونى العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتديا حتى تذلل إليك العرب و العجم
فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته، و أمر لها بإجراء مرتب، و كتب إلى عامله على البيرة فجهّزها بجهاز حسن.
و يحكى أنها وفدت على ابنه عبد الرحمن بشكية من عامله جابر بن لييد و الى البيرة، و كان الحكم قد وقّع لها بخطّ يده تحرير
أملاكها، و حملها في ذلك على البرّ و الإكرام، فتوسّلت إلى جابر بخطّ الحكم، فلم يفدها، فدخلت إلى الإمام عبد الرحمن، فأقامت
بفنائها، و تطلّفت مع بعض نسائه، حتى أوصلتها إليه، و هو في حال طرب و سرور، فانتسبت إليه، فعرّفها و عرف أباهًا ثم أنشدته:
[الطويل]

إلى ذى الندى و المجد سارت ركائبى على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعى إنه خير جابر و يمنعنى من ذى الظلامه جابر
فإنى و أيتامى بقبضه كفه كذى ريش اضحى فى مخالبا كاسر
جدير لمثلى أن يقال مروعه لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاء الحيا لو كان حيا لما اعتدى علىّ زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطّته يمانه جابر لقد سام بالأملاك إحدى الكباثر
و لما فرغت رفعت إليه خطّ والده، و حكّت جميع أمرها، فرقّ لها، و أخذ خطّ أبيه فقبّله و وضعه على عينيه، و قال: تعدّى ابن لييد
طوره، حتى رام نقض رأى الحكم، و حسبنا أن نسلك سيبله بعده، و نحفظ بعد موته عهده، انصرفى يا حسّانه، فقد عزلته لك، و وقّع
لها توقيع أبيه الحكم، فقبّلت يده، و أمر لها بجائزة، فانصرفت و بعثت إليه بقصيدة منها:
[البسيط]

ابن الهشامين خير الناس مآثره و خير منتجع يوما لرواد
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠٢
إن هزّ يوم الوغى أثناء صعده روى أنابيهها من صرف فرصاد
قل للإمام أيا خير الورى نسبا مقابلا بين آباء و أجداد
جوّدت طبعى و لم ترض الظلامه لى فهاك فضل ثناء رائح غاد
فإن أقت ففى نعماك عاطفة و إن رحلت فقد زوّدتنى زادى

و منهنّ أم العلاء بنت يوسف الحجارية.

ذكرها صاحب «المغرب» و قال: إنها من أهل المائة الخامسة، و من شعرها: [الرمل]

كلّ ما يصدر منكم حسن و بعلياًكم تحلّى الزمن
تعطف العين على منظركم و بذكراكم تلذّ الأذن
من يعيش دونكم في عمره فهو في نيل الأمانى يغبن
و عشقها رجل أشيب، فكتبت إليه: [السريع]
الشب لا يخدع فيه الصّبا بحيلة فاسمع إلى نصحي
فلا تكن أجهل من في الورى يبيت في الجهل كما يضحى
و لها أيضاً: [البسيط]

افهم مطارح أحوالى و ما حكمت به الشواهد و اعذرني و لا تلم
و لا تكلني إلى عذر أئبته شرّ المعاذير ما يحتاج للكلم
و كلّ ما جتته من زلّة فيما أصبحت في ثقة من ذلك الكرم
و الحجاريّة- بالراء المهملة- نسبة إلى وادى الحجارة.

و منهن أمة العزيز.

قال الحافظ أبو الخطاب ابن دحية في كتاب «المطرب، من أشعار المغرب»: أنشدتني أخت جدّي الشريفه الفاضله أمة العزيز الشريفه الحسينيه لنفسها: [السريع]
لحاظكم تجرحنا في الحشا و لحظنا يجرحكم في الخدود
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠٣
جرح بجرح فاجعلوا ذا بدا فما الذى أوجب جرح الصّدود
قلت: هذا السؤال يحتاج إلى جواب، و قد رأيت لبلدنا القاضى الإمام الفاضل أبى الفضل قاسم العقبانى التلمسانى رحمه الله تعالى جوابه؛ و الغالب أنه من نظمه، و هو قوله:
[السريع]

أوجه منى يا سيدى جرح بخدّ ليس فيه الجحود
و أنت فيما قلته مدّع فأين ما قلت و أين الشهود

و منهن أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ملك المريّة.

قال ابن سعيد في «المغرب»: كانت تنظم الشعر، و عشقت الفتى المشهور بالجمال من دانية المعروف بالسمار، و عملت فيه الموشحات، و من شعرها فيه: [السريع]
يا معشر الناس ألا فاعجبوا ممّا جنته لوعه الحبّ
لولا له لم ينزل بيدر الدجى من أفقه العلوى للترّب
حسبى بمن أهواه لو أنه فارقتى تابعه قلبى

و منهن الشاعرة الغسانية البجانية

- بالنون - نسبة إلى بجائه، و هي كورة عظيمة، و تشتهر بإقليم المرية، و هي من أهل المائة الرابعة، فمن نظمها من أبيات: [الطويل]
عهدتهم و العيش في ظلّ وصلهم أنيق و روض الوصل أخضر فينان
ليالى سعد لا يخاف على الهوى عتاب و لا يخشى على الوصل هجران
و منهنّ العروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب.
سكنت بلنسية، و كانت قد أخذت عن مولاها النحو و اللغة، لكنها فاقتة في ذلك، و برعت في العروض، و كانت تحفظ «الكامل»
للمبرد و «النوادر» للقالى و تشرهما؛ قال أبو داود سليمان بن نجاح: قرأت عليها الكتابين، و أخذت عنها العروض، و توفيت بدانية
بعد سيدها في حدود الخمسين و الأربعمئة، رحمها الله تعالى!
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠٤

و منهنّ حفصة بنت الحاج الركونية

الشاعرة الأديبة المشهورة بالجمال، و الحسب و المال.
ذكرها الملاحى فى تاريخه، و أنشد لها ممّا قالته فى أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ارتجالا بين يديه: [المجتث]
يا سيّد الناس يا من يؤمّل الناس رفته
امنن علىّ بطرس يكون للدهر عدّه
تخطّ يمناك فيه: الحمد لله وحده
و أشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، فإنه كانت أن يكتب السلطان بيده بخطّ غليظ فى رأس المنشور «الحمد لله
وحده».

و تذكرت بذلك، و الشىء بالشىء يذكر، أنه لمّا قفل السلطان الناصر أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين يعقوب المنصور ابن أمير
المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن على سلطان المغرب و الأندلس من إفريقيه سنة ثلاث و ستمائة بعد فتح المهديّه هتأته الشعراء
بذلك، ثم اجتمع أبو عبد الله بن مرج الكحل بالشعراء و الكتاب، فتذكروا الفتح و عظمه، فأنشدهم ابن مرج الكحل فى الوقت لنفسه:
[الطويل]

و لمّا توالى الفتح من كلّ وجهة و لم تبلغ الأوهام فى الوصف حدّه
تركنا أمير المؤمنين لشكره بما أودع السرّ الإلهيّ عنده
فلا نعمة إلّا تؤدى حقوقها علامته بالحمد لله وحده
فاستحسن الكتاب له ذلك، و وقع أحسن موقع.

و حكى صاحب كتاب «روح الشعر، و روح السحر» و هو الكاتب أبو عبد الله محمد بن الجلاب الفهرى أن أمير المؤمنين يعقوب
المنصور لمّا قفل من غزوة الأراكة المشهورة، و كانت يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، ورد عليه الشعراء
كل قطر

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠٥

يهتونه، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كلّ إنسان قصيدته، بل كان يختصّ منها بالإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة، فدخل أحد الشعراء
فأنشده: [البيسط]

ما أنت فى أمراء الناس كلّهم إلّا كصاحب هذا الدّين فى الرّسل
أحييت بالسيف دين الهاشميّ كما أحياه جدّك عبد المؤمن بن على

فأمر له بألقى دينار، و لم يصل أحدا غيره لكثرة الشعراء، و أخذ بالمثل «منع الجميع، أرضى للجميع» قال: و انتهت رقاع القصائد و غيرها إلى أن حالت بينه و بين من كان أمامه لكثرتها، انتهى.
رجع إلى أخبار حفصة:

و أنشد لها أبو الخطاب في «المطرب» قولها: [الطويل]

ثنائي على تلك الثنايا لأننى أقول على علم و أنطق عن خبر
و أنصفها، لا أكذب الله، إننى رشفت بها ريقا أرق من الخمر
و تولّع بها السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك غرناطة، و تغير بسببها على أبى جعفر بن سعيد، حتى أدى تغيره عليه أن قتله. و طلب
أبو جعفر منها الاجتماع، فمطلته قدر شهرين، فكتب لها: [المجث]

يا من أجانب ذكر اسمه و حبى علامه

ما إن أرى الوعد يقضى و العمر أخشى انصرامه

اليوم أرجوك لا أن تكون لى فى القيامة

لو قد بصرت بحالى و الليل أرخى ظلامه

أنوح شوقا و جدا إذ تستريح الحمامه

صبّ أطال هواه على الحبيب غرامه

لمن يتيه عليه و لا يردّ سلامه

إن لم تنيلى أريحى فاليأس يثنى زمامه

فأجابته: [المجث]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠٦

يا مدعى فى هوى الحسن و الغرام الإمامه

أتى قريضك، لكن لم أرض منه نظامه

أمدعى الحب يثنى يأس الحبيب زمامه

ضللت كلّ ضلال و لم تفدك الزعامه

ما زلت تصحب مذكت فى السباق السلامه

حتى عثرت و أخجلت بافتضاح السامه

بالله فى كلّ وقت يبدى السحاب انسجامه

و الزهر فى كلّ حين يشق عنه كمامه

لو كنت تعرف عذرى كفتت غرب الملامه

و وجهت هذه الأبيات مع موصل أبياته، بعد ما لعنته و سبته، و قالت له: لعن الله المرسل و المرسل! فما فى جميعكما خير، و لا لى برؤيتكما حاجه، و انصرف بغايه من الخزى، و لمّا أطلّ على أبى جعفر و هو فى قلق لانتظاره قال له: ما وراءك يا عصام؟ قال: ما يكون وراء من وجهه خلف إلى فاعله تاركه، اقرأ الأبيات تعلم، فلمّا قرأ الأبيات قال للرسول: ما أسخف عقلك و أجهلك! إنها وعدتنى للقيّة التى فى جنّتى المعروفة بالكمامه، سر بنا، فبادروا إلى الكمامه، فما كان إلّا قليلا، و إذا بها قد وصلت، و أراد عتبها، فأنشدت: [الوافر]

دعى عدّ الذنوب إذا التقينا تعالى لا نعدّ و لا تعدّى

و جلسا على أحسن حاله، و إذا برقعهُ الكتندى الشاعر لأبى جعفر، و فيها: [الطويل]

أبا جعفر، يا ابن الكرام الأماجد خلوت بمن تهواه رغما لحاسد

فهل لك فى خلّ قنوع مهذب كتوم عليم باختفاء المراسد

يبيت إذا يخلو المحبّ بحبّه ممّتع لذات بخمس و لائد

فقرأها على حفصه، فقالت: لعنة الله! قد سمعنا بالوارش على الطعام و الواغل على الشراب، و لم نسمع اسما لمن يعلم باجتماع محبين

فيروم الدخول عليهما، فقال لها: بالله سمّيه لنكتب له بذلك، فقالت: أسميه الحائل؛ لأنه يحول بينى و بينك إن وقعت عيني عليه،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠٧

فكتب له فى ظهر رقعة: [المجث]

يا من إذا ما أتانى جعلته نصب عيني

تراك ترضى جلوسا بين الحبيب و بينى

إن كان ذاك فماذا تبغى سوى قرب حيني

و الآن قد حصلت لى بعد المطال بديني

فإن أتيت فدفعنا منها بكلتا اليدين

أو ليس تبغى و حاشا ك أن ترى طير بين

و فى مبيتك بالخم س كلّ قبح و شين

فليس حقّك إلّا ال خلوّ بالقميرين

و كتب له تحت ذلك ما كان منها من الكلام، و ذيل ذلك بقوله: [مجزوء الكامل]

سماك من أهواه حائل إن كنت بعد العتب واصل

مع أنّ لونك مزعج لو كنت تحبس بالسلاسل

فلما رجع إليه الرسول و جده قد وقع بمطمورة نجاسة، و صار هتكه، فلما قرأ الأبيات قال للرسول: أعلمها بحالى، فرجع الرسول، و

أخبرهما بذلك، فكاد أن يغشى عليهما من الضحك، و كتب إليه ارتجالا كلّ واحد بيتا بيتا، و ابتداء أبو جعفر فقال: [مجزوء الرجز]

قل للذى خلّصنا منه الوقوع فى الخرا

ارجع كما شاء الخرا يا ابن الخرا إلى ورا

و إن تعد يوما إلى وصالنا سوف ترى

يا أسقط الناس و يا أندلهم بلا مرا

هذا مدى الدهر تلاقى لو أتيت فى الكرا

يا لحيه تشغف فى ال خراء و تشنا العنبرا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠٨

لا قرب الله اجتمعا عا بك حتى تقبرا

و من شعرها: [المتقارب]

سلام يفتّح فى زهره ال كمام و ينطق ورق الغصون

على نازح قد ثوى فى الحشا و إن كان تحرم منه الجفون

فلا تحسبوا العبد ينساكم فذلك و الله ما لا يكون

و قولها من أبيات: [الطويل]

و لو لم يكن نجما لما كان ناظري و قد غبت عنه مظلما بعد نوره

سلام على تلك المحاسن من شج تناءت بنعماه و طيب سروره

و قولها: [الطويل]

سلوا البارق الخفّاق و الليل ساكن أظلّ بأحبابي يدكرني و هنا

لعمري لقد أهدى لقلبي خفته و أمطرني منهلّ عارضه الجفنا

و نسب بعض إليها البيتين المشهورين: [الوافر]

أغار عليك من عيني رقيبى و منك و من زمانك و المكان

و لو أنى خباتك فى عيوني إلى يوم القيامة ما كفانى

و الله تعالى أعلم.

و كتبت إلى أبى جعفر: [الطويل]

رأست فما زال العداة بظلمهم و علمهم النامى يقولون ما رأس

و هل منكر أن ساد أهل زمانه جموح إلى العليا حرون عن الدنس

و قال ابن دحية: حفصة من أشراف غرناطة، رخيمة الشعر، رقيقة النظم و النثر، انتهى.

و من قولها فى السيد أبى سعيد ملك غرناطة تهنئة بيوم عيد، و كتبت بذلك إليه:

[الكامل المجزوء]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٠٩

يا ذا العلا و ابن الخلى فة و الإمام المرتضى

يهنيك عيد قد جرى فيه بما تهوى القضا

و أتاك من تهواه فى قيد الإنابة و الرضا

ليعيد من لذاته ما قد تصرّم و انقضى

و ذكر الملاحى فى تاريخه أنها سألتها امرأة من أعيان أهل غرناطة أن تكتب لها شيئا بخطها، فكتبت إليها: [البسيط]

يا ربّه الحسن، بل يا ربّه الكرم غضى جفونك عمّا خطّه قلمى

تصفّحيه بلحظ الودّ منعمة لا تحفلى بردىء الخطّ و الكلم

و اتفق أن بات أبو جعفر بن سعيد معها فى بستان بحور مؤمل، على ما يبىت به الروض و النسيم، من طيب النفحة و نضارة النعيم، فلما

حان الانفصال، قال أبو جعفر و كان يهواها كما سبق: [الطويل]

رعى الله ليلا لم يرح بمذمم عشية و ارانا بحوز مؤمل

و قد خفقت من نحو نجد أريجة إذا نفحت هبت برّيا القرنفل

و غرّد قمرى على الدّوح و اثنى قضيب من الريحان من فوق جدول

يرى الروض مسرورا بما قد بدا له: عناق و ضمّ و ارتشاف مقبل

و كتب بها إليها بعد الافتراق، لتجيبه على عاداتها فى مثل ذلك، فكتبت إليه بقولها:

[الطويل]

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا و لكنه أبدى لنا الغلّ و الحسد

و لا صَفَّقَ النهر ارتياحا لقربنا و لا غَرَّدَ القمريّ إلّا لما وجد
فلا تحسن الظنّ الذى أنت أهله فما هو فى كلّ المواطن بالرّشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمر سوى كيما تكون لنا رصد

و قال ابن سعيد فى «الطالع السعيد»: كتبت حفصة الركونية إلى بعض أصحابها: [الوافر]

أزورك أم تزور؟ فإنّ قلبى إلى ما تشتهى أبدا يميل

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٠

فثغرى مورد عذب زلال و فرع ذؤابتى ظلّ ظليل

و قد أملت أن تظما و تضحى إذا وافى إليك بى المقيّل

فعبّجّل بالجواب فما جميل إباؤك عن بثينة يا جميل

قال التجانى: تشبه أبيات حفصة هذه أبيات أنشدها ابن أبى الحصين فى تاريخه لسلمى بنت القراطيسى من أهل بغداد، و كانت مشهورة بالجمال، و هى: [الوافر]

عيون مها الصريم فداء عينى و أجياد الظباء فداء جيدي

أزّين بالعقود و إنّ نحري لأزّين للعقود من العقود

و لا أشكو من الأوصاب ثقلا و تشكو قامتى ثقل النهود

و بلغت هذه الأبيات المقتفى أمير المؤمنين فقال: اسألوا هل تصدق صفتها قولها؟

فقالوا: ما يكون أجمل منها، فقال: اسألوا عن عفافها، فقالوا له: هى أعفّ الناس، فأرسل إليها مالا جزيلا، و قال: تستعين به على صيانة جمالها، و رونق بهجتها، انتهى.

رجع إلى حفصة- و قال أبو جعفر بن سعيد: أقسم ما رأيت و لا سمعت بمثل حفصة، و من بعض ما أجعله دليلا على تصديق عزمى، و برّ قسمى، أنى كنت يوما فى منزلى مع من يحبّ أن يخلّى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام، فلم نشعر إلّا بالباب يضرب، فخرجت جارية تنظر من الضارب، فوجدت امرأة، فقالت لها: ما تريدين؟

ادفعى لسيدك هذه الرقعة، فجاءت برقعة فيها: [الخفيف]

زائر قد أتى بجيد الغزال مطلع تحت جناحه للهِلال

بلحاظ من سحر بابل صيغت و رضاب يفوق بنت الدّوالى

يفضح الورد ما حوى منه خدّ و كذا الثغر فاضح للآلى

ما ترى فى دخوله بعد إذن أو تراه لعارض فى انفصال

قال: فعلمت أنها حفصة، و قمت مبادرا للباب، و قابلتها بما يقابل به من يشفع له حسنه و آدابه و الغرام به و تفضّله بالزيارة دون طلب فى وقت الرغبة فى الأنس به، انتهى.

[أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى]

قلت: و إذ قد جرى ذكر أبى جعفر بن سعيد سابق الحلبه فلنلمّ ببعض أحواله فنقول: هو

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١١

أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى، قال قريبه أبو الحسن على بن موسى بن سعيد فى «المغرب»: سمعت أبى يقول: لا أعلم فى بنى سعيد أشعر منه، بل لا أعلم فى بلده، و عشق حفصة شاعرة الأندلس، و كانا يتجاوبان تجاوب الحمام، و لمّا استبدّ والده

بأمر القلعة حين ثار أهل الأندلس بسبب صولة بني عبد المؤمن على الملتئمين اتخذه وزيرا، واستنابه في أمره، فلم يصبر على ذلك، واستعفى، فلم يعفه، وقال: أفي مثل هذا الوقت الشديد تركز إلى الراحة؟ فكتب إليه: [المجتث]

مولاي، في أي وقت أنال في العيش راحه

إن لم أنلها و عمرى ما إن أنار صباحه

و للملاح عيون تميل نحو الملاحه

و كأس راحى ما إن تملّ منى راحه

و الخطب عنى أعمى لم يقترب لى ساحه

و أنت دونى سور من العلا و الرجاحه

فأعفى و أقلنى ممّا رأيت صلاحه

ما فى الوزاره حظّ لمن يريد ارتياحه

كلّ و قال و قيل مما يطيل نباحه

أنسى أتى مستغيثا فاترك فديت سراحه

فلما قرأ الأبيات قال: لا ينفع الله بما لا يكون مركبا في الطبع مائله له النفس، ثم وقع على ظهر ورقته: قد تركنا سراح أنسك، و ألحقنا يومك بأمسك. و لما رجع ثوار الأندلس إلى عبد المؤمن و بايعه عبد الملك بن سعيد فغمره إحسانا و برأ، و ولى السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن غرناطة طلب كاتباً من أهلها، فوصف له فضل أبي جعفر و حسبه و أدبه، فاستكتبه، فطلب أن يعفيه، فأبى إلى أن شرب أبو جعفر يوماً مع بعض خواصه، و خرج ثانياً يوم إلى الصيد و كان اليوم ذا غيم و برد، و لما اشتدّ البرد مالوا إلى خيمة ناطور، و جعلوا يصطلون و يشربون على ما اصطادوا، فحمل أبا جعفر بقيّة السكر على أن قال يصف يومه، و يستطرد بما فى نفسه: [الطويل]

و يوم تجلّى الأفق فيه بعنبر من الغيم لذنا فيه باللهو و القنص

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٢

و قد بقيت فينا من الأمس فضلة من السكر تغرينا بمنتهب الفرص

ركبنا له صباحا و ليلا و بعضنا أصيلا و كلّ إن شدا جليجل رقص

و شهب بزاة قد رجمننا بشهبها طورا يساغ اللهو إن شكت الغصص

و عن شفق تغرى الصباح أو الدجى إذا أوثقت ما قد تحرّك أو قمص

و ملنا و قد نلنا من الصيد سؤلنا على قنص اللذات و البرد قد قرص

بخيمة ناطور توسط عذبها جحيم به من كان عذب قد خلص

أدرنا عليه مثله ذهبيّة دعته إلى الكبرى فلم يجب الرخص

فقل لحريص أن يرانى مقيدا بخدمته: لا يجعل الباز فى القفص

و ما كنت إلّا طوع نفسى فهل أرى مطيعا لمن عن شأ و فخرى قد نقص

فكان من أصحابه من حفظ هذين البيتين، و وشى بهما للسيد، فعزله أسوأ عزل، ثم بلغه بعد ذلك أنه قال لحفصه الشاعرة: ما تحيين فى ذلك الأسود و أنا أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيرا منه؟ و كان لونه مائلا إلى السواد، فأسرّها فى نفسه إلى أن فرّ عبد الرحمن بن عبد الملك بن سعيد إلى ملك شرق الأندلس محمد بن مردنيس، فوجد له بذلك سببا، فقتله صبيرا بمالقة.

و كان عبد الملك بن سعيد يذكر ابنه أبا جعفر لعبد المؤمن، و ينشده من شعره رغبة فى تشريفه بالحضور بين يديه و إنشاده فى مجلسه، فأمره بحضوره، فعندما دخل عليه قبل يده و أنشد قصيدة منها قوله: [الوافر]

عليك أحالني داعي النجاح و نحوك حثني حادي الفلاح
و كنت كساهر ليلا طويلا ترنح حين بشر بالصباح
و ذى جهل تغلغل في قفار شكا ظمأ فدل على القراح
دعانا نحو وجهك طيب ذكر و يذكر للرياض شذا الرياح
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٣
و له في غلام أسود ساق، ارتجالا: [الطويل]
أدار علينا الكأس ظبي مهفهف غدا نشره و اللون للعنبر الشحري
و زاد لنا حسنا بزهر كؤوسه و حسن ظلام الليل بالأنجم الزهر
و قوله فيه و قد لبس أبيض: [المتقارب]
و غصن من الآبنوس ارتدى بعاج كليل علاه فلق
يحاكي لنا الكأس في كفه صباح بجنح علاه شفق
و قوله ممّا كتب به إلى أخيه محمد و قد ورد منه كتاب بإنعام: [المجتث]
وإني كتابك ينبى عن سابغ الإنعام
فقلت درّ و درّ من زاخر و غمام
و قوله يذم حمّاما: [السريع]
يا ربّ حمّام لعنّا بما أبدى إلينا كلّ حمّام
أفق له قطر حميم كما أصمت سهام من يدي رامى
يخرق سحبا للدخان الذى لاح كغيم العارض الهامى
و قيم يجذبني جذبة و تارة يكسر إبهامى
و يجمع الأوساخ من لؤمه فى عضدى قصدا لإعلامى
و ازدحم الأندال فيه و قد ضجّوا ضجيجا دون إفهام
و جملة الأمر دخلنا بنى سام و عدنا كبنى حام
و له فى ضدّ ذلك، و النصف الأخير لابن بقى: [البسيط]
لا أنس ما عشت حمّاما ظفرت به و كان عندى أحلى من جنى الظفر
نعمت جسمى فى ضدّين مغتتما تنعم الغصن بين الشمس و المطر
و قال له السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن، صاحب غرناطة: ما أنت إلّا حسن الفراسة، وافر العقل، فقال: [الطويل]
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٤
نسبتم لمن هدبتموه فراسه و عقلا و لولاكم للازمه الجهل
و ما هو أهل للثناء و إنما علاكم لتقليد الأيادى له أهل
و ما أنا إلّا منكم و إليكم و ما فى من خير فأنتم له أصل
و قال: [الطويل]
و لمّا رأيت السعد فى صفح وجهه منيرا دعانى ما رأيت إلى الشكر
و أقبل يبدى لى غرائب نطقه و ما كنت أدرى قبله منزع السحر

فأصغيت إصغاء الجديب إلى الحيا و كان ثنائى كالرياض على القطر

و له: [المجتث]

لا تكثرنّ عتابى إن طال عنك فراقى

فما يضرّ بعاد يطول و الودّ باقى

و له: [الخفيف]

ما خدمناكم لأن تشفعوا فى نا بدار الجزاء يوم الحساب

ذاك يوم أنا و أنت سواء فيه، كلّ يخاف سوء العقاب

إنما الشأن الذبّ فى هذه الدن يا بسطانكم عن الأصحاب

و إذا ما خذلتموهم بشكوى و بخلتم عنهم برّد الجواب

فاعذروهم أن يطلبوا من سواكم نصره و ارفعوا حجال العتاب

و إذا أرض مجذب لفظته فله العذر فى اتّباع السحاب

و له و قد تقدّم أمامه فى ليله مظلمه أحد أصحابه، فطفىء السراج فى يده، و فقال لوقته:

[المجتث]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ١١٤

لى من جبينك هادى فى الليل نحو مرادى

فما أريد سراجا يدلّنى لرشاد

أنى و كفّك سحب يبدو بها ذا اتّقاد

و له فى قوادة: [السريع]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٥

قوادة تفخر بالعار أقود من ليل على سار

ولّاجه فى كلّ دار و ما يدرى بها من حذقها دارى

ظريفه مقبولة الملتقى خفيفه الوطء على الجار

لحافها لا ينطوى دائما أقلق من رايه بيكار

قد ربيت مذ عرفت نفعها ما بين فتّاك و شطار

جاهله حيث ثوى مسجد عارفة حانه خمّار

بسامة مكثرة بزها ذات فكاهات و أخبار

علم الرياضات حوته و ساسته بتقويم و أسحار

مناعه للنعل من كيسها موسرة فى حال إعسار

تكاد من لطف أحاديثها تجمع بين الماء و النار

و ما سمعنا فى هذا الباب أحسن من هذا، و البيت السائر: [الوافر]

تقود من السياسة ألف بغل إذا حزنت بخيط العنكبوت

و شرب ليله مع أصحاب له و فيهم و سيم، فأعرض بجانبه و قطّب، فتكدر المجلس، فقال أبو جعفر: [السريع]

يا من نأى عنّا إلى جانب صدّا كميل الشمس عند الغروب

لا تزو عَنَّا وجهك المجتلى فالشمس لا يعهد منها قطوب
 إن دام هذا الحال ما بيننا فإننا عمَّا قليل نتوب
 ما نشتكى الدهر و لا خطبه لولاك ما دارت علينا خطوب
 و له أيضا: [الطويل]

أيا لائمي في حمل صحبة جاهل قطوب المحيّا سيء اللحظ و السّمع
 لمنفعة ترجى لديه صحبته و إن كان ذا طبع يخالفه طبعي
 كما احتمل الإنسان شرب مرارة ال دواء لما يرجو لديه من النفع
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٦
 و له، و قد أحسن ما شاء: [الطويل]

تركتكم لا كارها في جنابكم و لكن أبي ردّي إلى بابكم دهري
 و ما باختيار فارق الخلد آدم تنقلني من كلّ سهل إلى وعر
 و ما باختيار فارق الخلد آدم و ما عن مراد لاذ أيوب بالصبر
 و لكنها الأيام ليست مقيمة على ما اشتهاه مشته أمد العمر
 و إنك إن فكرت فيما أتيته تيقنت أن التّرك لم يك عن غدر
 و لكن لجاج في النفوس إذا انقضى رجعت كما قد عاد طير إلى وكر
 و إني لمنسوب إليكم و إن نأت بي الدار عنكم و الغدير إلى القطر
 و إني لمثن بالذي نلت منكم مقيم على ما تعلمون من البرّ
 و إن خنتكم يوما فخانتني المنى و ساء لديكم بعد إحماده ذكرى
 على أنني أقررت أنني مذنب و ذو المجد من يغني المقرّ عن العذر
 و له يصف نارا: [الطويل]

نظرت إلى نار تصول على الدّجى إذا ما حسبناها تدانت تبعد
 ترفّعها أيدي الرياح، و تارة تخفضها مثل المكبر يسجد
 و إلّا فمن لا يملك الصبر قلبه يقوم به غيظ هناك و يقعد
 لها ألسن تشكو بها ما أصابها و قد جعلت من شدّة القرّ ترعد
 و له على لسان إنسان أخلقت بردته: [السريع]

مولاي، هذى بردتي أخلقت و ليس شيء دونها أملك
 و صرت من بأس و من فاقه أبكى إذا أبصرتها تضحك
 و له يستدعي أحد أبناء الرؤساء إلى يوم اجتماع: [الوافر]

تداركنا فإننا في سرور و ما بسواك يكتمل السرور
 أهلة أنسنا بك في تمام أليس تتمّ بالشمس البدور
 و له، و قد خطر على منزله من إليه له ميل، و قال: لو لا أخاف التثقيب لدخلت،
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٧
 و انصرف، فلما علم أبو جعفر كتب إليه: [السريع]

مولاي، لم تقصد تعذيب من يهوى و ما قصدك مجهول

طلبت تخفيفا بعدد و فى تخفيف من نهواه تثقيل

غيرك إن زار جنى ضجرة ولج منه القال و القيل

و أنت إن زرت حياة و ما ال عيش إذا ما طال مملول

و له، و قد جلس إلى جانبه رجل تكلم فأنبا عن علو قدر، فسأله عن بلده، فقال:

إشيلة، ففكر ثم قال: [البسيط]

يا سيدا لم أكن من قبل أعرفه حتى تكلم مثل الروض بالعبق

و زادنى أن غدا فى حمص منشؤه لقد تشاكل بين البدر و الأفق

و له، و قد حضر مجلسا مع إخوان له فى انبساط و مزاح، فدخل عليهم أحد ظرفاء الغرب بوجه طلق و بشاشة، فاهترّ لما سمع بينهم، و

جعل يصل ما يحتاج من مزاحهم إلى صلة بأحسن منزع و أنبل مقصد، فأنشده أبو جعفر ارتجالا: [السريع]

يا سيدا قد ضمّه مجلس حلّ به للمزح إخوان

لم نلق من فجأته خجله و لا ثنانا عنه كتمان

كأنه من جمعنا واحد لم ينب منا عنه إنسان

و لم نكن ندرية لكن بدا فى وجهه للظرف عنوان

و له، و قد لقي أحد إخوانه، و كان قد أطل الغيبة عنه، فدار بينهما ما أوجب أن قال:

[الكامل]

إن لحت لم تلمح سواك الأعين أو غبت لم تذكر سواك الألسن

أنت الذى ما إن يملّ حضوره و مغيبه السلوان عنه يؤمن

و له، و هو من آياته: [الكامل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٨

إنى لأحمد طيفها و ألومها و الفرق بينهما لدى كبير

هى إن بدت لى شبيهة فى جفوة و الطيف فى حين المشيب يزور

و إذا توالى صدها أو بينها وافى على أن المزار عسير

و له، و قد سافر بعض الأراذل بماله، فنكب فى سفره، و عاد فقيرا بأسوا أحواله:

[البسيط]

اغد و لا يغن عنك القيل و القال فالجود مبتسم و الفضل يختال

قالوا فلان رماه الله فى سفر رآه رأيا بما حالت به الحال

فآب منه سلبيا مثل مولده عليه ذلّ و تفجيع و إقلال

فقلت لا خفف الرحمن عنه، فلم يكن لديه على القصاد إقبال

فقل له دام فى ذلّ و مسغبة و لا أعيدت له فى المآل آمال

قد كان حمقك حسن المال يستره فاليوم أصبحت لا عقل و لا مال

و له، و قد سافر أحد الرؤساء من أصحابه: [المتقارب]

أيا غائبا لم يغب ذكره و لا حال عن ودّه حائل

لئن مال دهرى بى عنكم فقلبى نحوكم مائل
فإنى شاهدت منكم علا من العجز قسّ بها باقل
لئن طال بى البعد عن لحظكم فما فى حياتى إذن طائل
وله، و هو من حسناته: [السريع]

شقت جيوب فرحا عندما آبت، و فى البعد تشقّ القلوب
فقلت هذا موقف ما يشقّ ق الجيب فيه غير صبّ طروب
فابتسمت زهوا وقالت كذا ال أفق لعود الشمس شقّ الجيوب
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١١٩

وله، وقد أجمع رأيه على أن يفد على أمير المؤمنين عبد المؤمن، فأخذ فى ذلك مع أصحاب له فجعلوا يثنونه عن ذلك، و ظهر
عليهم الحسد له، فقال: [السريع]

سر نحو ما تختار لا تسمعن ما قاله زيد و لا عمرو
كلهم يحسد ما رمته مهما يساعد رأيك الدهر
عجبت ممّن رام صدر العلا يروم أن يصفو له دهر
فقالوا له: اتهمتنا فى الودّ، فقال: لو لم أتهمكم كنت أتهم عقلى، و العياذ بالله تعالى من ذلك، و كيف لا أتهمكم و قد غدوتم تثنوننى
عن زيارة خليفة لوالدى عنده مكان، و له علينا إحسان، ولى شافع عنده مقرب لمجلسه عقلى و لسانى، و لكنى أنا المخطئ الذى
عدلت عن العمل بقول القائل: [الطويل]

و لم يستشر فى أمره غير نفسه و لم يرض إلّا قائم السيف صاحباً
و له فى شعاع الشمس و القمر على النهر: [الطويل]
ألا حبذا نهر إذا ما لحظته أبى أن يرّد اللحظ عن حسنه الأوس
ترى القمرين الدهر قد عنيا به يفصّضه بدر و تذهبه شمس
و له فى والده و قد شن عليه درعا: [الطويل]

أيا قائد الأبطال فى كلّ وجهه تطير قلوب الأسد فيها من الدّعر
لقد قلت لمّا أن رأيتك دارعا أيا حسن ما لاح الحجاب على البحر
و أنشدت و الأبطال حولك هالّة أيا حسن ما دار النجوم على البدر
و قوله، و قد بلغه أنّ حاسدا شكره: [المجتث]

متى سمعت ثناء عمّن غدا لك حاسد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٠
فكان منك انخداع به فرأيك فاسد

بصدره منك نار لهيبها غير خامد

و غلّه لك ما زدت فى السعادة زائد

و إنما ذاك منه كالحبّ فى فحّ صائد

وله: [مخلع البسيط]

أبصره من يلوم فيه فقال ذا فى الجمال فائق

أما ترى ما دهيت منه كان عدولا فصار عاشق
 و له فى أبيه، و قد سجنه عبد المؤمن: [الكامل]
 مولاي، إن يحبسك خير خليفه فبذاك فخرک و اعتلاء الشان
 فالجفن يحبس نوره من غبطه و المرهفات تصان فى الأجفان
 فابشر فنزع الدر من أصدافه يعليه للأسلاك و التيجان
 و لئن غدا من ظلّ دونك مطلقا إنّ القذى ملقى عن الأجفان
 و العين تحبس دائما أجفانها و هداية الإنسان بالإنسان
 و الطرس يختم ما حواه نفاسة و يهان ما يبدو من العنوان
 فاهنا به لكن مليا مكثه سجننا لغير مدله و هوان
 فلتعلون رغم الأعداى بعده بذرى الخليفه فى ذرى كيوان
 مولاي غيرك يعزى بما لم يزل يجرى على الكرام، و يذکر تأنيسا له فى الوحشه بما يطرأ من الكسوف و الخسوف على الشمس
 المنيرة و البدر التمام: [الوافر]
 و أنت تعلم الناس التعزى و خوض الموت فى الحرب السجال
 و قد كان مولاي أنشدنى لعلى بن الجهم قائلا: إن أحدا لم يسئل نفسه عما ناله من السجن بمثله: [الكامل]
 قالوا سجنتم فقلت ليس بضائر سجنى، و أى مهتد لا يغمد
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢١
 الأبيات، و ما ذا تفيدك من العلم و صدرک ينبوعه، و بخاطرک لا يزال غروبه و طلوعه، و إنما هى عادة تبعناها أدبا، و قضينا بها ما
 فى النفس من الإعلام بالتوجع و التفجع أربا، و لعلّ الله تعالى يتبع هذه التسليه بتهنئه، و يعقب بالنعمه هذه المرزئه. قال: فأمر الملك
 بتسريحه أثر ذلك، فلما اجتمع وجهه بوجهه جعل يحمد الله تعالى جهرا و يغزّد بهذه الأبيات، و كان سراحه بكره: [الطويل]
 طلعت علينا كالغزاة بالضحي و عزك طمّاح و وجهك مشرق
 فغفرا لذنب الدهر أجمع إنه أتى اليوم من حسناه ما هو أليق
 فلاح فى سماء العزّ بالسعد طالعا و قدرک سام أفقه ليس يلحق
 فقد سرحت لّما غدوت مسرّحا قلوب و أفكار و سمع و منطق
 فاهترّ أبوه من شدّة الطرب، و قال له: و الله إنك لتملأ الدلو إلى عقد الكرب.
 و له يعتذر، و قد دعى إلى مجلس أنس: سيدى، ساعدك سولك، لّما وصل إلى أخيك المعتدّ بك رسولك، قابله بما يجب من
 القبول، و أبدى له من الشغل ما منع من الوصول: [الطويل]
 و من ذا الذى يدعى لعن فلا يرى على الرأس إجلالا إليها يبادر
 و لكن الاضطرار، لا يكون معه اختيار، و إنى لأشوق الناس إلى مشاهده تلك المكارم، و أحبهم فى محاضرة تلك الآداب المترادفة
 ترادف الغمائم، و لكن شغلنى عارض قاطع، و برغمى أنى لدعوتك عاص و له طائع، و إنى بعد ذلك لحامل على تلك السجية
 الكريمة فى الغفران، مستجير بالخلاص الذى أعهد من خرق فلان و مكر فلان، فإنى متى غبت لا أعدم مترصدا قرحة يقع عليها ذبابه،
 و مستجمعا إذا أبصر فرصة سلّ عليها ذبابه: [الطويل]
 و لكننى أدرى بأنى نازح و دان سواء عند من يحفظ العهدا
 و إنى لأقول و قد غبت عن تلك الحضرة العلية، و جانبت ذلك الجناب السامى و المثابة الستية: [الطويل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٢
لئن غبت عَمَّن نوره نور ناظري فحسبى لديه أن أغيب عقابا
و سوف أوافيه مقراً بزلتى و فى حلمه أن لا يطيل حسابا
و له فى قصر النهار، و لو لم يكن له غيره لكفاه: [مجزوء الكامل]
لله يوم مسرة أضوا و أقصر من ذباله
لما نصبنا للمنى فيه بأوتار حباله
طار النهار به كمر تاع و أجفلت الغزاله
و هذا المعنى لم يسبق إليه، و لم يقدر أحد أن ينزعه من يديه.

و لَمَّا وصل صحبة والده إلى إشبيلية افتتن بواديهما، و اعتكف على الخلاعة فيها، مصعدا و منحدرًا بين بساتينه و منازهه، فمرّ ليلة
بطريانه فمال نحو منزله فيه طرب سمعه، فاستوقفه هنالك، و هو فى الزورق متكئ و أصحابه و أصحاب أبيه مظهرون انحطاطهم عنه
فى المرتبة، فأخرج رأسه أحد الأندال المعتادين بالنادر من شرجب، و الشرجب: هو الدرايزين من خشب فيه طاقات؛ و طريانه مقابلة
إشبيلية، و بها المنازه و الأبنية الحسنه - فصرط له ذلك النذل بغايه ما قدر، فرفع رأسه و قد أخذ منه السكر، و لم يعتد مثل ذلك فى
بلده، و قال: يا سفلة، أتقدم على بهذا قبل معرفتى؟ فثنى عليه واحدة أخرى، ثم رفع ثوبه عن ذكره و هو منعظ، و قال: يا وزير، اجعل
هذا عندك وديعة حتى أعرف من تكون، ثم رفع ما على استه من ثيابه و قال:

و اعمل من هذا غلافًا للحيتك فإذا عرفناك ذهبناه لك؛ فغلبه الضحك على الحرج، و جعل أصحابه يقولون له: ما سمعت أن من
دخل هذا الوادى يعول على هذا و أمثاله، فمال عن ذلك المنزه قليلا، و أطرق ساعة و قال: [مجزوء الرمل]

نهر حمص لا عدناك فما مثلك نهر
فيك يلتد ارتياح أبد الدهر و سكر
كلّ عمر قد خلا من ك فما ذلك عمر
خصه الله بمعنى فيه للألباب سرّ
يلعن الإنسان فيه و هو يصغى و يسرّ

[بين أبي جعفر و ابن سيد المعروف باللص]

ثم سأل بعد ذلك عن ربّ المنزه، فسّمى له، و أعلم أن ابن سيد الشاعر المشهور باللصّ

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٣

كان حاضرا و أنه أملى على السفلة ما قال و صنع، فكتب له أبو جعفر: [الخفيف]

يا سمى، و إن أفاد اشتراك غير ما يرتضيه فضل و ودّ

أكذا يزدري الخليل بأفق أنت فيه و لم يكن منك ردّ

لا أرى من سلّطت و غدا و لكن ليس يخفى عليك من هو و غد

فلَمَّا وقف على هذه الأبيات كتب له: يا مولاي و سيدى، و أجلّ ذخرى للزمان و عضدى، الذى أفخر بمشاركه اسمه، و تتيه هذه

الصناعة بذكره و رسمه: [الوافر]

و خير الشعر أشرفه رجالا و شرّ الشعر ما قال العبيد

سلام كتسنيم، على ذلك المقام الكريم، و رحمة الله تعالى و بركاته، و إن كان مولاي لم يفاتحنى بالسلام، و لا رآنى أهلا لمقاومة

الكرام، لكن حطّ قدرى عنده ما نسب لى من الذنب المختلق، و لا والله ما نطقت بلسان و لا كنت ممّن رمق، بل الذى زور لسيدى فى هذه الوشاية كان المعين عليها، و الملمّ إليها، فبادر إليكم قبل أن أسبقه فاتّسم بأسقط خطّتين: الندالة الأولى و الوشاية الأخرى، و لو لا أنّ المجالس بالأمانات، و أنّ الخلاعة بساط يطوى على ما كان فيه، لكنت أسبق منه، لكنى يابى ذلك خلقى، و ما تأذبت به، و مع ذلك فإنى أقول: [الطويل]

فإن كنت ذا ذنب فقد جئت تائبا و مثلك غفّار و مثلك قابل

و لولا- ما أخشى من الثقل، و ما أتوقّع من الخجل إذا التقى الوجهان، لأتيت حتى بلغت فى الاعتذار بالمشافهة ما لا يسع القرطاس، لكننى متّكل على حلم سيدى و إغضائه، متوسّل إليه فى الغفران بعلائه، و كتب تحت ذلك شعرا طويلا منه: [الطويل]

و لا غرو أن تعفو و أنت ابن من غدا تعود عفوا عن كبار الجرائم

لكم، آل عمّار، بيوت ربيعة تشيد من كسب الثنا بدعائم

إذا نحن أذنبنا رجونا ثوابكم و لم نفتنح بالعمو دون المكارم

و إنك فرع من أصول كريمه و لا تلد الأزهار غير الكرائم

و إنى مظلوم لزور سمعته و قد جئت أرجو العفو فى زى ظالم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٤

فأجابهُ أبو جعفر بما نصّه: سيدى الذى أكبر قدره، و أجلّ ذكره، و أجزل شكره، وصل جوابك الذى لو كان لك من الذنب ما تحمّله ابن ملجم، لأضربت لك عنه صفحا، و نسيت بما تأخّر ما تقدّم، و معاذ الله أن أنسب لفضلك عيبا، فأذمّ لك حضورا أو غيبا، و إنما قصدت بالمعاتبه، ما تحتها من المطارحة و المداعبه، على أنّ سيدى لو تيقنت أنه ظالم لأنشدت: [السريع]

منذ غدا طرفك لى ظالما آليت لا أدعو على ظالم

لكننى أتيقن خلاف ذلك، و أعلم حتى كأنى حاضر ما كان هنالك، و قد أطلت عليك، و بعد هذا فلتعتمد على أن تصل إلى أو أصل إليك، فهذا يوم كما قال البستى: [الكامل]

يوم له فضل على الأيام مزج السحاب ضياءه بظلام

فالبرق يخفق مثل قلب هائم و الغيم يبكى مثل جفن هام

فاختر لنفسك أربعا هنّ المنى و بهنّ تصفو لذة الأيام

وجه الحبيب و منزلا مستشرفا و مغنّيا غردا و كأس مدام

و قد حضرت عند محبك الثلاثة فكن رابعها، و نادى بك همم الأمانى فكن بفضلك سامعها، و مركز أفلاك هذه المسرّة حيث كتب هذه الرقعة إلى مجدك منزله مطّل على جزيرة شنتبوس لا أزال أترنّم فيه بقول ابن وكيع: [المنسرح]

قم فاسقتى و الخليج مضطرب و الريح تثنى ذوائب القضب

كأنها و الرياح تعطفها صفّ قنا سندسيه العذب

و الجوّ فى حلّه ممسكه قد طرّزتها البروق بالذهب

فإن كان سيدى فى مثل هذا المكان، جرينا إليه جرى الحلبه لخصل الرهان، و إن كان فى كسر بيته فليبادر إلى محل تقصر عنه همّه قيصر و كسرى، و إن أبطأ فإنّ الرقاع بالاستدعاء لا تزال عليه تترى، و إن كان لا يجدى هذا الكلام، فما نفع من العقوبه المؤلمه بالملام، و على المودّه المرعيه الداعيه أكمل ما يكون من السلام.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٥

فعندما قرأ الرقعة ركب إليه زورقا و صنع هذه الأبيات فى طريقه، فعند وصوله ينشده إياها: [الطويل]

ركبت إليك النهر يا بحر فالقنا بما يتلقى جوده كلّ قادم
بفيض و لكن من مدام، و هزة و لكن إلى بذل الندى و المكارم
و كنا نسّمى قبل كونك حاتما و مذ لحت فينا لم نعد ذكر حاتم
بآل سعيد يفخر السعد و العلا فأيديهم تلغى أيادي الغمام

فامتلاً أبو جعفر سرورا، و خلع عليه ما كان عنده هنالك، و وعده بغير ذلك، فأطرق لينظم شيئا في شكره، فأقسم عليه أن لا يشغل
خاطره في ذلك الوقت عن الارتياح، و حثّ أكّوس الراح، فأقبلوا على شأنهم، و كان ابن سيد في ذلك الحين مستترا بشرب الراح، و
كان عند أبي جعفر خديم كثير النادر و الالتفات، يخاف أهل التستر من مثله، فقال ابن سيد: هات دواة و قرطاسا، فأعطاه ذلك،
فكتب: [مخلع البسيط]

يا سيدي، قد علمت أنى بهذه الحال لا أظاهر
أخشى أناسا لهم عيون نواظر منى المعايير
أحذرهم طاقتي و إنى وثقت بالله فهو غافر
و لا تقس حالتى بحال منك اعتذار فالفرق ظاهر
فأنت إن كنت ذا جهاز غير مبال فالجاء ساتر
لا تخش من قول ذى اعتراض و لا حسود عليك قادر
و إننى قد رأيت ممن يكثر القول و هو ساخر
ما قد أراب العفيف منه ضحكك و ظنّ به يجاهر
أخشى إذا قيل كيف كنتم قال بحال تسرّ ناظر
و اللصّ ما بيننا صريعا بكلّ كأس عليه دائر
مطرحا للصلاة يصغى لصوله الدف و المزمار
فأغتدى سيدي مشارا إلى مهمما مررت خاطر
و إن أتيت الملوّك أبغى نوالهم قيل أىّ شاعر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٦
يذكر فى شعره خلافا و هو لزور المحال ذاكر
بالأمس قد كان ذا انتهاك فما له بعد ذاك عاذر
إن كان هذا فإنّ حظى و افى لربح فآب خاسر

فقال له أبو جعفر: يا أبا العباس، اشرب هنيئا غير مقدر ما قدرت، فلو كان هذا المضحك على الصفة التى ذكرت كان الذنب منسوبا
إلى فى كوني أحضر فى مجلسى من يهتك ستر المستورين، و مهمما تره هنا بهذه الخفة و الطيش و التسرع للكلام فإنه إذا فارقتنا أثقل
من جبل، و أصمت من سمكة، مترى بزى خطيب فى نهاية من السكون و الوقار: [الطويل]:

و تحت الثياب العار لو كان باديا

فكن فى أمن ما شربت معى، فإنى و الله لا أسمع أحدا من أصحابنا تكلم فى شأنك بأمر إلّا عاقبته أشدّ العقاب، و الذنب فى ذلك
راجع إلى. فسكن ابن سيد و جعل يحثّ الأقداح، و يمرح أشدّ المراح، على ما كان يظهره من الانقباض، تقيّة لما يخشاه من
الاعتراض، إلى أن قاربت الشمس الغروب، و مدّ لها فى النهر معصم مخضوب، فقال أبو جعفر: [المجتث]

انظر إلى الشمس قد أل صقت على الأرض خدا

فقال ابن سيد:

هي المرأة و لكن من بعدها الأفق يصدأ

فقال أبو جعفر:

مدت طرازا على النه ر عندما لاح بردا

فقال ابن سيد:

أهدت لطفك منه ما للأكارم يهدى

فقال أبو جعفر:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٧

درع اللجين عليه سيف من التبر مدأ

فقال ابن سيد:

فاشرب عليه هنيئا وزد سرورا و سعدا

ثم لما أظلم الليل نظروا إلى منارة شنتبوس قد عكست مصابيحها في النهر، و إلى النجوم قد طلعت فيه، فقال ابن سيد: [المجتث]

اخلع على النهر ثوب ال كرى فذلك واجب

فقال أبو جعفر:

و انظر إلى السرج فيه كالزهر ذات الذوائب

و حين صفق للأف ق نقتته الكواكب

فقبل ابن سيد رأسه، و قال: ما تركت بعد هذا مقالا لقائل، ثم جعلوا يشربون.

فقال أبو جعفر: [مجزوء الرمل].

سقنى و الأفق برد بنجوم الليل معلم

فقال ابن سيد:

و بساط النهر منها و هو فضي مدرهم

فقال أبو جعفر:

و رواق الليل مرخي و الشذا بالروض قد نم

فقال ابن سيد:

و الندى في الزهر منثور على عقد منظم

فقال أبو جعفر:

و الصبا جرّت على مية التلى كفّ ابن مريم

فقال ابن سيد:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٨

كان مبهوتا فلما نفخت فيه تكلم

فقال أبو جعفر:

و كأنّ الكأس و القه وه دينار و درهم

فقال ابن سيد:

و بدا الدّفّ يناغى ال عود و المزمارة هيم

فقال أبو جعفر:

فأذاع الأنس منّا كلّ ما كان مكتمّ

فقال ابن سيد:

أى عيش يهتك المس تور لو كان ابن أدهم

فقال أبو جعفر:

هكذا العيش و دعنى من زمان قد تقدّم

فقال ابن سيد:

حين لا خمر سوى ما بكؤوس البيض من دم

فقال أبو جعفر: و الله ما تعديت ما جال الساعة فى خاطرى، فإنى ذكرت أيام الفتنة و ما كابدنا فيها من المحن، و أنا لم نزل فى

مصادمة و مقارعة، ثم رأيت ما نحن الآن فيه بهذه الدولة السعيدة التى أمنت و سكنت، فشكرت الله تعالى، و دعوت بدوامها.

ثم لما طلع الفجر قال أبو جعفر: [مجزوء الرمل]

نثر الطلّ عقوده و نضا الليل بروده

فقال ابن سيد:

و بدا الصبح بوجه مطلع فينا سعوده

فقال أبو جعفر:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٢٩

و غدا ينشر لّمّا فتر الليل بنوده

فقال ابن سيد:

فهلّم اشرب و قبل من غدا ينطق عوده

فقال أبو جعفر:

ثم صافحه على رغ م النوى و افرك نهوده

فقال ابن سيد:

و اجعل الشكر على ما نلته منه جحوده

فقال أبو جعفر: يا أبا العباس، إنك أغرت على التهامى فى هذا البيت فى قوله:

و شكر أيادى الغانيات جحودها

قال: فلم لّقبت باللّص؟ لو لا هذا و أمثاله ما كان ذلك.

و اللص المذكور اسمه أحمد بن سيد، يكنى أبا العباس، و هو من مشهورى شعراء الأندلس.

و لّمّا أنشد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على بجبل الفتح قوله: [البسيط]

غمّض عن الشمس و استقصر مدى زحل و انظر إلى الجبل الراسى على جبل

قال له: أنت شاعر هذه الجزيرة، لو لا أنك بدأتنا بغمّض و زحل و الجبل.

و من بديع نظم اللص قوله؛ [المجث]

سلبت قلبى بلحظ أبا الحسين خلوب

فلم أسمى بلصّ و أنت لصّ القلوب

[من شعر ابن سيد المعروف باللصّ]

ولما اجتمع أبو جعفر بن سعيد المترجم به باللصّ أبي العباس المذكور في جبل الفتح عندما و فد فضلاء الأندلس على عبد المؤمن، و استنشده، فجعل ينشده ما استجفاه به لخروجه عن حلاوة منزع أبي جعفر، إلى أن أنشده قوله: [الوافر]
و ما أفنى السؤال لكم نوالا و لكن جودكم أفنى السؤال
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٠
فقال له أبو جعفر: لا- جعلك الله في حلّ من نفسك، يكون في شعرك مثل هذا و تنشدي ما كان يحملني على أن أسأت معك الأدب؟ و الله لو لم يكن لك غير هذا البيت لكنت به أشعر أهل الأندلس.

[بين أبي الحكم بن هرودس و أبي جعفر و من نظم أبي الحكم بن هرودس]

و كتب إلى أبي جعفر أبو الحكم بن هرودس في يوم بارد بغرناطة: [الخفيف]
يا سمّي، في علم مجدك ما يح تاج فيه هذا النهار المطير
ندف الثلج فيه قطنا علينا ففررنا بعدلكم نستجير
والذي أبتغيه في اللحظ منه و رضاب الذي هويت نظير
يوم قرّ يودّ من حلّ فيه لو تبدى لمقلتيه سعير
فوجه بما طلب، و جاوبه بما كتب: [الخفيف]
أيها السيد الأجلّ الوزير الذي قدره معلّى خطير
قد بعثنا بما أشرت إليه دمت للأنس و السرور تشير
كان لغزا فككته دون فكر إن فهمى بما تريد خير
و من نظم أبي الحكم: [الوافر]
إذا ضاقت عليك فولّ عنها و سر في الأرض و اختبر العبادا
و لا تمسك رحالك في بلاد غدوت بأهلها خبرا معادا
ولما مدح أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي عبد المؤمن في جبل الفتح بقصيدة أولها:
[الكامل]

ما الفخر إلّا فخر عبد المؤمن أثنى عليه كلّ عبد مؤمن
قال أبو جعفر بن سعيد: دعاه التجنيس إلى الضعف و الخروج عن المقصود، و الأولى أن لو قال «شاد الخلافة و هو أول مبتنى». و من هذه القصيدة:

أما ابن سعد فهو أول مارق يا ليته بأبيه سعد يكتني
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣١
ما قدر مرسية و حكمك نافذ إن شئت من عدن لأرض المعدن
فلما أكملها قال له عبد المؤمن: أجدت، فقال ارتجالا: [الكامل]
من لي، أمير المؤمنين، بموقفى هذا و قولك لي أجدت و لم تن

فلقد مدحتك خائفا أن لا يفى لسنى بما يعيى جميع الألسن

[من نظم أخيل بن إدريس]

و لابن إدريس المذكور: [الخفيف]

أيها البدر، هل علمت بأنى لم أبت راعيا محيّاك ودّا
أنا لو بات من حكيت بجنبى لم يكن عنه ناظرى يتعدى
وله: [الكامل]

شتان ما بينى وبينك فى الهوى أنا أبتغيك و أنت عنى تصدف
و إذا عتبتك و ارعويت يبين لى فى الحين منك بأنّ ذاك تكلف
يا ليت شعرى كيف يقضى وصلنا و العمر يفنى و المواعد تخلف

و قيل له لما هجره عبد المؤمن: اكتب له و اعتذر، و برهن عن نفسك، فقال: ما يكون أمير المؤمنين هجرنى إلّا و قد صحّ عنده، و لا
أنسبه فى أمرى لقلّة الثبّت و الجور، و إنما أرغب فى عفوه و رحمته، فكأنّ هذا الكلام ألان عليه قلب عبد المؤمن لما بلغه، و كان قد
نقل عنه حسّاده أنه قال: كيف تصحّ له الخلافة، و ليس بقرشى؟

و لا بأس أن نزيد من أخبار اللصّ الذى جرى ذكرنا له مع أبى جعفر بن سعيد فنقول:

هو النحوى المبرز فى الشعر أبو العباس أحمد بن سيد، الإشبيلي؛ ذكره ابن دحية فى المطرب، و أخبر أنه شيخه، و ختم كتاب سيبويه
مرتين على النحوى أبى القاسم بن الرماك، و اجتمع به أبو جعفر بن سعيد بجبل الفتح كما سبق، و لقب اللصّ لإغارته على أشعار
الناس.

وله: [البسيط]

شاموا الردى فأشموا الترب أنفهم و لم يبالوا بما فيها من الشّم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٢

ثم جعل يقول: قطع الله لسانى إن كان اليوم على وجه الأرض من يعرف أن يسمعه، فضلا عن أن يقوله.

و له القصيدة الشهيرة: [الوافر]

نذاك الغيث إن محل توالى و أنت الليث إن شأوا القتالا

سلبت الليث شدّة ساعديه نعم، و سلبت عينيه الغزالا

و ما أفنى السؤال لكم نوالا و لكن جودكم أفنى السؤال

و قد تقدم هذا البيت فى حكايته مع ابن سعيد.

و قال فى حلقة خياط، و هو من محاسنه: [البسيط]

كأنها بيضة و خز الرماح بها باد و قونسها بالسيف قد قطعها

و قال: [البسيط]

فالليل إن واصلت كالليل إن هجرت أشكو من الطول ما أشكو من القصر

[عود إلى أخبار أبى جعفر بن سعيد]

رجع إلى أخبار أبى جعفر بن سعيد:

قال في «الأزهار المنثورة»، في الأخبار المأثورة» ما نصّه: لَمَّا قبض على الوزير أبي جعفر ابن عبد الملك بن سعيد العنسى، و ثقف بمالقه، دخل إليه ابن عمه، و وصل إلى الاجتماع به ريثما استؤذن السيد أبو سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن فى أمره، قال: فدمعت عيناي حين رأيته مكبولا، فقال لى: أعلى تبكى بعد ما بلغت من الدنيا أطيب لذاتها، فأكلت صدور الدجاج، و شربت فى الزجاج، و لبست الديباج، و تمتعت بالسرارى و الأزواج، و استعملت من الشمع السراج الوهاج، و ركبت كل هملاج، وها أنا فى يد الحجاج، منتظر محنة الحلّاج، قادم على غافر لا- يحتاج إلى اعتذار و لا إلى احتجاج؟ قال: فقلت: أفلا يؤسف على من ينطق بهذا الكلام، ثم يفقد؟ و قمت عنه فكان آخر العهد به، انتهى.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٣

رجع إلى أخبار النساء.

[ولادة بنت المستكفى]

و من أشهر هنّ بالأندلس ولّادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر لدين الله، و كانت واحدة زمانها، المشار إليها فى أوانها حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة، كتبت بالذهب على الطراز الأيمن: [الوافر]
أنا و الله أصلح للمعالى و أمشى مشيتى و أتبه تيهها
و كتبت على الطراز الأيسر:

و أمكن عاشقى من صحن خدى و أعطى قبلى من يشتهيها
و كانت مع ذلك مشهورة بالصيانة و العفاف، و فيها خلع ابن زيدون عذاره، و قال فيها القصائد الطنانة و المقطعات، و كانت لها جارية سوداء بديعة المعنى، فظهر لولّادة أنّ ابن زيدون مال إليها، فكتبت إليه: [الكامل]
لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا لم تهو جاريتى و لم تتخير
و تركت غصنا مشمرا بجماله و جنحت للغصن الذى لم يثمر
و لقد علمت بأننى بدر السما لكن و لعت، لشقوتى، بالمشتري
و لّقت ابن زيدون بالمسدس، و فيه تقول: [الوافر]
و لّقت المسدس و هو نعت تفارقك الحياة و لا يفارق
فلوطى و مأبون و زان و ديوث و قرنان و سارق
و قالت فيه: [السريع]

إنّ ابن زيدون على فضله يعشق قضبان السراويل

لو أبصر الأير على نخلة صار من الطير الأبايل

و قالت فيه أيضا: [السريع]

إنّ ابن زيدون على فضله يغبني ظلما و لا ذنب لى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٤

يلحظنى شزرا إذا جئته كأننى جئت لأخصى على

و قالت ولادة تهجو الأصبى: [السريع]

يا أصبى اهنأ فكم نعمة جاءتك من ذى العرش ربّ المنن

قد نلت باست ابنك ما لم ينل بفرج بوران أبوها الحسن
و كتبت إليه لما أولع بها بعد طول تمنع: [الطويل]
ترقب، إذا جنّ الظلام، زيارتي فإني رأيت الليل أكرم للسّر
و بى منك ما لو كان بالشمس لم تلح و بالبدر لم يطلع و بالنجم لم يسر
و وقت بما وعدت، و لما أرادت الانصراف ودعته بهذه الأبيات: [الرملة]
ودّع الصبر محبّ ودّعك ذائع من سرّه ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناء و سنا حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلکم بتّ أشكو قصر الليل معك
و كتبت إليه: [الطويل]

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كلّ صبّ بما لقي
و قد كنت أوقات التزاور فى الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف و قد أمسيت فى حال قطعة لقد عجل المقدور ما كنت أتقى
تمرّ الليالى لا أرى الين ينقضى و لا الصبر من رقّ التشوق معتقى
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكلّ سكوب هاطل الوبل مغدق
فأجابها بقوله: [الطويل]

لحى الله يوما لست فيه بملتق محياك من أجل النوى و التفرق
و كيف يطيب العيش دون مسرّة و أى سرور للكئيب المؤرّق
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٥

و كتب فى أثناء الكلام بعد الشعر: و كنت ربما حثثنى على أن أتبهك على ما أجد فيه عليك نقدا، و إنى انتقدت عليك قولك:
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا

فإنّ ذا الرمة قد انتقد عليه قوله مع تقديم الدعاء بالسلامة: [الطويل]
ألا يا اسلمى يا دار مئى على البلى و لا زال منها بجرعائك القطر
إذ هو أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، و أمّا المستحسن فقول الآخر:
[الكامل]

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع و ديمة تهمة

و بسببها خاطب ابن عبدوس بالرسالة المشهورة التى شرحها غير واحد من أدباء المشاركة كالجمال بن نباتة و الصفدى و غيرهما، و
فيها من التلميحات و التنديرات ما لا مزيد عليه.

و قد ذكر ولادة ابن بشكوال فى «الصيعة» فقال: كانت أديبه، شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، و كانت تناضل الشعراء، و تساجل
الأدباء، و تفوق البرعاء. و عمرت عمرا طويلا و لم تتزوج قطّ، و ماتت لليلتين خلتا من صفر سنه ثمانين، و قيل: أربع و ثمانين و
أربعمائه، رحمها الله تعالى.

و كان أبوها المستكفى بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر، كما ألمعنا به فى غير هذا الموضع، و كان خاملا ساقطا، و خرجت هى
فى نهاية من الأدب و الظرف: حضور شاهد، و حرارة أوبد، و حسن منظر و مخبر، و حلاوة مورد و مصدر، و كان مجلسها بقرطبة

منتدى لأحرار المصر، و فناؤها ملعبا لحياد النظم و النشر، يعيشو أهل الأدب إلى ضوء غزتها، و يتهالك أفراد الشعراء و الكتاب على حلاوة عشرتها، و على سهولة حجابها، و كثرة متابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، و كرم أنساب، و طهارة أثواب، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقله مبالاتها،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٦

و مجاهرتها بلذاتها، و لما مرّت بالوزير أبي عامر بن عبدوس و أمام داره بركة تتولّد عن كثرة الأمطار، و ربما استمدّت بشيء ممّا هنالك من الأقدار، و قد نشر أبو عامر كمّيه، و نظر في عطفيه، و حشر أعوانه إليه، فقالت له: [الكامل]
أنت الخصيب و هذه مصر فتدققا فكلا كما بحر
فتركته لا يحير حرفا، و لا يردّ طرفا.

و قال في «المغرب» بعد ذكره: إنها بالغرب كعليه بالشرق: إلّا أنّ هذه تزيد بمزية الحسن الفائق، و أمّا الأدب و الشعر و النادر و خفة الروح فلم تكن تقصر عنها، و كان لها صنعة في الغناء، و كان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة و طرفاؤها فيمرّ فيه من النادر و إنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك، و فيها يقول ابن زيدون: [البيسط]

بنتم و بنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم و لا جفت مآقينا

و قال أيضا يخاطب ابن عبدوس لاشترائه معه في هواها: [المتقارب]

أثرت هزبر الشرى إذ ريبض و تبهته إذ هذا فاعتصم

و ما زلت تبسط مسترسلا إليه يد البغي لما انقبض

حذار حذار، فإنّ الكريم إذا سيم خسفاً أبى فامتعض

و إنّ سكون الشجاع التهوّس ليس بمانعه أن يعرض

عمدت لشعري و لم تشدّ تعارض جوهره بالعرض

أضاعت أساليب هذا القرى ض أم قد عفا رسمه فانقرض

لعمري، فوقت سهم النضال و أرسلته، لو أصبت الغرض

و منها:

و غرّك من عهد ولادة سراب تراءى و برق و مض

هي الما يعرّ على قابض و يمنع زبدته من مخض

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٧

و من أخبار ولادة مع ابن زيدون ما قاله الفتح في القلائد: إنّ ابن زيدون كان يكلف بولادة و يهيم، و يستضيء بنور محياها في الليل البهيم، و كانت من الأدب و الظرف، و تتميم السمع و الطرف، بحيث تختلس القلوب و الألباب، و تعيد الشيب إلى أخلاق الشباب، فلما حل بذلك الغرب، و انحلّ عقد صبره بيد الكرب، فرّ إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها، و يتسلّى برؤية موافها، فوافها و الربيع قد خلع عليها برده، و نشر سوسنه و وردة، و أترع جداولها، و أنطق بلابلها، فارتاح ارتياح جميل بوادي القرى، و راح بين روض يانع و ريح طيبة السرى، فتشوّق إلى لقاء ولادة و حنّ، و خاف تلك النوائب و المحن، فكتب إليها يصف فرط قلقه، و ضيق أمده إليها و طلقه، [و يعلمها أنه ما سلا عنها بخمر، و لا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر]، و يعاتبها على إغفال تعهده، و يصف حسن محشره بها و مشهده: [البيسط]

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا و الأفق طلق و وجه الأرض قد راقا

و للنسيم اعتلال في أصائله كأنما رقّ لي فاعتلّ إشفاقا

و الروض عن مائه الفصّي مبتسم كما حللت عن اللبّات أطواقا
يوم كأيام لذّات لنا انصرمت بتنا لها حين نام الدهر سرّاقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأنّ أعينه إذ عاينت أرقى بكت لما بي فجال الدمع ررقاقا
ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضّحي في العين إشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عقب و سنان تبه منه الصبح أحداقا
كلّ يهيج لنا ذكرى تشوّقنا إليك، لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لو كان وقى المنى في جمعنا بكم لكان من أكرم الأيام أخلاقا
لا سكّن الله قلبا عنّ ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملى نسيم الريح حين هفا و افاكم بفتى أضناه ما لاقى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٨

يا علقى الأخطر الأسنى الحبيب إلى نفسى إذا ما اقتنى الأحباب أعلاقا
كان التّجازى بمحض الودّ مذ زمن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنّا لعهدكم سلوتم و بقينا نحن عشّاقا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ١٣٨

قال أيضا: إن ابن زيدون لم يزل يروم دنوّ ولادة فيتعدّر، و يباح دمه بها و يهدر، لسوء أثره فى ملكك قرطبة و واليها، و قبائح كان ينسبها إليه و يواليها، أهدقت بنى جمهور عليه، و سدّدت أسهمهم إليه، فلمّا يئس من لقيائها، و حجب عنه محيّاها، كتب إليها يستديم عهدا، و يؤكّد ودّها، و يعتذر من فراقها بالخطب الذى غشيه، و الامتحان الذى خشيه، و يعلمها أنه ما سلا عنها بخمر، و لا خبا ما فى ضلوعه من ملتهب الجمر، و هى قصيدة ضربت فى الإبداع بسهم، و طلعت فى كل خاطر و وهم، و نزعت منزعا قصر عنه ابن الجهم، و أولها: [البيسط]

بنتم و بنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم و لا جفت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لو لا تأسّينا
و أخبار ولادة كثيرة، و فيما ذكرناه كفاية.

[اعتماد جارية المعتمد بن عباد]

و من المشهورات بالأندلس «اعتماد» جارية المعتمد بن عباد، و أم أولاده، و تشتهر بالزّميكية، و فى المسهب و المغرب أنه ركب المعتمد فى النهر و معه ابن عمار و وزيره، و قد زردت الريح النهر، فقال ابن عباد لابن عمار: أجز: [الرمل]
صنع الريح من الماء زرد
فأطال ابن عمار الفكرة، فقالت امرأة من الغسالات:
أىّ درع لقتال لو جمد

فتعجّب ابن عباد من حسن ما أتت به، مع عجز ابن عمار، و نظر إليها فإذا هى صورة حسنة، فأعجبته فسألها: أ ذات زوج هى؟ فقالت: لا، فتروّجها، و ولدت له أولاده الملوك النجباء، رحمهم الله تعالى!
و حكى البعض منهم صاحب «البداءة» بسنده إلى بعض أدباء الأندلس، و سمّاه و لم يحضرنى الآن، أنه هو الذى قال للمعتمد:

أى درع لقتال لو جمد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٣٩

قال: فاستحسنه المعتمد، و كنت رابعا فى الإنشاد فجعلنى ثانيا، و أجازنى بجائزة ستيئة.

قال ابن ظافر: و قد أخذت هذا المعنى، فقلت أصف روضا: [الطويل]

فلو دام ذاك النبت كان زبرجدا و لو جمدت أنهاره كان بلورا

و لما قال ابن ظافر: [الرجز]

قد أذكت الشمس على الما لها

قال القاضى الأعز:

فكست الفضة منه ذهباً

رجع - و لما خلع المعتمد و سجن بأغمت قلت له: يا سيدى، لقد هنا هنا، فقال:

[مجزوء الرجز]

قالت لقد هنا هنا مولاي، أين جاهنا

قلت لها إلهنا صيرنا إلى هنا

و حكى أنها قالت له و قد مرض: يا سيدى، ما لنا قدرة على مرضاتك فى مرضاتك.

و لما قال الوزير ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة فى المعتمد و الرميكية أغرت المعتمد به حتى قتله، و ضربه بالطبرزين ففلق رأسه، و

ترك الطبرزين فى رأسه، فقالت الرميكية: قد بقى ابن عمار هدهدا، و القصيدة أولها: [المتقارب]

ألا حتى بالغرب حيا حلالاتنا حوا جمالا و حازوا جمالا

و عرج بيومين أم القرى و نم فعسى أن تراها خيالا

و يومين: قرية ياشيلية كانت منها أولية بنى عباد.

و فى هذه القصيدة يقول معرضا بالرميكية:

تخيرتها من بنات الهجان رميكية ما تساوى عقالا

فجاءت بكل قصير العذار لئيم التجارين عمّا و خالا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٠

قصار القدود و لكنهم أقاموا عليها قرونا طوالا

أذكر أيامنا بالصبا و أنت إذا لحت كنت الهلالا

أعائق منك القضيبي الرطيب و أرشف من فيك ماء زلالا

و أفنع منك بدون الحرام فتقسم جهدك أن لا حلالاتا

سأهتك عرضك شيئا فشيئا و أكشف سترك حالا فحالاتا

و منها:

فيا عامر الخيل يا زيدها منعت القرى و أبحث العيالاتا

و سبب قول ابن عمار هذه القصيدة أن المعتمد نذر به و ذيل على قصيدته الرائية المذكورة فى القلائد بعد قوله: [الكامل]

كيف التفلت بالخدعية من يدى رجل الحقيقة من بنى عمار

و سخر به فى أبيات مشهورة.

[حديث عن المعتمد بن عباد عن الفتح]

قال الفتح في حق المعتمد بعد كلام: وما زالت عقارب تلك الداخلة تدب، وريحها العاصفة تهب، و نارها تقد، و ضلوعها تحنق و تحقد، و تضمر الغدر و تعتقد، حتى دخل البلد من واديه، و بدت من المكروه بواديه، و كثر عليه الدهر بعوائده و عواديته، و هو مستمسك بعري لذاته، منغمس فيها بذاته، ملقى بين جواريه، مغتر بودائع ملكه و عواريته، التي استرجعت منه في يومه، و تبته فواتها من نومه، و لما انتشر الداخلون في البلد، و أوهنوا القوى و الجلد، خرج و الموت يتسعر في ألاحظه، و يتصور من ألفاظه، و حسامه يعد بمضائه، و يتوقد عند انتضائه، فلقبهم برحبة القصر، و قد ضاق بهم فضاؤها، و تضععت من رجّتهم أعضاؤها، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا، و ملأتهم فرقا، و ما زال يوالى عليهم الكر المعاد، حتى أوردهم النهر و ما بهم جواد، و أودعهم حشاه كأنهم له فؤاد، ثم انصرف و قد أيقن بانتهاء حاله، و ذهاب ملكه و ارتحاله، و عاد إلى قصره و استمسك فيه يومه و ليلته مانعا لحوزته، دافعا للذلّ عن عزّته، و قد عزم على أفضح أمر، و قال: بيدي لا بيد عمرو، ثم صرفه تقاه، عمّا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤١

كان عنواه، فنزل من القصر بالقسر، إلى قبضة الأسر، فقيد للحين، و حان له يوم شرّ ما ظنّ أنه يحين، و لما قيدت قدماه، و ذهبت عنه رقة الكبل و رحماه، قال يخاطبه: [الطويل]

إليك فلو كانت قيودك أسعرت تضرّم منها كلّ كفّ و معصم

مخافه من كان الرجال بسبيه و من سيفه في جنّه أو جهنم

و لما آلمه عضّه، و لازمه كسره و رضه، و أواهه ثقله، و أعياه نقله، قال: [المتقارب]

تبدلت من عزّ ظلّ البنود بذلّ الحديد و ثقل القيود

و كان حديدى سنانا ذليقا و عضبا رقيقا صقيل الحديد

فقد صار ذاك و ذا أدهما يعضّ بساقىّ عضّ الأسود

ثم جمع هو و أهله و حملتهم الجوارى المنشآت، و ضمّتهم جوانحها كأنهم أموات، بعد ما ضاق عنهم القصر، و راق منهم العصر، و الناس قد حشروا بصفى الوادى، و بكوا بدموع كالغوادى، فساروا و النوح يحدوهم، و البوح باللوعة لا يعدوهم، و فى ذلك يقول ابن اللبائنة: [البسيط]

تبكى السماء بمزن رائح غاد على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التى هدّت قواعدها و كانت الأرض منها ذات أوتاد

عزّيسه دخلتها النائبات على أساود لهم فيها و آساد

و كعبه كانت الآمال تخدمها فاليوم لا عاكف فيها و لا باد

يا ضيف، أقفر بيت المكرمات فخذ فى ضمّ رحلك و اجمع فضله الزاد

و يا مؤمل واديهم ليسكنه خفّ القطين و جفّ الزرع بالوادى

و أنت يا فارس الخيل التى جعلت تختال فى عدد منهم و أعداد

ألق السلاح و خلّ المشرفى فقد أصبحت فى لهوات الضيغم العادى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٢

لما دنا الوقت لم تخلف له عدّه و كلّ شىء لميقات و ميعاد

إن يخلعوا فبنوا العباس قد خلعوا و قد خلت قبل حمص أرض بغداد

حموا حريمهم حتى إذا غلبوا سيقوا على نسق في جبل مقتاد
و أنزلوا عن متون الشهب و احتملوا فويق دهم لتلك الخيل أنداد
و عيث في كل طوق من دروعهم فصيح منهن أغلال لأجباد
نسيت إلّا غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بالحداد
و الناس قد ملؤوا العبرين و اعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزياد
حطّ القناع فلم تستر مخدرة و مزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة و صارخ من مفداه و من فاد
سارت سفائنهم و النوح يصحبها كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع و كم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد
انتهى ما قصد جلبيه من كلام الفتح رحمه الله تعالى و سامحه!

[حديث آخر عن المعتمد]

و قال ابن اللبانه في كتاب «نظم السلوك»، في مواعظ الملوك، في أخبار الدولة العبادية» إن طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه، فأعلم باعتقادها، و كشف له عن مرادها، و حضّ على هتك حرمةها، و أغرى بسفك دمها، فأبى ذلك مجده الأثيل، و مذهبه الجميل، و ما خصّه الله تعالى به من حسن اليقين، و صحّة الدين، إلى أن أمكنتهم الغرة فانتصروا بيغاث مستنسر، و قاموا بجمع غير مستبصر، فبرز من قصره، متلافيا لأمره، عليه غلالة ترفّ على جسده، و سيفه يتلظى في يده: [الوافر]

كأن السيف راق و راع حتى كأنّ عليه شيمه منتضيه

كأنّ الموت أودع فيه سراً ليرفعه إلى يوم كربه

فلقى على باب من أبواب المدينة فارسا مشهورا بنجده، فرماه الفارس برمح التوى على

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٣

غلالته، و عصمه الله تعالى منه، و صبّ هو سيفه على عاتق الفارس، فشقه إلى أضلاعه، فخرّ صريعا سريعا، فرأيت القائمين عندما تسنموا الأسوار تساقطوا منها، و بعد ما أمسكوا الأبواب تخلّوا عنها، و أخذوا على غير طريق، و هوت بهم ريح الهيبة في مكان سحيق، فظننا أنّ البلد من أقدائه قد صفا، و ثوب العصمة عليه قد صفا، إلى أن كان يوم الأحد الحادي و العشرون من رجب فعظم الخطب في الأمر الواقع، و اتسع الخرق فيه على الواقع، و دخل البلد من جهة واديه، و أصيب حاضره بعادية بادية، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد و بأسه، و تراميه على الموت بنفسه، ما لا مزيد عليه، و لا انتهى خلق إليه، فشنت الغارة في البلد، و لم يبق فيه على سبد لأحد و لا لبد، و خرج الناس من منازلهم، يسترون عوراتهم بأناملهم، و كشفت وجوه المخدرات العذارى، و رأيت الناس سكارى، و ما هم بسكارى، و رحل بالمعتمد و آله، بعد استئصال جميع ماله، لم يصحب معه بلغة زاد، و لا بغية مراد، فأمضيت عزيمتي في أتباعه، فوصلت إليه بأغصات عقب ثقاف استنقذه الله منه، فذكرت به شعرا كان لي في صديق اتفق له مثل ذلك في الشهر بعينه من العام الماضي، و هو الأمير أبو عبد الله بن الصفار، و هو:

[الخفيف]

لم تقل في الثقاف كان ثقافا كنت قلبا به و كان شغافا

يمكث الزهر في الكمام و لكن بعد مكث الكمام يدنو قظافا

و إذا ما الهلال غاب لغيم لم يكن ذلك المغيب انكسافا

إنما أنت درّة للمعالى ركب الدهر فوقها أصدافا
حجب البيت منك شخصا كريما مثل ما تحجب الدنان السلافا
أنت للفضل كعبة و لو انى كنت أسطيع لا استطعت الطوفا
قال أبو بكر: و جرت بينى و بينه مخاطبات ألدّ من غفلات الرقيب، و أشهى من رشفات الحبيب، و أدلّ على السماح، من فجر على صباح، انتهى.

ثم قال: و لَمّا خلع المعتمد و ذهب إلى أغمات طلب من حواء بنت تاشفين خباء عاريه، فاعتذرت بأنه ليس عندها خباء، فقال:
[المتقارب]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٤

هم أوقدوا بين جفنيك نارا أطلالوا بها فى حشاك استعارا
أما يخجل المجد أن زودوك و لم يصحبوك خباء معارا
فقد قنعوا المجد إن كان ذاك و حاشاهم خزيا و عارا
يقلّ لعينيك أن يجعلوا سواد العيون عليكم شعارا

ثم إنه بقى مأسورا بأغمات إلى سنة ٤٨٦، فأخذ بمالقة رجل كبير يعرف بابن خلف، فسجن مع أصحاب له، فنقبوا السجن و ذهبوا إلى حصن منت ميور ليلا فأخرجوا قائدها، و لم يضره، و بينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل، فسأله فإذا هو عبد الجبار بن المعتمد، فولوه على أنفسهم، و ظنّ الناس أنه الراضى، فبقى فى الحصن، ثم أقبل مركب من الغرب يعرف بمركب ابن الزرقاء، فانكسر بمرسى الشجرة قريبا من الحصن، فأخذوا بنوده و طوله و ما فيه من طعام و عدة فأتسعت بذلك حالتهم، ثم وصلت أم عبد الجبار إليه، ثم خاطبه أهل الجزيرة و أهل أركش فدخلها سنة ٤٨٨، و لَمّا بلغ خبر عبد الجبار إلى ابن تاشفين أمر بثقاف المعتمد فى الحديد، و فى ذلك يقول: [السريع]

قيدى أما تعلمنى مسلما أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرنى فيك أبو هاشم فينثنى القلب و قد هشما
و بقى إلى أن توفى رحمه الله سنة ٤٨٨.

[ثورة عبد الجبار بن المعتمد بن عباد]

و قد ساق الفتح قضيه ثورة عبد الجبار بن المعتمد بعبارة البارعة فقال: و أقام بالعدوة برهه لا يروّع له سرب و إن لم يكن آمنا، و لا يثور له كرب و إن كان فى ضلوعه كامنا، إلى أن ثار أحد بنيه بأركش- معقل كان مجاورا لإشبيلية مجاورة الأنامل للراح، ظاهر على بسائط و بطاح- لا يمكن معه عيش، و لا يتمكن من منازلته جيش، فغدا على أهلها بالمكاره و راح، و ضيق عليهم المتسع من جهاتها و البراح، فسار نحوه الأمير سير بن أبى بكر، رحمه الله عليه، قبل أن يرتدّ طرف استقامته إليه، فوجده و شرّه قد تشمّر، و صدره قد تنمّر، و جمره متسعر، و أمره متوعر،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٥

فنزل عدوته، و حلّ للحزم حبوته، و تدارك داءه قبل إعضاله، و نازله و ما أعدّ آلات نضاله، و انحشدت إليه الجيوش من كل قطر، و أفرغ من مسالكة كل قطر، فبقى محصورا لا- يشدّ إليه إلّا سهم، و لا ينفذ عنه إلّا نفس أو وهم، و امتسك شهورا حتى عرضه أحد الرماة بسهم فرماه، فأصماه، فهوى فى مطلعته، و خزّ قتيلا فى موضعه، فدفن إلى جانب سريره، و أمن عاقبه تغريره، و بقى أهله ممتنعين مع طائفة من وزرائه حتى اشتدّ عليهم الحصر، و ارتدّ عنهم النصر، و عمّم الجوع، و أغبّ أجفانهم الهجوع فنزلت منهم طائفة متهافته،

و ولت بأنفاس خافتة، فتبعهم من بقى، و رغب فى التمتع من شقى، فوصلوا إلى قبضة الملمات، و حصلوا فى غصة الممات، فوسمهم الحيف، و تقسمهم السيف، و لما زار الشبل خيفت سورة الأسد، و لم يرج صلاح الكلّ و البعض قد فسد، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال و أثناءها، و أحلّ ساحة الخطوب و فناءها، و حين أركبوه أسودا، و أورثوه حزنا بات له معاودا، قال: [الكامل]

غنتك أغماتية الألحان ثقلت على الأرواح و الأبدان

قد كان كالثعبان رمحك فى الورى فغدا عليك القيد كالثعبان

متمردا يحميك كلّ تمرد متعظفا لا رحمة للعانى

قلبي إلى الرحمن يشكو بثّه ما خاب من يشكو إلى الرحمن

يا سائلا عن شأنه و مكانه ما كان أغنى شأنه عن شان

هايتك قيته و ذلك قصره من بعد أى مقاصر و قيان

و لما فقد من كان يجالسه، و بعد عنه من كان يؤانسه، و تمادى كربه، و لم تسالمة حربه، قال: [الطويل]

تؤمل للنفس الشجية فرجة و تأبى الخطوب السود إلّا تماديا

لياليك فى زاهيك أصفى صحبتها كذا صحبت قبلى الملوك اللياليا

نعيم و يؤس ذا لذلك ناسخ و بعد هما نسخ المنايا الأمانيا

و لما امتدت فى الثقافة مدته، و اشتدت عليه قسوة الكبل و شدته، و أفلقتة همومه، و أطبقته غمومه، و توالت عليه الشجون، و طالت

لياليه الجون، قال: [البسيط]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٦

أبناء أسرك قد طبقتن آفاقا بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا

سرت من الغرب لا تطوى لها قدم حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا

فأحرق الفجع أكبادا و أفنده و أغرق الدمع آماقا و أحداقا

قد ضاق صدر المعالى إذ نعت لها و قيل: إنّ عليك القيد قد ضاقا

أنى غلبت و كنت الدهر ذا غلب للغالين و للسبتاق سبتاقا

قلت الخطوب أذلتنى طوارقها و كان غربى إلى الأعداء طراقا

متى رأيت صروف الدهر تاركة إذا انبرت لذوى الأخطار أرماقا

و قال لى من أثقه: لما ثار ابنه حيث ثار، و أثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار، جزع جزعا مفرطا، و علم أنه قد صار فى أنشوطه

الشرّ متورطا، و جعل يتشكى من فعله و يتظلم، و يتوخيخ منه و يتألم، و يقول: عرض بى للمحن، و رضى لى أن أمتحن، و و الله ما

أبكى إلّا انكشاف من أتخلفه بعدى، و يتحيفه بعدى، ثم أطرف و رفع رأسه و قد تهللت أسرته، و ظللته مسرته، و رأيته قد استجمع، و

تشوّف إلى السماء و تطلّع، فعلمت أنه قد رجا عودة إلى سلطانه، و أوبه إلى أوطانه، فما كان إلّا بمقدار ما تنداح دائره، أو تلتفت مقلة

حائرة، حتى قال: [المتقارب]

كذا يهلك السيف فى جفنه إلى هزّ كفى طويل الحنين

كذا يعطش الرمح لم أعتقله و لم تروه من نجيع يمينى

كذا يمنع الطرف علك الشك يم مرتقبا غرة فى كمين

كأنّ الفوارس فيه ليوث تراعى فرائسها فى عرين

الأشرف يرحم المشرفى ممّا به من شمات الوتين

ألا كرم ينعش السّمهرىّ و يشفيه من كل داء دفين
 ألا حنة لابن محيية شديد الحنين ضعيف الأنين
 يؤمّل من صدرها ضمّة تبوّئه صدر كفر معين
 و كانت طائفه من أهل فاس قد عاثوا فيها و فسقوا، و انتظموا فى سلك الطغيان و اتسقوا،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٧

و منعوا جفون أهلها السّنات، و أخذوا البين من حجور آبائهم و البنات، و تلقّبوا بالإمارة، و أركبوا السوء نفوسهم الأمانة، حتى كادت أن تقفر على أيديهم، و تذر رسوماها بإفراط تعديهم، إلى أن تدارك أمير المسلمين رحمه تعالى أمرهم، و أطفأ جمرهم، و أوجعهم ضربا، و أقطعهم ما شاء حزنا و كربا، و سجنهم بأغمت، و ضمتهم جوانح الملمات، و المعتمد إذ ذاك معتقل هناك، و كانت فيهم طائفه شعريه، مذنبه أو بريّه، فرغبوا إلى سجانهم، أن يستريحوا مع المعتمد من أشجانهم، فخلّى ما بينهم و بينه، و غمض لهم فى ذلك عينه، فكان المعتمد رحمه الله تعالى يتسلّى بمجالستهم، و يجد أثر مؤانستهم، و يستريح إليهم بجواه، و يبوح لهم بسرّه و نجواه، إلى أن شفّع فيهم و انطلقوا من وثاقهم، و انفرج لهم مبهم أغلاقهم، و بقى المعتمد فى محبسه يشتكى من ضيق الكبل، و يبكى بدمع كالويل، فدخلوا عليه مودعين، و من بثه متوجعين، فقال: [الطويل]

أما لانسكاب الدمع فى الخدّ راحة لقد آن أن يفنى، و يفنى به الخدّ

هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى بما منه قد عافاكم الصمد الفرد

تخلصتم من سجن أغمت و التوت على قيود لم يحن فكّها بعد

من الدّهم أمّا خلقها فأساود تلوى و أما الأيد و البطش فالأسد

فهنيتم النعماء، و دامت لكلكم سعاده إن كان قد خاننى سعد

خرجتم جماعات و خلفت واحدا و لله فى أمرى و أمركم الحمد

و مرّ عليه فى موضع اعتقاله سرب قطا لم يعلق لها جناح، و لا تعلق بها من الأيام جناح، و لا عاقها عن أفرانها الأشراك، و لا أعوزها البشام و لا الأراك، و هى تمرح فى الجو، و تسرح فى مواقع النو، فتتكّد بما هو فيه من الوثاق، و ما دون أحبتّه من الرقباء و الأغلاق، و ما يقاسيه من كبله، و يعانيه من وجده و خبله، و فكّر فى بناته و افتقارهنّ إلى نعيم عهدنه، و حبور حضرته و شهدته، فقال: [الطويل]

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بى سوارح لا سجن يعوق و لا كبل

و لم تك، و الله المعيد، حساده و لكن حيننا أن شكلى لها شكل

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٨

فأسرح لا شملى صديق و لا الحشا وجيع و لا عيناى بيكيهما نكل

هنيئا لها إذ لم يفرق جميعها و لا ذاق منها البعد عن أهلها أهل

و إذ لم تبث مثلى تطير قلوبها إذا اهترّ باب السجن أو صلصل القفل

و ما ذاك ممّا يعتريه، و إنما و صفت التى فى جبله الخلق من قبل

لنفسى إلى لقيا الحمام تشوّف سواى يحبّ العيش فى ساقه حجل

ألا عصم الله القطا فى فراخها فإنّ فراخى خانها الماء و الظلّ

و فى هذه الحالة زاره الأديب أبو بكر بن اللبّانة، و هو أحد شعراء دولته المرتضين دررها، المنتجعين دررها، و كان المعتمد رحمه الله تعالى يميزه بالشفوف و الإحسان، و يجوّزه على فرسان هذا الشأن، فلمّا رآه و حلقات الكبل قد عصّت بساقيه عصّ الأسود، و التوت عليه التواء الأسود السود، و هو لا يطيق إعمال قدم، و لا يريق دمعا إلّا ممزوجا بدم، بعد ما عهدته فوق منبر و سرير، و وسط جنيّة و

حرير، و تخفق عليه الألوية، و تشرق منه الأنديّة، و تكف الأمطار من راحتته، و تشرف الأقدار بحلول ساحتها، و يرتاع الدهر من أوامره و نواهيها، و يقصر النَّسر أن يقارنه أو يضاويه، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد، و يشير فيها لوعه الحارث بن عبّاد، أبداع من أناشيد معبد، و أصدع للكبد من مرائي أربد، أو بكاء ذى الرمة بالمربد، سلك فيها للاحتفاء طريقا لاجبا، و غدا فيها لذيول الوفاء ساحبا، فمن ذلك قوله:

[البسيط]

انفض يدك من الدنيا و ساكنها فالأرض قد أقفرت و الناس قد ماتوا
و قل لعالمها السفليّ قد كتمت سريرة العالم العلويّ أغمات
طوت مظلتها لا بل مذلتها من لم تزل فوقه للعزّ رايات
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٤٩
من كان بين الندى و البأس أنصله هندیةً و عطايا هنيذات
رماه من حيث لم تستره سابقه دهر مصيباته نبل مصيبات
أنكرت إلّا التواءات القيود به و كيف تنكر في الروضات حيات
غلطت بين همايين عقدن له و بينها فإذا الأنواع أشتات
و قلت هنّ ذؤابات فلم عكست من رأسه نحو رجليه الذؤابات
حسبتها من قناه أو أعنته إذا بها لثقاف المجد آلات
دروه ليثا فخافوا منه عادية عذرتهم، فلعدو الليث عادات
لو كان يفرج عنه بعض آونة قامت بدعوته حتى الجمادات
بحر محيط عهدناه تجيء له كمنقطة الدارة السبع المحيطات
لهفى على آل عبّاد فإنهم أهله مالها في الأفق هالات
راح الحيا و غدا منهم بمنزلة كانت لنا بكر فيها و روحات
أرض كأنّ على أقطارها سرجا قد أوقدتهنّ بالأدهان أنبات
و فوق شاطيء واديهها رياض ربا قد ظللتها من الأنشام دوحات
كأنّ واديهها سلك بلتتها و غاية الحسن أسلاك و لبات
نهر شربت بعبريه على صور كانت لها فيّ قبل الراح سورات
و ربما كنت أسمو للخليج به و في الخليج لأهل الراح راحت
و بالغروسات لا جفت منابتها من النعيم غروسات جتيات

و لم تزل كبده تتوقّد بالزفرات، و خلده يتردّد بين النكبات و العثرات، و نفسه تتقسّم بين الأشجان و الحسرات، إلى أن شففته ميّته، و جاءته بها أمنيته، فدفن بأغمات، و أريح من تلك الأزمات: [الوافر]

و عطّلت المآثر من حلاها و أفردت المفاخر من علاها

و رفعت مكارم الأخلاق، و كسدت نفائس الأعلاق، و صار أمره عبرة في عصره، و صاب أندى عبرة في مصره. و بعد أيام وافى أبو بحر بن عبد الصمد شاعره المتّصل به، المتوصّل إلى المنى بسببه، فلما كان يوم العيد و انتشر الناس ضحى، و ظهر كمل متوار و ضحا، قام على

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٠

قبره عند انفصالهم من مصلاهم، و اختيالهم بزيتهم حلاهم، و قال بعد أن طاف بقبره و التزمه، و خرّ على تربه و لثمه: [الكامل]
ملك الملوک، أ سامع فأنادى أم قد عدتک عن السماع عوادى
لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت فى الأعیاد
قبلت من هذا الثرى لك خاضعا و اتخذت قبرک موضع الإنشاد

و هى قصيدة أطال إنشادها، و بنى بها اللواعج و شادها، فأنحشر الناس إليه و انحفلوا، و بكوا بیکائه و أعولوا، و أقاموا أكثر نهارهم
مطيفين به طواف الحجيج، مديمين للبكاء و العجيج، ثم انصرفوا و قد نرفوا ماء عيونهم، و أقرحوا مآقيهم بفيض شؤونهم، و هذه نهاية
كل عيش، و غاية كل ملك و جيش، و الأيام لا تدع حيا، و لا تألو كل نشر طيا، تطرق رزاياها كل سمع، و تفرق مناياها كل جمع، و
تسمى كل ذى أمر و نهى، و ترمى كل مشيد بوهى، و من قبله طوت النعمان ابن الشقيقة، و لوت مجازه فى تلك الحقيقة. انتهى ما
قصدنا جلبه من كلام الفتح ممّا يدخل فى أخبار المعتمد بن عباد المناسبة لما مرّ.

و كلام الفتح كله الغاية، و ليس الخبر كالعيان، و لذا قال بعض من عرف به: إنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكروهم فى كتبه بنثره،
سامحه الله تعالى!

و أخبار المعتمد رحمه الله تعالى تحتمل مجلّدات، و آثاره إلى الآن بالغرب مخلّلات، و كان من النادر الغريب قولهم فى الدعاء
للصلاة على جنازته «الصلاة على الغريب» بعد اتّساع ملكه، و انتظام سلّكه، و حكمه على إشبيلية و أنحائها، و قرطبة و زهرائها، و هكذا
شأن الدنيا فى تدريسها نحو نديتها و إغرائها.

و قد توجه لسان الدين الوزير بن الخطيب إلى أغمات لزيارة قبر المعتمد رحمه الله تعالى، و رأى ذلك من المهمات، و أنشد على
قبره أبياته الشهيرة التى ذكرتها فى جملة نظمه الذى هو أرقّ من النسيم، و أبهج من المحيا الوسيم.

[زيارة لسان الدين لقبر المعتمد]

قلت: و قد زرت أنا قبر المعتمد و الرّميكية أم أولاده، حين كنت بمراكش المحروسة عام عشرة و ألف، و عمى على أمر القبر
المذكور، و سألت عنه من تظن معرفته له، حتى هدانى إليه
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥١
شيخ طعن فى السنّ، و قال لى: هذا قبر ملك ملوك الأندلس، و قبر حظيته التى كان قلبه بحبها خفاقا غير مطمئنّ، فرأته فى ربوة
حسبما وصفه ابن الخطيب رحمه الله تعالى فى الأبيات، و حصلت لى من ذلك المحلّ خشية و اذكار، و ذهبت بى الأفكار، فى
ضروب الآيات، فسبحان من يؤتى ملكه من يشاء لا إله غيره وارث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

[من شعر ابن عبدون و من شعر اللورقي يهجو آل عباد]

و ما أحسن قول الوزير ابن عبدون فى مطلع رأيته الشهيرة: [البيسط]
الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح و الصّور
و هو القائل: [البيسط]

يا نائم الليل فى فكر السّباب أفق فصبح شيبك فى أفق النهى بادى
غضّت عنانك أيدى الدهر ناسخة علما بجهل و إصلاحا بإفساد
و أسلمت للمنايا آل مسلمة و عبّدت للرزايا آل عباد
لقد هوت منك خانها قوادمها بكوكب فى سماء المجد و قاد

و منها:

و مالك كان يحمى شول قرطبة أستغفر الله، لا، بل شول بغداد

شقّ العلوم نطافا و العلا زهرا فبين ما بين رواد و وراد

و أين هذه القصيدة في مدحهم من قصيدة الغصّ منهم، و هي قول أبي الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي: [الطويل]

تعزّ عن الدنيا و معروف أهلها إذا عدم المعروف في آل عباد

حللت بهم ضيفا ثلاثة أشهر بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٢

و هذا يدلّك على أن الشعراء، لم يسلم من لسانهم من أحسن فضلا عن أساء، من العظاماء و الرؤساء، و ما أمدح قول أبي محمد بن

غانم فيهم: [الكامل]

و من الغريب غروب شمس في الثرى و ضياؤها باق على الآفاق

[الفتح يتحدث عن أولية بنى عباد]

و قال في المطمح في حق بنى عباد و أوليتهم ما صورته: الوزير أبو القاسم محمد بن عباد، هذه بقية منتماها في لخم، و مرتماها إلى

مفخر ضخم، و جدّهم المنذر بن ماء السماء، و مطلعهم في جوّ تلك السماء، و بنو عباد ملوك أنس بهم الدهر، و تنفس منهم عن

أعقب الزهر، و عمروا ربع الملك، و أمروا بالحياة و الهلك، و معتضدهم أحد من أقام و أقعد، و تبوأ كاهل الإرهاب و اقتعد، و افترش

من عريسته، و افترس من مكاييد فريسته، و زاحم بعود، و هدّ كل طود، و أحمل كل ذى زى و شارة، و ختل بوحي و إشارة، و

معتمدهم كان أجود الأملاك، و أحد تيرات تلك الأفلاك، و هو القائل، و قد شغل عن منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل:

[البسيط]

لقد حنت إلى ما اعتدت من كرم حنين أرض إلى مستأخر المطر

فهاتها خلعا أرضى السّماح بها محفوظه في أكفّ الشّرب بالبدر

و هو القائل و قد حنّ في طريقه، إلى فريقه: [الطويل]

أدار النوى كم طال فيك تلذّذى و كم عقتنى عن دار أهيف أغيد

حلفت به لو قد تعرض دونه كماء الأعادى فى النسيج المسرد

لجّردت للضرب المهند فانقضى مرادى و عزما مثل حد المهند

و القاضي أبو القاسم هذا جدهم، و به سفر مجدهم، و هو الذى اقتنص لهم الملك النافر، و اختصّهم منه بالحظ الوافر، فإنه أخذ

الرياسة من أيدي جبابر، و أضحي من ظلالها أعيان أكابر، عندما أناخت بها أطماعهم، و أصاغت إليها أسماعهم، و امتدت إليها من

مستحقيها اليد، و أتلعوا أجيادا زانها الجيد، و فغر عليها فمه حتى هجا بيت العبدى، و تصدى إليها من تحضر و تبدّى، فاقعد سنامها و

غاربها، و أبعد عنها عجمها و أعاربها، و فاز من الملك

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٣

بأوفر حصّة، و غدت سمته به صفة مختصة، فيما يمح رسم القضاء، و لم يتسم بسمه الملك مع ذلك النفوذ و المضاء، و ما زال يحمى

حوزته، و يجلو عزته، حتى حوته الرجام، و خلت منه تلك الآجام، و انتقل الملك إلى ابنه المعتضد، و حل منه فى روض نمق له و

نضد، و لم يعمر فيه و لم يدم و لاه، و تسمى بالمعتضد بالله، و ارتمى إلى أبعاد غايات الجود بما أناله و أولاه، لو لا بطش فى اقتضاء

النفوس كدّر ذلك المنهل، و عكر أثناء ذلك صفو العل و التهل، و ما زال للأرواح قابضا، و للوثوب عليها رابضا، يخطف أعداءه

اختطاف الطائر من الوكر، و ينتصف منهم بالدهاء و المكر، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتمد، فاحتل منه طرفه الرّمد، و أحمد مجده، و تقلد منه أيّ بأس و نجدة، و نال به الحق مناه، و جدّد سناه، و أقام في الملك ثلاثا و عشرين سنة، لم تعد له فيها حسنة و لا سيرة مستحسنة، إلى أن غلب على سلطانه، و ذهب به من أوطانه، فنقل، إلى حيث اعتقل، و أقام كذلك إلى أن مات، و وارته تربة أغمات، و كان للقاضي جده أدب غض، و مذهب مبيض، و نظم يرتجله كل حين، و ينفثه أعطر من الرياحين، فمن ذلك قوله يصف النيلوفر: [البسيط]

يا ناظرين لذا النيلوفر البهج و طيب مخبره في الفوح و الأرج
كأنه جام درّ في تألقه قد أحكموا وسطه فصا من السّج
انتهى المقصود منه.

و هو- أعنى الفتح- يشيد قصور الشرف إذا مدح، و يهدم معاقها إذا هجا و قدح.

[الأديب أبو جعفر بن البنى]

و من أغراضه قوله في «المطمح» في حق الأديب أبي جعفر بن البنى: رافع رايات القريض، و صاحب آيات التصريح و التعريض، أقام شرائعه، و أظهر بدائعه، إذا نظم أزرى بالعقود، و أتى بأحسن من رقم البرود، و كان أليف غلمان، و حليف كفر لا- إيمان، ما نطق متشرا، و لا رمق متورعا، و لا اعتقد حشرا، و لا صدق بعثا و لا نشرا، و ربما تنسك مجونا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٤

و فتكا، و تمسك باسم التقى و قد هتكة هتكا، لا يبالى كيف ذهب، و لا بم تمذهب، و كانت له أهاجى جرّع بها صابا، و درّع منها أوصابا، و قد أثبت له ما يرشرف ريقا، و يشرب تحقيقا، فمن ذلك قوله يتغزل: [الكامل]

من لى بغزة فاتن يختال في حلل الجمال إذا بدا و حلّيه
لو شبّ في وضح النهار شعاعها ما عاد جنح الليل بعد مضيّه
شرقت لآلى الحسن حتى خلّصت ذهبيّه في الخدّ من فضيه
في صفحتيه من الجمال أزاهر غذيت بوسمى الحيا و وليّه
سلّت محاسنه لقتل محبّه من سحر عينيه حسام سميه
و له فيه: [مجزوء الرمل]

كيف لا يزداد قلبي من جوى الشوق خبالا

و إذا قلت علىّ بهر الناس جمالا

هو كالغصن و كالبدر رقواما و اعتدالا

أشرق البدر كمالا و انثنى الغصن اختيالا

إنّ من رام سلوى عنه قد رام محالا

لست أسلو عن هواه كان رشدا أو ضلالا

قل لمن قصّر فيه عدل نفسى أو أطالا

دون أن تدرك هذا تسلب الأفق الهلالا

و كنت بميورقة و قد حلها متسما بالعبادة، و هو أسرى إلى الفجور من خيال أبى عبادة، و قد لبس أسمالا، و لبس منه أقوالا و أفعالا، سجوده هجود، و إقراره بالله ججود، و كانت له

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٥

رابطة لم يكن للوازها مرتبطا، ولا بسكنها مغتبطا، سماها بالعقيق وسمى فتى كان يتعشقه بالحمى، وكان لا يتصرف إلا في صفاته، ولا يقف إلا بعرفانه، ولا يؤرقه إلا جواه، ولا يشوقه إلا هواه، فإذا بأحد دعاء حبيبه، ورواة تشبيبه، قال له: كنت البارحة بحماه، و ذكر له خبرا ورى به عنى وعماه، فقال: [الوافر]

تنفس بالحمى مطلول أرض فأودع نشره نشرا شمالا

فصبحت العيون إلى كسلى تجرّ فيه أردانا خضالا

أقول وقد شممت التّرب مسكا بنفحتها يمينا أو شمالا

نسيم جاء يبعث منك طيبا ويشكو من محبتك اعتلالا

ولما تقرر عند ناصر الدولة من أمره ما تقرر، و تردد على سمعه انتهاكه و تكرر، أخرجه من بلده و نفاه، و طمس رسم فسقه و عفاه، فأقنع إلى المشرق و هو جار، فلما صار من ميورقة على ثلاثة بحار، نشأت له ريح صرفته عن وجهته، إلى فقد مهجته، فلما لحق بميورقة أراد ناصر الدولة إماحته، و أخذ ثار الدين منه و إراحته، ثم آثر صفحه، و أخذ ذلك الجمر و لفحه، و أقام أياما ينتظر ريحا عليها تزجيه، و يستهديها لتخلصه و تنجيه، و فى أثناء بلوته، لم يتجاسر أحد على إتيانه من إخوته، فقال يخاطبهم: [الوافر]

أحببتنا الألى عتبوا علينا فأقصرنا و قد أزف الوداع

لقد كنتم لنا جدلا و أنسا فهل فى العيش بعدكم انتفاع؟

أقول و قد صدرنا بعد يوم أشوق بالسّفينه أم نزع

إذا طارت بنا حامت عليكم كأنّ قلوبنا فيها شرع

و له يتغزل: [الوافر]

بنى العرب الصّميم ألا رعيتم ما تركم بآثار السّماح

رفعتم ناركم فعشا إليها بوهن فارس الحىّ الوقاح

فهل فى القعب فضل تنضحوه به من مخض ألبان اللّقاح

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٦

لعلّ الرّسل شائبة الثّنايا بشهد من ندى نور الأقاح

و له أيضا [الكامل]:

و كأنما رشأ الحمى لّمّا بدا لك فى مضلّعه الحديد المعلم

غضب الغمام قسيه فأراكها من حسن معطفه قويم الأسهم

و له أيضا: [الطويل]

نظرت إليه فاتقانى بمقله تردّ إلى نحى صدور رماح

حميت الجفون الثّوم يا رشأ الحمى و أظلمت أيامى و أنت صباحى

و قال: [البيسط]

قالوا تصيب طيور الجوّ أسهمه إذا رماها فقلنا عندنا الخبر

تعلمت قوسها من قوس حاجبه و أيد السّهم من إلحاظه الحور

يروح فى برده كالنّقس حالكة كما أضاء بجنح اللّيلة القمر

و ربّما راق فى خضراء مورقة كما تفتّح فى أوراقه الرّهر

[أبو الحسن بن لسان]

وقال في ترجمته أبي الحسن بن لسان: شاعر سمح، متقلد بالإحسان متشح، أم الملوك والرؤساء، ويمم تلك السعادة القعساء، فانتجع مواقع خيرهم، واقتطع ما شاء من ميرهم، وتمادت أيامه إلى هذا الأوان، فجالت به في ميدان الهوان، فكسد نفاقه، وارتدت آفاقه، وتوالى عليه حرمانه وإخفاقه، وأدرسته وقد خبنته سنونه، وانتظرتة منونه، ومحاسنه كعهدها في الاتقاد، وبعدها من الانتقاد، وقد أثبت منها ما يعذب جنى وقطافا، ويستعذب استنزالا واستلطافا، فمن ذلك قوله يستنجد الأمير الأجل أبا إسحاق ابن أمير المسلمين [الكامل].

قل للأمير ابن الأمير بل الذي أبدا به في المكلمات و في الندى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٧

والمجتنى بالزرق و هي بنفسج ورد الجراح مضغفا و منضدا

جاءتكم آمال العفاة ظوامئا فاجعل لها من ماء جودك موردا

وانثر على المداح سبيك أنهم نثروا المدائح لؤلؤا و زبرجدا

فالناس إن ظلموا فأنت هو الحمى و الناس إن ضلوا فأنت هو الهدى

أخبرني وزير السلطان أن هذه القطعة لما ارتفعت، اعتنت بجملة الشعراء و شفعت، فأنجز لهم الموعود، و أورد لهم ذلك العود، و كثر اللغظ في تعظيمها، و استجادة نظيمها، و حصل له بها ذكر، و انصقل له بسببها فكر.

و له من قطعة يصف بها سيفا: [الخفيف]

كل نهر توقدت شفرتاه كاتقاد الشهاب في الظلماء

فهو ماء مركب فوق نار أو كئار قد ركب فوق ماء

و كتب إلي معزيا عن والدتي: [المتقارب]

على مثله من مصاب و جب على من أصيب به المنتجب

و قلب فروق و لب خوف و نفس تشب و هم نصب

فقد خشعت للتقى هضبة ذؤابتها في صميم العرب

من الجاعلات محاريبها هوادجها أبدا و القتب

من القائمت بظل الدجى و لا من تسامر إلا الشهب

فكم ركعت إثرها في الدجى تناجى بها ربها من كتب

و كم سكبت في أواني السجود مدامع كالغيث لما انسكب

و قد خلقت ولدا باسلا فصيحاً إذا ما قرا أو خطب

يفل السيوف بأقلامه و يكسر صم القنا بالقصب

و كان القائد أبو عمرو عثمان بن يحيى بن إبراهيم أجل من جال في خلد، و استطال على جلد، رشأ يحيى باحتشامه، و يسترد البدر

بلثامه، و يزرى بالغصن تشبه، و يثمر الحسن لو دنت

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٨

قطوفه لمجتنيه، مع لودعيه تخالها جريالا، و سجيء يختال فيها الفضل اختيالا، و كان قد بعد عن أنسنا بحمص، و انتضى من تلك

القمص، و كان بثمر الأشبونه فسده، و لم يفرج لنا من الأنس بعده ما يسد مسده، إلى أن صدر، فأسرع إلينا و ابتدر، فالتقينا و بتنا ليلة

نام عنها الدهر و غفل، و قام لنا بما شئنا فيها و تكفل، فبينما نحن نفضّ ختامها، و نفضّ عنا غبار الوحشة و قتامها، إذا أنا بـابن لسان هذا و قد دخل إذنه علينا فأمرناه بالنزول و تلقيناه بالترحيب، و أنزلناه بمكان من المسرة رحيب، و سقيناها صغاراً و كباراً، و أريناه إعظاماً و إكباراً، فلما شرب، طرب، و كلما كرعها، التحف السلوة و تدرعها، و ما زال يشرب أقداحاً، و ينشد فينا أمداحاً، و يفدى بنفسه، و يستهدى الاستزادة من أنسه، فهتكنا الظلام بما أهدها من البديع، و اجتلينا محاسنه كالصديق، و انفصلت ليلته عن أتم مسره، و أعم مبره، و ارتحل عثمان أعزه الله إلى ثغره، و أقام به برهه من دهره، فمشيت بها إليه مجدداً عهداً، و متضلعا من مؤانسته شهداً، فكتب ابن لسان هذه القطعة من القصيدة يذهب إلى شكره، و يجتهد في تجديد ذكره:

[البيط]

ما شام إنسان إنسان كعثمان و لا كبعيته من حسن إحسان
بدر السيادة يبدو في مطالعه من المحاسن محفوفاً بشهبان
له التمام و ما بالأفق من قمر متم دون أن يرمى بنقصان
به الشبيبة تزهى من نضارتها كما تساقط طلّ فوق بستان
معصفر الحسن للأبصار ناصعه كأنه فضة شيت بعقيان
تبث عنه بأنباء إذا نفحت تعطلت نفحات المسك و البان
قامت عليه براهين تصدقها كالشكل قام عليه كل برهان
قد زادها ابن عبيد الله من وضوح ما زادت الشمس نور الفجر للزاني
بالله بلغه تسليمي إذا بلغت تلك الركاب و عجل غير لئان
و ليت أتى لو شاهدت أنسكما على كؤوس و طاسات و كيزان
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٥٩
فألفظ الكلم المنثور بينكما كأنما هو من درّ و مرجان
لله درّك يا ذا الخطتين لقد خططت بالمدح فيه كل ديوان
كلاكما البحر في جود و في كرم أو الغمامة تسقى كل ظمآن
إن كان فارس هيجاء و معترك فأنت فارس إفصاح و تبيان
فاذكر أبا نصر المعمور منزله بالرّفد ما شئت من مثني و وحدان
قصائد لأخي ودّ و إن نرحت بك الركاب إلى أقصى خراسان

[الأديب أبو بكر عبد المعطي]

و قال في ترجمة الأديب أبي بكر عبد المعطي: بيت شعر و نباهه، و أبو بكر ممن انتبه خاطره للبدايح أي انتباهه، و له أدب باهر، و نظم كما سمرت أزاهره، و قد أثبت له جمالا، يبلغ آمالا، فمن ذلك قوله، و قد اجتمعنا في ليلة لم يضرب لها وعد، و لم يعزب عنها سعد، و هو قعدى، قد شبّ عن طوق الأنس في التدي، و ما قال خلا عمرو و لا عدا، و الكهولة قد قبضته، و أقعدته عن ذلك و ما أنهضته:

[الوافر]

إمام النثر و المنظوم فتح جميع الناس ليل و هو صبح
له قلم جليل لا يجارى يقرّ بفضل سيف و رمح
يبارى المزن ما سحت سماحا و إن سحت فليس لديه شح

و كان مرتسما في عسكر قرطبة، و كان ابن سراج يقوم له بكل ما يبغى تطلبه، خيفة من لسانه، و محافظة على إحسانه، و لما خرج إلى إقليش خرج معه، و جعل يساير من شيعه، فلما حصلوا بفحص سرادق، و هو موضع توديع المفارق للمفارق، قرب منه أبو الحسين بن

سراج لوداعه، و أنشده في تفرق الشمل و انصداعه: [الطويل]

هم رحلوا عنا لأمر لهم عنا فما أحد منهم على أحد حنا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٠

و ما رحلوا حتى استفادوا نفوسنا كأنهم كانوا أحق بها منا

فيا ساكني نجد لتبعد داركم ظننا بكم ظنا فأخلفتم الظنا

غدرتم و لم أغدر، و خنتم و لم أخن و قلتم و لم أعتب، و جرتم و ما جرتنا

و أقسمتم أن لا تخونون في الهوى فقد و ذمام الحب خنتم و ما خننا

تري تجمع الأيام بيني و بينكم و يجمعنا دهر نعود كما كنا

فلما استتم إنشاده لحق بالسلطان و اعتذر إليه بمريض خلفه، و هو يخاف تلفه، فأذن له بالانصراف، و كتب إلى أبي الحسين بن سراج:

[الطويل]

أما و الهدايا ما رحلنا و لا حلنا و إن عت من دون الترحل ما عنا

تركنا ثواب الغزو و القصد للعدى على مضض منا و عدنا كما كنا

و ليس لنا عنكم على البين سلوة و إن كان أنتم عندكم سلوة عنا

و جمعتنا عشية بربض الزجالي بقرطبة، و معنا لمة من الإخوان و هو في جملتهم، منا هض لأعيانهم و حلتهم، بفضل أدبه، و كثرة

سحبه، فجعل يرتجل و يروى، و ينشر محاسن الآداب و يطوى، و يمتعنا بتلك الأخبار، و يقطعنا منها جانب اعتبار، و يطلعنا على إقبال

الأيام و على الإديار، ثم قال: [الطويل]

أيا ابن عبيد الله يا ابن الأكارم لقد بخلت يمينك صوب الغمام

لك القلم الأعلى الذي عطل القنا و فل طبات المرهفات الصوارم

و أخلاقك الزهر الأزاهر بالزبا ترف بشؤبوب الغيوث السواجم

بقيت لتشيد المكارم و العلى تظاهرها بالسالف المتقادم

و اجتمع عند أبيه لمة من أهل الأدب، و ذوى المنازل و الرتب، في عشية غيم أعقب مطرا، و خط فيها البرق أسطرا، و البرد يتساقط

كدر من نظام، و يتراءى كثنيا عادة ذات ابتسام، و هو غلام ما نضا برد شبابه، و لا انتضى مرهف آدابه، فقال معرضا بهم، و متعرضا

لتحقق أدبهم: [المتقارب]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦١

كأن الهواء غدیر جمد بحيث البروق تذيب البرد

خيوط و قد عقدت في الهواء و راحة ریح تحل العقد

و شرب في دار ابن الأعلم في يوم لم ير الدهر فيه إساءة، و ليل نسخ نور أنسه مساءه، و معهم جملة من الشعراء، و جماعة من الوزراء،

منهم أبناء القبطنة فوق بينهم عتاب و تعذال، و امتهان في ميدان المشاجرة و ابتذال، آل به إلى تجريد السيف، و تكدير ما صفا

بذلك الخيف، فسكنوه بالاستتزال، و ثنوه عن ذلك النزال.

[أبو بكر يحيى بن بقي]

و قال فى المطمح فى حق أبى بكر يحيى بن بقى القرطبى صاحب الموشحات البديعة:

كان نبيل السيرة و النظام، كثير الارتباط فى سلوكه و الانتظام، أحرز خصالا، و طرّز بمحاسنه بكرا و آصالا، و جرى فى ميدان الإحسان إلى أبعد أمد و بنى من المعارف أثبت عمده، إلا أن الأيام حرمته، و قطعت حبل رعايته و صرتمته، فلم تتم له وطرا، و لم تسجم عليه الحظوة مطرا، و لا- سوغت من الحرمة نصيبا، و لا- أنزلته مرعى خصيبا، فصار راكب سهوات، و قاطع فلوات، لا- يستقر يوما، و لا يستحسن يوما، مع توهم لا يظفره بأمان، و تقلب ذهن كالزمان، إلا أن يحيى بن على بن القاسم نزع من ذلك الطيش، و أقطعه جانبا من العيش، و رقاها إلى سمائه، و سقاها صيب نعمائه، و فيأه ظلاله، و بؤاه أثر النعمة يجوس خلاله، فصرف به أقواله، و شرف بعواقبه فعاله، و أفرده منها بأنفس در، و قصده منها بقصائد غر، انتهى المقصود جلبه من ترجمته فى المطمح.

و قال فى حقه فى القلائد: رافع رايه القريض، و صاحب آية التصريح فيه و التعريض، أقام شرائعه، و أظهر روائعه، و صار عصية طائعه، إذا نظم أزرى بنظم العقود، و أتى بأحسن من رقم البرود، و طغى عليه حرمانه، فما صفا له زمانه، انتهى.

و ابن بقى المذكور هو القائل:

بأبى غزال غازلته مقلتي بين العذيب و بين شطى بارق

الآيات المذكورة فى غير هذا الموضع.

و من موشحاته قوله:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٢

عبث الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد فلبت أدمعى

أيها الناس فؤادى شعف

هو من بغى الهوى لا ينصف

كم أداريه و دمعى يكف

أيها الشادن من علمكا بسهام اللحظ قتل السبع

بدر تم تحت ليل أغطش

طالع فى غصن بان منتشى

أهيف القد بخد أرقش

ساحر الطرف و كم ذا فتكا بقلوب الأسد بين الأضلع

أى ريم رمته فاجتنبنا

وانثنى يهتر من سكر الصبا

كفضيب هزه ربح الصبا

قلت هب لى يا حبيبي وصلكا و أطرح أسباب هجرى ودع

قال خدى زهره مذ فوفا

جردت عيناي سيفا مرهفا

حذرا منه بأن لا يقطفنا

إن من رام جناه هلكا فأزل عنك علال الطمع

ذاب قلبي فى هوى ظبى غرير

وجهه فى الدجن صبح مستنير

و فؤادى بين كفيه أسير
لم أجد للصبير عنه مسلكا فانتصارى بانسكاب الأدمع
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٣
و قال رحمه الله تعالى:
خذ حديث الشوق عن نفسى و عن الدمع الذى همعا
ما ترى شوقى قد اتقدا
و همى بالدمع و أطردا
و اغتدى قلبى عليك سدى
آه من ماء و من قبس بين طرفى و الحشا جمعا
بأبى ريم إذا سفرا
أطلعت أزراره قمرا
فاحذروه كلما نظرا
فبالحاظ الجفون قسى أنا منها بعض من صرعا
أرتضيه جار أو عدلا
قد خلعت العذر و العذلا
إنما شوقى إليه جلا
كم و كم أشكو إلى اللعس ظمئى لو أنه نفعا
صال عبد الله بالهور
و بطرف فاتر النظر
حكمه فى أنفـس البشر
مثل حكم الصبح فى الغلس إن تجلّى نوره صدعا
شبهته بالزشا الأمم
فلعمرى إنهم ظلموا
فتغنّى من به السقم
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ١٦٣
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٤
أين ظبى القفر و الكنس من غزال فى الحشا رتعا
انتهى، و له أيضا:
ما ردنى لابس ثوب الضنا الدارس إلا قمر
فى غصن مائس شعاعه عاكس ضوء البصر
أسير كالسبيل إليه لا باع إلا و داد
و الطيف فى خيل لهنّ إسراع مع الرقاد
يا كوكب الليل إن كنت ترتاع فلم فؤادى

كالأسد العابس لكنّه خانس من الحور

و من نظمه قصيدة مدح يحيى بن على بن القاسم المذكور بها، منها فى المديح قوله:

[الكامل]

نوران ليسا يحجبان عن الورى كرم الطباع و لا جمال المنظر

و كلاهما جمعا ليحيى فليدع كتمان نور علائه المتشهر

فى كلّ أفق من جمال ثنائه عرف يزيد على دخان المجر

رد فى شمائله ورد فى جوده بين الحديقه و الغمام الممطر

بدر عليه من الوقار سكينه فيها لقيطه كلّ ليث مخدر

مثل الحسام إذا انطوى فى غمده ألقى المهابة فى نفوس الحضر

أربى على المزن الملت لأنه أعطى كما أعطى و لم يستعبر

و منها:

أقبلت مرتادا لجودك إنه صوب الغمامه بل زلال الكوثر

و رأيت وجه النّجح عندك أيضا فركبت نحوك كلّ ليج أخضر

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٥

و هى طوبله.

و قوله: «أربى على المزن الملت- البيت» هو معنى تلاعب الشعراء بكرته، و أورده كل منهم على حسب مقدرته، فقال بعض:

[المنسرح]

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف فى الحكم بين شيئين

أنت إذا جدت ضاحك أبدا و هو إذا جاد داعم العين

و قال آخر: [الخفيف]

ما نوال الغمام يوم ربيع كنوال الأمير يوم سخاء

فنوال الأمير بدره عين و نوال الغمام قطره ماء

و هما من شواهد البديع.

[لأبى عبد الله الحوضى يمدح سلطان تلمسان]

و قال أبو عبد الله الحوضى التلمسانى فى قصيدة مدح بها سلطان تلمسان أبا عبد الله الزيانى: [الخفيف]

أصبح المزن من عطائك يحكى يوم الاثنين للأنام عطاء

كيف يدعى لك الغمام شبيها و لقد فقته سنا و سناء

أنت تعطى إذا تقصّر مالا و هو يعطى إذا تطوّل ماء

رجع- و ذكر العماد فى الخريدة ابن بقى المذكور، و أورده له جملة من المقطعات، و محاسنه كثيرة رحمه الله تعالى، و بقى على وزن

على.

[عود إلى بنى عباد]

رجع إلى بنى عباد رحمهم الله تعالى.

وقال ابن اللبانة في بنى عباد ما نصه: بماذا أصفهم وأحليهم، وأى منقبة من الجلالة أوليهم، فهم القوم الذى تجل مناقبهم عن العد والإحصاء، ولا يتعرض لها بالاستيفاء والاستقصاء، ملوك بهم زينت الدنيا وتحلت، وترقت حيث شاءت وحلت، إن ذكرت الحروب فعليهم يوقف منها الخبر اليقين، أو عدت المآثر فهم فى ذلك فى درجة السابقين،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٦

أصبح الملك بهم مشرق القسام، والأيام ذات بهجة وابتسام، حتى أناخ بهم الحمام، وعطل من محاسنهم الورا والأمام، فنقل إلى العدم وجودهم، ولم يرع بأسهم وجودهم، وكل ملك آدمى فمفقود، وما تؤخره إلا لأجل معدود، فأول ناشئ ملكهم، ومحصل الأمر تحت ملكهم، عظيمهم الأكبر، وسابقه شرفهم الأجل الأشهر، وزينهم الذى يعد فى الفضائل بالوسطى والخنصر، محمد بن عباد، ويكنى أبا القاسم، واسم والده إسماعيل، ومن شعره قوله:

[السريع]

يا حَبْدًا الياسمين إذ يزهر فوق غصون رطبة نَضْر

قد امتطى للجبال ذروتها فوق بساط من سندس أخضر

كأنه والعيون ترمقه زمرد فى خلاله جوهر

[وصف ابن اللبانة للمعتضد]

ولنذكر كلام ابن اللبانة وغيره فى حقهم فنقول: وصف المعتضد رحمه الله تعالى بما صورته: المعتضد أبو عمرو عباد رحمه الله تعالى، لم تخل أيامه فى أعدائه من تقييد قدم، ولا عطل سيفه من قبض روح و سفك دم، حتى لقد كانت فى باب داره حديقه لا تثمر إلا رؤوسا، ولا تنبت إلا رئيسا ومرءوسا، فكان نظره إليها أشهى مقترحاته، وفى التلفت إليها استعمل جل بكره و روحاته، فبكى وأرق، و شتت و فرق، ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغى أن تصان عنه الأسماع، ولا يتعرض له بتصريح ولا إلماع، ومن نظمه عفا الله عنه [مجزوء الرجز]:

أتتك أم الحسن تشدو بصوت حسن

تمد فى ألحانها من الغناء المدنى

تقود منى ساكنا كأننى فى رسن

أوراقها أستارها إذا شدت فى فنن

و قوله: [الطويل]

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بماء صباح والنسيم رقيق

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٧

معتقه كالتبر أما بخارها فضخم وأما جسمها فرقيق

و قوله: [المتقارب]

قد وجدنا الحبيب يصفى وداده و حمدنا ضميره و اعتقاده

قرب الحب من فؤاد محب لا يرى هجره و لا إبعاده

وقال عند حصول رنده فى ملكه: [مجزوء الكامل]

لقد حصنت يا رنده فصرت لملكنا عده

أفادتناك أرماع و أسياف لها حدّه
و قال رحمه الله تعالى: [مجزوء الكامل]
اشرب على وجه الصّباح و انظر إلى نور الأفاح
و اعلم بأنّك جاهل ما لم تقل بالاصطباح
فالدّهر شيء بارد ما لم تسخّنه براح

[ابن جاح يرد على المعتضد]

و من حكايات المعتضد عباد ما ذكره غير واحد أن ابن جاح الشاعر ورد على حضرته، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء، فسأله، فقال: إني شاعر، فقالوا: أنشدنا من شعرك، فقال: [الكامل]

إني قصدت إليك يا عبّادى قصد القليق بالجري للوادي

فضحكوا منه و ازدروه، فقال بعض عقلائهم: دعوه فإن هذا شاعر، و ما يبعد أن يدخل مع الشعراء و يندرج في سلكهم، فلم يبالوا بكلام الرجل، و تنادروا على المذكور، فبقى معهم، و كان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص لا يدخل فيه على الملك غيرهم، و ربما كان يوم الاثنين، فقال بعض لبعض: هذه شنعاء بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا، و يجترئ على الدخول معنا، فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، و قد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، و يكون ذلك حسما لعله إقدام مثله عليهم، فلما كان اليوم المذكور، و قعد السلطان في مجلسه، و نصب الكرسي لهم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٨

- رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك، فصعد الكرسي، و انتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم، فقال: [الكامل]

قطعت يا يوم التوى أكبادى و حرمت عن عيني لذيذ رقادى
و تركتني أرى النجوم مسهدا و النار تضرم في صميم فؤادى
فكأنما آلى الظلام آية لا ينجلي إلا إلى ميعاد

لى بين بين أين تققاد التوى إبل الذين تحمّلوا بسعاد
و لربّ خرق قد قطعت نياطه و الليل يرفل في ثياب حداد
بشملة حرف كأنّ ذميلها سرح الزياح و كلّ برق غادى
و النجم يحدوها و قد ناديتها يا ناقتى عوجى على عبّاد
ملك إذا ما أضرمت نار الوغى و تلاقت الأجناد بالأجناد
فترى الجسموم بلا رؤوس تشنى و ترى الرءوس لقي بلا أجساد
يا أيها الملك المؤمل و الذى قدما سما شرفا على الأنداد
إنّ القريض لكاسد فى أرضنا و له هنا سوق بغير كساد
فجلبت من شعري إليك قوافيا يفنى الزمان و ذكرها متمادى
من شاعر لم يضطلع أدبا و لا خطت يده صحيفة بمداد

فقال له الملك: أنت ابن جاح؟ فقال: نعم، فقال: اجلس فقد وليتك رياسة الشعراء، و أحسن إليه، و لم يأذن فى الكلام فى ذلك اليوم لأحد بعده. انتهى.

[المعتمد على الله بن المعتضد بن عباد]

رجع إلى أخبار بقية بنى عباد:

المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد أبي عمرو عباد ابن القاضي أبي القاسم ابن عباد رحمه الله تعالى: ملك مجيد، و أديب على الحقيقة مجيد، و همام تحلى به للملك لبنة

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٦٩

و للنظم جيد، أفنى الطغاة بسيفه و أباد، و أنسى بسيفه ذكر الحارث بن عباد، فأطلع أيامه فى الزمان حجولا و غررا، و نظم معاليه فى أجيادها جواهر و دررا، و شيد فى كل معلو فناءه، و عمر بكل نادرة مستغربة و بادرة مستظرفة أوقاته و آناه، فنفتت به للمحامد سوق، و بسقت ثمرات إحسانه أى بسوق، منع و قرى، و راش و برى، و وصل و فرى، و كان له من أبناؤه عدة أعمار نظمهم نظم الملك، و زين بهم سماء ذلك السلوك، فكانوا معاقل بلاده، و حماة طارفة و تلالده، إلى أن استدار الزمان كهيته، و أخذ البؤس فى فيته، و اعتر الخلاف و ظهر، و سلّ الشتات سيفه و شهر، و المعتمد رحمه الله تعالى يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات، بين تلك الثبات، و المقام، فى ذلك المقام، إلى أن بدل القطب بالواقع، و اتسع الخرق على الراقع، فاستعضد بابن تاشفين فورد عليه كتابه يشعر بالوفاء، فثاب إليه فكر خاطره و فاء، و ثبت خلال تلك المدّة للتزال، و دعا من رام حربه نزال، إلى أن أصبح و الحروب قد نهبت، و الأيام تسترجع منه ما وهبته، فتل ذلك العرش، و اعتدت الليالى حين أمنت من الأرش فنقل من سهوات الخيول إلى بطون الأجنان، و هذه الدنيا جميع ما لديها زائل و كل من عليها فان، فما أغنت تلك المملكة و ما دفعت، وليتها ما ضرت إذ لم تكن نفعت، و كل يلقي معجله و مؤجله، و يبلغ الكتاب أجله.

و قال الفقيه القاضى أبو بكر بن خميس رحمه الله تعالى حين ذكر تاريخ بنى عباد: و قد ذكر الناس للمعتمد من أوصافه، ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه، و أنا الآن أذكر نبذا من أخباره، و أردفها بما وقفت عليه من منظومات أشعاره، فإنه رحمه الله تعالى حمّ الأدب رائقه، على النظم فائقه، كان يسمى بمحمد، و يكنى بأبى القاسم، على كنية جده القاضى، استبد بالأمر عند موت أبيه المعتضد، و فى ذلك يقول الحصرى رحمه الله تعالى: [مجزوء الرمل]

مات عباد و لكن بقى الفرع الكريم

فكأن الميت حى غير أن الضاد ميم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٠

قال ابن اللبانه رحمه الله تعالى: و لم يزل المعتمد بخير إلى أن كانت سنة خمس و سبعين و أربعمائه، و وصل اليهودى ابن شاليب لقبض الجزية المعلومة مع قوم من رؤساء النصارى، و حلوا بباب من أبواب إشبيلية، فوجه لهم المعتمد المال، مع جماعة من وجوه دولته، فقال اليهودى: و الله لا أخذت هذا العيار، و لا آخذه منه إلا مشجرا، و بعد هذا العام لا آخذ منه إلا أجنان البلاد، ردوه إليه، فرد المال إلى المعتمد، و أعلم بالقصة، فدعا بالجندي، و قال: ائتوني باليهودى و أصحابه، و اقطعوا جبال الخباء، ففعلوا و جاؤوا بهم، فقال: اسجنوا النصارى، و اصلبوا اليهودى الملعون، فقال اليهودى: لا تفعل، و أنا أفتدى منك بزنتى مالا فقال: و الله لو أعطيتنى العدو و الأندلس ما قبلتهما منك، فصلب، فبلغ الخبر النصرانى فكتب فيهم، فوجه إليه بهم، فأقسم النصرانى أن يأتى من الجنود بعدد شعر رأسه حتى يصل إلى بحر الزقاق، و أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إذ ذاك محاصر سبتة، فجاز المعتمد إليه، و وعده بنصرته، فرجع و حث ملوك الأندلس على الجهاد، ثم وصل ابن تاشفين، فكانت غزوة الزللفة المشهورة، و رجع ابن تاشفين إلى المغرب، ثم جاز بعد ذلك إلى الأندلس، و توهم ابن عباد أنه إذا أخذ البلاد يأخذ أموالها و يترك الأجنان، فعزم ابن تاشفين على أن يخلع ملوك الأندلس، و دارت إذ ذاك مكاييد جمه، ثم وجه ابن تاشفين من سبتة إلى المعتمد يطلب منه الجزيرة الخضراء و فيها ابنه يزيد، فكتب

إليه معذرا عنها، فلم يكن إلا كلمح البصر و إذا بمائة شراع قد أطلت على الجزيرة، فطير ابنه الحمام إليه، فأمره بإخلائها، فظهر عند ذلك ابن تاشفين، وقيل: إنه لم يجز المرة الأولى حتى طلب من المعتمد الجزيرة لتكون عدة له، و كان ذلك بدسيسة بعض أهل الأندلس نصحا لابن تاشفين، ثم شرع ابن تاشفين فى خلع ملوك الأندلس و قتالهم، و أرسل إلى كل مملكة جماعة من أهل دولته و أجناده يحاصرونها، و أرسل إلى حضرة المعتمد إشبيلية، و شرع فى قتالها، و الناس قد ملوا الدولة العبّادية و سئموها، على ما جرت به العادة من حب الجديد، لا سيما و قد ظهر من ابن عباد من التهتك فى الشرب و الملاهى ما لا يخفى أمره، فتمنى أكثر الناس الراحة من دولتهم، و لما اشتدّ مخنق المعتمد وجه عن النصارى، فأعدّ لهم ابن تاشفين من لقيهم فى الطريق، فهزمهم، و جهز ابن تاشفين

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧١

القطائع لإشبيلية، جدّ فى حصارها، و المعتمد مع ذلك منغمس فى لذاته، و قد ألقى الأمور بيد ابنه الرشيد، فلم يشعر ابن عباد إلا و العسكر معه فى البلد، فأفاق من نومه، و صحا من سكره، و ركب فرسه و حسامه فى يده، و ليس عليه إلا ثوب واحد، فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج، و وافى هنالك طبالا فضربه بسيفه ضربة قسمة بها نصفين، ففر الناس أمامه، و تراموا من السور، و وقف حتى بان الباب، و فى ذلك يقول الأبيات المذكورة فيما يأتى «إن يسلب القوم العدا- إلى آخره». فلما وصل إلى باب الصباغين وجد ابنه مالكا مقتولا، فاسترحم له، و دخل القصر، و زاد الأمر بعد ذلك، و دخل البلد من كل جهاته، فطلب الأمان له و لمن معه، فأمن و جميع من له، و أعدت له مراكب، و اجتاز إلى طنجة، فلقى الحصرى الشاعر، و كان قد ألف له كتاب «المستحسن من الأشعار» فلم يقض بوصوله إليه إلا- و هو على تلك الحالة، فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصرى: ارفع ذلك البساط فخذ ما تحته، فوالله ما أملك غيره، فوجد تحته جملة مال، فأخذه، ثم انتقل حتى وصل أغمات، و لم يزل بها إلى أن مات، رحمه الله تعالى!.

و قال الفتح فى ترجمته ما نصه: ملك قمع العدا، و جمع البأس و الندى، و طلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يوما كفه و لا بنانه، آونة يراعه و آونة سنانه، و كانت أيامه مواسم، و ثغوره بواسم، و لياليه كلها دررا، و للزمان حجولا و غررا، لم يغفلها من سمات عوارف، و لم يضحها من ظل إيناس وارف، و لا- عطلها من مآثرة بقى أثرها باديا، و لقي معفيه منها إلى الفضل هاديا، و كانت حضرته مطمحا للهمم، و مسرحا لآمال الأمم، و مقدفا لكل كمى، و موقفا لكل ذى أنف حمى، لم تخل من وفد، و لم يصح جوها من انسجام رقد، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماه، و مشاهير الحماه، أعداد يغص بهم الفضاء، و أنجاد يزهى بهم النفوذ و المضاء، و طلع فى سمائه كل نجم متقد، و كل ذى فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميدانا لزهان الأذهان، و مضمارا لإحراز الخصل، فى كل معنى و فصل، فلم يلتحق بزمامه إلا كل بطل نجد، و لم يتسق فى نظامه إلا ذكاء و مجد، فأصبح عصره أجمل عصر، و غدا مصره أكمل مصر، تسفح فيه ديم الكرم، و يفصح فيه لسان سيف و قلم،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٢

و يفضح الرضا فى وصفه أيام ذى سلم، و كان قومه و بنوه لتلك الحلبة زينا، و لتلك الجملة عينا، إن ركبوا خلت الأرض فلكا يحمل نجوما، و إن وهبوا رأيت الغمام سجوما، و إن أقدموا أحجم عنترة العيسى، و إن فخرؤا أفحم عرابه الأوسى، ثم انحرفت الأيام فألوت بإشراقه، و أذوت يانع إيراقه، فلم يدفع الرمح و لا- الحسام، و لم تنقع تلك المنن الجسام، فتملك بعد الملك، و حط من فلكه إلى الفلك، فأصبح خائضا تحدوه الرياح، و ناهضا يزجيه البكاء و الصياح، قد ضجت عليه أياديه، و ارتجت جوانب ناديه، و أضحت منازلها قد بان عنها الأنس و الحبور، و ألوت ببهجتها الصبا و الدبور. فبكت العيون عليه دما، و عاد موجود الحياة عدما، و صار أحرار الدهر فيه خدما، فسحقا لدنيا ما رعت حقوقه، و لا أبقت شروقه، فكم أحيها لبنيها، و أبداها رائقة لمجنتيها، و هى الأيام لا يتقى من تجنيها، و لا تبقى على مواليتها و مدانيها، أدثرت آثار جلق، و أخدمت نار المحلق، و ذلت عزة ابن شداد، و هدت القصر ذا الشرفات من سداد، و نعمت ببؤس النعمان، و أكنمت غدرها له فى طلب الأمان، انتهى.

ثم ذكر الفتح من أخباره وأشعاره ومجالس أنسه وغير ذلك من أمره نبذا ذكرنا بعضها في هذا الكتاب. وقال في ترجمة ابنه الراضى بالله أبى خالد يزيد بن المعتمد ما نصه: ملك تفرع من دوحه سناء، أصلها ثابت و فرعها فى السماء، و تحدر من سلالة أكابر، و رقاءة أسره و منابر، و تصرف أثناء شبيبته بين دراسة معارف، و إفاضة عوارف، و كلف بالعلم حتى صار ملهج لسانه، و روضة أجفانه، لا يستريح منه إلا إلى فرس سائل الغرة، ميمون الأسرة، يسابق به الرياح، و يحاسن بغيرته البدر اللئاح، عريق فى السناء، عتيق الاقتناء، سريع الوحده و الإرقال، من آل أعوج أو ولد لذى العقال، إلى أن ولاه أبوه الجزيرة الخضراء، و ضم إليها رنده الغراء، فانتقل من متن الجواد، إلى ذروة الأعواد، و ألقع عن الدراسة، إلى تدبير الرياسة، و ما نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٣

زال يدبرها بجوده و نهاه، و يورد الآمل فيها مناه، حتى غدت عراقا، و امتلأت إشراقا، إلى أن اتفق فى أمر الجزيرة ما اتفق، و خاب فيها الرجاء و أخفق، و استحالت بهجتها، و أحالت عليها من الحال لجتها، فانتقل إلى رنده معقل أشب، و منزل للسماك منتسب، و أقام فيها رهين حصار، و مهين حماة و أنصار، و لقيت ريحه كل إعصار، حتى رمته سهام الخطوب عن قسيها، و أمكنت منه يدى مسيها، فحواه رمسه، و طواه عن غده أمسه، حسبما بسطنا القول فيه، فيما مر من أخبار أبيه، انتهى.

و الذى أشار إليه هنا و أحال عليه فيما تقدم له من أخبار المعتمد هو قوله بعد حكايته قتل المأمون بن المعتمد بقرطبة و سياقه أخبار ذلك ما نصه: ثم انتقلوا إلى رنده أحد معاقل الأندلس الممتنعة، و قواعدها السامية المرتفعة، تطرد منها على بعد مرتقاها، و دنو النجوم من ذراها، عيون لانصبابها دوى كالرعد القاصف، و الرياح العواصف، ثم تتكون واديا يلتوى بجوانبها التواء الشجاع، و يزيدا فى التوعر و الامتناع، و قد تجونت نواحيها و أقطارها، و تكونت فيها لباناتها و أوطارها، لا يتعذر لها مطلب، و لا يتصور فيها عدو إلا عقله ناب أو مخلب، فلما أناخوا منها على بعد، و أقاموا من الرجاء فيها على غير وعد، و فيها ابنه الراضى لم يحفل بإناحتهم بإزائه، و لا عدّها من أرزائه، لامتناعه من منازلهم، و ارتفاعه عن مطاولتهم، إلى أن انقضى فى [أمر] إشبيلية ما انقضى، و أفضى أمر أبيه إلى ما أفضى، فحمل على مخاطبته لينزل عن صياصيه، و يمكنهم من نواصيه، فنزل برا بأبيه، و إبقاء على أرماق ذويه، بعد أن عاقدهم مستوثقا، و أخذ عليهم عهدا من الله و موثقا، فلما وصل إليهم، و حصل فى يديهم، مالوا به عن الحصن و جرعوه الردى، و أقطعوه الثرى حين أودى، و فى ذلك يقول المعتمد يرثيها، و قد رأى قمرية بائحة بشجنها، نائحة بفننها على سكنها، و أمامها و كر فيه طائران يرددان نغما، و يغردان ترحة و ترنما: [الطويل]

بكت أن رأت إلفين ضمّهما و كر مساء و قد أخنى على إلفها الدهر
و ناحت فباح و استراحت بسرّها و ما نطقت حرفا يباح به سرّ

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٤

فما لى لا أبكى أم القلب صخرة و كم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقهه و أبكى لألاف عديدهم كثر

بنى صغير أو خليل موافق يمزق ذا قفر و يغرق ذا بحر

و نجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة التكداء أو رنده القبر

غدرت إذن إن ضنّ جفنى بقطرة و إن لومت نفسى فصاحبها الصبر

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى لمثلهما فلنحزن الأنجم الزهر

و قال فى ترجمة الراضى ما صورته. و كان المعتمد رحمه الله تعالى كثيرا ما يرميه بملامه، و يصميه بسهامه، فربما استلطفه بمقال أفصح من دمع المحزون، و أملح من روض الحزون، فإنه كان ينظم من بديع القول لآلىء و عقودا، تسلّ من النفوس سخائم و حقودا،

وقد أثبت من كلامه في بث آلامه، واستجارة عذله و ملامه، ما تستبدعه، و تحله النفوس و تودعه، فمن ذلك ما قاله و قد أنهض جماعة من أخوته و أفعده، و أدناهم و أبعدته:

[الوافر]

أعيذك أن يكون بنا خمول و يطلع غيرنا و لنا أفول
حنانك إن يكن جرمي قبيحا فإنّ الصّفح عن جرمي جميل
أ لست بفرعك الزّاكي و ما ذا يرجي الفرع خانته الأصول
ثم قال الفتح بعد كلام: و مرت عليه- يعنى الراضى- هوادج و قباب، فيها حباب كن له و أحباب، ألفهن أيام خلائه من دوله، و جال معهن فى ميدان المنى أعظم جوله، ثم انتزعوا منه ببعده، و أودعوا الهوادج من بعده، و وجّهوا هدايا إلى العدوّة، و ألموا بها إمام قريش بدار الندوة، فقال: [البسيط]

مرّوا بنا أصلا من غير ميعاد فأوقدوا نار قلبى أى إيقاد
و أذكرونى أيّاما لهوت بهم فيها ففازوا يياثارى و إحمادى
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٥
لا غرو أن زاد فى وجدى مرورهم فرؤية الماء تذكى غلة الصّادى

و لما وصل المعتمد لورقة أعلم أن العدو قد جيش لها و احتشد، و نهد نحوها و قصد، ليركها خاوية على عروشها، طاوية الجوانح على و حوشها، فتعرض له المعتمد دون بغيته، و طلع عليه من ثنيتته، و أمر الراضى بالخروج إليه فى عسكر جرّده لمحاربتة، و أعدّه لمصادمته، و مضاربتة، فأظهر التمرض و التشكى، و أضمر التقاعس و التلكى، فرارا من المصادمة، و إحجاما عن المساومة، و جزعا من منازل الأقران، و مقابلة ذوايل المران، و مقاساة الطعان، و ملاقات أبطال كالزّعان، و رأى أن المطالعة، أرجح من المقارعة، و معاناة العلوم، أربح من مداواة الكلوم، فقد كان عاكفا على تلاوة ديوان، عارفا بإجادة صدر و عنوان، فعلم المعتمد ما نواه، و تحقق ما لواه، فأعرض عنه، و نفى يده منه، و وجه المعتدّ مع ذلك الجيش الذى لم تنشر بنوده، و لا- نصرت جنوده، فعندما لاقوا العدو لاذوا بالفرار، و عاذوا بإعطاء الغرة بدلا من الغرار، و تفرقوا فى تلك الأماريت، و فرقوا من تخطف أولئك العفاريت، فتحيّف العدو من بقى مع المعتد و اهتضمه، و خضم ما فى العسكر و قضمه، و غدت مضاربه مجرّ عواليه، و مجرى مذاكيه، و آب أخسر من بائع الشدائنة، و مضيع الأمانة، فانطبقت سماء المعتمد على أرضه، و شغلته عن إقامة نوافله و فرضه، فكتب إليه الراضى: [البسيط]

لا يكر تترك خطب الحادث الجارى فما عليك بذاك الخطب من عار

ما ذا على ضيغم أمضى عزيمته إن خانه حدّ أنياب و أظفار
لئن أتوك فمن جبن و من خور قد ينهض العير نحو الضيغم الضارى
عليك للناس أن تبقى لنصرتهم و ما عليك لهم إسعاد أقدار
لو يعلم الناس فيما أن تدوم لهم بكوا لأنك من ثوب الصبا عارى
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٦

و لو أطاقوا انتقاصا من حياتهم لم يتحفوك بشيء غير أعمار
فحجب عنه وجه رضاه، و لم يستنزله بذلك و لا استرضاه، و تمادى على إعراضه، و قعد عن إظهاره و إنهاضه، حتى بسطته سوانح السلو، و عطفته عليه جوانح الحنو، فكتب إليه بهزل، غلب فيه كل منزع جزل، و هو: [مجزوء الكامل]

الملك فى طى الدفاتر فتخلّ عن قود العساكر

طف بالشرير مسلّما و ارجع لتوديع المنابر

وازحف إلى جيش المعارف تقهر الحبر المقامر
 واطعن بأطراف اليراع نصرت في ثغر المحابر
 واضرب بسكين الدواة مكان ماضي الحدّ باتر
 أو لست رسطاليس إن ذكر الفلاسفة الأكابر
 وأبو حنيفة ساقط في الرأى حين تكون حاضر
 وكذاك إن ذكر الخليل فأنت نحويّ وشاعر
 من هرمس من سيوى ه من ابن فورك إذ تناظر
 هذى المكارم قد حوى ت فكن لمن حاباك شاكر
 واقعد فإنك طاعم كاس وقل: هل من مفاخر
 لحجبت وجه رضاي عنك و كنت قد تلقاه سافر
 أو لست تذكر وقت لورقة و قلبك ثم طائر
 لا يستقر مكانه و أبوك كالضغام خادر
 هلاً اقتديت بفعله و أطعته إذ ذاك أمر
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٧
 قد كان أبصر بالعواقب و الموارد و المصادر
 فكتب إليه الراضى مراجعا بقطعه منها: [مجزوء الكامل]
 مولاي قد أصبحت كافر بجميع ما تحوى الدفاتر
 و فللت سكين الدواة و ظلت للأقلام كاسر
 و علمت أن الملك ما بين الأستة و البواتر
 و المجد و العلياء في ضرب العساكر بالعساكر
 لا ضرب أقوال بأقوال و ال ضعيفات مناكر
 قد كنت أحسب من سفاه أنها أصل المفاخر
 فإذا بها فرع لها و الجهل للإنسان عاذر
 لا يدرك الشرف الفتى إلا بعسال و باتر
 و هجرت من سميتهم و جحدت أنهم أكابر
 لو كنت تهوى ميتتى لو جدتنى للعيش هاجر
 ضحك الموالى بالعبى د إذا تؤمل غير ضائر
 إن كان لى فضل فمنك و هل لذاك الثور ساتر
 أو كان بى نقص فمنى غير أن الفضل غامر
 ذكرت عبدك ساعة يبقى لها ما عاش ذاكر
 يا ليتة قد غيبت ه عندها إحدى المقابر
 أ تريد منى أن أكون كمن غدا فى الدهر غادر
 هيهات ذلك مطمع يعى الأوائل و الأواخر

لا تنس يا مولاي قوله ضارع لا قول فاخر
ضبط الجزيرة عندما نزلت بعقوتها العساكر
أيام ظلت بها فرى دا ليس غير الله ناصر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٨
إذ كان يعشى ناظري لمع الأسنه و البواتر
و يصمّ أسماعى بها قرع الحجارة بالحوافر
و هى الحضيض سهوله لكن ثبت بها مخاطر
هبنى أسأت كما أسأت أما لهذا العتب آخر
هب زلتى لبتوتى و اغفر فإن الله غافر

فقربه و أدناه، و صفح عما كان جناه، و لم تزل الحال آخذة فى البوار، و الأمور معتلة اعتلال حبّ الفرزدق للنّوار، حتى مضوا لغير
طيّة، و قضوا بين الصوارم و الرماح الخطيّة، حسبما سردناه، و على ما أوردناه، و إذا أراد الله سبحانه إنفاذ أمر سبق فى علمه، فلا مرد
له و لا معقب لحكمه، و لا إله إلا هو رب العالمين، انتهى كلام الفتح.

و على الجملة فكانت دولة بنى عباد بالأندلس من أبهج الدول فى الكرم و الفضل و الأدب، حتى قال ابن اللبانه رحمه الله تعالى: إن
الدولة العبّادية بالأندلس أشبه شىء بالدولة العبّاسية ببغداد، سعة مكارم، و جمع فضائل، و لذلك ألف فيها كتابا مستقلا سماه
«الاعتماد، فى أخبار بنى عباد» و لا يلتفت لكلب عقور نبج بقوله: [البيسط]

مما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء معتضد فيها و معتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهزّ يحكى انتفاخا صورة الأسد

لأن هذه مقالة متعسف كافر للنعم، و مثل ذلك فى حقهم لا يقدر، و ما زالت الأشراف تهجى و تمدح.

[أولاد المعتمد و من مدائح الدانى فى بنى عباد مقتل بنى المعتمد ورناء ابن حمديس]

و للمعتمد أولاد ملوك منهم المأمون و الرشيد و الراضى و المعتمد و غيرهم، و قد سردنا خبر بعضهم.

و كان الدانى المذكور مائلا إلى بنى عباد بطبعه، إذ كان المعتمد هو الذى جذب بضبعه، و له فيه المدائح الأنيقة، التى هى أذكى من
زهر الحديقه، فمن ذلك قوله من قصيدة يمدحه بها و يذكر أولاده الأربعة، الذين عمروا من المجد أربعة، و هم الرشيد عبید الله و
الراضى يزيد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٧٩

و المأمون و المؤمن، و كانوا نجوم ذلك الأفق و غيوث ذلك الزمن، و لقد أجاد فى ذلك كل الإجادة، و أطال لمجدهم نجاده:
[الطويل]

يغيثك فى محل، يعينك فى ردى يروعك فى درع، يروكك فى برد

جمال و إجمال و سبق و صولة كشمس الصّحى كالمزن كالبرق كالزّعد

بمهجته شاد العلا ثم زادها بناء بأبناء جحاجحه لدّ

بأربعة مثل الطّباع تركبوا لتعديل ذكر المجد و الشرف العدّ

و المأمون بن المعتمد قتله لمتونة بقرطبة، و الراضى يزيد قتلوه برندة كما سقنا خيره آنفا، و فى حالتهم هذه يقول الشاعر المشهور عبد

الجبار بن حمديس الصقلی: [الطويل]

ولما رحلت بالندى في أكفكم وقلقل رضوى منكم وثير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت فهذى الجبال الراسيات تسير

[من شعر الداني في المعتمد]

و في قضية المعتمد يقول الداني المذكور: [البسيط]
لكل شيء من الأشياء ميقات و للمنى فى منايهن غايات
و الدهر فى صفة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات
و نحن من لعب الشطرنج فى يده و طالما قمرت بالبيدق الشاة
انفض يديك من الدنيا و زينتها فالأرض قد أفقرت و الناس قد ماتوا
و قل لعالمها الأرضى قد كتمت سريرة العالم العلوى أغمات
و هى طويله ذكرها الفتح و غيره.

و للداني أيضا قصيدة عملها فى المعتمد و هو بأغمات سنة ٤٨٦: [الطويل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٠
تنشق بريحان السلام فإنما أفض به مسكا عليك مختما
و قل لى مجازا إن عدت حقيقة لعلك فى نعمى فقد كنت منعما
أفكر فى عصر مضى بك مشرقا فيرجع ضوء الصبح عندى مظلما
و أعجب من أفق المجرة إذ رأى كسوفك شمسا كيف أطلع أنجما
لئن عظمت فيك الرزية إننا وجدناك منها فى الرزية أعظما
قناه سعت للطن حتى تقسمت و سيف أطال الضرب حتى تتلما
و منها:

بكى آل عباد و لا كمحمد و أولاده صوب الغمامة إذ همى
حبيب إلى قلبى حبيب لقوله عسى طلل يدنو بهم و لعلما
صباحهم كنا به نحمد السرى فلما عد منا هم سرينا على عمى
و كنا رعينا العز حول حماهم فقد أجذب المرعى و قد أفقر الحمى
و قد ألبت أيدى الليالى قلوبهم مناسج سدى الغيث فيها و ألحما
قصور خلت من ساكنيها فما بها سوى الأدم تمشى حول واقفة الدمى
تجيب بها الهام الصدى و لطالما أجاب القيان الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس، و لا التقى بها الوفد جمعا و الخميس عرمرما
و منها:

حكيت و قد فارقت ملكك مالكا و من ولهى أحكى عليك متمما
مصاب هوى بالتيرات من العلا و لم يبق فى أرض المكارم معلما
تضيق على الأرض حتى كأنما خلقت و إياها سوارا و معصما
ندبتك حتى لم يخل لى الأسى دموعا بها أبكى عليك و لا دما

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨١

و إني على رسمي مقيم فإن أمت سأجعل للباكين رسمي موسما
بكاك الحيا و الريح شقت جيوبها عليك و ناح الرعد باسمك معلما
و مزق ثوب البرق و اكتست الصّحي حدادا و قامت أنجم الجوّ أفحما
و حار ابنك الإصباح و جدا فما اهتدى و غار أخوك البحر غيضا فما طمى
و ما حلّ بدر التّم بعدك دارة و لا أظهرت شمس الظّهيرة مبسما
قضى الله أن حطوك عن ظهر أشقر بشمّ و أن أمطوك أشأم أدهما
و كان قد انفكت عنه القيود، فأشار إلى ذلك بقوله فيها:
قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت قيودك منهم بالمكارم أرحما
عجبت لأن لان الحديد و أن قسوا لقد كان منهم بالسريرة أعلما
سينجيك من نجى من السّجن يوسف و يؤويك من آوى المسيح بن مريما
و لأبي بكر الداني المذكور في البكاء على أيامهم، و انتشار نظامهم، عدّة مقطعات و قصائد، هي قرّة عين الطالب و نجعة الرائد، و قد
اشتمل عليها جزء لطيف، صدر عنه في هيئة تصنيف، سماه «السلوك»، في وعظ الملوك» و وفد على المعتمد و هو بأغمات، عدّة
وفادات، لم يخل في جميعها من إفادات، و قال في إحداها: هذه وفادة وفاء، لا وفادة اجتداء.

[رثاء أبي بحر عبد الصمد للمعتمد]

قال غير واحد: من النادر الغريب أنه نودي على جنازته «الصلاة على الغريب» بعد عظم سلطانه، و سعة أوطانه، و كثرة صقالبته و
حبشانه، و عظم أمره و شأنه، فتبارك من له العزة و البقاء و الدوام، و اجتمع عند قبره جماعة من الأقوام، الذين لهم في الأدب حصّة، و
لقضية المعتمد في صدورهم غصّة، منهم البالغ في البلاغة الأمد، شاعره أبو بحر عبد الصمد، و كان به خصيصا، و كم ألبسه من بره
حلّة و قميصا، فقال من قصيدة طويلة أجاد فيها ماشا، و جلب بها إلى أنفس الحاضرين بعد الأنس إيحاشا، مطلعها: [الكامل]
ملك الملوك أ سامع فأنادي أم قد عدتكم عن السّماع عوادى
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٢
و منها:

لما خلت منك القصور و لم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
قبلت في هذا الثرى لك خاضعا و جعلت قبرك موضع الإنشاد
فلما بلغ من إنشاده، إلى مراده، قبل الثرى و مرغ جسمه و عفر خده، فبكى كل من حضر و حذفه ذلك عن سرور العيد و صدّه، إذ
كانت هذه القصة يوم عيد، فسبحان المبدىء المعيد.

[بين الداني و ابن عمار و امرأة تلقى المعتمد و ابن عمار بغير حياء]

و يحكى أن رجلا- رأى في منامه أثر الكائنة على المعتمد بن عباد كأن رجلا صعدا منبر جامع قرطبة فاستقبل الناس و أنشد هذه
الآيات متمثلا: [الرمل]

ربّ ركب قد أناخوا عيسهم في ذرا مجدهم حين بسق
سكت الدّهر زمانا عنهم ثم أبكاهم دما حين نطق

وعاش أبو بكر بن اللبانه المعروف بالداني المذكور آنفا بعد المعتمد، و قدم ميورقه آخر شعبان سنة ٤٨٩، و مدح ملكها مبشر بن سليمان بقصيدته مطلعها: [الكامل]
ملك يروعك في حلى ريعانه راق ت برونقه صفات زمانه
و أين هذا من أمداحه في المعتمد؟!.

و تذكرت هنا من أهوال الداني أنه دخل على ابن عمار في مجلس، فأراد أن يندر به و قال له: اجلس يا داني، بغير ألف، فقال له: نعم يا ابن عمار، بغير ميم، و هذا هو الغايه في سرعه الجواب و الأخذ بالثأر في المزاح.
و نظيره- و إن كان من باب آخر- أن المعتمد مر مع وزيره ابن عمار ببعض أرجاء إشبيلية فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط، فكشفت وجهها، و تكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء، و كان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون الجبس و الجيارين الصانعين للجير بإشبيلية، فالتفت المعتمد إلى موضع الجيارين، و قال: يا ابن عمار الجيارين، ففهم مراده، و قال في الحال:
يا مولاي و الجباسين، فلم يفهم الحاضرون المراد، و تحيروا، فسألوا ابن عمار، فقال له المعتمد: لاتبعها منهم إلّا غاليه، و تفسرها أن ابن عباد صحف «الحيا زين» بقوله الجيارين، إشارة إلى أن تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت، فقال له و الجباسين و تصحيفه «و الخنا شين» أي: هي و إن كانت جميله بديعه الحسن لكن الخنا شانها، و هذا شأو لا يلحق.
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٣

[ابن وهبون و المعتمد]

و من أخبار المعتمد أنه جلس يوما و البزاة تعرض عليه، فاستحث الشعراء في وصفها، فصنع ابن و هبون بديها: [الكامل]
للصيد قبلك سنّه مأثوره لكتّها بك أبداع الأشياء
تمضى البزاة و كلّما أمضيتها عاطيتها بخواطر الشعراء
فاستحسنهما، و أسنى جائزته.

[أبو العرب الصقلي و المعتمد]

و ذكر ابن بسام أن أبا العرب الصقلي حضر مجلس المعتمد يوما و قد حمل إليه حمول وافر من قراريط الفضة، فأمر له بكيسين منها، و كان بين يديه تماثيل عنبر من حملتها جمل مرصع بالذهب و اللاكئ، فقال له أبو العرب معرّضا: ما يحمل هذين الكيسين إلا جمل، فتبسم المعتمد و أمر له به، فقال أبو العرب بديها: [البسيط]
أهديتنى جملا جونا شفعت به حملا من الفضة البيضاء لو حملا
نتاج جودك في أعطان مكرمه لا قد تصرف من منع و لا عقلا
فاعجب لشأني فشأني كلّه عجب رفّهتنى فحملت الحمل و الجملا
و ذكر الحجارى هذه القصة فقال: قعد المعتمد في مجلس احتفل في تنزيده، و إحضار الطرائف الملوكية، و كان في الجملة تمثال جمل من بلور، و له عينان من ياقوتتين، و قد حلى بنفائس الدر، فأنشده أبو العرب قصيدة، فأمر له بذهب كثير مما كان بيده من السكة الجديدة، فقال معرّضا بذلك الجمل: ما يحمل هذه الصلة إلا جمل! فقال: خذ هذا الجمل، فإنه حمال أثقال، فارتجل شعرا منه:
رفّهتنى فحملت الحمل و الجملا

و ذكر أن ذلك الجمل بيع بخمسائة مثقال، فسارت بهذا الخبر الركائب، و تهادته المشارق و المغرب.

[بحث المعتمد في بيت للمتنبى]

و تباحث المعتمد مرة مع الجلساء في بيت المتنبى الذى زعم أنه أمير شعره: [البسيط]
 أزورهم و سواد الليل يشفع لى و أثنى و بياض الصبح يغرى بى
 فقال: ما قصر فى مقابلة كل لفظة بضدها إلا أن فيه نقدا خفيا، ففكروا فيه، فلما فكروا
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٤
 قالوا له: ما وقفنا على شىء، فقال: الليل لا يطابق إلا بالنهار [و لا يطابق بالصبح] لأن الليل كللى و الصبح جزئى، فتعجب الحاضرون، و
 أثنوا على تدقيق انتقاده.

[كلام للصفدى في بيت للمتنبى]

قال الصفدى: قلت: ليس هذا بنقد صحيح، و الصواب مع أبى الطيب، لأنه قال:
 «أزورهم و سواد الليل يشفع لى» فهذا محب يزور أحبابه فى سواد الليل خوفا ممن يشى به، فإذا لاح الصبح أغرى به الوشاء، و دل عليه
 أهل النيممة و الصبح أول ما يغرى به قبل النهار، و عادة الزائر المريب أن يزور ليلا، و ينصرف عند انفجار الصبح خوفا من الرقباء، و
 لم تجر العادة أن الخائف يتلبث إلى أن يتوضح النهار، و يمتلئ الأفق نورا، فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار، و الله أعلم، انتهى.
 قلت: كان يختلج فى صدرى ضعف ما قال الصفدى، حتى وقفت على ما كتبه البدر البشتكى، و من خطه نقلت ما صورته: هو ما انتقد
 عليه المعنى، إنما انتقد عليه مطابقة الليل بالصبح، فإن ذلك فاسد، انتهى، فحمدت الله على الموافقة، انتهى.

[المعتمد و جارية من جواربه]

و قال فى بدائع البداءة: جلس المعتمد للشرب و ذلك فى وقت مطر أجرى كل وهدء نهرا، و حلّى جيد كل غصن من الزهر جوهرًا، و
 بين يديه جارية تسقيه. و هى تقابل وجهها بنجم الكاس فى راحة كالثرىا، تخجل الزهر بطيب العرف و الريا، فاتفق أن لعب البرق
 بحسامه، و أجال سوطه المذهب يسوق به ركامه، فارتاعت لخطفته، و ذعرت من خيفته، فقال المعتمد بديها: [السريع]

رؤّعها البرق و فى كفّها برق من القهوة لمّاع

عجبت منها و هى شمس الصّحى كيف من الأنوار ترتاع

و استدعى عبد الجليل بن وهبون المرسى، و أنشده البيت الأول مستجيزًا، فقال عبد الجليل: [السريع]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٥

و لن أرى أعجب من آنس من مثل ما يمسك يرتاع

فاستحسنه، و أمر له بجائزة.

قال ابن ظافر: و بيته عندى أحسن من بيت المعتمد، انتهى.

[لابن وهبون فى وصف فيل من الفضة فى قصر المعتمد و من شعر العزيز ابن الملح]

و قال ابن بسام: كان فى قصر المعتمد فيل من الفضة على شاطىء بركة يقذف الماء، و هو الذى يقول فيه عبد الجليل بن وهبون من
 بعض قصيدة: [الوافر]

و يفرغ فيه مثل التّصل بدع من الأفيال لا يشكو ملالا

رعى رطب اللّجين فجاء صلدا تراه قلّما يخشى هزالا

فجلس المعتمد يوما على تلك البركة و الماء يجرى من ذلك الفيل، و قد أوقدت شمعتان من جانبيه، و الوزير أبو بكر بن الملح عنده، فصنع الوزير فيهما عدة مقاطيع بديها منها:

[البسيط]

و مشعلين من الأضواء قد قرنا بالماء و الماء بالدولاب منزوف

لاحا لعيني كالنجمين بينهما خطّ المجرّة ممدود و معطوف

و قال أيضا: [البسيط]

كأنما النّار فوق الشّمعتين سنا و الماء من منفذ الأنبوب منسكب

غمامة تحت جناح اللّيل هامة في جانبيها خفاق البرق يضطرب

و قال أيضا: [الطويل]

و أنبوب ماء بين نارين ضمنا هدى لكؤوس الراح تحت الغياهب

كأنّ اندفاع الماء بالماء حيّة يحركها في الماء لمع الجباب

و قال أيضا: [الطويل]

كأنّ سراجي شربهم في التظائها و أنبوب ماء الفيل في سيلانه

كريم تولّى كبره من كليهما لثيمان في إنفاقه يعدلانه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٦

[لابن زيدون يرثي المعتضد و يمدح المعتمد]

و لما مات والد المعتمد و استقل بالملك قال ذو الوزارتين ابن زيدون يرثي المعتضد و يمدح المعتمد بقصيدة طويلة أولها. [الطويل]

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر فمن شيم الأحرار في مثلها الصبر

ستصبر صبر اليأس أو صبر وحشة فلا تؤثر الوجه الذي معه الوزر

و إنّ متاتي لم يضعه محمد خليفتك العدل الرضى و ابنك البرّ

هو الظافر الأعلى المؤيد بالذي له في الذي وقاه من صنعه سرّ

له في اختصاصي ما رأيت و زداني مزيّة زلفى من نتائجها الفخر

و أرغم في برى أنوف عصابة لقائهم جهم و لحظهم شزر

إذا ما استوى في الدّست عاقد حبوة و قام سماطا حفله فلى الصّدر

و في نفسه العلياء لى متبوّأ يساجلنى فيه السّماكان و النّسر

و منها:

لك الخير إنّ الرّزء كان غيابه طلعت لنا فيها كما طلع البدر

فقرّت عيون كان أسخنها البكا و قرّت قلوب كان زلزلها الدّع

و منها:

و لما قدمت الجيش بالأمر أشرقت إليك من الآمال آفاقها الغبر

فقضيت من فرض الصلاة لبانة فشيّعها نسك و قارنها طهر

و من قبل ما قدّمت مثنى نوافل يلاقى بها من صام من غيره فطر
و رحّت إلى القصر الذي غصّ طرفه بعيد التّسامى أن غدا غيره القصر
و أجمل عن التّأوى العزاء فإن توى فإنك لا الوانى و لا الضّرع الغمر
و ما أعطت السّبعون قبل أولى الحجا من اللّب ما أعطاك عشروك و العمر

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٧
أ لست الذى إن ضاق ذرع بحادث تبلّج منه الوجه و اتّسع الصّدر
فلا تهض الدّنيا جناحك بعده فمنك لمن هاضت نوائبها جبر
و لا زلت موفور العديد بقرة لعينك مشدودا بها ذلك الأزر
حذارك من أن يعقب الرّزء فتنة يضيق بها عن مثل إيمانك العذر
إذا أسف الثّكل اللّيب فشقه رأى أفدح الثّكلين أن يذهب الأجر
مصاب الذى يأسى بموت ثوابه هو البرح لا الميت الذى أحرز القبر
حياة الورى نهج إلى الموت مهيع لهم فيه إيضاع كما يوضع الشّفر
و منها:

إذا الموت أضحى قصد كلّ معمر فإنّ سواء طال أو قصر العمر
أ لم تر أنّ الدّين ضيم ذماره فلم يغن أنصار عديدهم دثر
بحيث استقلّ الملك ثانى عطفه و جرّ من أذياله العسكر المجر
هو الضيم لو غير القضاء يرومه ثناه المرام الصعب و المسلّك الوعر
إذا عثرت جرد العناجيج فى القنا بليل عجاج ليس يصدعه فجر
و منها:

أعباد يا أوفى الملوّك لقد عدا عليك زمان من سجيته الغدر
إلى أن قال بعد أبيات كثيرة:

ألا أيها المولى الوصول عبيده لقد رابنا أن يتلو الصّلة الهجر
يغاديك داعينا السلام كعهده فما يسمع الداعى و لا يرفع الشّتر
أعتب علينا ذا و عن ذلك الرضا فتسمع أم بالمسمع المعتلى وقر
و منها:

و كيف بنسيان و قد ملأت يدي جسام أياد منك أيسرها الوفر

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٨
و إن كنت لم أشكر لك المنن التى تملّيتها تترى فلا بقى الكفر
فهل علم الشلو المقدّس أنّى مسوّغ حال حار فى كنهها الدّهر
فإنك شمس فى سماء رياسه تطلّع منها حولنا أنجم زهر
شككنا فلم نثبت لأيام دهرنا بها و سن أم هزّ أعطافها سكر
و ما إن تغشّتها مغازلة الكرى و ما إن تمشّت فى معاطفها الخمر
سوى نشوات من سجايا مملّك يصدّق فى عليائها الخبر الخبر

أرى الدهر إن يبطش فأنت يمينه و إن تضحك الدنيا فأنت لها ثغر
و كم سائل بالغيب عنك أجبتة هناك الأيادي الشَّفَع و السوودد الوتر
هناك التقي و العلم و الحلم و النهى و بذل اللها و البأس و النظم و النثر
همام إذا لاقى المناجز رده و إقباله خطر و إداره حصر
محاسن ما للروض سامره الندى رواء إذا نصت حلاها و لا نشر
متى انتشقت لم تدر دارين مسكها حياء و لم يفخر بعنبره الشحر
عطاء و لا من، و حكم و لا هوى و حلم، و لا عجز، و عز و لا كبر
قد استوفت النعماء فيك تمامها علينا فمننا الحمد لله و الشكر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٨٩

[من ابن زيدون إلى المعتمد بن عباد]

و كتب ابن زيدون المذكور إلى المعتمد رحمهما الله تعالى يشوقه إلى تعاطي الحميا، في قصوره البديعة التي منها المبارك و الثريا:
[الكامل]

فز بالنجاح و أحرز الإقبالا و حز المنى و تنجز الآمالا
و ليهنك التأييد و الظفر اللذا صدقك في السمء العلية فالأ
يا أيها الملك الذى لولاه لم تجد العقول الناشدات كمالا
أما الثريا فالثريا نسبة و إفادة و إنافه و جمالا
قد شاقها الإغباب حتى إنها لو تستطيع سرت إليك خيالا
رفه و رودكها لتغنم راحة و أطل مزاركها لتنعم بالآ
و تأمل القصر المبارك و جنه قد وسطت فيها الثريا خالا
و أدر هناك من المدام كؤوسها و أتمها و أشفها جريالا
قصر يقتر العين منه مصنع بهج الجوانب لو مشى لاختلالا
لا زلت تفترش السرور حدائقا فيه و تلتحف النعيم ضلالا

[أهدى ابن زيدون تفاحا إلى المعتمد و كتب معه و كتب إلى المعتمد أيضا]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ١٨٩
أهدى إليه تفاحا، و اعتقد أن يكتب معه قطعته، فبدأ بها، ثم عرض له غيرها فتركها ثم ابتداء: [مجزوء الخفيف]
دونك الراح جامده و فدت خير وافده
وجدت سوق ذو بها عندك اليوم كاسده
فاستحالت إلى الجمود و جاءت مكايده
و كتب إلى المعتمد: [السريع]
يا أيها الظافر نلت المنى و لا أتانا فيك محذور
إن الخلال الزهر قد ضمها ثوب عليك الدهر مزور

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٠
لا زال للمجد الذى شدته ربع بتعميرك معمور
و افاك نظم لى فى طيه معنى معمى اللفظ مستور
مراهه يصعب ما لم يبح بالسر قمرى و شحور
و ذكر أبياتا فيها أسماء طيور عمى بها عن بيت طيره فيها، و البيت المطير فيه: [مجزوء الخفيف]
أنت إن تغز ظافر فليطع من ينافر

[ابن زيدون يعمى بيت فيفكه المعتمد]

ففكه المعتمد و جاوبه: [السريع]
يا خير من يلحظه ناظرى شهادة ما شانها زور
و من إذا خطب دجا ليله لاح به من رأيه نور
جاء تنى الطير التى سرها نظم به قلبى مسرور
شعر هو السحر فلا تنكروا أنى به ما عشت مسحور
اللفظ و القرطاس إن شتبا قيل هما مسك و كافور
هوى لحسن الطير من فكرتى صقر فولى و هو مقهور
و لاح لى بيت فؤادى له دأبا على و دك مقصور
حظك من شكرى يا سيدى حظ نما لى منك موفور
قصرت فى نظمى فاعذر فمن ضاهاك فى التقصير معذور
فأنت إن تنظم و تنثر فقد أعوز منظوم و منثور
لا يعدكم روض من الحظ فى الإكرام و الترفيع ممطور

[مما كتب به ابن زيدون إلى المعتمد]

فكتب إليه ابن زيدون: [السريع]
حظى من نعماك موفور و ذنب دهري بك مغفور
و جانبى إن رame أزمه حجر لدى ظلك محجور
يا ابن الذى سرب الهدى آمن منذ انبرى يحميه مخفور
و أمر الدهر الذى لم يزل يصغى إليه منه مأمور
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩١
ألبس منك الدهر أسنى الحلى بظافر منحاه منصور
قام و فى المأثور يا من له مجد مع الأيام مأثور
عبدك إن أكثر من شكره فهو بما توليه مكثور
إن تعف عن تقصيره منعما فاليسر أن يقبل معسور
إن حلال السحر إن صغته فى صحف الأنفس مسطور

نظم زهاني منه إذ جاءني علق عظيم القدر مذخور
لا غرو أن أفتن إذ لا حظت فكري منه أعين حور
تم عن معناه ألفاظه كما وشى بالراح بلور
جهلت إذ عارضته غير أن لا بد أن ينفث مصدر
يا آل عباد موالاتكم زاك من الأعمال مبرور
إن الذي يرجو موازاتكم من المناوين لمغرور
مكانه منكم كما انحط عن منزلة المرفوع مجرور
لا زلت في غبطة ما انجلي عن فلق الإصباح ديجور
و لا يزل يجري بما شئتم أعماركم لله مقدور
و كتب المعتمد إلى ابن زيدون بعد أن فكك معمي كتب به إليه ابن زيدون ما صورته:
[المجتث]

العين بعدك تقذى بكل شيء تراه
فليجل شخصك عنها ما بالغيب جناه
و قد قدمنا من كلام أبي الوليد بن زيدون رحمه الله تعالى ما فيه كفاية.
رجع إلى بنى عباد:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٢

[بين ابن حمديس و المعتمد بن عباد و من شعر ابن حمديس]

قال ابن حمديس: لما قدمت وافدا على المعتمد بن عباد استدعاني و قال: افتح الطاق، فإذا بكبير زجاج و النار تلوح من باييه، و واقده
يفتحهما تارة و يسدهما أخرى، ثم أدام سد أحدهما، و فتح آخر، فحين تأملت هما قال لي: أجز: [المنسرح]
انظر هما في الظلام قد نجما
فقلت: كما رنا في الدجئة الأسد
فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها
فقلت: فعل امرئ في جفونه رمد
فقال: فابتزه الدهر نور واحدة
فقلت: و هل نجا من صروفه أحد
فاستحسن ذلك و أطربه، و أمر لي بجائزة، و ألزمني الخدمة.
و على ذكر ابن حمديس فما أحسن قوله: [الوافر]
أراك ركبت في الأهوال بحرا عظيما ليس يؤمن من خطوبه
تسير فلكه شرقا و غربا و تدفع من صباه إلى جنوبه
و أصعب من ركوب البحر عندي أمور ألجأتك إلى ركوبه
و لغيره: [المجتث]
إن ابن آدم طين و البحر ماء يذيه

لو لا الذى فيه يتلى ما جاز عندى ركوبه
 وقال ابن حمديس فى هذا المعنى: [المجتث]
 لا أركب البحر، أخشى علىّ منه المعاطب
 طين أنا و هو ماء و الطين فى الماء ذائب
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٣

[عود إلى ذكر اعتماد الرميكية حظية المعتمد]

رجع إلى بنى عباد رحمهم الله تعالى:
 قال ابن بسام: أخبرنى الحكيم النديم المطرب أبو بكر بن الإشبلى، قال: حضرت مجلس الرشيد بن المعتمد بن عباد و عنده الوزير أبو بكر بن عمار، فلما دارت الكأس، و تمكن الأناجس، و غنيت أصواتا ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب، فارتجل يخاطب الرشيد:
 [البسيط]

ما ضرّ أن قيل إسحاق و موصلها أنت أنت و ذى حمص و إسحاق
 أنت الرشيد فدع من قد سمعت به و إن تشابه أخلاق و أعراق
 لله درك داركها مشعشعة و احضر بسايقك ما قامت بنا ساق

و كان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد النجبا، و له أخبار فى الكرم يقضى الناظر فيها من أمرها عجا، و كذلك إخوته، و قد ألمعنا فى هذا الكتاب بجملة من محاسنهم، و أهمهم اعتماد الملقبة بالرميكية هى التى ترجمناها فى هذا الموضوع، و اقتضت المناسبة ذكر أمر بنى عباد، فلنعد إلى ما كنا بصدده من أخبارها رحمها الله تعالى، فنقول:

قال ابن سعيد فى بعض مصنفاته: كان المعتمد كثيرا ما يأنس بها، و يستظرف نوادرها، و لم تكن لها معرفة بالغناء، و إنما كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث، حلوة النادر، كثيرة الفكاهة، لها فى كل ذلك نوادر محكية، و كانت فى عصرها ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن، و هى أبداع منها ملحا، و أحسن افتنانا، و أجل منسبا، و كان أبوها أمير قرطبة، و يلقب بالمستكفى بالله، و أخبار أبى الوليد بن زيدون معها و أشعاره فيها مشهورة، انتهى ملخصا.

و من أخبار الرميكية القصة المشهورة فى قولها «و لا يوم الطين» و ذلك أنها رأت الناس يمشون فى الطين، فاشتتت المشى فى الطين، فأمر المعتمد، فسحقت أشياء من الطيب، و ذرت فى ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرابيل، و صبب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب، و عجت بالأيدى حتى عادت كالطين، و خاضتها مع جواربها، و غاضبها فى بعض

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٤

الأيام، فأقسمت أنها لم تر منه خيرا قط، فقال: و لا يوم الطين؟ فاستحيت و اعتذرت، و هذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه و سلم فى حق النساء «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط».

[بنات المعتمد يزرنه فى سجنه بأغمات يوم عيد، كاسفات البال، فيقول فيهن شعرا]

قلت: و لعل المعتمد أشار فى أبياته الرائية إلى هذه القضية حيث قال فى بناته: [البسيط]

يطأن فى الطين و الأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا و كافورا

و يحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذرّ الطيب فى قصورهم حتى يطؤوه بأقدامهم، زيادة فى التمتع. و سبب قول المعتمد ذلك ما حكاه الفتح فقال: و أول عيد أخذه- يعنى المعتمد- بأغمات و هو سارح، و ما غير الشجون له مسارح، و

لازى إلبا حالة الخمول، و استحالة المأمول، فدخل إليه، من يسليه و يسلم عليه، و فيهم بناته و عليهن أطمار، كأنها كسوف و هن أقمار، يبكين عند التساؤل، و يبدين الخشوع بعد التخايل، و الضياع قد غير صورهن، و حير نظرهن، و أقدامهن حافية، و آثار نعيمهن عافية، فقال: [البيسط]

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
تري بناتك في الأطمار جائعهُ يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعهُ أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين و الأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا و كافورا
لا خد إلا تشكى الجذب ظاهره و ليس إلا مع الأنفاس ممطورا
أفطرت في العيد لا عادت مساءته فكان فطرك للأكباد تفتيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممثلا فردك الدهر منهيا و مأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغورا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٥

[المعتمد يحمل في السفين من الأندلس إلى العدو، و شعر له في ذلك و في هذا يقول ابن اللبائنة]

و قال الفتح أيضا: و لما نقل المعتمد من بلاده، و أعرى من طارفه و تلاده، و حمل في السفين، و أحل في العدو محلّ الدفين، تندبه منابره و أعواده، و لا يدنو منه زواره و لا عواده، بقي أسفا تتصعد زفراته، و تطرد اطراد المذانب عبراته، لا يخلو بمؤانس، و لا يرى إلا عرينا بدلا من تلك المكانس، و لما لم يجد سلوا، و لم يؤمل دنوا، و لم ير وجه مسرة مجلوا، تذكر منازل فشاقتة، و تصور بهجتها فراقته، و تخيل استيحاش أوطانه، و إجهاش قصره إلى قطنه، و إظلام جوه من أقماره، و خلوه من حراسه و سماره، فقال: [البيسط]

بكي المبارك في إثر ابن عبّاد بكي على إثر غزلان و آساد
بكت ثرياه لاغمّت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
بكي الوحيد، بكي الزاهي و قبه و النهر و التاج، كل ذله بادي
ماء السماء على أفيائه درر يا لجة البحر دومي ذات إزباد
و في ذلك يقول ابن اللبائنة: [البيسط]

أستودع الله أرضا عندما و ضحت بشائر الصبح فيها بدلت حلكا
كان المؤيد بستانا بساحتها يجنى النعيم و في عليائها فلكا
في أمره لملوك الدهر معتبر فليس يغتر ذو ملك بما ملكا
نكيه من جبل خرت قواعده فكل من كان في بطحائه هلكا

[القصر الزاهي من قصور المعتمد، و شعر له يشاقفه فيه و هو أسير بسجن أغمات]

و كان القصر الزاهي من أجمل المواضع لديه و أبهاها، و أحبها إليه و أشهاها، لإطلاله على النهر، و إشرافه على القصر، و جماله في العيون، و اشتماله بالزهر و الزيتون، و كان له به من الطرب، و العيش المزرى بحلاوة الضرب، ما لم يكن بحلب لبني حمدان، و لا لسيف بن ذى يزن في رأس غمدان، و كان كثيرا ما يدير به راحه، و يجعل فيه انشراحه، فلما

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٦

امتد الزمان إليه بعدوانه، و سد عليه أبواب سلوانه، لم يحنّ إلا إليه، و لم يتمن غير الحلول لديه، فقال: [الطويل]
 غريب بأرض المغربين أسير سبيكي عليه منبر و سرير
 و تندبه البيض الصوارم و القنا و ينهلّ دمع بينهنّ غزير
 مضى زمن و الملك مستأنس به و أصبح منه اليوم و هو نفور
 برأى من الدهر المضللّ فاسد متى صلحت للصالحين دهور
 أذلّ بني ماء السماء زمانهم و ذلّ بني ماء السماء كبير
 فيا ليت شعري هل أبيتنّ ليله أمامي و خلفي روضة و غدير
 بمنبتة الزيتون مورثة العلا تغنى حمام أو ترنّ طيور
 بزاهرها السامي الذي جاده الحيا تشير الثريا نحونا و نشير
 و يلحظنا الزاهي و سعد سعوده غيورين و الصبّ المحبّ غيور
 تراه عسيرا لا يسيرا مناله ألا كلّ ما شاء الإله يسير

[الحجاري يحدث عن جارية أهداها ابن تاشفين إلى المعتمد بن عباد]

و قال الحجاري في «المسهب» إن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أهدى إلى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة، و أهل العدوّة بالطبع يكرهون أهل الأندلس، و جاء بها إلى إشبيلية و قد كثر الإرجاف بأن سلطان الملتّمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم، و اشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك، فخرج بها إلى قصر الزهراء على نهر إشبيلية، و قعد على الراح، فخطر بفكرها أن غنت عندما انتشى هذه الأبيات: [الكامل]

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم و لووا عمائمهم على الأعمار
 و تقلّدوا يوم الوغى هندية أمضى إذا انتضيت من الأقدار
 إن خوّفوك لقيت كل كريبه أو أمنوك حللت دار قرار
 فوقع في قلبه أنها عرضت بساداتها، فلم يملك غضبه، و رمى بها في النهر، فهلكت، انتهى، فقدر الله تعالى أن كان تمزيق ملكه على يدهم تصديقا للجارية في قولها:

إن خوّفوك لقيت كل كريبه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٧

و حصره جيوش لمتونة الملتّمين حتى أخذوه قهرا، و سيق إلى أمير المسلمين، و القصة مشهورة.

[الفتح بن خاقان يتحدث عن حصار المعتمد]

و قال الفتح في شأن حصار المعتمد ما صورته: و لما تم في الملك أمده، و أراد الله تعالى أن تخر عمده، و تنقرض أيامه، و تتقوض عن عراض الملك خيامه، نازلته جيوش أمير المسلمين و محلاته، و ظاهرته فساطيطه و مظلاته، و بعد ما نثرت حصونه و قلاعها، و سعرت بالنكايه جوانحه و أضلاعها، و أخذت عليه الفروج و المضايق، و انثنت إليه الموانع و العواتق، و طرقت طوارقها بالإضرار، و أمطرت من النكايه كل ديمة مدرار، و هو ساه بروض و نسيم، لاه براح و محيا و سيم، زاه بفتاة تنادمه، ناه عن هدم أنس هو هادمه، لا يصيخ إلى نبأ سمعه، و لا ينيخ إلا على لهو يفرق جموعه جمعه، و قد ولي المدامة ملامه، و ثنى إلى ركنها طوافه و استلامه، و تلك الجيوش تجوس خلاله، و تقلص ظلّاله، و حين اشتد حصاره، و عجز عن المدافعة أنصاره، و دلّس عليه ولاته، و كثرت أدواؤه

علّاته، فتح باب الفرج، وقد لفتح شواظ الهرج، فدخلت عليه من المرابطين زمرة، و اشتعلت من التغلب جمرة، تأجج اضطرامها، و سهل بها إيقاد الفتنة و إضرامها، و عندما سقط الخبر عليه خرج حاسرا عن مفاضته، جامحا كالمهر قبل رياضته، فلحق أوائلهم عند الباب المذكور و قد انتشروا فى جنباته، و ظهوروا على البلد من أكثر جهاته، و سيفه فى يده يتلَمِّظ للطلّى و الهام، و يعد بانفراج ذلك الاستبهاج، فرماه أحد الداخلين برمّح تخطّاه، و جاوز مطاه، فبادره بضربة أذهبت نفسه، و أغربت شمس، و لقي ثانيا فضربه و قسمه، و خاض حشا ذلك الداء و حسمه، فاجلوا عنه، و ولوا فرارا منه، فأمر بالباب فسد، و بنى منه ما هدى، ثم انصرف و قد أراح نفسه و شفاهها، و أبعد الله تعالى عنه الملامة و نفاها، و فى ذلك يقول عندما خلع، و أودع من المكروه ما أودع:

[مجزوء الكامل]

إن يسلب القوم العدى ملكى و تسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعه لم تسلّم القلب الضلوع

قد رمت يوم نزالهم أن لا تحصّنى الدروع

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٨

و برزت ليس سوى القمى ص على الحشا شىء دفع

أجلى تأخر لم يكن بهوى ذلى و الخشوع

ما سرت قط إلى القتال و كان من أملى الرجوع

شيم الألى أنا منهم و الأصل تتبعه الفروع

و ما زالت عقارب تلك الداخلة تدب، ثم ذكر الفتح تمام هذا الكلام فراجع فيما مر بنحو ثلاث و رقات.

[من حكايات مجالس أنس المعتمد ما حدث به الفتح بن خاقان عن ذخر الدولة]

و من حكايات مجالس أنسه أيام ملكه، قبل أن ينظمه صرف الدهر فى سلكه، ما حكاه الفتح عن ذخر الدولة أنه دخل عليه فى دار المزينية و الزهر يحسد إشراق مجلسه، و الدر يحكى اتساق أنسه، و قد رددت الطير شدوها، و جودت طربها و لهوها، و جدّدت كلفها و شجوها، و الغصون قد التحفت بسندسها، و الأزهار تحيى بطيب تنفسها، و النسيم يلم بها فتضعه بين أجفانها، و تودعه أحاديث آذارها و نيسانها، و بين يديه فتى من فتياه يتثنى القضيبي، و يحمل الكأس فى راحة أبهى من الكف الخضيب، و قد توشح و كأن الثريا و شاحه، و أثار فكأن الصبح من محياه كان اتضاحه، فكلما ناوله الكأس خامرته سوره، و تخيل أن الشمس تهديه نوره، فقال المعتمد [المنسرح]:

لله ساق مهفهف غنج قد قام يسقى فجاء بالعجب

أهدى لنا من لطيف حكمته فى جامد الماء ذائب الذهب

و لما وصل لورقة استدعى ذا الوزارتين القائد أبا الحسن بن اليسع ليلته تلك فى وقت لم يخف فيه زائر من مراقب، و لم يد فيه غير نجم ثاقب، فوصل و ما للأمن إلى فؤاده و صول، و هو يتخيل أن الجو صوارم و نصول، بعد أن وصى بما خلف، و ودع من تخلف، فلما مثل بين يديه آنسه، و أزال توجّسه، و قال له: خرجت من إشبيلية و فى النفس غرام طويته بين ضلوعى، و كفكفت فيه غرب دموعى، بفتاة هى الشمس أو كالشمس إخالها، لا يجول قلبها و لا خلخالها، و قد قلت فى يوم وداعها، عند تفرّج كبدى و انصداعها [الطويل]:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ١٩٩

و لمّا التقينا للوداع غدّية و قد خفقت فى ساحة القصر رايات

بكيها دما حتى كأن عيوننا لجري الدموع الحمر منها جراحات
وقد زارتني هذه الليلة في مضجعي وأبرأتني من توجعي ومكنتني من رضابها، وفتنتني بدلالها وخضابها، فقلت: [الطويل]
أباح لطيفي طيفها الخدّ والنهدا فعصّ بها تفاحه واجتني وردا
ولو قدرت زارت علي حال يقظته ولكن حجاب البين ما بيننا مدّا
أما وجدت عنا الشّجون معرّجا ولا وجدت منا خطوب التوى بدّا
سقى الله صوب القطر أم عبيده كما قد سقت قلبي على حرّه بردا
هي الطّبي جيدا، والغزاة مقلّة، وروض الربا عرفا، وغصن النّقا قدّا
فكرر استجداته، وأكثر استعادته، فأمر له بخمسمائة دينار و ولاه لورقة من حينه.

[و منها ما حكاه الفتح أيضا عن ابن اللبانه]

قال الفتح: وأخبرني ابن اللبانه أنه استدعاه ليله إلى مجلس قد كساه الروض وشيه، وامتثل الدهر فيه أمره ونهيه، فسقاه الساقى و
حيّاه، وسفر له الأونس عن مونتق محيّا، فقام للمعتمد مادحا، وعلى دوحه تلك النعماء صادحا، فاستجداد قوله، وأفاض عليه طوله،
فصدر وقد امتلأت يده، وغمره جوده و نداءه، فلما حل بمنزله وافاه رسوله بقطيع وكاس من بلار، قد أترعا بصرف العقار، ومعهما:
[الكامل]

جاءتك ليلا في ثياب نهار من نورها و غلاله البّار
كالمشترى قد لفّ من مريخه إذ لفّه في الماء جذوة نار
لطف الجمود لذا و ذا فتألّفا لم يلق ضد ضده بنفار
يتخيّر الرءون في نعتيهما أصفاء ماء أم صفاء درارى

[حديث مجلس آخر يحكيه الفتح عن ذخر الدولة]

وقال الفتح أيضا: وأخبرني ذخر الدولة أنه استدعاه في ليلة قد ألبسها البدر رواءه، وأوقد فيها أضواءه، وهو على البحيرة الكبرى، و
النجوم قد انعكست فيها تخالها زهرا، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا، وقد أرجت نوافج الند، و ماست معاطف الرّند، وحسد النسيم
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٠
الروض فوشى بأسراره، وأفشى حديث آسه و عراره، ومشى مختالا بين لبات الثور و أزراره، وهو وجم، و دمعه منسجم، و زفراته
تترجم عن غرامه، و تجمجم عن تعذر مراره، فلما نظر إليه استدناه و قربه، و شكّا إليه من الهجران ما استغربه، و أنشده: [المتقارب]
أيا نفس لا تجزعي و اصبري و إلا فإنّ الهوى متلف
حبيب جفاك و قلب عصاك و لاح لحاك و لا منصف
شجون منعن الجفون الكرى و عوضنها أدمعا تنرف
فانصرف و لم يعلمه بقصته، و لا كشف له عن غصته، انتهى.

[حديث مجلس آخر بالسند السابق]

وقال الفتح أيضا: أخبرني ذخر الدولة بن المعتضد أنه دخل عليه في ليلة قد ثنى السرور منامها، و امتطى الحبور غاربها و سنامها، و
راع الأونس فؤادها، و ستر بياض الأمانى سوادها، و غازل نسيم الروض زوارها و عؤادها، و نور السراج قد قلّص أذيالها، و محا من

لجین الأرض نیالها، و المجلس مکتس بالمعالی، و صوت المثنای و المثلث عالی، و البدر قد کمل، و التحف بضوئه القصر و اشتمل، و تریز بسناه و تجمل، فقال المعتمد: [الكامل]

و لقد شربت الزّاح یسطع نورها و اللیل قد مدّ الظلام رداء
حتى تبدی البدر فی جوزائه ملکا تناهی بهجةً و بهاء
و تناهضت زهر النجوم یحفّه لألأوها فاستکمل اللألاء
لما أراد تنزها فی غربه جعل المظلة فوقه الجوزاء
و تری الكواکب کالمواکب حوله رفعت ثریاها علیه لواء
و حکيته فی الأرض بین کواکب و کواعب جمعت سنا و سناء
إن نشرت تلك الدروع حنادسا ملأت لنا هدی الكؤوس ضیاء
و إذا تغنت هذه فی مزهر لم تأل تلك علی التریک غناء
نفع الطیب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠١

[حديث مجلس آخر يحكيه الفتح عن إقبال الدولة بن مجاهد]

و أخبرنی ابن إقبال الدولة [بن مجاهد] أنه كان عنده فی يوم قد نشر من غيمه رداء ندّ، و أسكب من قطره ماء ورد، و أبدي من برقه لسان نار، و أظهر من [قوس] قزحه حنايا قوس آس حفت بنرجس و جلنار، و الروض قد بعث ریاه، و بث الشکر لسقياه، فكتب إلى الطیب الأديب أبی محمد المصری: [الخفيف]

أيها الصاحب الذی فارقت عی نی و نفسی منه السنا و السناء
نحن فی المجلس الذی یهب الراحة و المسمع الغنی و الغناء
نتعاطی التی تنسی من الرّقّة و اللذّة الهوی و الهواء
فأته تلف راحةً و محیا قد أعدّا لك الحیا و الحیاء
فوفاه و ألفی مجلسه و قد أتلت فیه الأباریق أجيادها، و أقامت فیه خیل السرور طرادها، و أعطته الأمانی انطباعها و انقيادها، و أهدت الدنیا لیومه مواسمها و أعيادها، و خلعت علیه الشمس شعاعها، و نشرت فیه الحدائق إیناعها، فأديرت الراح، و تعوطيت الأقداح، و خامر النفوس الابتهاج و الارتیاح، و أظهر المعتمد من إیناسه، ما استرق به نفوس جلاسه، ثم دعا بكبير، فشربه كما غربت الشمس فی ثبیر، و عندما تناولها، قام المصری ینشد آیاتا تمثلها:

[البسيط]

اشرب هنیئا علیک التّاج مرتفقا بشاذمهر ودع غمدان لیمن
فأنت أولى بتاج الملك تلبسه من هوذة بن علیّ و ابن ذی یزن
فطرب حتى زحف عن مجلسه، و أسرف فی تأنسه، و أمر فخلعت علیه خلع لا تصلح إلا للخلفاء، و أدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء، و أمر له بدنانیر عددا، و ملأ له بالمواهب یدا.

نفع الطیب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٢

[للمعتمد فی غلام رآه طالعا من ثیبات الوغی]

و له فی غلام رآه یوم العروبة من ثیبات الوغی طالعا، و لطلی الأبطال قارعا، و فی الدماء و الغا، و لمستبشع کؤوس المنایا سائغا، و هو

ظبي قد فارق كناسه، و عاد أسدا [قد] صارت القنا أخياسه، و متكاثف العجاج قد مزقه إشراقه، و قلوب الدارعين قد شكتهأ أحداقه، فقال: [الكامل]

أبصرت طرفك بين مشتجر القنا فبدا لطفى أنه فلك
أو ليس وجهك فوقه قمرا يجلى بنير نوره الحلك
و قال فيه: [المتقارب]

و لما اقتحمت الوغى دارعا و قنعت وجهك بالمغفر
حسبنا محياك شمس الضحى عليها سحاب من العنبر

و قد جمع بنا القلم فى ترجمه المعتمد بن عباد بعض جموح، و ما ذلك إلا لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه الله تعالى شديده الطموح، و قد جعل الله تعالى له كما قال ابن الأبار فى «الحلة السراء» رقه فى القلوب و خصوصا بالمغرب فإن أخباره و أخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم، و إن فيها لأعظم عبرة، رحم الله تعالى الجميع!

رجع إلى أخبار النساء.

و منهن العبادية جارية المعتضد عباد

، والد المعتمد، أهداها إليه مجاهد العامرى من دانية، و كانت أديبة، ظريفة، كاتبة، شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة، قال ابن عليم فى شرحه لأدب الكاتب لابن قتيبة، و ذكر الموسعة و هى خشبة بين حمالين يجعل كل واحد منهما طرفها على عنقه، ما صورته: و بذكر الموسعة أغربت جارية لمجاهد أهداها إلى عباد كاتبة شاعرة على علماء إشبيلية و بالغرمة التى تظهر فى أذقان بعض الأحداث، و تعترى بعضهم فى الخدين عند الضحك، فأما التى فى الذقن فهى النونة، و منه قول عثمان رضى الله تعالى عنه: رسموا نونته لتدفع العين، و أما التى فى الخدين عند الضحك فهى الفحصه، فما كان فى ذلك الوقت فى إشبيلية من عرف منها واحدة.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٣

و سهر عباد ليلة لأمر حزبه و هى نائمة، فقال: [المتقارب]

تنام و مدنفا يسهر و تصبر عنه و لا يصبر
فأجابته بديهة بقولها:

لئن دام هذا و هذا له سيهلك و جدا و لا يشعر

و يكفيك هذا شاهدا على فضلها رحمها الله تعالى [و سامحها].

و منهن: بثينة بنت المعتمد بن عباد

، و أمها الرميكية السابقة الذكر، و كانت بثينة هذه نحوا من أمها فى الجمال و النادرة و نظم الشعر، و لما أحيط بأبيها و وقع النهب فى قصره كانت فى جملة من سبى، و لم يزل المعتمد و الرميكية عليها فى وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب، و كان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرية و وهبها لابنه، فنظر من شأنها و هيئت له، فلما أراد الدخول عليها امتنعت، و أظهرت نسبها، و قالت: لا أحل لك إلا بعقد النكاح إن رضى أبى بذلك، و أشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها، و انتظار جوابه، فكان الذى كتبه بخطها من نظمها ما صورته: [الكامل]

اسمع كلامي و استمع لمقاتلي فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أنى سبيت و أننى بنت لملك من بنى عباد
ملك عظيم قد تولّى عصره و كذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد الله فرقة شملنا و أذاقنا طعم الأسى من زاد
قام التفاق على أبى فى ملكه فدنا الفراق و لم يكن بمراد
فخرجت هاربه فحازنى امرؤ لم يأت فى إعجاله بسداد
إذا باعنى بيع العبيد فضمنى من صاننى إلا من الأنكاد
و أرادنى لنكاح نجل طاهر حسن الخلائق من بنى الأنجاد
و مضى إليك يسوم رأيك فى الرضا و لأنت تنظر فى طريق رشادى
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٤
فعساك يا أبتى تعرّفنى به إن كان ممن يرتجى لوداد
و عسى رميكىء الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن و الأسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها و هو بأغمات، واقع فى شراك الكروب و الأزمات، سرّ هو و أمها بحياتها، و رأيا أن ذلك للنفس من أحسن
أمنياتها، إذ علما مآل أمرها، و جبر كسرهما، إذ ذاك أخف الضررين، و إن كان الكرب قد ستر القلب منه حجاب رين، و أشهد على
نفسه بعقد نكاحها من الصبى المذكور، و كتب إليها أثناء كتابه ما يدل على حسن صبره المشكور:

[السريع]

بنيتى كونى به بزة فقد قضى الدهر بإسعافه
و أخبار المعتمد بن عباد، تذيب الأكباد، فلنرجع إلى ذكر نساء الأندلس فنقول:

و منهن حفصة بنت حمدون

من وادى الحجارة، ذكرها فى «المغرب» و قال: إنها من أهل المائة الرابعة، و من شعرها:
رأى ابن جميل أن يرى الدهر مجملا فكلّ الورى قد عمهم سيب نعمته
له خلق كالخمر بعد امتزاجها و حسن فما أحلاه من حين خلقتة
بوجه كمثل الشمس يدعو ببشره عيونا و يعشيتها بإفراط هيئته
و لها أيضا: [الخفيف]

لى حبيب لا ينثنى لعتاب و إذا ما تركته زاد تيتها
قال لى هل رأيت لى من شبيه قلت أيضا و هل ترى لى شبيها
و لها تدم عبيدها: [السريع]

يا ربّ إنى من عبيدى على جمر الغضا، ما فيهم من نجيب
إما جهول أبله متعب أو فطن من كيده لا يجيب

و قال ابن الأبار: إنها كانت أديبة عالمة شاعرة، و ذكرها ابن فرج صاحب «الحدائق» و أنشد لها أشعارا منها قولها: [مجزوء الكامل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٥
يا وحشتى لأحبتى يا وحشة متماديه

يا ليلة ودعتهم يا ليلة هي ماهيه

و منهن زينب المريه

، كانت أديبه شاعره، و هي القائلة: [البسيط]
يا أيها الراكب الغادي لطيبته عزج أنبئك عن بعض الذي أجد
ما عالج الناس من وجد تضمّنهم إلا و وجدى بهم فوق الذي وجدوا
حسبى رضاه و أتى فى مسرته و وده آخر الأيام أجتهد

و منهن غايه المنى

، و هي جاريه أندلسيه متأديه، قدمت إلى المعتصم بن صمادح، فأراد اختبارها فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: غايه المنى، فقال لها:
أجيزى. [مجزور الخفيف]
اسألوا غايه المنى
فقلت:

من كسا جسمى الضنا
و أرانى مولها سيقول الهوى أنا
هكذا أورد السالمى هذه الحكايه فى تاريخه.
قال ابن الأبار: و قرأت بخط الثقة حاكيا عن القاضى أبى القاسم بن حبيش قال: سيقت لابن صمادح جاريه لبيبه تقول الشعر و تحسن
المحاضره، فقال: تحمل إلى الأستاذ ابن الفراء الخطيب ليختبرها، و كان كفيفا، فلما وصلته قال: ما اسمك؟ فقالت: غايه المنى، فقال:
أجيزى:

سل هوى غايه المنى من كسا جسمى الضنا
فقلت تجيزه:

و أرانى متيما سيقول الهوى أنا
فحكى ذلك لابن صمادح، فاشتراها، انتهى.
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٦

و منهن حمده، و يقال حمدونه بنت زياد المؤدب من وادى آش

، و هي خنساء المغرب، و شاعره الأندلس، ذكرها الملاحى و غيره، و ممن روى عنها أبو القاسم بن البراق.
و من عجيب شعرها قولها: [الطويل]
و لَمَّا أبى الواشون إلّا فراقنا و ما لهم عندى و عندك من نار
و شتوا على أسماعنا كلّ غاره قلّ حماتى عند ذاك و أنصارى
غزوتهم من مقلتيك و أدمعى و من نفسى بالسيف و السيل و النار
و بعض يزعم أن هذه الأبيات لمهجه بنت عبد الرزاق الغرناطيه، و كونها لحمده أشهر، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

و خرجت حمدة مرة للوادي مع صبية، فلما نضت عنها ثيابها و عامت قالت: [الوافر]

أباح الدمع أسراري بوادي له للحسن آثار بوادي
فمن نهر يطوف بكلّ روض و من روض يرفّ بكلّ وادي
و من بين الطباء مهاة أنس سبت لثبي و قد ملكت فوادي
لها لحظ ترقده لأمر و ذاك الأمر يمنعني رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد

و قال ابن البراق فى سوق هذه الحكاية: أنشدتنا حمدة العوفية لنفسها، و قد خرجت متزهة بالرملة من نواحي وادي آش فرأت ذات وجه و سيم أعجبها، فقالت: - و بين الروائتين خلاف - أباح الدمع، إلى آخره و نسب بعضهم إلى حمدة هذه الأبيات الشهيرة بهذه البلاد المشرقية، و هى: [الوافر]

و قانا لفحة الرمضاء واد سقاها مضاعف الغيث العميم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٧

حللنا دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم

و أرشفنا على ظمًا زلالا ألد من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها و يأذن للتسيم

يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

و ممن جزم بذلك الرعيني، و قال: إن مؤرخى بلاد الأندلس نسبوا لحمدة من قبل أن يوجد المنازى الذى ينسبها له أهل المشرق، و قد رأيت أن أذكر كلامه برمته و نصه: كانت من ذوى الألباب، و فحول أهل الآداب، حتى إن بعض المنتحلين تعلق بهذه الأهداب، و ادعى نظم هذين البيتين - يعنى و لما أبى الواشون - إلى آخره لما فيهما من المعانى و الألفاظ العذاب، و ما غره فى ذلك إلا بعد دارها، و خلو هذه البلاد المشرقية من أخبارها، و قد تلبس بعضهم أيضا بشعارها، و ادعى غير هذا من أشعارها، و هو قولها وقانا لفحة الرمضاء واد إلى آخره، و إن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد للمنازى من شعرائهم، و ركبوا التعصب فى جادة ادعائهم، و هى أبيات لم يخلبها غير لسانها، و لا - رقم برديها غير إحسانها، و لقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا و هى الأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الوجود، و يتصف بلفظة الموجود، انتهى.

و هو أبو جعفر الأندلسى الغرناطى، نزيل حلب.

و حكى ابن العديم فى تاريخ حلب ما نصه: و بلغنى أن المنازى عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبى العلاء المعرى، فلما وصل إليه أنشده الأبيات، فجعل المنازى كلما أنشد المصراع الأول من كل بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثانى الذى هو تمام البيت كما نظمه، و لما أنشده قوله:

نزلنا دوحه فحنا علينا

قال أبو العلاء:

حنوّ الوالدات على الفطيم

فقال المنازى: إنما قلت «على اليتيم» فقال أبو العلاء: الفطيم أحسن. انتهى.

و هذا يدل على أن الرواية عنده «حنوّ الوالدات» و قد تقدّم المرضعات، و الله تعالى أعلم.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٨

وقال ابن سعيد: يقال لנסاء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة «العرييات» لمحافظتهن على المعاني العريية، و من أشهرهن زينب بنت زياد الوادى آشى، و أختها حمدة، و حمدة هذه هى القائلة و قد خرجت إلى نهر منقسم الجداول بين الرياض مع نساءها فسبحن فى الماء و تلاعن:

أباح الدمع أسرارى بوادى
الأيات، انتهى

و منهن عائشة بنت أحمد القرطبية.

قال ابن حيان فى «المقتبس» لم يكن فى زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علما و فهما و أدبا و شعرا و فصاحة، تمدح ملوك الأندلس و تخاطبهم بما يعرض لها من حاجة، و كانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، و ماتت عذراء لم تنكح سنه أربعمائه. و قال فى «المغرب» إنها من عجائب زمانها، و غرائب أوانها، و أبو عبد الله الطيب عمها، و لو قيل: «إنها أشعر منه» لجاز، و دخلت على المظفر بن المنصور بن أبى عامر و بين يديه ولد، فارتجلت: [الوافر]

أراك الله فيه ما تريد و لا برحت معاليه تزيد
فقد دلت مخايله على ما تؤمله و طالعه السعيد
تشوقت الجياد له و هزال حسام هوى و أشرقت البنود
و كيف يخيب شبل قد نمته إلى العليا ضراغمة أسود
فسوف تراه بدرا فى سماء من العليا كواكب الجنود
فأنتم آل عامر خير آل زكا الأبناء منكم و الجدود
وليدكم لدى رأى كشيخ و شيخكم لدى حرب وليد
و خطبها بعض الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه: [الكامل]
أنا لبوة لكننى لا أرتضى نفسى مناخا طول دهرى من أحد
و لو أننى أختار ذلك لم أجب كلبا و كم غلقت سمعى عن أسد
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٠٩

و منهن مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى

.سكنت إشبيلية، و أصلها و الله أعلم من شلب.
و ذكرها ابن دحية فى «المطرب» و قال: إنها أديبة شاعرة مشهورة، و كانت تعلم النساء الأدب، و تحتشم لدينها و فضلها، و عمرت عمرا طويلا، سكنت إشبيلية، و اشتهرت بها بعد الأربعمائه، و ذكرها الحميدى، و أنشد لها جوابها لما بعث المهدي إليها بدنانير، و كتب إليها:

[البسيط]

ما لى بشكر الذى أوليت من قبل لو أننى حزت نطق اللسن فى الحلل
يا فذة الظرف فى هذا الزمان و يا وحيدة العصر فى الإخلاص فى العمل
أشبهت مريما العذراء فى ورع و فقت خنساء فى الأشعار و المثل

و نص الجواب منها: [البسيط]

من ذا يجاريك في قول و في عمل و قد بدرت إلى فضل و لم تسل
 ما لي بشكر الذي نظمت في عنقي من اللآلي و ما أوليت من قبل
 حلّيتني بحلى أصبحت زاهية بها على كلّ أثنى من حلى عطل
 لله أخلاقك الغرّ التي سقيت ماء الفرات فرقت رقة الغزل
 أشبهت مروان من غارت بدائعه و أنجدت و غدت من أحسن المثل
 من كان والده العضب المهند لم يلد من النسل غير البيض و الأسل
 و من شعرها و قد كبرت: [الطويل]

و ما يرتجى من بنت سبعين حجّة و سبع كنسج العنكبوت المهلهل
 تدبّ ديبب الطفل تسعى إلى العصا و تمشى بها مشى الأسير المكبل

و منهن أسماء العامرية

، من أهل إشبيلية، كتبت إلى عبد المؤمن بن علي رسالة نمت فيها إليه بنسبها العامري، و تسأله في رفع الإنزال عن دارها، و الاعتقال
 عن مالها، و في آخرها قصيدة أولها: [الوافر]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٠
 عرفنا النصر و الفتح المبينا لسيدنا أمير المؤمنين
 إذا كان الحديث عن المعالي رأيت حديثكم فينا شجوننا
 و منها:

رويت علمه فعلمتموه و صنتم عهده فغدا مصونا

و منهن أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية،

سمعت أباهما، و كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم و الفهم و العقل، و لها تأليف في القبور، و لما ولى أبوها قضاء
 المرية دخل داره و عيناه تذرفان و جدا لمفارقة وطنه، فأنشدته متمثلة: [الكامل]

يا عين صار الدمع عندك عادة تبكين في فرح و في أحزان
 و هذا البيت من جملة أبيات هي: [الكامل]

جاء الكتاب من الحبيب بآئه سيزورني فاستعبرت أجفاني
 غلب السرور علىّ حتى إنّه من عظم فرط مسرتي أبكاني
 و بعده البيت، و بعده:

فاستقبلي بالبشر يوم لقائه ودعى الدموع لليلة الهجران

و منهن مهجة القرطبية صاحبة ولادة رحمهما الله تعالى

، و كانت من أجمل نساء زمانها، و علقت بها ولادة، و لازمت تأديبها، و كانت من أخف الناس روحا، و وقع بينها و بين ولادة ما

اقتضى أن قالت: [السريع]

ولادة قد صرت ولادة من غير بعل، فضح الكاتم
حكّت لنا مريم لكنّه نخلة هذى ذكر قائم
قال بعض الأكابر: لو سمع ابن الرومى هذا لأقر لها بالتقدم.
و من شعرها: [الطويل]

لئن قد حمى عن ثغرها كلّ حائم فما زال يحمى عن مطالبه الثغر
فذلك تحميه القواضب و القنا و هذا حماه من لوحظها السحر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١١
و أهلى إليها من كان يهيم بها خوفا، فكتبت إليه: [السريع]
يا متحفا بالخوخ أحبابه أهلا به من مثلج للصدور
حكى ثدى الغيد تفليكه لكنّه أخزى رؤوس الأيور

و منهن هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي،

و كانت أديبة شاعرة، كتب إليها أبو عامر بن يثق يدعوها للحضور عنده بعودها: [الكامل]
يا هند هل لك فى زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدوا فتذكروا نغمات عودك فى الثقل الأول
فكتبت إليه فى ظهر رقعة: [الكامل]
يا سيّدا حاز العلا عن سادة شمّ الأنوف من الطراز الأول
حسبى من الإسراع نحوك أننى كنت الجواب مع الرسول المقبل

و منهن الشلبية،

قال ابن الأبار: و لم أقف على اسمها، و كتبت إلى السلطان يعقوب المنصور تتظلم من ولاة بلدها و صاحب خراجها: [الكامل]
قد آن أن تبكى العيون الآبى و لقد أرى أنّ الحجارة باكيه
يا قاصد المصر الذى يرجى به إن قدر الرحمن رفع كراهيه
ناد الأمير إذا وقفت ببابه يا راعيا إن الرعية فانيه
أرسلتها هملا و لا مرعى لها و تركتها نهب السباع العاديه
شلب كلا شلب، و كانت جنة فأعادها الطاغون نارا حاميه
حافوا و ما خافوا عقوبة ربهم و الله لا تخفى عليه خافيه
فيقال: إنها ألقيت يوم جمعة على مصلى المنصور، فلما قضى الصلاة و تصفحها بحث عن القضية فوقف على حقيقتها، و أمر للمرأة
بصلة.

و حكى أن بعض قضاة لوشة كانت له زوجة فاقت العلماء فى معرفة الأحكام و النوازل، و كان قبل أن يتزوجها ذكر له وصفها
فتزوجها، و كان فى مجلس قضائه تنزل به النوازل، فيقوم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٢

إليها فتشير إليه بما يحكم به، فكتب إليه بعض أصحابه مداعبا بقوله: [المتقارب]

بخلو شة قاض له زوجة و أحكامها في الوري ماضيه

فيا ليته لم يكن قاضيا و يا ليتها كانت القاضيه

فأطلع زوجته عليه حين قرأه فقالت: ناولني القلم، فناولها، فكتبت بديهة: [مجزوء الكامل]

هو شيخ سوء مزدري له شيوب عاصيه

كلّا لئن لم ينته لنسفعا بالناصيه

و سمعت بعض أشياخنا يحكى القضية عن لسان الدين بن الخطيب، و أنه هو الذى كتب يداعب زوج المرأة فكتبت إليه: [مجزوء

الكامل]

إنّ الإمام ابن الخطيب له شيوب عاصيه

إلى آخره، فالله أعلم.

و منهن زهون الغرناطية

قال في «المغرب»: من أهل المائة الخامسة ذكرها الحجارى فى «المسهب» و وصفها بخفة الروح، و الانطباع الزائد، و الحلاوة، و حفظ

الشعر، و المعرفة بضرب الأمثال، مع جمال فائق، و حسن رائق، و كان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع الناس بمحاضرتها و مذاكرتها و

مراسلتها، فكتب لها مرة: [المجتث]

يا من له ألف خلّ من عاشق و صديق

أراك خلّيت للناس منزلا فى الطريق

فأجابته: [الطويل]

حللت أبا بكر محلاً منعه سواك، و هل غير الحبيب له صدرى

و إن كان لى كم من حبيب فإنما يقدم أهل الحقّ حبّ أبى بكر

قيل: لو قالت «و إن كان خلانى كثيرا- الخ» لكان أجود.

و لما قال فيها المخزومى: [الطويل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٢١٢

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٣

على وجه زهون من الحسن مسحة و تحت الثياب العار لو كان باديا

قواصد زهون توارك غيرها و من قصد البحر استقلّ السواقيا

قالت: [المجتث]

إن كان ما قلت حقًا من بعض عهد كريم

فصار ذكرى ذميما يعزى إلى كلّ لوم

و صرت أقبح شىء فى صورة المخزومى

و قد تقدمت حكايتها فى «الباب الأوّل» من هذا فلتراجع.

و قال لها بعض الثقلاء: ما على من أكل معك خمسمائة سوط؟! فقالت: [الطويل]

و ذى شقوة لَمَا رَأَى له تَمَنِّيَه أَن يَصِلَى معى جاحم الضَّرْب

فقلت له كلها هنيئًا فَإِنَّمَا خلقت إلى لبس المطارف و الشَّرْب

و قال ابن سعيد فى طالعه لما وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة و اجتماعه بقرية الزاوية من خارجها بنزهون القلاعية الأديبة، و ما جرى بينهما، و أنها قالت له بعقب ارتجال بديع- و كان يلبس غفارة صفراء على زى الفقهاء حينئذ- أحسنت يا بقره بنى إسرائيل، إلا أنك لا تسر الناظرين، فقال لها: [إن لم أسر الناظرين] فأنا أسر السامعين، و إنما يطلب سرور الناظرين منك يا فاعله يا صانعه، و تمكن السكر من ابن قزمان، و آل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه فى البركة، فما خرج إلا و هو قد شرب كثيرا من الماء، و ثيابه تهطل، فقال: اسمع يا وزير، ثم أنشد: [السريع]

إيه أبا بكر و لا حول لى بدفع أعيان و أنذال

و ذات فرج واسع دافق بالماء يحكى حال أذيالى

غَرَّقْتَنى فى الماء يا سيدي كَفَرَه بالتغريق فى المال

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٤

فأمر بتجريد ثيابه، و خلع عليه ما يليق به، و مرَّ لهم يوم بعد عهدهم بمثله، و لم ينتقل ابن قزمان من غرناطة إلا من بعد ما أجزل له الإحسان، و مدحه بما هو ثابت له فى ديوان أزداله، و حكى عنه فيما أظن- أعنى ابن قزمان- و يحتمل أنه غيره أنه تبع إحدى الماجنات، و كان أحول، فأطمعته فى نفسها، و أشارت إليه أن يتبعها، فاتبعها حتى أتت به سوق الصاغة ياشبيلية، فوقفت على صائغ من صياعها، و قالت له: يا معلم مثل هذا يكون فص الخاتم الذى قلت لك عنه، تشير إلى عين ذلك الأحول الذى تبعها، و كانت قد كلفت ذلك الصائغ أن يعمل لها خاتما يكون فسه عين إبليس، فقال لها الصائغ: جئنى بمثال، فإنى لم أر هذا و لا سمعت به قط [فجاءته به عن مثال]، و حكاها بعضهم على وجه آخر و أنها ذهبت إلى الصائغ و قالت له: صور لى صورة الشيطان، فقال لها: اثينى بمثال، فلما تبعها ابن قزمان جاءته به، و قالت له: مثل هذا، فسأل ابن قزمان الصائغ فأعلمه فخجل و لعنها.

و كتب [أبو بكر] بن قزمان على باب جنته: [السريع]

و قائل يا حسنهما جنة لا يدخل الحزن على بابها

فقلت و الحق له صولة أحسن منها مجد أربابها

و له: [الوافر]

كثير المال تمسكه فيفنى و قد يبقى مع الجود القليل

و من غرست يدها ثمار جود ففى ظلّ الثناء له مقبل

رجع إلى أخبار نزهون [بنت القليعى]

حكى أنها كانت تقرأ على أبى بكر المخزومى الأعمى، فدخل عليهما أبو بكر الكتندى، فقال يخاطب المخزومى: [الكامل] لو كنت تبصر من تجالسه

فأفحم، و أطال الفكر فما وجد شيئا، فقالت نزهون:

لغدوت أحرص من خلاخله

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٥

البدر يطلع من أزرتة و الغصن يمرح فى غلائله

و كانت ماجنة، و من شعرها قولها: [البسيط]

لله درّ الليالي ما أحسنها و ما أحسن منها ليله الأحد
لو كنت حاضرنا فيها و قد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد
أبصرت شمس الصّحى فى ساعدى قمر بل ريم خازمه فى ساعدى أسد
و هذا المعنى متفق مع قول ابن الزقاق: [الطويل]
و مرتجّة الأرداف أمّا قوامها فلدن و أما ردفها فرداح
ألّمت فبات الليل من قصر بها يطير، و لا غير السرور جناح
فبتّ و قد زارت بأنعم ليله يعانقنى حتّى الصّباح صباح
على عاتقى من ساعديها حمائل و فى خصرها من ساعدىّ و شاح

[من شعر ابن الزقاق]

و ابن الزقاق هذا له فى النظم و الغوص على المعانى الباع المديد، و من نظمه قوله:
[الوافر]

رئيس الشّرق محمود السّجايا يقصّر عن مدائحه البليغ
نسميه يحيى و هو ميت كما أنّ السّليم هو اللّديغ
يعاف الورد إن ظمّت حشاه و فى مال اليتيم له ولوغ
و قوله: [المتقارب]

كنت و لو أنّى أستطيع لإجلال قدرك بين البشر
قددت اليراعة من أنملى و كان المداد سواد البصر
و قوله: [الطويل]

غرير يبارى الصّيح إشراق خده و فى مفرق الظلماء منه نصيب
ترفّ بفيه ضاحكا أفحوانه و يهترّ فى برديه منه قضيب
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٦
و قوله: [الكامل]

و مهفهف نبت الشقيق بخده و اهترّ أملود النقا فى برده
ماء الشبيبة و الغرام أرقّ من صقل الحسام المنتقى و فرنده
يحيى الورى بتحيه من وصله من بعد ما وردوا الحمام بصدّه
إن كنت أهديت الفؤاد له فقل أىّ الجوى بجوانح لم يهده
و قوله: [المتقارب]

أرقّ نسيم الصّبا عرفه و راق قضيب النّقا عطفه
و مرّ بنا يتهادى و قد نضا سيف أجفانه طرفه
و مدّ لمبسمه راحه فخلت الأقاح دنا قطفه
أشارت بتقبلها للسلام فقال فمى ليتنى كفه
و قوله: [الرملى]

بأبى من لم يدع لى لحظه فى الهوى من رمق حين رمق
جمعت نكهته فى ثغره عبقا فى نسق يسبى الحدق
و بدت خجلته فى خده شفقا فى فلق تحت غسق
و قال: [الكامل]

و عشية لبست ملاء شقيق تزهى بلون للحدود أنيق
أبقت بها الشمس المنيرة مثل ما أبقي الحياء بوجنتى معشوق
لو أستطيع شربتها كلفا بها و عدلت فيها عن كؤوس رحيق
و قال فى مسامرة كتاب زعماء: [الكامل]

لله ليلتنا التى استجدى بها فلق الصّباح لسدفة الإظلام
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٧
طرات علىّ مع النجوم بأنجم من فتية بيض الوجوه كرام
إن حوربوا فزعوا إلى بيض الظبا أو خوطبوا فزعوا إلى الأقالم
فترى البلاغة إن نظرت إليهم و البأس بين يراعه و حسام
و قال: [الخفيف]

و مجدّين فى السرى قد تعاطوا غفوات الهوى بغير كؤوس
جنحوا و انحنوا على العيس حتى خلتهم يعتبون أيدي العيس
نبذوا الغمض و هو حلو إلى أن وجدوه سلافه فى الرءوس
و قال: [الطويل]

و حبّ يوم السبت عندى أننى ينادمنى فيه الذى أنا أحببت
و من أعجب الأشياء أنى مسلم حنيف و لكن خير أيامى السبت
و لنتصر من نساء الأندلس على هذا المقدار، و نعد إلى ما كنا فيه من جلب كلام بلغاء الأندلس ذوى الأقدار، فنقول:

[من شعر الخفاجى و ابن صارة]

قال الخفاجى رحمه الله تعالى: [الطويل]
و هاتفه فى البان تملى غرامها علينا و تلو من صبايتها صحفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالة و قد جاوبت من كلّ ناحية إفا
و يشجى قلوب العاشقين أنينها و ما فهموا مما تغتت به حرفا
و لو صدقت فيما تقول من الأسى لما لبست طوقا و لا خضبت كفا
و قال الأستاذ أبو محمد بن صارة [الطويل]:

متى تلتقى عيناى بدر مكارم توّد الثريا أنّها من مواطنه
و لّمّا أهلّ المدلجون بذكره و فاح تراب البيد مسكا لواطئه
عرفنا بحسن الذكر حسن صنيعه كما عرف الوادى بخضرة شاطئه
و قال يتغزل [الكامل]:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٨
يا من تعرّض دونه شحط النوى فاستشرفت لحديثه أسماعي
إني لمن يحظى بقربك حاسد و نواظري يحسدن فيك رفاعي
لم تطوك الأيام عني إنما نقلتك من عيني إلى أضلاعي

[للأديب أبي القاسم بن العطار]

و قال الأديب أبو القاسم بن العطار: [الطويل]
عبرنا سماء الجو و النهر مشرق و ليس لنا إلا الحباب نجوم
و قد ألبسته الأيك برد ظلالها و للشمس في تلك البرود رقوم
و له أيضا: [الكامل]

لله بهجة نزهة ضربت به فوق الغدير رواقها الأنسام
فمع الأصيل التهر درع سابغ و مع الضحى يلتاح فيه حسام
و قال أيضا [الخفيف]:

هبب الريح بالعشي فحاكت زردا للغدير ناهيك جته
و انجلي البدر بعد هده فحاكت كفه للقتال منه أسنه
و قال أيضا: [الكامل]

لله حسن حديقه بسطت لنا منها النفوس سواف و معاطف
تختال في حلل الربيع و حليه و من الربيع قلاند و مطارف
و له: [المنسرح]

و سنان ما إن يزال عارضه يعطف قلبي بعطفة اللام
أسلمني للهوى فواحنني أن بزني عفتي و إسلامي
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢١٩
لحاظه أسهم، و حاجبه قوس، و إنسان عينه رامى

[من شعر أبي جعفر بن خاتمة و الوزير ابن جزى و أبي الحجاج النصرى (السلطان)]

و ارتجل أبو جعفر بن خاتمة رحمه الله تعالى لما بات في قرية بيش: [الكامل]
لله منزلنا بقرية بيش كاد الهوى فيها اذكارا بي يشي
رحنا إليها و البطاح كأنها صحف مذهبة يا بربز العشى
فأجازه الوزير ابن جزى بقوله: [الكامل]

في فتية هزت حميا الأنس من أعطافهم فالكل منها منتشى
يأتى علاهم بالصحيح، و لفظهم بالمنتقى، و جمالهم بالمدهش

و قال السلطان أبو الحجاج النصرى مرتجلا أيام مقامه بظاهر جبل الفتح سنة ٨٢٥:

[الطويل]

و لم يتركوا أوطانهم بمرادهم و لكن لأحوال أشابت مفارقي
أقام بها ليل التّهاني تقلّبا و قد سكنت جهلا نفوس الخلائق
فعوّضتها ليل الصبابة بالسرى و أنس التلاقي بالحبيب المفارق
و لم يثنى طرف من النور ناعس و لا معطف للبان وسط الحدائق
و لا منهض الأشبال فى عقر غيرهم و لا ملعب الغزلان فوق التّمارق
و عاطيتها صبح الدّياجى مدامه تميل بها الركبان فوق الأياتق
إذا ما قطعنا بالمطىّ تنوفة دلجنا لأخرى بالجياذ السّوابق
بحيث التقى موسى مع الخضر آية عسى ترجع العقبى كموسى و طارق
و له: [البسيط]

من عاذرى من غزال زانه حور قد هام لّمّا بدا فى حسنه البشر
ألحاظه كسيوف الهند ماضية لها بقلبي و إن سالمتهأ أثر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٠

[من شعر ابى القاسم بن حاتم و الفقيه ابن سعيد يخاطب الفقيه الفخار و ابن جبير اليحصبي]

و قال القاضى أبو القاسم بن حاتم: [الوافر]
شكوت بما دهاك و كان سرّا لمن ليست مودّته صحيحه
فتلك مصيبة عادت ثلاثا لصحبتها الشماتة و الفضيحة
و قال الفقيه محمد بن سعيد الأندلسى مخاطبا للفقيه الفخار: [البسيط]
خفّف علينا قليلا أيها العلم فربّما كان فينا من به ألم
لا يستطيع نهوضا من تألمه و إن تمادى قليلا خانت القدم
كفى وصية مولانا و سيدنا محمد فاسمعوا ما قال و التزموا
و قال ابن جبير اليحصبي فيمن أهدى إليه تفاحا: [الوافر]
خليل لم يزل قلبى قديما يميل بفرط صاغية إليه
أتانى مقبلا و البشر يبدى و سائل برصه كرمت لديه
و جاء بعرف تفّاح ذكّى فقلت أتى الخليل بسبويه
فأهدى من جناه بكلّ شكل يلوح جمال مهديها عليه

[من شعر إبراهيم البدوى]

و قال قاضى مالقة سيدى إبراهيم البدوى: [مخلع البسيط]
قطعت يأسى فصنت وجهى عن الوقوف لذى وجاهه
قصدت ربّى فكان حسبى ألبسنى فضله وجاهه
فلا يرى يثنى عنانى مدى حياتى إلا تجاهه

[حديث عن مصحف بجامع العديس بإشبيلية]

و قال ابن خليل السكوني في فهرسته: شاهدت بجامع العديس بإشبيلية ربعه مصحف في أسفار ينحى به لنحو خطوط الكوفة إلا أنه أحسن خطا و أبينه و أبرعه و أتقنه، فقال لى الشيخ الأستاذ أبو الحسين بن الطفيل بن عزيمة: هذا خط ابن مقله، و أنشد: [البسيط]
خط ابن مقله من أراعاه مقلته و دت جوارحه لو أنها مقل
ثم قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل فى القدر و الوضع، فالألغات على قدر واحد، و اللامات كذلك، و الكافات و الواوات و غيرها بهذه النسبة، انتهى.

قلت: رأيت بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام مصحفا بخط ياقوت

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢١

المستعصى بهذه المثابة، و هو من الأوقاف الرستمية، و رأيت بالحجرة الشريفة على صاحبها الصلاة و السلام مصحفا مكتوبا فى آخره ما صورته: كتبه بقلم واحد فقط ما قط قط إلا مرة فقط، انتهى.

[من شعر ابن عبدون و أبى عبد الله بن المناصف قاضى بلنسية]

رجع - و قال ابن عبدون رحمه الله تعالى: [الكامل]
أذهبن من فرق الفراق نفوسا و نثرن من درّ الدموع نفيسا
فتبعتهما نظر الشجى فحدقت رقباؤها نحوى عيوننا شوسا
و حللن عقد الصبر إذ ودعنتى فحللن أفلاك الخدور شموسا
حلته إذ حلته حتى خلته عرشا لها و حسبتهما بليسا
فازور جانبها و كان جوابها لو كنت تهوانا صحبت العيسا
و هى طويلة.

قلت: ما أظن لسان الدين نسج قصيدته من هذا البحر و الروى إلا على منوال هذه، و إن كان الحافظ التنسى قال: إنه نسجها على [منوال] قصيدة أبى تمام حسبما ذكرنا ذلك فى محله فليراجع.

و قال أبو عبد الله بن المناصف قاضى بلنسية و مرسيه رحمه الله تعالى: [المجتث]

ألزمت نفسى خمولا عن رتبة الأعلام
لا يخسف البدر إلّا ظهوره فى تمام
و تذكرت به قول غيره: [المجتث]
ليس الخمول بعار على امرئ ذى جلال
فليله القدر تخفى و تلك خير الليالى

[للوزير ابن عمار ردا على أبى المطرف بن الدباغ و قد شفع عنده فى غلام طر عذاره]

و قال الوزير ابن عمار، و قد كتب له أبو المطرف بن الدباغ شافعا لغلام طر له عذار:

[المتقارب]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٢

أتانى كتابك مستشفعا بوجه أبى الحسن من ردّه
و من قبل فضى ختم الكتاب قرأت الشفاعة فى خده

[من شعر ابى الوليد الوقشى و ابن الصفار]

و قال القاضى الأديب، و الفيلسوف الأريب، أبو الوليد الوقشى قاضى طليطلة: [السريع]
برح بى أن علوم الورى قسمان ما إن فيهما مزيد
حقيقه يعجز تحصيلها و باطل تحصيله لا يفيد
و قال أبو عبد الله بن الصفار و هو من بيت القضاء و العلم بقرطبة: [السريع]
لا تحسب الناس سواء متى ما اشتبهوا فالتاس أطوار
و انظر إلى الأحجار، فى بعضها ماء، و بعض ضمنه نار
و هذا مثل قول غيره: [السريع]
الناس كالارض و منها هم من خشن الطبع و من لين
مرو تشكى الرجل منه الوجى و إتمد يجعل فى الأعين
و من نظم ابن الصفار المذكور: [المجتث]
إذا نويت انقطاعا فاعمل حساب الرجوع

[من شعر ابى مروان الجزيرى و ابن المصيصى]

و قال أبو مروان الجزيرى: [الكامل]
و من العجائب و العجائب جمه أن يلهج الأعمى بعيب الأعور
و قال حسان بن المصيصى كاتب الظافر بن عباد ملك قرطبة: [الكامل]
لا تأمنن من العدو لبعده إن امرأ القيس اشتكى الطمّاحا

[أبيات لأبى عمرو بن مهيب و أبيات لعبد الله الجذامى،]

و قال الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى [قدس سره العزيز] فى كتاب «الإسفار، عن نتائج الأسفار»: أنشدنى الكاتب الأديب
أبو عمرو بن مهيب بإشيلية أبياتا عملها فى حمود بن إبراهيم بن أبى بكر الهرغى، و كان أجمل أهل زمانه، رآه عندنا زائرا و قد خط
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٣
عذاره، فقلت: يا أبا عمرو، ما تنظر إلى حسن هذا الوجه؟ فعمل الأبيات فى ذلك، و هى:
[المتقارب]

و قالوا العذار جناح الهوى إذا ما استوى طار عن وكره
و ليس كذاك فخيرهم قياما بعذرى أو عذره
إذا كمل الحسن فى وجنه فخاتمته ويك من شعره
قال بعضهم: رأيت آخر الكتاب المذكور بعد فراغه شعرا نسبه إليه، و هو: [الكامل]
يا حاضرا بجماله فى خاطرى و محجبا بجلاله عن ناظرى

إن غبت عن عيني فأنتك نورها و ضمير سرك سائر في سائري

و من العجائب أننى أبدا إلى رؤياك ذو شوق مديد وافر

مع أننى ما كنت قط بمجلس إلا و كنت منادى و مسامرى

و أنشد في «الإحاطة» لعبد الله الجذامى: [الطويل]

أيا سيدى أشكو لمجدك أننى صددت مرارا عن مثولى بساحتك

شكاه اشتياق أنت حقاً طبيها و ما راحتى إلا بتقيل راحتك

قال: و هو عبد الله بن عبد الله بن أحمد بن محمد الجذامى، فاضل ملازم للقراءة، عاكف على الخير، مشارك فى العريضة، خاطب

للرياسة الأدبية، اختص بالأمير أبى على المنصور ابن السلطان أيام مقامه بالأندلس، و مما خاطبه به معتذرا:

أيا سيدى - البيتين انتهى

[لعبد الله بن أحمد الملقى، أبيات كتبها إلى أبى نصر الفتح بن خاقان صاحب «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس»]

و قال فى ترجمه عبد الله بن أحمد الملقى قاضى غرناطة، و كان فقيها بارع الأدب: إنه كتب إلى أبى نصر صاحب «القلائد» و

«المطمح» أثناء رساله بقوله: [الوافر]

تفتحت الكتابه عن نسيم نسيم المسك فى خلق كريم

أبا نصر رسمت لها رسوما تخال رسوما وضح النجوم

و قد كانت عفت فأثرت منها سراجا لاح فى الليل البهيم

فتحت من الصنائة كل باب فصارت فى طريق مستقيم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٤

فكتاب الزمان و لست منهم إذا راموا مرامك فى هموم

فما قس بأبداع منك لفظا و لا سحبان مثلك فى العلوم

[من شعر محمد بن الحسن المذحجى و محمد بن عبد الرحمن الغرناطى]

و قال الذهبى، و قد جرى ذكر محمد بن الحسن المذحجى الأندلسى بن الكتانى: إنه أديب شاعر متفنن ذو تصانيف، حمل عنه ابن

حزم، و من شعره: [الطويل]

ألا قد هجرنا الهجر و اتصل الوصل و بانت لىالى البين و اجتمع الشمل

فسعدى نديمى، و المدامه ريقها، و وجنتها روضى، و تقيلها الثقل

و قال العلامة محمد بن عبد الرحمن الغرناطى: [الكامل]

الشعب ثم قبيلة و عماره بطن و فخذ و الفصيله تابعه

فالشعب مجتمع القبيلة كلها ثم القبيلة للعماره جامعه

و البطن تجمعه العماثر فاعلمن و الفخذ تجمعه البطون الواسعه

و الفخذ يجمع للفصائل هاكها جاءت على نسق لها متابعه

فخزيمه شعب، و إن كنانة لقبيلة منها الفصائل شائعه

و قریشها تسمى العماره يا فتى و قصى بطن للأعادى قامعه

ذا هاشم فخذ و ذا عباسها أثر الفصيحة لا تناط بسابعه
و كتبت هذه الأبيات و إن لم تشتمل على بلاغة لما فيها من الفائدة، و لأن بعض الناس سألتني فيها لغرابتها، و الأعمال بالنيات.

[من شعر أبي محمد الكلاعي الجباني و قد دخل على القاضي ابن رشد فقام له]

و لما دخل أبو محمد الكلاعي الجباني على القاضي ابن رشد قام له فأنشده أبو محمد بديهة: [مخلع البسيط]
قام لى السيد الهمام قاضى قضاء الورى الإمام
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٥
فقلت قم بى، و لا تقم لى فقلما يؤكل القيام

[من شعر أبي عبد الرحمن بن حجاج البلنسى و ابى محمد بن برطله و ابن وضاح، و أنشده أبو بكر بن حبيش]

و قال أبو عبد الرحمن بن حجاج البلنسى: [الوافر]
لئن كان الزمان أراد حطى و حاربني بأنياب و ظفر
كفانى أن تصافيني المعالى و إن عاديتنى يا أمّ دفر
فما اعتزّ اللثيم و إن تسامى و لا هان الكريم بغير وفر
و قال أبو محمد بن برطله: [الطويل]

ألا إنما سيف الفتى صنو نفسه فنافس بأوفى ذمة و إخاء
يزينك مرأى أو يعينك حاجة فيحسن حالى شدة و رخاء
و قال أيضا: [الطويل]

أنفسى، صبرا لا يروعك حادث يارتاجه، و استشعري عاجل الفتح
فرب اشتداد فى الخطوب لفرجة كما انشق ليل طال عن فلق الصبح
و قال أيضا: [الوافر]

متى يدنو لوعدكم انتجاز و يبعد عن حقيقته المجاز
أ يجمل أن يؤمكم رجائي فيوقف لا يرد و لا يجاز
و جدّكم كفيل بالأمانى و مطلوبى قريب مستجاز
إذا ما أمكنت فرص المساعى فعجز أن يطاولها انتهاز
وها أنا قد هزرتكم حساما و يحسن للمهتدة اهتزاز
فما الإنصاف أن ينضى كهام و يودع غمده العضب الجراز
كما نعم العراق بعذب بحر و يشقى بالظما البرح الحجاز
فأعيبى الناس فى المقدار حلم تجاذبه خمول و اعتزاز

و أنشد الشيخ أبو بكر بن حبيش لابن وضاح البيت المشهور، و هو: [البسيط]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٦

أسرى و أسير فى الآفاق من قمر و من نسيم و من طيف و من مثل

و ابن حبيش المذكور هو أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش - بفتح الحاء و قد عرف به تلميذه ابن رشيد الفهرى فى

رحلته، فقال بعد كلام: أما النظم فيبيده عنانه، و أما النثر فإن مال إليه توكل له بنانه، مع تواضع زائد، على صلة مخبره عائد، لقيته بمنزله ليوم أو يومين من مقدمى على تونس، فتلقى بكل فنّ يونس، و صادفته بحاله مرض، من وء في رجله عرض، و عنده جملة من العواد، من الصدور الأمجاد، فأدنى و قرب، و سهل و رحب، و تفاوض أولئك الصدور، في فنون من الأدب كأنها الشذور، إلى أن خاضوا في الأحاجي، و استضاءوا بأنوار أفكارهم في تلك الدياجى، فخضت معهم فى الحديث، و أنشدتهم بيتين كنت صنعتهما و أنا حديث، لقصة بلغتني عن أبى الحسن سهل بن مالك، و هى أنه كان يسائل أصحابه و هو فى المكتب و يقول لهم: أخرجوا اسمي، فكل ينطق على تقديره، فيقول لهم:

إنكم لم تصيبوه مع أنه سهل، فنظمت هذا المعنى فقلت: [الوافر]

و ما اسم فكّه سهل يسير يكون مصغراً نجم يسير

مصنّفه له فى العين حسن و قلبى عند صاحبه أسير

و كان الشيخ أبو بكر على فراشه، فزحف مع ما به من ألم، إلى محبرة و طرس و قلم، و كتب البيتين بخطه، و قال للحاضرين: ارووا هذين البيتين عن قائلهما.

و من شيوخ ابن حبيش المذكور أبو عبد الله بن عسكر المالقى، كتب له و لأخيه أبى الحسين بخطه إجازة جميع ما يجوز له، و عنه، و ضمن آخرها هذه الأبيات: [الطويل]

أجبتكما لكن مقراً بأننى أقصر فيما رمتما عن مداكما

فإنكما بدران فى العلم أشرفاً فسلم إذعانا و قسرا عداكما

فسيروا على حكم الوداد فإننى أجود بنفسى أن تكون فداكما

قال ابن رشيد: و قد جمع صاحبنا أبو العباس الأشعري لابن حبيش فهرسة جامعة،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٧

و لما وقف عليها ابن حبيش كتب فى أولها ما نصه: الحمد لله حق حمده، أحسن هذا الفاضل فيما صنع أحسن الله إليه، و بالغ فيما جمع بلغ الله تعالى به أشرف المراتب لديه، غير أنى أقول واحده، ما سريرتى لها بجاحده، و أصرح بمقال، لا يسعنى كتبه بحال: و الله ما أنا للإجازة بأهل، و لا مرامها لىّ بسهل، إذ من شرط المجيز أن يعد فيمن كمل، و يعد العلم و العمل، اللهم غفرا، كيف ينيل من عدم و فرا، أو يجيز من أصبح صدره من المعارف قفرا، و صحيفته من الصالحات صفرا، و كيف يرتسم فى ديوان الجلة، من يتسم بالأفعال المخلة، و متى يقترن الشبه بالإبريز، أو يوصف السكيت بالتبريز، و من ضعف النهى، مجانسة الأعمار بالسّها، و من أعظم التويخ، تشيخ من لا يصلح للتشيخ، و إن هذا المجموع ليروق و يعجب، و لكنه جمع لمن لا يستوجب، و إن القراءة قد تحصلت، و لكن القواعد ما تأصلت، و إن القارئ علم، و لكن المقروء عليه عدم، و لقد شكرت لهذا السرى ما جلب، و كتبت مسعفا له بما طلب، و قرنت إلى درّه هذا المخشلب، قلت و حلى عطل و نطقى خطل، مكره أخاك لا بطل، و الله سبحانه و تعالى ينفع بما أخلص له عند الاعتقاد، و يسمح للبهرج عند الانتقاد، كتبه العبد المذنب محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش اللخمي حامدا لله تعالى و مصليا على نبيه الكريم المصطفى و على آله أعلام الطهارة و الهدى و مسلما تسليما.

و كتب أيضا رحمه الله تعالى فى جواب استجازة: المسؤول، مبذول، إن شاء الله تعالى على التنجيز، و لكن شروط الإجازة موجودة فى المجاز معدومة فى المجيز، و الله تعالى يصفح بكرمه و منه، و يشكر كل فاضل على تحسين ظنه، و هو المسؤول سبحانه أن يحفظ بعنايته مهجاتهم، و يرفع بالعلم و العمل درجاتهم، و يتمتعهم بالكمال الراقى المعجب، و يقر بالنجيين عين المنجب، و كتبه ابن حبيش.

[للويزر الكاتب أبى بكر بن القبطرنة يستجدى بازيا من المنصور بن الأفتس]

و قال الوزير الكاتب أبو بكر بن القبطرنة يستجدي بازيا من المنصور بن الأفطس صاحب بطليوس: [الكامل]
يا أيها الملك الذي آباؤه شم الأنوف من الطراز الأول
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٨
حليت بالنعم الجسام جسيمة عنقى فحلّ يدي كذاك بأجلد
و امنن به ضافى الجناح كأنما جذبت قوائمه بريح شمال
متلفتا و الطلّ ينثر برده منه على مثل اليماني المخمل
أغدو به عجبا أصرف في يدي ريحا و آخذ مطلقا بمكبل

[بين ابن عمار و المعتمد بن عباد و قد أهديت للمعتمد باكورة نرجس، فكتب يستدعي حضوره لمجلس أنس]

و أدخلت على المعتمد يوما باكورة نرجس، فكتب إلى ابن عمار يستدعيه: [مخلع البسيط]
قد زارنا النرجس الذكي و آن من يومنا العشي
و عندنا مجلس أنيق و قد ظمنا و فيه رى
ولى خليل غدا سمى يا ليته ساعد السمي
فأجابه ابن عمار: [مخلع البسيط]
لتيك لتيك من مناد له الندى الرحب و الندى
ها أنا بالباب عبد قن قلبته وجهك السنى
شرفه والداه باسم شرفته أنت و النبى

[ابن عمار يكتب للمعتمد و قد اصطبح مع أم الربيع في يوم غيم و احتجب عن الندماء]

و اصطبح المعتمد يوم غيم مع أم الربيع، و احتجب عن الندماء، فكتب إليه ابن عمار:
[الطويل]

تجهّم وجه الأفق و اعتلتّ النفس لأن لم تلح للعين أنت و لا شمس
فإن كان هذا منكما من توافق و ضمكما أنس فيهنكما الأنس
فأجابه المعتمد بقوله:

خليلى قولاهل على ملامه إذا لم أغب إلا لتحضرنى الشمس
و أهدى بأكواس المدام كواكبا إذا أبصرتها العين هشت لها النفس
سلام سلام أنتما الأنس كله و إن غبتما أم الربيع هى الأنس
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٩

[بين ابن عمار و بعض إخوانه، و قد كتبوا له يستدعون منه شرابا و بين ذى الوزارتين القائد أبى عيسى بن لبون، و ابن اليسع]

و استدعى جماعة من إخوان ابن عمار منه شرابا فى موضع هو فيه مفقود، فبعث لهم به و برمانتين و تفاحتين، و كتب لهم مع ذلك:
[الوافر]

خذاها مثل ما استدعيتها عروسا لا تزفّ إلى اللّنام

و دونكما بها ثدي فتاة أضفت إليهما خدي غلام

و شرب ذو الوزارتين القائد أبو عيسى بن لبون مع الوزراء و الكتاب ببطحاء لورقة عند أخيه، و ابن اليسع غائب، فكتب إليه: [البسيط]
لو كنت تشهد يا هذا عشيتنا و المزن يسكن أحيانا و ينحدر
و الأرض مصفرة بالمزن طافية أبصرت درًا عليه التبر يتشر

[من شعر الحجارى فى وصف زيه البدوى و أبى العباس بن خليل]

و قال الحجارى من القصيدة المشهورة: [الوافر]

عليك أحوالى الذكر الجميل

فى وصف زيه البدوى المستثقل و ما فى طيه: [الطويل]

و مثلى بدنّ فيه خمر يخفّ به و منظره ثقيل

و لما انصرف عن ابن سعيد إلى ابن هود عدله ابن سعيد على تحوله عنه، فقال: النفس تواقه، و ما لى بغير التغرب طاقه، ثم قال:
[الطويل]

يقولون لى ما ذا الملال تقيم فى محلّ فعند الأنس تذهب راحلا

فقلت لهم مثل الحمام إذا شدا على غصن أمسى بآخر نازلا

و قد رأيت أن أكفر ما تقدّم ذكره من الهزل الذى أتينا به على سبيل الإحماض بما لا بدّ منه من الحكم و المواعظ و ما يناسبها.
فنقول:

قال أبو العباس بن الخليل: [الكامل]

فهموا إشارات الحبيب فهموا و أقام أمرهم الرّشاد فقاموا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٠

و توسّموا بمدامع منهلة تحت الدياحى و الأنام نيام

و تلوا من الذكر الحكيم جوامعا جمعت لها الألباب و الأفهام

يا صاح لو أبصرت ليلهم و قد صفت القلوب و صفت الأقدام

لرأيت نور هداية قد حفهم فسرى السرور و أشرق الإظلام

فهم العبيد الخادمون ملكهم نعم العبيد و أفلح الخدام

سلموا من الآفات لما استسلموا فعليهم حتى الممات سلام

[من شعر أبى محمد عبد الحق الإشبلى و محمد بن صالح الكنانى و ابن الغماز البنسى]

و قال العالم الكبير الشهير صاحب التأليف أبو محمد عبد الحق الإشبلى رحمه الله تعالى: [البسيط]

قالوا صف الموت يا هذا و شدّته فقلت و امتدّ منى عندها الصوت

يكفيكم منه أنّ الناس إن وصفوا أمرا يروّعهم قالوا هو الموت

و قال الخطيب الأستاذ أبو عبد الله محمد بن صالح الكنانى الشاطبى نزيل بجاية: [الوافر]

جعلت كتاب ربّى لى بضاعه فكيف أخاف فقرا أو إضاعه

و أعددت القناعه رأس مال و هل شىء أعز من القناعه؟

و قال القاضي الكبير الأستاذ الشهير أبو العباس أحمد بن الغماز البلسي نزيل إفريقية:
[الطويل]

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغته و أنت على سوء من الفعل عاكف
و إياك أن تمضي من الدهر ساعة و لا لحظة إلا و قلبك واجف
و بادر بأعمال تسرك أن ترى إذا نشرت يوم الحساب الصّحائف
و لا تياسن من رحمة الله إنّه لربّ العباد بالعباد لطائف
و قال رحمه الله تعالى: [المتقارب]

أما آن للنفس أن تخشعا أما آن للقلب أن يقلعا
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣١
أليس الثمانون قد أقبلت فلم تبق في لذة مطمعا
تقضى الزمان و لا مطمع لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضى الزمان فوا حسرتى لما فات منه و ما ضيعا
و يا ويلتاه لذي شبيهة يطيح هوى النفس فيما دعا
و بعدا و سحقا له إذ غدا يسمع وعظا و لن يسمعا

[من شعر أبي إسحاق الإلبيري الغرناطي]

و قال الأستاذ الزاهد أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي رحمه الله تعالى: [الكامل]
كلّ امرئ فيما يدين يدان سبحان من لم يخل منه مكان
يا عامر الدنيا ليسكنها و ما هي بالتى يبقى بها سّكان
تفنى و تبقى الأرض بعدك مثل ما يبقى المناخ و يرحل الرّكبان
أ أسرّ في الدنيا بكل زيادة و زيادتي فيها هي التّقصان
و قال أيضا رحمه الله تعالى: [المنسرح]

و ذى غنى أو همّته همته أن الغنى عنه غير منفصل
يجزّ أذيال عجبه بطرا و اختال للكبرياء في الحلل
بزّته أيدي الخطوب بزّته فاعتاض بعد الجديد بالسّمّل
فلا تتق بالغنى فأفت ه الفقر و صرف الزمان ذو دول
كفى بنيل الكفاف عنه غنى فكن به فيه غير محتفل
و قال رحمه الله تعالى: [الكامل]

لا شيء أخسر صفقه من عالم لعبت به الدنيا مع الجهال
فغدا يفرّق دينه أيدي سبا و يديله حرصا لجمع المال
لا خير في كسب الحرام و قلّما يرجى الخلاص لكاسب لحلال
فخذ الكفاف و لا تكن ذا فضله فالفضل تسأل عنه أى سؤال
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٢

و قال رحمه الله تعالى:

الشيب نبه ذا النهى فتنبها و نهى الجهول فما استقام و لا انتهى
فإلى متى ألهو و أهدع بالمنى و الشيخ أقبح ما يكون إذا لها
ما حسنه إلا التقى لا أن يرى صبًا بالحاذ الجآذر و المها
أنى يقاتل و هو مفلول الشبا كأبى الجواد إذا استقل تأوها
محق الزمان هلاله فكأنما أبقى له منه على قدر السها
فغدا حسيرا يشتهى أن يشتهى و لكم جرى طلق الجموح كما اشتهى
إن أن أوآه و أجهش بالبكا لذنوبه ضحك الجهول و قهقهها
ليست تنبهه العظا و مثله فى سنه قد آن أن يتبها
فقد اللدات و زاد غيا بعدهم هلا تيقظ بعدهم و تبها
يا ويحه ما باله لا ينتهى عن غيه و العمر منه قد انتهى

[من شعر أبى عبد الله بن العريف و أبى القاسم بن الأبرش و أبى العباس بن صقر الغرناطى]

و قال الأستاذ ولى الله سيدى أبو عبد الله بن العريف: [الكامل]

من لم يشافه عالما بأصوله فيقينه فى المشكلات ظنون

من أنكر الأشياء دون تيقن و تثبت فمعاند مفتون

الكتب تذكرة لمن هو عالم و صوابها بمحالها معجون

و الفكر غواص عليها مخرج و الحق فيها لؤلؤ مكنون

و قال أبو القاسم بن الأبرش: [الخفيف]

أ يأسونى لما تعاضم ذنبى أ تراهم هم الغفور الرحيم

فذرونى و ما تعاضم منه إنما يغفر العظيم العظيم

و قال أبو العباس بن صقر الغرناطى أو المرى، و أصله من سرقسطة: [الكامل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٣

أرض العدو بظاهر متصنع إن كنت مضطرا إلى استرضائه

كم من فتى ألقى بوجه باسم و جوانحى تنقذ من بغضائه

[من شعر ابن الأبار القضاى و من ترجمة ابن الأبار عن الغبرينى فى كتابه «عنوان الدراية»]

و قال الكاتب الشهير الشهيد أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاى البنسى رحمه الله تعالى من أبيات: [الرملى]

يا شقيق النفس أوصيك و إن شق فى الإخلاص ما تنتهجه

لا تبت فى كمد من كبد رب ضيق عاد رحبا مخرجه

و بلطف الله أصبح واثقا كل كرب فعليه فرجه

و لابن الأبار المذكور ترجمة طويلة استوفيت منها ما أمكننى فى «أزهار الرياض، فى أخبار عياض، و ما يناسبها مما يحصل به للنفس

ارتياح و للعقل ارتياض».

قال الغبريني في «عنوان الدراية»: لو لم يكن له من الشعر إلا قصيدته السينية التي رفعها للأمير أبي زكريا رحمه الله تعالى يستنجد به ويستصرخه لنصرة الأندلس لكان فيها كفاية، وإن كان قد نقدها ناقد، و طعن عليه فيها طاعن، و لكن كما قال أبو العلاء المعري: [الطويل]

تكلم بالقول المضلل حاسد و كل كلام الحاسدين هواء

و لو لم يكن له من التأليف إلا كتابه المسمى «بمعادن اللجين، في مراثي الحسين» لكفاه في ارتفاع درجته، و علو منصبه و سمو رتبته. ثم قال: توفي بتونس ضحوه يوم الثلاثاء الموفى عشرين لمحرّم سنة ٦٥٨، و مولده آخر شهر ربيع سنة ٥٩٥ ببلسية، رحمه الله تعالى و سامحه!، انتهى.

[ابن علوان يحدث عن اتصال سنده به و المؤلف يحدث عن اتصال سنده به]

و قال ابن علوان: إنه يتصل سنده به من طرق، منها من طريق الراوية أبي عبد الله نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٤ محمد بن جابر القيسي الوادي آشي عن الشيخ المقرئ المحدث المتبحر أبي عبد الله محمد بن حيان الأوسى الأندلسي نزيل تونس عنه، و من طريق والدي صاحب «عنوان الدراية» عن الخطيب أبي عبد الله بن صالح عنه، انتهى. قلت: و سندی إليه عن العم عن التنسي عن أبيه عن ابن مرزوق عن جده الخطيب عن ابن جابر الوادي آشي به كما مر.

[من شعر ابن عبد ربه و أبي العلاء بن قاسم القيسي و الاعمى التطيلي]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٢٣٤

قال ابن عبد ربه: [البسيط]

بادر إلى التوبة الخلاء مجتهدا و الموت ويحك لم يمدد إليك يدا

و ارقب من الله وعدا ليس يخلفه لا بد لله من إنجاز ما وعدا

و قال الصدر أبو العلاء بن قاسم القيسي: [البسيط]

يا واقف الباب في رزق يؤمله لا تقنطن فإن الله فاتحه

إن قدر الله رزقا أنت طالبه لا تيأسن فإن الله مانحه

و قال الأعمى التطيلي: [البسيط]

تنافس الناس في الدنيا و قد علموا أن سوف تقتلهم لذاتها بددا

قل للمحدث عن لقمان أو لبد لم يترك الدهر لقمانا و لا لبا

و للذي همم البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر في الثرى أحدا

ما لابن آدم لا تفنى مطامعه يرجو غدا و عسى أن لا يعيش غدا

[من شعر أبي العباس التطيلي و القاضي أبي العباس بن الغماز البلسي]

و قال أبو العباس التطيلي: [البسيط]

و الناس كالتاس إلا أن تجربهم و للبصيرة حكم ليس للبصر

كالأيك مشتبهات في منابتها و إنما يقع التفضيل في الثمر

و قال القاضي أبو العباس بن الغماز البلنسى: [الكامل]
 من كان يعلم لا محالة أنه لا بد أن يودى و إن طال المدى
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٥
 هلاً استعدّ لمشهد يجزى به من قد أعدّ من اهتدى و من اعتدى
 و قال أيضاً: [الطويل]

هو الموت فاحذر أن يحيئك بغته و أنت على سوء من الفعل عاكف
 و إياك أن تمضى من الدهر ساعة و لا لحظة إلا و قلبك واجف
 فبادر بأعمال يسرك أن ترى إذا طويت يوم الحساب الصّحائف
 و لا تياسن من رحمة الله إنّه لربّ العباد بالعباد لطائف

[من شعر أبي إسحاق الإلبيري و أبي الطاهر الجياني المعروف بابن أبي ركب]

و لما استوزر باديس صاحب غرناطة اليهودى الشهير ببن نغدة، و أعضل داؤه المسلمين، قال زاهد البيرة و غرناطة أبو إسحاق
 الإلبيري قصيدته النونية المشهورة التى منها فى إغراء صنهاجة باليهود: [المتقارب]
 ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان و أسد العرين
 مقالة ذى مقة مشفق صحيح النصيحة دنيا و دين
 لقد زل سيدكم زلة أقرّ بها أعين الشّامتين
 تخيّر كاتبه كافرا و لو شاء كان من المؤمنين
 فعزّ اليهود به و انتموا و سادوا و تاهوا على المسلمين
 و هى قصيدة طويلة، فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود، و قتلوا منهم مقتلة عظيمة، و فيهم الوزير المذكور، و عادة أهل الأندلس أن
 الوزير هو الكاتب، فأراح الله العباد و البلاد، ببركة هذا الشيخ الذى نور الحق على كلامه باد.
 و قال أبو الطاهر الجياني المشهور بابن أبي ركب بفتح الراء و سكون الكاف: [مجزوء الوافر]
 يقول الناس فى مثل تذكر غائبا تره
 فما لى لا أرى سكنى و لا أنسى تذكره

و كان أبو الطاهر هذا فى جملة من الطلبة، فمر بهم رجل معه محرّبة آبنوس تأتق فى
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٦

حليتها و احتفل فى عملها، فأراهم إياها، و قال: أريد أن أقصد بها بعض الأكابر، و أريد أن تتمموا احتفالى بأن تصنعوا لى بينكم
 أبيات شعر أقدمها معها، فأطرق الجماعة، و قال أبو الطاهر: [الكامل]
 وافتك من عدد العلا زنجية فى حلة من حلية تنبخر
 صفراء سوداء الحلّى كأنها ليل تطرزه نجوم تره

فلم يرغب الرجل عنهم إلا يسيرا، و إذ به قد عاد إليهم، و فى يده قلم نحاس مذهب، فقال لهم: و هذا [مما] أعددت له للدفع مع هذه
 المحبرة، فتفضلوا بإكمال الصنعة عندى بذكره، فبدر. أبو الطاهر و قال: [الكامل]

حملت بأصفر من نجار حليها تخفيه أحيانا و حيناً تظهر
 خرسان إلا حين يرضع ثديها فتراه ينطق ما يشاء و يذكر

[بين ابن ركب و ابن زرقون]

قال ابن الأبار في «تحفة القادم» و حضر يوما في جماعة من أصحابه و فيهم أبو عبد الله ابن زرقون في شعبان في مكان، فلما تملأوا من الطعام قال أبو الطاهر لابن زرقون: أجز يا أبا عبد الله، و أنشد: [الطويل]

حمدت لشعبان المبارك شبعه تسهل عندي الجوع في رمضان
كما حمد الصبّ المتيم زورة تحمل فيها الهجر طول زمان
فقال:

دعوها بشعبانية و لو انهم دعوها بشعبانية لكفاني

[من شعر أبي عبد الله بن خميس الجزائري]

و قال أبو عبد الله بن خميس الجزائري: [الوافر]

تحفظ من لسانك، ليس شيء أحق بطول سجن من لسان
و كن للصمت ملتزما إذا ما أردت سلامة في ذا الزمان
و قال أيضا: [البيسط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٧

كن جلس بيتك مهما فتنة ظهرت تخلص بدينك و افعل دائما حسنا
و إن ظلمت فلا تحقد على أحد إن الضغائن فاعلم تنشئ الفتنة
و قال: [الوافر]

بدا لي أن خير الناس عيشا من آمنه الإله من الأنام
فليس لخائف عيش لذيذ و لو ملك العراق مع الشام
و له: [الكامل]

جانب جميع الناس تسلم منهم إن السلامة في مجانية الوري
و إذا رأيت من امرئ يوما أذى لا تجزه أبدا بما منه ترى
و له: [مخلع البسيط]

من أدب ابنا له صغيرا قرت به عينه كبيرا
و أرغم الأنف من عدو يحسد نعماءه كثيرا

[من شعر أبي محمد بن هارون القرطبي و ابن صارة]

و قال أبو محمد بن هارون القرطبي: [الكامل]

بيد الإله مفاتيح الزرق الذي أبوابه مفتوحة لم تغلق
عجبا لذي فقر يكلف مثله في الوقت شيئا عنده لم يخلق
و قال أيضا: [الطويل]

لعمرك ما الإنسان يرزق نفسه و لكنما الربّ الكريم يسخره

و ما بيد المخلوق فى الرزق حيلة تقدّمه عن وقته أو تؤخّره
و قال الأديب الأستاذ أبو محمد بن صارة رحمه الله تعالى: [البسيط]
يا من يصيح إلى داعى السفاه و قد نادى به النّاعيان الشّيب و الكبر
إن كنت لا تسمع الذّكرى ففيم ثوى فى رأسك الواعيان السّمع و البصر
ليس الأصمّ و لا الأعمى سوى رجل لم يهده الهاديان العين و الأثر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٨
لا الدهر يبقى و لا الدنيا و لا الفلك الأعلى و لا النّيران الشمس و القمر
ليرحلنّ عن الدنيا و إن كرها فراقها الثاويان البدو و الحضر
و قال رحمه الله تعالى فى ابنه ماتت له: [الوافر]
ألا يا موت كنت بنا رؤوفا فجذّدت الحياة لنا بزوره
حماد لفلعلك المشكور لّمّا كفيت مؤنّه و سترت عوره
فأنكحنا الضّريح بلا صداق و جهزنا الفتاة بغير شوره

[من شعر أبى عبد الله بن الحاج البكرى الغرناطى و أبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى]

و أنشد أبو عبد الله بن الحاج البكرى الغرناطى فى بعض مجالسه قوله: [الرجز]
يا غاديا فى غفلة و رائحا إلى متى تستحسن القبائحا
و كم إلى كم لا تخاف موقفا يستنطق الله به الجوارحا
يا عجبا منك و كنت مبصرا كيف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرا فى غد صحيفة قد ملئت فضائحا
أم كيف ترضى أن تكون خاسرا يوم يفوز من يكون رابحا
و ممن روى عنه هذه الأبيات الكاتب الرئيس أبو الحسن بن الجياب، و توفى ابن الحاج المذكور سنة ٧١٥ رحمه الله تعالى:
و قال حافظ الأندلس و محدثها أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى رحمه الله تعالى: [الطويل]
إلهى مضت للعمر سبعون حجّة و لى حركات بعدها و سكون
فيا ليت شعرى أين أو كيف أو متى يكون الذى لا بدّ أن سيكون
و الصواب أنهما لغيره كما ذكرته فى غير هذا الموضع، و بالجملة فهما من كلام الأندلسيين، و إن لم يحقق ناظمهما بالتعيين.
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٣٩

[من شعر أبى بكر يحيى التطلّى]

و قال أبو بكر يحيى التطلّى رحمه الله تعالى: [الطويل]
إليك بسطت الكفّ فى فحمة الدّجى نداء غريق فى الدّنوب عريق
رجاك ضميرى كى تخلّص جملتى و كم من فريق شافع لفريق

[بين بعض المغاربة و الملك الكامل بن العادل بن أيوب]

و حكى أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب رقعة في ورقة بيضاء، إن قرئت في ضوء السراج كانت فضية،
و إن قرئت في الشمس كانت ذهبية، و إن قرئت في الظل كانت حبرا أسود، و فيها هذه الأبيات: [الطويل]
لئن صدني البحر عن موطني و عيني بأشواقها زاهره
فقد زخرف الله لي مكة بأنوار كعبته الزاهره
و زخرف لي بالنبي يثربا و بالملك الكامل القاهره
فقال الملك الكامل قل:
و طيب لي بالنبي طيبة و بالملك الكامل القاهره
و أظن أن المغربي أندلسي لقوله لئن صدني البحر عن موطني فلذلك أدخلته في أخبار الأندلسيين على غير تحقيق في ذلك، و الله
أعلم.

[من شعر بن عبد البر النمري الحافظ]

و أنشد أبو الوليد المعروف بابن الخليفة قال: أنشدنا أبو عمر بن عبد البر النمري الحافظ: [الطويل]
تذكرت من يبكي عليّ مداوما فلم أَلْف إلا العلم بالدين و الخبر
علوم كتاب الله و السنن التي أتت عن رسول الله مع صحه الأثر
و علم الألى من ناقيه و فهم ما له اختلفوا في العلم بالرأى و النظر
و أنشد له أيضا: [الطويل]
مقاله ذى نصح و ذات فوائد إذا من ذوى الألباب كان استماعها
عليكم بآثار النبى فإنه من افضل أعمال الرشد اتباعها

[من شعر ابن عياش الأزدي و ابن خفاجة]

و قال أبو الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب الأزدي اليابرى، و سكن أبوه قرطبة:
[الطويل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٠
عصيت هوى نفسى صغيرا و عندما رمتنى الليالى بالمشيب و بالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتنى خلقت كبيرا و انتقلت إلى الصغر
و قيل: إن ابنه أبا الحسن على بن عبد الملك قال بيتا مفردا في معنى ذلك، و هو:
هنيئا له إذ لم يكن كابنه الذى أطاع الهوى في حالتيه و ما اعتبر
و قيل: إن هذا البيت رابع أربعة أبيات.

و قال أبو إسحاق بن خفاجة لما اجتمع به أبو العرب و سأله عن حاله و قد بلغ في عمره إحدى و ثمانين سنة، فأنشده لنفسه: [الرملى]
أى عيش أو غداء أو سنه لابن إحدى و ثمانين سنه
قلص الشيب به ظل امرئ طالما جرّ صباه رسنه
تارة تسطو به سيئه تسخن العين و أخرى حسنه

[من شعر عبد الوهاب القيسي الملقى و عبد الحق الإشبيلي الأزدي و أبي الفضل عبد المنعم]

و قال أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القيسي الملقى: [السريع]

الموت حصاد بلا منجل يسطو على القاطن و المنجلى

لا يقبل العذر على حاله ما كان من مشكل او من جلى

و قال الشيخ عبد الحق الإشبيلي الأزدي صاحب كتاب العاقبة و الإحكام و غيرهما:

إن فى الموت و المعاد لشغلا و اذكارا لذى النهى و بلاغا

فاغتم خطتين قبل المنايا صحه الجسم يا أخى و الفراغا

و قال أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغسانى من أهل جليانة من عمل وادى آش: [الطويل]

ألا إنما الدنيا بحار تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجنبات

و أكثر من صاحبت يغرق إلفه و قلّ فتى ينجى من الغمرات

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤١

و كان المذكور من أهل العلم و الأدب، رحل و حج و تجول فى البلاد، و نزل القاهرة المعزية، و كان أحد السياحين فى الأرض، و له

تأليف منها «جامع أنماط الوسائل، فى القريض و الخطب و الرسائل» و أكثره نظمه و نثره، رحمه الله تعالى!.

[من شعر عبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القضاعى الطرطوشى و أبى الحكم عبد المحسن البنسى]

و قال عبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القضاعى الطرطوشى: [الطويل]

و ما الناس إلا كالصّحائف عبرة و ألسنهم إلا كمثل التّراجم

إذا اشتجر الخصمان فى فطنة الفتى فمقوله فى ذاك أعدل حاكم

و قال أبو الحكم عبد المحسن البنسى: [البيسط]

من كان للدهر خدنا فى تصرّفه أبدت له صفحة الدهر الأعاجيبا

من كان خلوا من الآداب سربله مرّ الليالى على الأيام تأديبا

[من شعر أبى حاتم عمر بن محمد بن فرج و غانم بن الوليد المخزومى الملقى]

و قال أبو حاتم عمر بن محمد بن فرج من أهل ميرتلة: مدينة بغرب الأندلس، يمدح شهاب القضاعى: [الكامل]

شهب السّماء ضياؤها مستور عنا إذا أفلت توارى النّور

فانزع هديت إلى شهاب نوره متألق آماله تبصير

تشفى جواهره القلوب من العمى و لطالما انشرحت بهنّ صدور

فإذا أتى فيه حديث محمّد خذ فى الصلاة عليه يا مغرور

و ترخمنّ على القضاعى الذى وضع الشهاب فسعيه مشكور

و قال الأستاذ أبو محمد غانم بن الوليد المخزومى الملقى: [السريع]

ثلاثة يجهل مقدارها الأمن و الصّحة و القوت

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٢

فلا تتق بالمال من غيرها لو أنه درّ و ياقوت
و تذكرت بهذا قول الآخر: [الهزج]
إذا ما القوت يأتي ل ك و الصحة و الأمن
و أصبحت أخوا حزن فلا فارقك الحزن

و كل ذلك أصله الحديث النبوي «من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، معه قوت يومه، فكأنما سيقت له الدنيا بحذافيرها».
و أخبرنا شيخنا القصار أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي مفتي مدينة فاس و خطيبها سنة عشر و ألف، قال: حدثنا شيخنا أبو عبد الله
محمد بن أبي الفضل التونسي نزيل فاس الشهير بخروف، حدثنا الإمام سيدي فرج الشريف الطحطحائي، قال: سمعت النبي صلى الله
عليه و سلم في النوم يقول: «من أصبح آمنا في سربه- الحديث».

[من شعر أبي العباس أحمد بن العريف و أبي محمد المحاربي]

رجع:

و قال الأستاذ العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد بن العريف الأندلسي دفين مراکش، و قد زرت قبره بها سنة ١٠١٠: [الوافر]
إذا نزلت بساحتك الرزايا فلا تجزع لها جزع الصبي
فإن لكل نازلة عزاء بما قد كان من فقد النبي
و قال رحمه الله تعالى: [البيسط]

شدوا الرحال و قد نالوا المنى بمنى و كلهم بأليم الشوق قد باحا
راحت ركائبهم تندى روائحها طيبا بما طاب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبر النبي المصطفى لهم راح إذا سكروا من أجله فاحا
يا راحلين إلى المختار من مضر زرتم جسوما و زرنا نحن أرواحا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٣
إنا أقمنا على شوق و عن قدر و من أقام على عذر كمن راحا
و قال أبو محمد المحاربي: [مجزوء الكامل]

داء الزمان و أهله داء يعز له العلاج
أطلعت في ظلماته رأيا كما سطع السراج
لمعاشر أعيان ثقا في من قناتهم اعوجاج
كالدرا ما لم تختبر فإذا اختبرت فهم زجاج

[من شعر غريب الثقفي القرطبي و ابن الطراوة النحوي المالقي]

و قال أبو عبد الله غريب الثقفي القرطبي: [الوافر]
تهددني بمخلوق ضعيف يهاب من المنية ما أهاب
له أجل ولى أجل و كل سيلغ حيث يبلغه الكتاب
و ما يدري لعل الموت منه قريب أينا قبل المصاب
وله: [الرملة]

أيها الآمل ما ليس له طالما غر جهولا أمله
ربما بات يمني نفسه خانه دون مناه أجله
وفتي بكر في حاجاته عاجلا أعقب ريثا عجله
قل لمن مثل في أشعاره يذهب المرء و يبقى مثله
نافس المحسن في إحسانه فسيكفيك مسينا عمله
قال ابن الأبار: وهذا البيت الأخير في برنامج الطنبى.
وقال أبو الحسن سليمان بن الطراوة النحوى الملقى: [الوافر]
وقائله أتصبو للغوانى وقد أضحى بمفرقك النهار
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٤
فقلت لها حثت على التصابى (أحق الخيل بالركض المعار)

[من شعر أبي الربيع بن سالم و أبي الحسن الباهلى الإشبلى]

وقال الحافظ أبو الربيع بن سالم: [الطويل]
إذا برمت نفسى بحال أحلتها على أمل ناء ففرت به النفس
و أنزل أرجاء الرجاء ركائبى إذا رام إلماما بساحتى اليأس
و إن أو حشنتى من أمانى نبوة فلى فى الرضا بالله و القدر الأنس
وقال أبو الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلى الإشبلى مما أنشده لنفسه فى كتابه الذى سماه «بالذخائر و الأعلام»، فى أدب
النفوس و مكارم الأخلاق: [الطويل]
إذا تم عقل المرء تمت فضائله و قامت على الإحسان منه دلائله
فلا تنكر الأبصار ما هو فاعله و لا تنكر الأسماع ما هو قائله
و كان أبو المذكور من وزراء المعتمد بن عباد، رحم الله تعالى الجميع!

[من شعر أبي بكر الزبيدى اللغوى و أبي الوليد هشام بن محمد، القيسى، الشلبى، المعروف بابن الطلا]

وقال أبو بكر الزبيدى اللغوى: [الرملى]
اترك الهم إذا ما طرقتك و كل الأمر إلى من خلقك
و إذا أمل قوم أحدا فإلى ربك فامدد عنقك
وقال القاضى أبو الوليد هشام بن محمد القيسى الشلبى المعروف بابن الطلا: فاوضت القاضى أبا محمد عبد الله بن شبرين ما يحذر
من فتنة النظر إلى الوجوه الحسان، فقلت:
[البسيط]

لا تنظرن إلى ذى روتق أبدا و احذر عقوبة ما يأتى به النظر
فكم صريع رأيناه صريع هوى من نظرة قادها يوما له القدر
فأجانبى فى المعنى الذى انتحيت: [البسيط]
إذا نظرت فلا تولع بتقليب فرما نظرة عادت بتعذيب

و «رب» هنا للتكثير.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٥

[من شعر ابن حوط الله ترجمته عن «الإحاطة»]

و قال الأستاذ ابن حوط الله: [الوافر]

أ تدرى أنك الخطاء حقًا و أنك بالذى تأتي رهين

و تغتاب الألى فعلوا و قالوا و ذاك الظن و الإفك المبين

قال فى «الإحاطة» أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حوط الله الأنصارى الحارثى، كان فقيها جليلا أصوليا كاتباً أدبياً شاعراً متفنناً فى العلوم ورعا دينا حافظاً ثبثاً فاضلاً، درس كتاب سيويوه و مستصفى أبى حامد الغزالي، و كان -رحمه الله تعالى!- مشهوراً بالعقل و الفضل، معظماً عند الملوك، معلوم القدر لديهم، يخطب فى مجالس الأمراء و المحافل الجمهوريه، مقدماً فى ذلك بلاغاً و فصاحةً إلى أبعد مضمار، ولى قضاء إشبيلية و قرطبة و مرسية و سبتة و سلا و ميورقه، فتظاهر بالعدل، و عرف بما أبطن من الدين و الفضل، و كان من العلماء العاملين، مجانبا لأهل البدع و الأهواء، بارع الخط، حسن التقيد، و سمع الحديث، فحصل له سماع لم يشاركه فيه أحد من أهل الغرب، و سمع على الجهابذة كابن بشكوال و غيره، و قرأ أكثر من ستين تأليفاً بين كبار و صغار، و كمل له على أبى محمد بن عبد الله بين قراءة و سماع نحو من ستين و ثلاثين تأليفاً، منها الصحيحان، و أكثر عن ابن حبيش و ابن الفخار و السهيلي و غيرهم، و مولده فى محرم سنة ٥٤١، و مات بغرناطة سحر يوم الخميس ثانى ربيع الأول سنة ٦١٢، و نقل منها فى تابوته الذى أُلحد فيه يوم السبت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة إلى مالقة فدفن بها، رحمه الله تعالى! انتهى، و بعضه بالمعنى مختصراً.

و للمذكور ترجمه واسعة جداً، و ألمعت بما ذكر على وجه التبرك بذكره، رحمه الله تعالى و رضى عنه!.

[من شعر أبى المتوكل الهيثم بن أحمد السكونى الإشبيلية،]

و قال أبو المتوكل الهيثم بن أحمد السكونى الإشبيلية: [البيسط]

يجفى الفقير و يغشى الناس قاطبة باب الغنى، كذا حكم المقادير

و إنما الناس أمثال الفراش فهم يرون حيث مصابيح الدنانير

و قال تلميذه ابن الأبار: أنشدنى بعض أصحابنا عنه هذين البيتين، و لم أسمعهما منه، انتهى.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٦

قلت: و بهذا تعرف وهم من نسب البيتين إلى عبد المهيمن الحضرمى [فإن هذا كان قبل أن يخلق والد عبد المهيمن الحضرمى]، و قد أنشدهما أيضاً ابن الجلاب الفهرى فى «روح الشعر، و روح الشجر».

[من شعر ابن أفيوثة و أبى بكر يحيى ابن مجبر أبى الحجاج يوسف بن أحمد الأنصارى المنصفى البلسى]

و قال أبو محمد القاسم بن الفتح الحجارى المعروف بابن أفيوثة: [الطويل]

ركابى بأرجاء الرّجاء مناخه و رائدها علمى بأنك لى ربّ

و أنك علم بما أنا قائل كما أنت علم بما أضمر القلب

لئن آدها ذنب تولّت بعبئه لقد قرعت بابا به يغفر الذّنب

و قال أيضا: [الكامل]

عجبا لحبر قد تيقن أنه سيرى اقتراف يديه في ميزانه
ثم امتطى ظهر المعاصى جهرة لم يشنه التأنيب عن عصيانه
أنى عصى و لكل جزء نعمة من نفسه و زمانه و مكانه

و قال الشاعر الكبير الشهير أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبر الفهرى: [البيط]

إنّ الشدائد قد تغشى الكريم لأن تبين فضل سجاياه و توضحه
كمبرد القين إذ يعلو الحديد به و ليس يأكله إلا ليصلحه
و قال: [السريع]

لا تغبط المجذب في علمه و إن رأيت الخصب في حاله
إنّ الذى ضيغ من نفسه فوق الذى ثمر من ماله

و قال أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصارى المنصفى البلسنى: [السريع]

قالت لى النفس أتاك الردى و أنت فى بحر الخطايا مقيم
هل اتخذت الزاد قلت اقصرى هل يحمل الزاد لدار الكريم

و كان المنصفى المذكور صالحا، و له رحلة حج فيها، و مال إلى علم التصوف، رحمه الله تعالى، و له فيه أشعار حملت عنه.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٧

[من شعر ابن الصائغ القرشى الأموى و أبى عبد الله الحميدى]

و قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ القرشى الأموى الأندلسى مخمسا أبيات عز الدين بن جماعة قاضى القضاة

رحمه الله تعالى: [البيط]

همّ الأبيّ على مقدار منصبه و بسط راحته فى طى منصبه
ما أنت و الدهر تشكو من تقلبه يا مبتلى بقضاء قد بليت به

عليك بالصبر و احذر يا أخى جزعك

صبرا فللصبر فى حرب العدا عدد ذر العدو يمته الغيظ و الحسد

و لا يكن لك إلا الله معتمد و اعلم بأن جميع الخلق لو قصدوا

أذاك لم يقدروا و الله قد رفعك

أعلاك فى رتب غر معظمه بالعرف معروفة بالعلم معلمه

و من يناويك فى بهماء مظلمة فاصرف هواك و جانب كل مظلمة

و اصحب فديتك من بالنصح قد نفعك

قد اجتلبت من الأيام تبصرة و قد كفاك الهدى و الذكر تذكرة

فاشكر و قدم مع الإخلاص معذرة و أسأل إلهك فى الإسحار مغفرة

منه و كن معه حتى يكون معك

و توفى المذكور بالقاهرة فى الطاعون العام سنة ٧٤٩.

و قال أبو عبد الله الحميدى: [البيط]

الناس نبت و أرباب القلوب لهم روض و أهل الحديث الماء و الزهر
من كان قول رسول الله حاكمه فلا شهود له إلا الألى ذكروا
و قال أيضا: [الكامل]

من لم يكن للعلم عند فئائه أرج فإن بقاءه كفئائه
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٨
بالعلم يحيا المرء طول حياته فإذا انقضى أحياءه حسن ثنائه
و قال أيضا: [السيط]

دين الفقيه حديث يستضيء به عند الحجاج و إلا كان فى الظلم
إن تاه ذو مذهب فى قفر مشكلة لاح الحديث له فى الوقت كالعلم

[بين الحميدى و من ذم أهل الحديث]

و لما تعرض بعض من لا يبالي بما ارتكب إلى أصحاب الحديث بقوله: [الطويل]
أرى الخير فى الدنيا يقل كثيره و ينقص نقصا و الحديث يزيد
فلو كان خيرا كان كالخير كله و لكن شيطان الحديث مرید
و لابن معين فى الرجال مقالة سيسأل عنها و المليك شهيد
فإن يك حقا قوله فهى غيبة و إن يك زورا فالقصاص شديد
أجابه الإمام أبو عبد الله الحميدى بقصيدة طويلة، منها: [الطويل]
و أتى إلى إبطال قولك قاصد و لى من شهادات النصوص جنود
إذا لم يكن خيرا كلام نبينا لديك فإن الخير منك بعيد
و أقيح شىء أن جعلت لما أتى عن الله شيطانا و ذاك شديد
و ما زلت فى ذكر الزيادة معجبا بها تبدىء التليس ثم تعيد
كلام رسول الله و حى و من يرم زيادة شىء فهو فيه عنيد
و منها فى ابن معين: [الطويل]

و ما هو إلا واحد من جماعة و كلهم فيما حكوه شهود
فإن صد عن حكم الشهادة جاهل فإن كتاب الله فيه عتيد
و لولا رواة الدين ضاع و أصبحت معالمه فى الآخرين تبيد
هم حفظوا الآثار من كل شبهة و غيرهم عما اقتنوه رقاد
و هم هاجروا فى جمعها و تبادروا إلى كل أفق و المرام كؤود
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٤٩
و قاموا بتعديل الرواة و جرحهم فدام صحيح النقل و هو حديد
بتبليغهم صحت شرائع ديننا حدود تحزوا حفظها و عهدود
و صح لأهل النقل منها احتجاجهم فلم يبق إلا عاند و حقود
و حسبهم أن الصحابة بلغوا و عنهم روى لا يستطيع جحود

فن حاد عن هذا اليقين فمارق مرید لإظهار الشكوك مرید
و لكن إذا جاء الهدى و دليله فليس لموجود الضلال وجود
و إن رام أعداء الديانة كيدها فكيدهم بالمخزيات مكيد

[من شعر ابن محرز الزهرى البلنسى و أحمد بن سعيد بن حزم و أبى العباس أحمد بن الغماز]

و قال أبو بكر محمد بن محرز الزهرى و البلنسى، و التزم الراء فى كل كلمة: [مجزوء الكامل]
اشكر لربك و انتظر فى إثر عسر الأمر يسرا
و اصبر لربك و ادخر فى ستر ضر الفقر أجرا
فالدهر يعثر بالورى و الصبر بالأحرار أخرى
و الوفير أظهر معشرا و الفقر بالأخيار يغرى
و قال أيضا: [الكامل]

اقنع بما أوتيته تمل الغنى و إذا دهتك ملمة فتصبر
و اعلم بأن الرزق مقسوم فلو رمنا زيادة ذرة لم نقدر
و الله أرحم بالعباد فلا تسل بشرا تعش عيش الكرام و تؤجر
و إذا سخطت لضر حالك مرة و رأيت نفسك قد عدت فاستبصر
و انظر إلى من كان دونك تدكر لعظيم نعمته عليك فتشكر
و قال الحافظ أبو محمد بن حزم: أنشدنى والدى أحمد بن سعيد بن حزم: [الطويل]
إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها
و قال القاضى أبو العباس أحمد بن الغماز البلنسى نزيل تونس: [الطويل]
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥٠
و قالوا أما تخشى ذنوبا أتيتها و لم تك ذا جهل فتعذر بالجهل
فقلت لهم هبنى كما قد ذكرتم تجاوزت فى قولى و أسرفت فى فعلى
أما فى رضا مولى الموالى و صفحه رجاء و مسلاة لمقترف مثلى
و أنشد رحمه الله تعالى لنفسه فى اليوم الذى مات فيه، و هو آخر ما سمع منه ليلة عاشوراء سنة ٦٩٣: [البيط]
أدعوك يا رب مضطرا على ثقة بما وعدت كما المضطر يدعوكا
دارك بعفوك عبدا لم يزل أبدا فى كل حال من الأحوال يرجوكا
طالت حياتى و لما أتخذ عملا إلا محبة أقوام أحبوكا

[من شعر ابن الزقاق و أبى عبد الله الكنانى الشاطبى]

و قال ابن الزقاق: و يقال: إنها مكتوبة على قبره: [الطويل]
أ إخواننا و الموت قد حال دوننا و للموت حكم نافذ فى الخلاق
سبقتكم للموت و العمر طيبة و أعلم أن الكل لا بد لاحقى
بعيشكم أو باضطجاعى فى الثرى أ لم نك فى صفو من العيش رائق

فمن مَرَّ بِي فليمض لِي مترحِّمًا و لا يَكْ منسِيًا و فاء الأصادق
و قال الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح الكنانى الشاطبى، و مولده سنة ٦١٤:

[الطويل]

أرى العمر يفنى و الرجاء طويل و ليس إلى قرب الحبيب سبيل
جباه إله الخلق أحسن سيرة فما الصبر عن ذاك الجمال جميل
متى يشتفى قلبى بلثم ترابه و يسمح دهر بالمزار بخيل
دللت عليه فى أوائل أسطرى فذاك بنى مصطفى و رسول

[من شعر أيمن به محمد الغرناطى و أبى بكر الزبيدى اللغوى]

و قال أيمن بن محمد الغرناطى نزيل طيبة على ساكنها الصلاة و السلام: [الطويل]

أرى حجرات قد أحاطت عراضها ببحر محيط حصره غير ممكن

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥١

بحار المعانى و المعالى و إن طمت لدى لجة تفنى و عن هوله تنى

محمد المحمود فى كل موطن أبو القاسم المختار من خير معدن

نبى إذا أبصرت غرة وجهه تيقنت أن العز عز المهيمن

لك الله من بدر إذا الشمس قابلت محياه قالت إن ذا طالع سنى

و له: [الكامل]

كل القلوب مطيعه لك فى الهوى جانب فديتك من تشاء و وال

الحسن وال، و القلوب رعية و على الرعية أن تطيع الوالى

و قال أيضا: [الطويل]

ألا أيها الباكي على ما يفوته من الحظ فى الدنيا جهلت و ما تدرى

على فوت حظ من جوار محمد حقيق بأن تبكى إلى آخر العمر

ستدرى إذا قمنا و قد رفع اللوا و أحمدها دينا إلى موقف الحشر

من الفائز المغبوط فى يوم حشره أجار النبى المصطفى أم أخو الوفر

و له: [الطويل]

فررت من الدنيا إلى ساكن الحمى فرار محب لائذ بحبيب

لجأت إلى هذا الجناب، و إنما لجأت إلى سامى العماد رحيب

و ناديت مولاي الذى عنده الغنى نداء عليل فى الزمان غريب

أ مولاي إنى قد أتيتك لائذا و أنت طبيى يا أجل طيب

فقال لك البشرى ظفرت من الرضا بأوفر حظ مجزل و نصيب

تناومت فى أطلال ليل شيبتي فأدركنى بالفجر صبح مشيبى

و قال أبو بكر الزبيدى اللغوى: [السريع]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥٢

لو لم تكن نار و لا جنه للمرء إلا أنه يقبر
لكان فيه واعظ زاجر ناه لمن يسمع أو يبصر
و لقد صدق رحمه الله تعالى و رضى عنه!

[من شعر بعض فقهاء طليبره و أبى بكر بن مغاوز و ابن صفوان الخطيب و بعض قدماء الأندلس]

و لبعض فقهاء طليبره: [الوافر]

رأيت الانقباض أجلّ شىء و أدعى فى الأمور إلى السلامه

فهذا الخلق سالمهم و دعهم فرؤيتهم توول إلى الندامه

و لا نعى بشىء غير شىء يقود إلى خلاصك فى القيامه

و أمر الكاتب أبو بكر بن مغاوز بكتب هذه الأبيات على قبره، و هى له: [الخفيف]

أيها الواقف اعتبارا بقبرى استمع فى قول عظمى الزمىم

أودعوني بطن الضريح و خافوا من ذنوب كلومها بأديمى

قلت لا تجزعا على فإنى حسن الظنّ بالرؤوف الرحيم

و دعونى بما اكتسبت رهينا غلق الرهن عند مولى كريم

و قال الخطيب بن صفوان: [الطويل]

رأيتك يدننى إليك تباعدى فأبعدت نفسى لابتغائى فى القرب

هربت له منى إليه فلم يكن بى البعد فى قربى فصحّ به قربى

فيا رب هل نعى على العبد بالرضا ينال بها فوزا من القرب بالقرب

و قال الوادى آشى:

و هذا النظم معناه جليل، و تكرار القرب و إن قبح عند العروضى فهو عند المحب جميل، و هم القوم يسلم لهم فى الأفعال و الأقوال، و

ترتجى بركتهم فى كل الأحوال، انتهى.

و قال بعض قدماء الأندلس: [المتقارب]

سئمت الحياء على حبا و حقّ لذى السقم أن يسأما

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥٣

فلا عيش إلا لذى صحه تكون له للتقى سلما

و ذيله آخر منهم فقال: [المتقارب]

و لا داء إلا لمن لم يزل يقارب فى دينه مأثما

فلست تعالج جرح الهوى هديت بمثل التقى مرهما

[من شعر أبى جعفر أحمد السياسى القيسى المرى و أبى إسحاق بن أبى العاصى و أحمد بن الزيات المالقى]

و قال أبو جعفر أحمد السياسى القيسى المرى: [الطويل]

إذا ما جنى يوما عليك جنايه ظلوم يدق السمر بأسا و يقصف

فلا تنتقم يوما عليه بما جنى و كل أمره للدهر فالدهر منصف

و قال أيضا: [الخفيف]

ليس حلم الضعيف حلما، و لكن حلم من لو يشاء صال اقتدارا

من تغاضى عن السفيه بحلم أصبح الناس دونه أنصارا

من يزوج كريمه الهمة العل يا علوا فقد أجاد الخيارا

ستريه عند الولاد بنيتها العل م و الحلم و الأناة كبارا

و قال الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبي العاصي: [الكامل]

اعمل بعلمك تؤت علما إنما جدوى علوم المرء نهج الأقوم

و إذا الفتى قد نال علما ثم لم يعمل به فكأنه لم يعلم

و قال موطننا على البيت الأخير: [المتقارب]

أ مولاي أنت العفو الكريم لبذل النوال و للمعذره

على ذنوب و تصحيفها و من عندك الجود و المغفره

و قال الخطيب المتصوف الشهير أبو جعفر أحمد بن الزيات من بلش مالقة: [الوافر]

يقال خصال أهل العلم ألف و من جمع الخصال الألف سادا

و يجمعها الصلاح فمن تعدى مذاهبه فقد جمع الفسادا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥٤

و قال أيضا: [البيسط]

إن شئت فوزا بمطلوب الكرام غدا فاسلك من العمل المرضي منهاجا

و اغلب هوى النفس لا يغررك خادعه فكل شيء يحط القدر منهاجا

[من شعر ابن صارة و أبي محمد بن صاحب الصلاة، الداني]

و قال الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبد الله بن صارة البكري الشتريني رحمه الله تعالى: [الوافر]

بنو الدنيا بجهل عظموها فجلت عندهم و هي الحقيره

يهارش بعضهم بعضا عليها مهارش الكلاب على العقيره

و قال: [الخفيف]

أى عذر يكون لا أى عذر لابن سبعين مولع بالصبايه

و هو ماء لم تبق منه الليالي فى إناء الحياه إلا صبايه

و قال أيضا: [الوافر]

و لقد طلبت رضا البريه جاهدا فإذا رضاهم غاية لا تدرك

و أرى القناعه للفتى كترا له و البر أفضل ما به يتمسك

و قال أبو محمد ابن صاحب الصلاة الداني، و يعرف بعبدون: [الطويل]

و عجل شيبى أن ذا الفضل مبتلى بدهر غدا ذو النقص فيه مؤملا

و من نكد الدنيا على المرء أن يرى بها الحر يشقى و اللئيم ممولا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٢٥٤

متى ينعم المعتر عينا إذا اعتفى جوادا مقلا أو غتيا مبخلا

[من شعر أبي الحكم عبيد الله الأموي مولاهم و أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري و أبي جعفر بن خاتمة]

و قال أبو الحكم عبيد الله الأموي مولاهم الأندلسي: [الطويل]
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥٥
 إذا كان إصلاحى لجسمى واجبا فأصلاح نفسى لا محالة أوجب
 و إن كان ما يفنى إلى النفس معجبا فإن الذى يبقى إلى العقل أعجب
 و قال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه الله تعالى: [الكامل]
 أكياس جفوا أوطانهم فالأرض أجمعها لهم أوطان
 جالت عقولهم مجال تفكر و جلاله فبدا لها الكتمان
 ركبت بحار الفهم فى فلك النهى و جرى بها الإخلاص و الإيمان
 فرست بهم لما انتهوا بجفونهم مرسى لهم فيه غنى و أمان
 و قال أبو جعفر بن خاتمة رحمه الله تعالى: [البسيط]
 يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا ارحم عبادا أكف الفقر قد بسطوا
 عودتهم بسط أرزاق بلا سبب سوى جميل رجاء نحوه انبسطوا
 وعدت بالفضل فى ورد و فى صدر بالجود إن أقسطوا و الحلم إن قسطوا
 عوارف ارتبطت شم الأنوف لها و كل صعب بقيد الجود يرتبط
 يا من تعرّف بالمعروف فاعترفت بجم إنعامه الأطراف و الوسط
 و عالما بخفيايات الأمور فلا و هم يجوز عليه لا و لا غلط
 عبد فقير بباب الجود منكسر من شأنه أن يوافى حين ينضغط
 مهما أتى ليمد الكف أخجله قبائح و خطايا أمرها فرط
 يا واسعا ضاق خطو الخلق عن نعم منه إذا خطبوا فى شكرها خبطوا
 و ناشرا بيد الإجمال رحمته فليس يلحق منه مسرفا قنط
 ارحم عبادا بضنك العيش قد قنعوا فأينما سقطوا بين الورى لقطوا
 إذا توزعت الدنيا فما لهم غير الدجئة لحف و الثرى بسط
 لكنهم من ذرا عليك فى نمط سام رفيع الذرا ما فوقه نمط
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥٦
 و من يكن بالذى يهواه مجتمعا فما يبالى أقام الحى أم شحطوا
 نحن العبيد و أنت الملك ليس سوى و كل شىء يرجى بعد ذا شطط
 و قال رحمه الله تعالى: [الوافر]

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل تقاه عدّة لصالح أمرك
 و بادر نحو طاعته بعزم فما تدرى متى يمضى بعمرك

و قال أيضا: [المتقارب]

إذا كنت تعلم أن الأمور بحكم الإله كما قد قضى
فقيم التفكير و الحكم ماض و لا رد للحكم مهما مضى
فخلّ الوجود كما شاءه مدبره وابع منه الرضا
و قال: [الوافر]

إذا ما الدهر نابك منه خطب و شدّ عليك من حق عقاله
فكل لله أمرك لا تفكر ففكرك فيه خبط في حباله
و قال: [الوافر]

عدوك داره ما اسطعت حتّى يعود لديك كالخلّ الشفيق
فما فى الأرض أردى من عدوّ و ما فى الأرض أجدى من صديق
و قال: [الكامل]

إن أعرضت دنياك عنك بوجهها و غدت و منها فى رضاك نراع
فاحذر بنيتها و احتفظ من شرهم إن البنين لأهمهم أتباع
و قال: [الخفيف]

يا مجيب المضطر عند الدعاء منك دائى و فى يديك دوائى
جذبتنى الدنيا إليها بضبعى و دعتنى لمحتى و شقائى
يا إلهى و أنت تعلم حالى لا تذرنى شماتة الأعداء
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٥، ص: ٢٥٧

[من شعر حافظ أبى عبد الله الحميدى و أبى بكر مالك بن جبير و أبى عبد الله محمد بن جبير اليحصبى]

و قال الحافظ الكبير الشهير أبو عبد الله الحميدى صاحب «الجمع بين الصحيحين» رحمه الله تعالى: [الوافر]
كتاب الله عز و جلّ قولى و ما صحت به الآثار دينى
و ما اتفق الجميع عليه بدأ و عودا فهو عن حق ميين
فدع ما صدّ عن هذى و خذها تكن منها على عين اليقين
و قال: [الوافر]

طريق الزهد أفضل ما طريق و تقوى الله بادية الحقوق
فتق بالله يكفك، و استعنه يعنك، و ذر بيتات الطريق
و قال أبو بكر مالك بن جبير رحمه الله تعالى: [الوافر]
رحلت و إننى من غير زاد و ما قدّمت شيئا للمعاد
و لكنى وثقت بجدود ربى و هل يشقى المقل مع الجواد
و توفى المذكور بأريولة - أعادها الله تعالى إلى الإسلام! - سنة ٥٦١هـ.
و قال ابن جبير اليحصبى و هو الكاتب أبو عبد الله محمد: [الخفيف]
كلما رمت أن أقدم خيرا لمعادى و رمت أنى أتوب
صرفتنى بواعث النفس قسرا فتقاعست و الذنوب ذنوب

ربَّ قلب قلبي لعزمة خير لمتاب ففى يدىك القلوب

و لتعلم أن كلام أهل الأندلس بحر لا ساحل له، و يرحم الله تعالى لسان الدين بن الخطيب حيث قال فى صدر الإحاطة: و هذا

الغرض الذى وضعنا له هذا التأليف يطلبنا فيه ما

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥٨

قصدنا به من المباهاة و الافتخار بالإكثار، و استيعاب النظام و الثنار، و يحملنا فيه خوف السامة على الاختصار و الاقتصار، و كفى بهذا

جلاء فى الأعذار، و الله تعالى مقيل العثار، و ساتر العيب المثار، بفضلته، انتهى.

[من شعر أبى زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلنى]

و لنختم هذا الباب بقول أبى زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلنى: [مجزوء الرمل]

عفوك اللهم عنا خير شىء نتمنى

رب إنا قد جهلنا فى الذى قد كان منا

و خطينا و خطلنا و لهونا و مجنا

إن نكن رب أسأنا ما أسأنا يك ظنا

و ذيلته بقولى:

فأنلنا الختم بالحسنى و إنعاما و منا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٥٩

الباب الثامن ذكر تغلب العدو النصرانى على الأندلس

إشارة

فى ذكر تغلب العدو الكافر، على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها، و تضريره بين ملوكها و رؤسائها بمكره، و استعماله فى أمرها

حيل فكره، حتى استولى - دمره الله تعالى! - عليها، و محاملها التوحيد و اسمه، و كتب على مشاهدها و معاهدها و سمة، و قرر مذهب

التثليث، و رأى الخبيث، لديها، و استغاث أهلها استغاثه ملهوف بالنظم و النثر، أهل ذلك العصر، من سائر الأقطار، حتى تعذرت

بحصارها، مع قلة حمايتها و أنصارها، المآرب و الأوطار، و جاءها الأعداء من خلفها و من بين يديها، أعاد الله تعالى إليها كلمة

الإسلام، و أقام فيها شريعة سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة و السلام! و رفع يد الكفر عنها و عما حوالها! آمين، يا معين

[أول من جمع فلول النصرانى]

قال غير واحد من المؤرخين: أول من جمع فلول النصرانى بالأندلس - بعد غلبة العرب لهم - علق يقال له بلاى، من أهل اشتوريش من

[أهل] جليقية، كان رهينه عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى الثانى من أمراء العرب بالأندلس، و

ذلك فى السنة السادسة من افتتاحها، و هى سنة ثمان و تسعين من الهجرة، و ثار النصرانى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن،

فطردوه، و ملكوا البلاد، و بقى الملك فيهم إلى الآن و كان عدده من ملك منهم إلى آخر أيام الناصر لدين الله اثنين و عشرين ملكا،

انتهى.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٠

[رواية عيسى بن أحمد الرازي]

وقال عيسى بن أحمد الرازي: في أيام عنبسة بن سحيم الكلبى قام بأرض جليقية عالج خبيث يقال له بلاى من وقعة أخذ النصرارى بالأندلس، و جد الفرنج فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم، وقد كانوا لا يطعمون فى ذلك، ولقد استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية، و أجلوهم، و افتتحوا بلادهم، حتى بلغوا أربولء من أرض الفرنجة، و افتتحوا ببلونء من جليقية، و لم يبق إلا الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاى، فدخلها فى ثلاثمائة رجل، و لم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا، و بقى فى ثلاثين رجلا و عشر نسوة، و لا طعام لهم إلا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به، حتى أعياء المسلمين أمرهم، و احتقروا بهم، و قالوا: ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة و الكثرة ما لا خفاء به.

و فى سنة ١٣٣ أهلك الله تعالى بلاى المذكور، و ملك ابنه فافله بعده، و كان ملك بلاى تسع عشرة سنة، و ابنه سنتين. فملك بعدهما أذفونش بن بيطر جد بنى أذفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم إلى اليوم، فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم، انتهى باختصار.

[رواية المسعودى صاحب مروج الذهب]

وقال المسعودى بعد ذكره غزوة سمورة أيام الناصر، ما صورته: و أخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الفرنجة، و مدينة أربونة خرجت عن أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها مما كان بأيديهم من المدن و الحصون، و بقى ثغر المسلمين فى هذا الوقت و هو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة، و على سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة آخذا فى الشمال إفراغه على نهر عظيم ثم لا ردة. انتهى.

[أول ما استرد الفرنج من بلادهم، و ما قيل فى ذلك من الشعر]

و من أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذى النون سنة ٤٧٥، و فى ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبى المشهور بابن العسال. [البسيط]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦١

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه و أرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

و نحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سفت

و يروى صدر البيت الثالث هكذا: [البسيط]

من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات فى سفت

و تروى الأبيات هكذا:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط

السلوك ينثر من أطرافه، و أرى سلك الجزيرة منثورا من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات فى سفت

وقال آخر: [البسيط]

يا أهل أندلس ردوا المعار فما فى العرف عارية إلا مردات

ألم تروا بيدق الكفار فرزونه و شاهنا آخر الأبيات شهيمات

[وصف طليطلة]

و قال بعض المؤرخين: أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذى النون بعد أن حاصرها سبع سنين، و كان أخذه لها فى منتصف محرم سنة ٤٧٨، انتهى.

و فيه بعض مخالفة لما قبله فى وقت أخذها، و سيأتى قريباً بعض ما يؤيده.

قال: و هى مدينة حصينة، قديمة أزلية، من بناء العمالقة، على ضفة النهر الكبير، و لها قصبه حصينة فى غاية المنعة، و لها قنطرة واحدة عجيبه البنيان على قوس واحد، و الماء يدخل تحته بعنف و شدة جرى، و مع آخر النهر ناعورة ارتفاعها فى الجو تسعون ذراعاً، و هى تصعد الماء إلى أعلى القنطرة، و يجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة، و طليطلة هذه دار مملكة الروم، و بها كان البيت المغلق الذى كانوا يتحامون فتحه حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب، انتهى.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٢

و قد تقدم شىء من هذا فيما مر من هذا الكتاب.

[وصف قصر بناه يحيى بن ذى النون فى طليطلة، عن ابن بدرون]

و قد حكى ابن بدرون فى شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة بنى بها قصراً تأتق فى بنائه، و أنفق فيه مالا كثيراً، و صنع فيه بحيرة، و بنى فى وسطها قبة، و سيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليلها محيطاً بها متصلاً ببعضه ببعض، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتر، و المأمون بن ذى النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء، و لو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد: [الطويل]

أتبنى بناء الخالدين، و إنما بقاؤك فيها، لو علمت، قليل

لقد كان فى ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يعتريه رحيل

فلم يلبث بعد هذا إلا يسيراً حتى قضى نحبه، انتهى.

[تاريخ أخذ طليطلة، عن ابن خلكان و غيره و وقعة الزلافة التى نشأت عن أخذ طليطلة]

و قال ابن خلكان إن طليطلة أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد، انتهى.

و قال ابن علقمة: إن طليطلة أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨، و كانت وقعة الزلافة فى السنة بعدها، انتهى.

و قد رأيت أن أذكر هنا وقعة الزلافة التى نشأت عن أخذ طليطلة و ما يتبع ذلك من كلام صاحب «الروض المعطار» و غيره فنقول: إنه لما ملك يوسف بن تاشفين اللمتونى المغرب، و بنى مدينتى مراکش و تلمسان الجديدة، و أطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة، و تمهدت له الأقطار الطويلة المدينة، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس، فهمم بذلك، و أخذ فى إنشاء المراكب و السفن ليعبر فيها، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إمامه بجزيرتهم، و أعدوا له العدة و العدد، و صعبت عليهم مدافعتة، و كرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج عن شمالهم و المسلمين عن جنوبهم، و كانت الفرنج تشتد و طأتها عليهم، و تغير

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٣

و تتهب، و ربما يقع بينهم صلح على شىء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين، و الفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين، إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم، لنفاذ أمره و سرعته تملكه بلاد المغرب، و انتقال الأمر إليه فى أسرع وقت، مع ما ظهر لأبطال

الملثمين و مشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقدّ الفارس، و الطعنات التي تنظم الكلى، فكان له بسبب ذلك ناموس و رعب في قلوب المنتدبين لقتاله، و كان ملوك الأندلس يفيؤون إلى ظله، و يحذرونه خوفا على ملكهم، مهما عبر إليهم و عاين بلادهم، فلما رأوا ما دلهم على عبوره إليهم و علموا ذلك، راسل بعضهم بعضا يستجدون آراءهم في أمره، و كان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد ابن عباد، لأنه أشجع القوم، و أكبر هم مملكته، فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم، و أنهم تحت طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتابا، و هو: أما بعد فإنك إن عرضت عنا نسبت إلى كرم، و لم تنسب إلى عجز، و إن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل، و لم نسب إلى وهن، و قد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، و إن في استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك و ثبوت، و السلام، فلما وصله الكتاب مع تحف و هدايا، و كان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي، لكنه ذكى الطبع، يجيد فهم المقاصد و كان له كاتب يعرف اللغتين العربية و المرابطية، فقال له: أيها الملك، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظموذك فيه، و يعرفونك أنهم أهل دعوتك، و تحت طاعتك، و يلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعدى، فإنهم مسلمون و ذوو بيوتات، فلا تغير بهم، و كفى بهم من وراءهم من الأعدى الكفار، و بلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك من أهل المغرب، فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه: فما ترى أنت؟

فقال: أيها الملك أعلم أن تاج الملك و بهجته شاهده الذى لا- يرد، فإنه خلق بما حصل في يده من الملك و المال أن يعفو إذا استعفى، و أن يهب إذا استوهب، و كلما وهب جليلا جزيلا كان لقدره أعظم، فإذا عظم قدره تأصل ملكه، و إذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته، و إذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس، و لم يتجشم المشقة إليهم، و كان وارث الملك من غير نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٤

إهلاك لآخرته، و أعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال:

من جاد ساد، و من ساد قاد، و من قاد ملك البلاد، فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته فهمه و علم صحته، فقال للكاتب: أجب القوم، و اكتب بما يجب في ذلك، و اقرأ على كتابك، فكتب الكاتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته، تحية من سالمكم و سلم عليكم، و إنكم مما فى أيديكم من الملك فى أوسع إباحة، مخصوصين منا بأكرم إيثار و سماحة، فاستديموا و فاءنا بوفائكم، و استصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم، و الله ولى التوفيق لنا و لكم، و السلام، فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه، فاستحسنه، و قرن به ما يصلح لهم من التحف و درق اللط التي لا توجد إلا ببلاده، و أنفذ ذلك إليهم، فلما وصلهم ذلك و قرؤوا كتابه فرحوا به، و عظموه، و سرّوا بولايته، و تقوّت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم، و أزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم، أو يمدّهم بإعانه منه. و كان ملك الإفرنج الأذفونش لما وقعت الفتنة بالأندلس و ثار الخلاف، و كان كل من حاز بلدا و تقوى فيه ملكه و ادعى الملك و صاروا مثل ملوك الطوائف، فطمع فيهم الأذفونش بسبب ذلك، و أخذ كثيرا من ثغورهم، فقوى شأنه، و عظم سلطانه، و كثرت عساكره، و أخذ طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذى النون بعد أن حاصرها سبع سنين، و كان أخذه لها فى منتصف محرم سنة ثمان و سبعين و أربعمائه، فزاد لعنه الله تعالى بملكه طليطلة قوة إلى قوته، و أخذ يجوس خلال الديار، و يستفتح المعامل و الحصون.

[رواية ابن الأثير فى كتابه «الكامل»]

قال ابن الأثير فى «الكامل»: و كان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس، و تملك أكثر بلادها، مثل قرطبة و إشبيلية، و كان- مع ذلك- يؤدى الضريبة إلى الأذفونش كل سنة، فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة المعتادة، فلم يقبلها منه، و

أرسل إليه يهدّده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها، إلا أن يسلم إليه جميع الحصون المنيعه، ويبقى السهل للمسلمين، و كان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس، فأنزله المعتمد، و فرق نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٥

أصحابه على قواد عسكريه، ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم من عنده من الكفرة، و أحضر الرسول و صفعه حتى خرجت عيناه، و سلم من الجماعة ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذفونش و أخبروه الخبر، و كان متوجها إلى قرطبة ليحاصرها، فرجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار، و يكثر العدد و العدة، انتهى.

[رواية أبي عبد الله الحميري في «الروض المعطار»]

و قال الفقيه أبو عبد الله عبد الله بن عبد المنعم الحميري في كتابه «الروض المعطار، في ذكر المدن و الأقطار» إنه لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المرية حين تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش و أرسلها إليه بعد ذلك استشاط الطاغية غضبا، و تشطط، و طلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، و أمعن في التجني، و سأل في دخول امرأته القمحيطة إلى جامع قرطبة لتلد فيه، إذ كانت حاملا، لما أشار عليه بذلك القسيسون و الأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمه عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم، و سأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة، و هي التي أنشأ بناءها الناصر لدين الله، و أمعن في بنائها، و أغرب في حسننها، و جلب إليها الرخام الملون و المرمر الصافي و الحوض المشهور من البلاد و الأقطار، و كان يثيب على السارية بكذا و كذا غير الثمن و أجره الحمل، و أنفق فيها الأموال العظيمة، و اشتغل بها، و كان يباشر الصناعات بنفسه، حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات، و حضر في الرابعة، و كان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد منذر بن سعيد البلوطي، فعرض به في الخطبة، و وبخه على رؤوس الملاء و قصته في ذلك مشهورة، و بناء الزاهر أيضا من أعظم مباني الإسلام، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان.

و لنرجع إلى الأذفونش فإن الأطباء و القسوس لما أشاروا أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء، و تتردد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء و فضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور، و كان السفير في ذلك يهوديا كان وزير الأذفونش، فامتنع ابن عباد من ذلك، فراجعه، فأباه و أيأسه من ذلك، فراجعه اليهودي في ذلك، و أغلظ له في

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٦

القول، و واجهه بما لم يحتمله ابن عباد، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه و ضرب بها رأس اليهودي، فأنزله دماغه في حلقه، و أمر به فصلب منكوسا بقرطبة، و استفتى لما سكن غضبه الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدى الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل، إذ ليس له ذلك، و قال للفقهاء: إنما بادرت بالفتوى خوفا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو، و عسى الله أن يجعل في عزيمة للمسلمين فرجا، و بلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد، فأقسم بألته ليغزونه بإشبيلية، و ليحاصرنه في قصره، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلبا من مساعير كلابه و أمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس و يغير على تلك التخوم و الجهات، ثم يمر على لبله إلى إشبيلية، و جعل موعده أمام طريانة للاجتماع معه، ثم زحف الأذفونش بنفسه في جيش آخر عرمرم، فسلك طريقا غير الطريق التي سلكها الآخر، و كلاهما عاث في البلاد و خرب و دمر، حتى اجتمعا لموعدهما بصفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد، و في أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زاريا عليه: كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، و اشتد على الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، و أترد بها الذباب عن وجهي، فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: قرأت كتابك، و فهمت خيلاءك و إعجابك، و سأنظر لك في مراوح من الجلود اللطيفة تروح منك لا تروح عليك، إن شاء الله تعالى، فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد، و قرئت عليه، و علم مقتضاها، طرق إطراق من لم يخطر له

ذلك ببال، و فشا في الأندلس توقيع ابن عباد، و ما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين، و الاستظهار به على العدو، فاستبشر الناس، و فرحوا بذلك، و فتحت لهم أبواب الآمال، و أما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد و انفراده برأيه في ذلك، اهتموا منه، و منهم من كاتبه، و منهم من كلمه مواجهه، و حذروه عاقبة ذلك، و قالوا له: الملك عقيم، و السيفان لا يجتمعان في غمد واحد، فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلا: رعى الجمال خير من رعى الخنازير، و معناه أن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقا للأذفونش أسيرا له يرعى خنازيره في قشتاله، و قال لعذاله و لؤامه: يا قوم إني من أمرى على حالين: حالة يقين، و حالة شك، و لا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفى له و يبقى على وفائه، و يمكن أن

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٧

لا يفعل، فهذه حالة الشك، و أما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أَرْضَى الله، و إن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة، فلا شيء أَدْع ما يَرْضَى الله و آتى ما يسخطه؟ فحينئذ قَصِّر أصحابه عن لومه.

و لما عزم أمر صاحب بطليوس المتوكل عمر بن محمد و عبد الله بن جَبوس الصنهاجى صاحب غرناطة أن يبعث إليه كل منهما قاضى حضرته، ففعلا، و استحضر قاضى الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم، و كان أعقل أهل زمانه، فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون، و عرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين، و أسنه إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين و ترغيبه فى الجهاد، و أسند إلى وزيره ما لا بد منه فى تلك السِّفارة من إبرام العقود السلطانية، و كان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين بالله و الإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته و وزراء دولته، فيسمع إليهم، و يصغى لقولهم، و ترقّ نفسه لهم.

فما عبرت رسل ابن عباد البحر إلا و رسل يوسف بالمرصاد، و لما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم، و أكرم مثوهم، و اتصل ذلك بابن عباد، فوجه من إشبيلية أسطولا نحو صاحب سبتة، فانتظمت فى سلك يوسف، ثم جرت بينه و بين الرسل مرواضات، ثم انصرف إلى مرسلها، ثم عبر يوسف البحر عبورا سهلا، حتى أتى الجزيرة الخضراء، ففتحوا له، و خرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات و الضيافات، و أقاموا له سواقا جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق، و أذنوا للغزاة فى دخول البلد و التصرف فيها، فامتلات المساجد و الرحبات بالمطوّعين، و تواصلوا بهم خيرا، هذا مساق صاحب «الروض المعطار».

و أما ابن الأثير فإنه لما ذكر وقعة الزلّاقه ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالأرسال و قتلهم، و تخوف أكابر الأندلس من الأذفونش، و أنه اجتمع منهم رؤساء، و ساروا إلى القاضى عبد الله بن محمد، و قالوا: ألا تنظر [إلى] ما فيه المسلمون من الصِّغار و الذلّة و إعطائهم الجزية، بعد أن كانوا يأخذونها، و قالوا: قد غلب على البلاد الفرنج، و لم يبق إلا القليل، و إن دام هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولا، و قد رأينا رأيا نعرضه عليك،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٨

قال: و ما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية، و نبذل لهم إذا وصلوا إلينا شطر أموالنا، و نخر معهم مجاهدين فى سبيل الله، فقال لهم: إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية، و يتركوا الإفرنج و بيدؤوا بنا، و المرابطون أصلح منهم، و أقرب إلينا، فقالوا له: فكتب أمير المسلمين، و أسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند، فبينما هم فى ذلك يتراوضون إذ قدم عليهم المعتمد بن عباد قرطبة، فعرض عليه القاضى ابن أدهم ما كانوا فيه، فقال له المعتمد ابن عباد: أنت رسولى إليه فى ذلك، فامتنع، و إنما أراد أن يبرئ نفسه من ذلك، فألح عليه المعتمد، فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فوجده بسبتة، و أبلغه الرسالة، و أعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش، ففى الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس، و أرسل إلى مراکش فى طلب من بقى من العساكر،

فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً، فلما تكاملت عنده عبر البحر، واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية، و كان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً، و خرج من أهل قرطبة عسكر كثير، و قصده المطوّعة من سائر بلاد الأندلس، و وصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره، و حشد جنوده، و سار من طليطلة، و كتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له في القول، و يصف ما معه من القوة و العدد و العدد، و بالغ في ذلك، فلما وصله و قرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه، و كان كاتباً مفلقاً، فكتب و أجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: هذا كتاب طويل، و أحضر كتاب الأذفونش و كتب في ظهره: الذي يكون ستراه، و أرسله إليه، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له، و علم أنه بلى برجل لا طاقة له به.

[رواية ابن خلكان]

و ذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبير منها ما أغص الجزيرة، و ارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، و لم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط و لا خيلهم، فصارت الخيل تجمع من رؤية الجمال و من رغاؤها، و كان ليوسف في عبور الجمال رأى مصيب، فكان يحدق بها عسكره، و يحضرها للحرب، فكانت خيل الفرنج تجمع منها، و قدم يوسف بين يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب، كما هي السنة، و من جملة ما في الكتاب: بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، و تمنيت أن تكون لك

نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٦٩

سفن تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، و قد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا و بينك، و سترى عاقبة دعائك و ما دعاء الكافرين إلا في ضلالٍ [غافر: ٥٠] انتهى بمعناه، و أكثره بلفظه.

[عود إلى رواية صاحب «الروض المعطار»]

و لنرجع إلى كلام صاحب «الروض المعطار» فإنه أقعد بتاريخ الأندلس، إذ هو منهم، و صاحب البيت أدري [بالذى فيه]، قال رحمه الله تعالى: فلما عبر يوسف و جميع جيوشه إلى الجزيرة الخضراء انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات، جيشاً بعد جيش، و أميراً بعد أمير، و قبلاً بعد قبيل، و بعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف، و أمر عمال البلاد بجلب الأقوات و الضيافات، و رأى يوسف من ذلك ما سره و نشطه، و تواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية، و خرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس و وجوه أصحابه، فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم، و ركضوا نحوه، فبرز إليه يوسف وحده، و التقيا منفردين، و تصافحا، و تعانقا، و أظهر كل منهما لصاحبه المودة و الخلوص، و شكرا نعم الله تعالى، و تواصلوا بالصبر و الرحمة، و بشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر، و تضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، مقرباً إليه، و افترقا، فعاد يوسف لمحلته، و ابن عباد إلى جهته، و ألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا و تحف و ضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين، و باتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا صلّوا الصبح ركب الجميع، و أشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية، ففعل، و رأى الناس من عزة سلطانهم ما سرهم، و لم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا- من بادر أو أعان أو خرج أو أخرج، و كذلك فعل الصحراويون مع يوسف كل صقع من أصقاعه رابطوا و كابدوا، و كان الأذفونش لما تحقق الحركة و الحرب استنفر جميع أهل بلاده و ما يليها و ما وراءها و رفع القسيسون و الرهبان و الأساقفة صلبانهم، و نشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالة و الإفرنجة ما لا يحصى عدده، و جواسيس كل فريق تتردد بين الجميع، و بعث الأذفونش إلى ابن عباد أن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده، و خاض البحور و أنا أكفيه العناء فيما بقى، و لا أكلفكم تعبا، أمضى إليكم و ألقاكم في بلادكم رفقا بكم و توفيراً عليكم، و قال لخاصته و أهل مشورته: إنى رأيت أنى إن مكتهم من الدخول إلى بلادى، فناجزونى فيها و بين جدرها، و ربما كانت الدائرة على،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٠

يستحكمون البلاد، و يحصدون من فيها غداة واحدة، و لكنى أجعل يومهم معى فى حوز بلادهم، فإن كانت على اكتفوا بما نالوه، و لم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون فى ذلك صون لبلادى، و جبر لمكاسرى، و إن كانت الدائرة عليهم كان منى فيهم و فى بلادهم ما خفت أنا أن يكون فى و فى بلادى إذا ناجزنى فى وسطها، ثم برز بالمختار من جنوده، و أنجاد جموعه على باب دربه، و ترك بقیة جموعه خلفه، و قال حين نظر إلى ما اختاره منهم: بهؤلاء أقاتل الجن و الإنس و ملائكة السماء، فالمقل يقول: المختارون أربعون ألف دراع، و لكل واحد أتباع.

أما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك، و يرون أنهم أكثر من ذلك كله، و اتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة، و رأى الأذفونش فى نومه كأنه راكب فيل يضرب نقيرة طبل، فهالته الرؤيا، و سأل عنها القسوس و الرهبان فلم يجبه أحد، فدىس يهوديا عمّن يعلم تأويلها من المسلمين، فدل على معبر، فقضى هما عليه، و نسبها لنفسه، فقال له المعبر: كذبت، ما هذه الرؤيا لك، و لا أعبرها لك إلا- إن صدقتنى بصاحب الرؤيا، فقال له: اكنتم على، الرؤيا للأذفونش، فقال المعبر: صدقت و لا يراها غيره، و الرؤيا تدل على بلاء عظيم، و مصيبة فادحة فيه و فى عسكره، و تفسيرها قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [الفيل]:

[١] و أما ضربه النقيرة فتأويلها فإذا نُقِرَ فى النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيْرٌ [المدثر: ٨-٩] الآية، فانصرف اليهودى و ذكر للأذفونش ما وافق خاطره، ثم خرج [الأذفونش و وقف على الدروب، و مال بجيوشه إلى الجهة الغربية] من بلاد الأندلس، و تقدم السلطان يوسف فقصد، و تأخر ابن عباد لبعض مهماته، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور، و رؤساء الأندلس، و جعل ابنه عبد الله على مقدمته، و سار و هو ينشد لنفسه متفائلا مكملا البيت المشهور: [مجزوء الكامل]

لا بدّ من فرج قريب يأتيك بالعجب العجيب

غزو عليك مبارك سيعود بالفتح القريب

لله سعدك إنه نكس على دين الصليب

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧١

لا بدّ من يوم يكون له أخوا يوم القليب

و وافت الجيوش كلها بطليوس، فأناخوا بظاهرها، و خرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفظس، فلقبهم بما يجب من الضيافات و الأقوات و بذل المجهود، و جاءهم الخبر بشخوص الأذفونش، و لما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه فى محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكاييد الأذفونش، إذ هم غرباء لا- علم لهم بالبلاد، و جعل يتولى ذلك بنفسه، حتى قيل: إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا و يجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة، بعد ترتيب الخيل و الرجال على أبواب المحلات، و قد تقدم كتاب السلطان يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث المأمور بها شرعا، فامتلاء الكافر غيظا، و عتا، و طغا، و راجعه بما يدل على شقائه، و قامت الأساقفة و الرهبان و رفعا، صلبانهم، و نشروا أناجيلهم، و تبايعوا على الموت، و وعظ يوسف و ابن عباد أصحابهما، و قام الفقهاء و الصالحون مقام الوعظ، و حضوهم على الصبر و الثبات، و حذروهم من الفشل و الفرار، و جاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، و هو يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون و قد أخذوا مصافهم، فكع الأذفونش، و رجع إلى أعمال المكر و الخديعة، فعاد الناس إلى محلاتهم، و باتوا ليلتهم، ثم أصبح يوم الخميس، فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول: غدا يوم الجمعة، و هو عيدكم، و الأحد عيدنا، فليكن لقاءنا بينهما، و هو يوم السبت، فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف، و أعلمه أنها حيلة منه و خديعة، و إنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كلّ النهار، و بات الناس ليلتهم على أهبة و احتراس، و بعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي- و كان فى محلة ابن عباد- فرحا مسرورا يقول: إنه رأى النبى صلى الله عليه و سلم تلك الليلة فى النوم فبشره بالفتح و

الموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة، فتأهب و دعا و تضرع و دهن رأسه و تطيب، و انتهى ذلك إلى ابن عباد، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقا لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى، ثم جاء بالليل فإرسال من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش و سمعا ضوضاء الجيوش و اضطراب الأسلحة، ثم تلاحق بقبية الطلائع متحقيقين بتحريك الأذفونش، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٢

استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، و هؤلاء الصحراويون و إن كانوا أهل حفاظ و ذوى بصائر فى الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد، و إنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه و اهجموا عليه، و اصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، و لا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش، و يستحث نصرته، فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين، فعرفه بجليته الأمر، فقال له: قل له: إني سأقرب منه إن شاء الله تعالى، و أمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصرى فيضرمها نارا ما دام الأذفونش مشتغلا مع ابن عباد، و انصرف ابن القصيرة إلى المعتمد، فلم يصله إلا و قد غشيته جنود الطاغية، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله، و مال الأذفونش عليه بجموعه، و أحاطوا به من كل جهه، فهاجت الحرب، و حمى اللوطيس، و استحرّ القتل فى أصحاب ابن عباد، و صبر ابن عباد صبورا لم يعهد مثله لأحد، و استبطأ السلطان يوسف و هو يلاحظ طريقه، و عضته الحروب، و اشتد عليه و على من معه البلاء، و أبطأ عليه الصحراويون و ساءت الظنون، و انكشف بعض أصحاب ابن عباد و فيهم ابنه عبد الله، و أثنى ابن عباد جراحات، و ضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه و جرحت يمنى يديه، و طعن فى أحد جانبيه، و عقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدّم له آخر، و هو يقاسى حياض الموت، و يضرب يمينا و شمالا، و تذكر فى تلك الحالة ابنا له صغيرا كان مغرما به تركه فى إشبيلية عيليا، و كنيته أبو هاشم فقال: [المتقارب]

أبا هاشم هشمتنى الشفار فلله صبرى لذاك الأوار

ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنى ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة، و كان بطلا شجاعا شهما، فنفس بمجيئه عن ابن عباد، ثم أقبل يوسف بعد ذلك، و طبوله تصعد أصواتها إلى الجوّ، فلما أبصره الأذفونش وجه حملته إليه، و قصده بمعظم جنوده، فبادر إليهم السلطان

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٣

يوسف، و صدمهم بجمعه، فردهم إلى مركزهم، و انتظم به شمل ابن عباد، و استنشق ريح الظفر، و تباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعا الحملة فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم، و أظلم النهار بالعجاج و الغبار، و خاضت الخيل فى الدماء، و صبر الفریقان صبورا عظيما، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف، و حمل معه حملة جاء معها النصر، و تراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفتيين، و صدقوا الحملة، فانكشف الطاغية، و مرّ هاربا منهزما و قد طعن فى إحدى ركبته طعنه بقى يخمع بها بقية عمره.

و على سياق ابن خلكان أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو فى يوم الأربعاء، و كان الموعد فى المناجزة فى يوم السبت، فغدر الأذفونش و مكر، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد، و الروم على أثرها، و الناس على طمأنينة، فبادر ابن عباد للركوب، و بث الخبر فى العساكر فهاجت بأهلها، و وقع البهت، و رجفت الأرض، و صار الناس فوضى على غير تعبئة و لا أهبة، و دهمتهم خيل العدو، فأحاطت بابن عباد، و حطمت ما تعرض لها، و تركت الأرض حصيدا خلفها، و جرح ابن عباد جرحا أساءه، و فر رؤساء الأندلس و تركوا محلاتهم و أسلموها، و ظنوا أنه و هى لا يرقع، و نازله لا تدفع، و ظن الأذفونش أن السلطان يوسف فى المنهزمين، و لم يعلم أن العاقبة للمتقين، فركب أمير المسلمين، و أحدق به جياذ خيله و رجله من صنهاجة رؤساء

القبائل، و قسدوا محلة الأذفونش فاقتموها و دخلوها، و فتكوا فيها، و قتلوا، و ضربت الطبول، و زعقت البوقات، فاهترت الأرض، و تجاوبت الجبال و الآفاق، و تراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها، فصدموا أمير المسلمين، فخرج لهم عنها، ثم كر عليهم فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها، و لم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمة السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف، و دخلوا المعترك بدرق اللط و سيوف الهند و مزاريق الزان، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها، و أحجمت أعن أقرانها، و تلاحق الأذفونش بأسود نفذت مزاريقه، فأهوى ليضربه بالسيف، فلصق به الأسود، و قبض على عنانه، و انتضى خنجرا كان متمنطقا به، فأثبتته في فخذة، فهتك حلق درعه، و نفذ من

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٤

فخذه مع بداد سرجه، و كان وقت الزوال، وهبت ريح النصر، فأنزل الله سكينته على المسلمين، و نصر دينه القويم، و صدقوا الحملة على الأذفونش و أصحابه، فأخرجوهم عن محلتهم، فولوا ظهورهم، و أعطوا أعناقهم، و السيوف تصفعهم، و الرماح تطعنهم، إلى أن لحقوا ربوة لجؤوا إليها و اعتصموا بها، و أحدقت بهم الخيل، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش و أصحابه من الربوة، و أفتلوا بعد ما تشبث بهم أظفار المنية، و استولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الآلات و السلاح و المضارب و الأواني و غير ذلك، و أمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين، فاجتمع من ذلك تل عظيم، انتهى، و بعضه بالمعنى.

رجع إلى كلام صاحب «الروض المعطار» قال: و لجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلوم، و أباد القتل و الأسر من عداهم من أصحابهم، و عمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها، و المخذول ينظر إلى موضع الوقعة و مكان الهزيمة فلا يرى إلا- نكالاً- محيطا به و بأصحابه، و أقبل ابن عباد على السلطان يوسف و صافحه، و هنأه، و شكره، و أثنى عليه، و شكر يوسف صبر ابن عباد، و مقامه، و حسن بلائه، و جميل صبره، و سأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهم عنه، فقال له: هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك.

[كتاب من ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية]

و كتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية كتابا مضمونه: كتابي هذا من المحلة المنصورية يوم الجمعة الموفى عشرين من رجب، و قد أعز الله الدين، و نصر المسلمين، و فتح لهم الفتح المبين، و هزم الكفرة المشركين، و أذاقهم العذاب الأليم، و الخطب الجسيم، فالحمد لله على ما يسره و سناه من هذه المسرة العظيمة، و النعمة الجسيمة، في تشييت شمل الأذفونش، و الاحتواء على جميع عساكره، أصلاه الله نكال الجحيم! و لا أعدمه الوبال العظيم المليم! بعد إتيان التهب على محلاته، و استئصال القتل في جميع أبطاله و حماته، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فله الحمد على جميل صنعه، و لم يصبنى و الحمد لله إلا جراحات يسيرة أمت لكنها فرجت بعد ذلك، فله الحمد و المنه، و السلام.

و استشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء و العلماء و أعيان الناس، مثل ابن ربيعة صاحب الرؤيا المذكورة، و قاضي مراکش أبي مروان عبد الملك المصمودي، و غيرهما، رحمهم الله تعالى!.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٥

و حكى أن موضع المعترك كان على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم، و أقامت العساكر بالموضع أربعة أيام، حتى جمعت الغنائم، و استؤذن في ذلك السلطان يوسف، فعف عنها، و آثر بها ملوك الأندلس، و عرفهم أن مقصده الجهاد و الأجر العظيم، و ما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه، و أحبوه و شكروا له ذلك.

و لما بلغ الأذفونش إلى بلاده و سأل عن أبطاله و شجاعته و أصحابه ففقدهم و لم يسمع إلا نواح الثكلى عليهم، اهتم و لم يأكل و لم

يشرب حتى هلك غما و هما، و راح إلى أمه الهاوية، و لم يخلف إلا بنتا واحدة جعل الأمر إليها، فتحصنت بطليلة. و رحل المعتمد إلى إشبيلية و معه السلطان يوسف بن تاشفين، فأقام السلطان يوسف بن تاشفين بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام، و وردت عليه من المغرب أخبار تقتضى العزم، فسافر، و ذهب معه ابن عباد يوما و ليلة، فحلف ابن تاشفين و عزم عليه فى الرجوع، و كانت جراحاته تورّمت عليه، فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر، و عبر إلى المغرب.

و لما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس، و هتئى بالفتح، و قرأت القراء، و قامت على رأسه الشعراء، فأنشده، قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم، و أعددت قصيدة أنشدها بين يديه، فقرأ القارئ إلاً تتصّروهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ [التوبة: ٤٠] فقلت: بعدا لى و لشعري! و الله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره و أقوم به.

و لما عزم السلطان يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير بن أبى بكر أحد قواده المشاهير، و ترك معه جيشا برسم غزو الفرنج، فاستراح الأمير المذكور أياما قلائل، و دخل بلاد الأذفونش، و أطلق الغارة، و نهب و سبى، و فتح الحصون المنيعه، و المعازل الصعبة العويصة، و توغل فى البلاد، و حصل أموالا- و ذخائر عظيمة، و رتب رجالا و فرسانا فى جميع ما أخذه، و أرسل للسلطان يوسف جميع ما حصله، و كتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو و ملازمة الحرب و القتال فى أضييق العيش و أنكده، و ملوك الأندلس فى بلادهم و أهلهم فى أرغد عيش و أطيبه، و سأله مرسومه، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقله و الرحيل إلى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٦

أرض العدو، فمن فعل فذاك، و من أبى فحاصره و قاتله، و لا تنفس عليه، و لتبدأ بمن و الى الثغور، و لا تتعرض للمعتمد بن عباد، إلا بعد استيلائك على البلاد، و كل بلد أخذته فولّ فيه أميرا من عساكرك، فأول من ابتداء به من ملوك الأندلس بنو هود، و كانوا بروطه- بضم الراء المهملة، و بعدها و او ساكنه، و طاء مهملة مفتوحة، و بعدها هاء ساكنه- و هى قلعه منيعه من عاصمات الذرى، و ماؤها ينبع من أعلاها، و فيها من الأقوات و الذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان، فحاصرها فلم يقدر عليها، و رحل عنها، و جند أجنادا على هيئة الفرنج و زيهم، و أمرهم أن يقصدوها و يغيروا عليها، و كمن هو و أصحابه بقرب منها، فلما رأهم أهل القلعه استضعفهم، فنزلوا إليهم، و معهم صاحب القلعه، فخرج عليه سير المذكور، و قبضه باليد، و تسلّم الحصن، ثم نازل بنى طاهر بشرق الأندلس، فأسلموا له البلاد، و لحقوا ببر العدو، ثم نازل بنى صمادح بالمريه، و لها قلعه حصينه، فحاصرها، و ضيق بهم، و لما علم ابن صمادح الغلب أسف و مات غنا، فأخذ القلعه، و استولى على المريه و جميع أعمالها، ثم قصد بطليوس، و كان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفضس المتقدم ذكره، فحاصره، و أخذه، و استولى على جميع أعماله و ماله، و لم يبق له إلا المعتمد بن عباد، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل، و يسأله مرسومه فى ابن عباد، فكتب إليه يأمره أنه يعرض عليه النقله لبر العدو بجميع الأهل و العشيره، فإن رضى، و إلا فحاصره و خذه و أرسل به كسائر أصحابه، فواجهه و عرفه بما رسم به السلطان يوسف، و سأله الجواب، فلم يجب بنفى و لا إثبات، ثم إنه نازل إشبيلية، و حاصره بها، و ألح عليه، فأقام الحصار شهرا، و دخل البلد قهرا، و استخرجه من قصره، فحمل و جميع أهله و ولده إلى العدو فأنزل بأغمات، و أقام بها إلى أن مات، رحمه الله تعالى و عفا عنه!

و أما ابن الأثير ففى كلامه تقديم و تأخير و بعض خلاف لما مر.

و أخبار المعتمد بن عباد، و ما رآه من الملك و العز فى كل حاضر و باد، و ما قاساه فى الأسر، من الضيق و العسر، و سوء العيش أمر عجيب، يتعظ به العاقل الأريب، و أما ما مدحته به الشعراء و أجوبته لهم فى حالى يسره و عسره، و ملكه و أسره، و طيه و نشره، و تجمهه و بشره، فهو كثير، و فى كتب التواريخ منه تنظيم و نثر، و قد قدمنا منه فى هذا الكتاب ما يبعث

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٧

الاعتبار و يثير، و خصوصا فى الباب السابع من هذا التأليف الذى هو عند المنصف أثير، و فى المعتمد و أبيه المعتضد يقول بعض الشعراء [الخفيف]:

من بنى منذر و ذاك انتساب زاد في فخرهم بنو عبّاد
فتية لم تلد سواها المعالي و المعالي قليلة الأولاد

[بعض أخبار المعتمد بن عباد، عن ابن القطاع]

و قال ابن القطاع في كتابه «لمح الملح» في حق المعتمد: إنه أندى ملوك الأندلس راحةً، و أرحبهم ساحةً، و أعظمهم ثماداً، و أرفعهم عماداً، و لذلك كانت حضرته ملقى الرحال، و موسم الشعراء، و قبله الآمال، و مألّف الفضلاء، حتى أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء، و أفاضل الأدباء، ما كان يجتمع ببابه، و تشتمل عليه حاشيتنا جنابه.

[و عن ابن بسام في «الذخيرة»]

و قال ابن بسام في «الذخيرة»: للمعتمد شعر، كما انشق الكمام عن الزّهر، لو صار مثله ممن جعل الشعر صناعةً، و اتخذه بضاعةً، لكان رائقاً معجباً، و نادراً مستغرباً، فمنه قوله:

[الكامل]

أكثرت هجرتك غير أنّك ربّما عطفتك أحياناً علىّ أمور

فكأتما زمن التّهاجر بيننا ليل، و ساعات الوصال بدور

قال: و هذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من أبيات: [السريع]

أسفر ضوء الصبح عن وجهه فقام ذاك الخال فيه بلال

كأنما الخال على خدّه ساعات هجر في زمان الوصال

و عزم على إرسال حظاياها من قرطبة إلى إشبيلية فخرج معهن يشيعهن فساير هنّ من أول الليل إلى الصبح، فودعهن و رجع، و أنشد أبياتاً منها: [الكامل]

سايرتهم و الليل عقّد ثوبه حتّى تبدّى للتواظر معلماً

فوقفت ثمّ مودّعا و تسلّمت منّي يد الإصباح تلك الأنجما

و هذا المعنى في نهاية الحسن، ثم ذكر من كلامه جملة.

عود و انعطاف- و لما جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ناحية غرناطة،- بعد ما

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٨

حصر بعض حصون الفرنج، فلم يقدر عليه- خرج إلى لقائه صاحب غرناطة عبد الله بن بلكين، فسلم عليه، ثم عاد إلى بلده ليخرج له التقدّم، فغدر به، و دخل البلد، و أخرج عبد الله، و دخل قصره فوجد فيه من الذخائر و الأموال ما لا يحد و لا يحصى، ثم رجع إلى مراکش و قد أعجبه حسن بلاد الأندلس و بهجتها، و ما بها من المباني و البساتين و المطاعم و سائر الأصناف التي لا توجد في [سائر] بلاد العدو، إذ هي بلاد بربر و أجلاف عربان، فجعل خواصّ يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس، و يحسنون له أخذها، و يوغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه، فتغير على المعتمد، و قصد مشاركة الأندلس.

[من غدر ابن تاشفين]

و حكى ابن خلدون أن علماء الأندلس أفتوا ابن تاشفين بجواز خلع المعتمد و غيره من ملوك الطوائف، و بقتالهم إن امتنعوا، فجهز يوسف العساكر إلى الأندلس، و حاصر سير بن أبي بكر أحد عظماء دولة يوسف إشبيلية و بها المعتمد، فكان من دفاعه و شدة ثباته

ما هو معلوم، ثم أخذ أسيرا، و صار طرف الملك بعده حسيرا.

و فى وصف ذلك يقول صاحب القلائد بعد كلام: ثم جمع هو و أهله و حملتهم الجوارى المنشآت، و ضمتهم جوانحها كأنهم أموات، بعد ما ضاق عنهم القصر، و راق منهم المصر، و الناس قد حشروا بضفتى الوادى، يبكون بدموع كالغواذى، فساروا و النوح يحدوهم، و البوح باللوعة لا يعدوهم، انتهى.

[ابن تاشفين فى ضيافة ابن عباد]

و لما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أمر غزوة الزلاقة المتقدم ذكرها و رجع تكرم له ابن عباد، و سأله أن ينزل عنده، فخرج إلى بلاده إذ أجابه إلى ما طلب، فلما انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المعتمد- و هى من أجل المدن و أحسنها منظرا- و أمعن يوسف النظر فيها و فى محلها، و هى على نهر عظيم متبحر تجرى فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب و حاملة إليه، و فى غربيها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخا يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين و عنب و زيتون، و هذا هو المسمى بشرف إشبيلية، و تمتاز بلاد المغرب كلها بهذه الأصناف منه، و فى جانب المدينة المعتمد و أبيه المعتضد فى غاية الحسن و البهاء، و فيها

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٧٩

أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم و المشروب و الملبوس و المفروش و غير ذلك، فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين فى أحدها، و تولى من إكرامه و خدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له، و كان مع ابن تاشفين أصحاب له يبهونه على حسن تلك الحال و تأملها، و ما هى عليه من النعمة و الإتراف، و يغرونه باتخاذ مثلها، و يقولون له: إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم و اللذة، كما هو المعتمد و أصحابه، و كان ابن تاشفين [داهية] عاقلا مقتصدا فى أموره، غير متناول و لا مبذر، غير سالك نهج الترف و التأنق فى اللذة و النعيم، إذ ذهب صدر عمره فى بلاده بالصحراء فى شطف العيش، فأنكر على من أغراه بذلك الإسراف، و قال له: الذى يلوح لى من أمر هذا الرجل- يعنى المعتمد- أنه مضىع لما فى يده من الملك، لأن هذه الأموال الكثيرة التى تصرف فى هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدا، فأخذه بالظلم و إخراجة فى هذه الترهات من أفحش الاستهتار، و من كانت همته فى هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى يستجد همة فى ضبط بلاده و حفظها؟ و صون رعيته و التوفير لمصالحها، و لعمري لقد صدق فى كل ذلك.

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد فى لذاته: هل تختلف فتتقص عما عليه فى بعض الأوقات؟ فقيل له: بل كل زمانه على هذا، فقال: أفكّل أصحابه و أنصاره على عدوّه و منجديه على الملك ينال حظا من ذلك؟ فقالوا: لا، قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟

فقالوا: لا رضا لهم عنه، فأطرق و سكت، و أقام عند المعتمد على تلك الحال أياما.

و فى أثنائها استأذن رجل على المعتمد فدخل و هو ذو هيئة رثة، و كان من أهل البصائر، فلما مثل بين يديه قال: أصلحك الله أيها السلطان! و إن من أوجب الواجبات شكر النعمة، و إن من شكر النعمة إهداء النصائح، و إنى رجل من رعيته حالى فى دولتك إلى الاختلال، أقرب منها إلى الاعتدال، و لكننى مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيته، فمن ذلك خبر وقع فى أذنى من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم يرون أنفسهم و ملكهم أحقّ بهذه النعمة منك، و قد رأيت رأيا، فإن آثرت الإصغاء إليه قلته، فقال المعتمد له: قلته، فقال له: رأيت أن هذا الرجل الذى أطلعت على ملكك مستأسد على الملوكة، قد حكم على رفقائه ببر العدو، و أخذ الملك من أيديهم، و لم يبق على واحد منهم، و لا يؤمن أن يطمح إلى الطمع فى ملكك، بل فى ملك جزيرة الأندلس كلها، لما قد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٠

عابنه من هناة عيشك، و إنى لمتخيل مثل ذلك لسائر ملوك الأندلس، و إن له من الولد و الأقارب و غيرهم من يودّ له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب، و قد أردى الأذفونش و جيشه، و استأصل شأفتهم، و أعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه، فقد كان لك منه أقوى عضد و أوقى مجنّ، و بعد فإنه إن فات الأمر فى الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم، فقال له المعتمد: و ما هو الحزم اليوم؟ فقال: أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا، و اعتقاله فى قصرك، و تجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه، ثم تتفق أنت و ملوك الجزيرة على حراسه هذا البحر من سفينة تجرى فيه له، ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضم فى نفسه عودا إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم و منه، و تأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء، فنفسه أعز عليه من جميع ما يلتمس منه، فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التى لا تصلح إلا له، و تكون قد استرحت منه بعد ما استرحت من الأذفونش، و تقيم فى موضعك على خير حال، و يرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة، و يتسع ملكك، و ينسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة و حزم، و تهابك الملوك، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك فى مجاوره من عاملته هذه المعاملة، و اعلم أنه قد تهبأ لك من هذا أمر سماوى تتفانى الأمم و تجرى بحار الدم دون حصول مثله، فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه، و جعل يفكر فى انتهاز الفرصة.

و كان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه فى اللذات، فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح: ما كان المعتمد على الله- و هو إمام أهل المكرمات- ممن يعامل بالحييف، و يغدر بالضييف، فقال الرجل: إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه، لا دفع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به، فقال ذلك النديم: ضيم مع وفاء، خير من حزم مع جفاء.

ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر، و تلافاه، فشكر له المعتمد، و وصله بصله.

و اتصل هذا الخبر بيوسف فأصبح غاديا، فقدّم له المعتمد الهدايا السنية و التحف الفاخرة، فقبلها ثم رحل، انتهى خبر وقعة الزلافة و ما يتبعه ملخصا من كتب التاريخ.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨١

و لما انقرض بالأندلس ملك ملوك الطوائف بنى عباد و بنى ذى النون و بنى الأفطس و بنى صمادح و غيرهم انتظمت فى سلك اللّمتونيين، و كانت لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة فى كتب التواريخ.

[ملك على بن يوسف بن تاشفين، و الثورة عليه]

و لما مات يوسف بن تاشفين سنة خمس مائة قام بالملك بعده ابنه أمير المسلمين على بن يوسف، و سلك سنن أبيه و إن قصر عنه فى بعض الأمور، و دفع العدو عن الأندلس مدة، إلى أن قبض الله تعالى للثورة عليه محمد بن تومرت الملقب بالمهدى الذى أسس دولة الموحدين، فلم يزل يسعى فى هدم بنى لمتونة إلى أن مات و لم يملك حضرة سلطنتهم مراکش، و لكنه ملك كثيرا من البلاد، فاستخلف عبد المؤمن بن على، فكان من استيلائه على مملكة اللّمتونيين ما هو معروف، ثم جاز إلى الأندلس و ملك كثيرا منها، ثم أخرج الإفرنج من مهدية إفريقية، و ملك بلاد إفريقية و ضخم ملكه، و تسمى بأمر المؤمنين.

و لما كانت سنة ٥٤٥ سار الأذفونش صاحب طليطلة و بلاد الجلالقة إلى قرطبة و معه أربعون ألف فارس، فحاصرها، و كان أهلها فى غلاء شديد، فبلغ الخبر عبد المؤمن، فجهز إليهم جيشا يحتوى على اثنى عشر ألف فارس، فلما أشرفوا على الأذفونش رحل عنها، و كان فيها القائد أبو الغمر السائب، فسلمها إلى صاحب جيش عبد المؤمن بن يحيى بن ميمون، فبات فيها، فلما أصبح رأى الفرنج عادوا إلى مكانهم، و نزلوا فى المكان الذى كانوا فيه، فلما عاين ذلك رتب هنالك ناسا، و عاد إلى عبد المؤمن، ثم رحل الفرنج إلى ديارهم.

[ملك عبد المؤمن بن على بالأندلس]

و في السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن إلى الأندلس في عشرين ألفا عليهم الهنتاتي، فصار إليه صاحب غرناطة ميمون و ابن همشك و غيرهما، فدخلوا تحت طاعة الموحدين، و حرصوا على قصد ابن مردنيش ملك شرق الأندلس، و بلغ ذلك ابن مردنيش، فخاف و أرسل إلى صاحب برشلونة من الإفرنج يستنجده، فتجهز إليه في عشرة آلاف من الإفرنج عليهم فارس، و سار صاحب جيش عبد المؤمن إلى أن قارب ابن مردنيش، فبلغه أمر البرشلونى الإفرنجى، فرجع، و نازل مدينة المريّة و هى بأيدى الروم، فحاصرها، فاشتد الغلاء

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٢

في عسكره، فرجع إلى إشبيلية، فأقام فيها، و سار عبد المؤمن إلى سبتة فجهز الأساطيل و جمع العساكر. ثم سار عبد المؤمن سنة ٥٤٧ إلى المهدية فملكها، و ملك إفريقية، و ضخم ملكه كما قدمناه.

[يوسف بن عبد المؤمن بن علي]

و لما مات بويغ بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن، و لما تمهدت له الأمور، و استقرت قواعد ملكه، رحل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته، و تفقد أحوالها، و كان ذلك سنة ست و ستين و خمسمائة، و فى صحبته مائة ألف فارس من الموحدين و العرب، فنزل بحضرة إشبيلية، و خافه ملك شرق الأندلس مرسية و ما انضاف إليها الأمير الشهير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش، و حمل على قلب ابن مردنيش، فمرض مرضا شديدا و مات، و قيل: إنه سم، و لما مات جاء أولاده و أهله إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن و هو بإشبيلية، فدخلوا تحت حكمه، و سلموا لأحكامه البلاد، فصاهرهم، و أحسن إليهم، و أصبحوا عنده فى أعز مكان، ثم شرع فى استرجاع البلاد التى استولى عليها الإفرنج، فاتسعت مملكته بالأندلس، و صارت سراياه تعبر إلى باب طليطلة، و قيل: إنه حاصرها، فاجتمع الفرنج كافة عليه، و اشتد الغلاء فى عسكره، فرجع عنها إلى مراكش حضرة ملكه، ثم ذهب إلى إفريقية، فمهدّها، ثم رجع إلى حضرتة مراكش، ثم جاز البحر إلى الأندلس سنة ثمانين خمسمائة و معه جمع كثيف، و قصد غربى بلادها، فحاصر مدينة شنترين، و هى من أعظم بلاد العدو، و بقى محاصرا لها شهرا، فأصابه المرض، فمات فى السنة المذكورة، و حمل فى تابوت إلى إشبيلية، و قيل: أصابه سهم من قبل الإفرنج، و الله سبحانه و تعالى أعلم بحقيقة الحال.

و فى ابنه السيد [أبى] إسحاق يقول مطرف التجيبى رحمه الله تعالى: [السريع]

سعد كما شاء العلاء و الفخار تصرّف الليل به و النهار

ما دانت الأرض لكم عنوة و إنّما دانت لأمر كبار

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٣

مهدتموها فصفا عيشها و اتّصل الأمن، فنعم القرار

و منها:

فالشاة لا يختلها ذئبها و إن أقامت معه فى و جار

[ملك يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن]

و لما مات يوسف قام بالأمر بعده ابنه الشهير أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، فقام بالأمر أحسن قيام، و لما مات يوسف المذكور رثاه أديب الأندلس أبو بكر يحيى بن مجير بقصيدة طويلة أجاد فيها، و أولها: [الكامل]

جلّ الأسى فأسل دم الأجناف ماء الشؤون لغير هذا الشان

و يعقوب المنصور هو الذى أظهر أبهة ملك الموحدين، و رفع راية الجهاد، و نصب ميزان العدل، و بسط الأحكام الشرعية، و أظهر الدين، و أمر بالمعروف، و نهى عن المنكر، و أقام الحدود على القريب و البعيد، و له فى ذلك أخبار، و فيه يقول الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكاتمي الأسود الشاعر المشهور: [الوافر]

أزال حجابہ عني و عيني تراه من المهابة فى حجاب
و قزبني تفضله و لكن بعدت مهابة عند اقترابي

و كثرت الفتوحات فى أيامه، و أول ما نظر فيه عند صيرورة الأمر إليه بلاد الأندلس، فنظر فى شأنها، و رتب مصالحها، و قرر المقاتلين فى مراكزهم، و رجع إلى كرسى مملكته مراکش المحروسة، و فى سنة ٥٨٦ بلغه أن الإفرنج ملكوا مدينة شلب و هى من غرب الأندلس، فتوجه إليها بنفسه، و حاصرها، و أخذها، و أنفذ فى الوقت جيشا من الموحدين و العرب، ففتح أربع مدن مما بأيدى الإفرنج من البلاد التى كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة، و خافه صاحب طليطلة، و سأله الهدنة و الصلح، فهادنه خمس سنين، و عاد إلى مراکش، و أنشد القائد أبو عبد الله بن وزير الشلبى و هو من أمراء كتائب إشبيلية قصيدة يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى فى وقعه مع الفرنج كان الشلبى المذكور مقدا فيها: [الطويل]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٤

و لما تلاقينا جرى الطعن بيننا فمنا و منهم طائحون عديد

و جال غرار الهند فينا و فيهم فمنا و منهم قائم و حصيد

فلا صدر إلّا فيه صدر متقف و حول الوريد للحسام و رود

صبرنا و لا كهف سوى البيض و القنا كلانا على حرّ الجلاذ جليد

و لكن شددنا شدة فتبلدوا و من يتبلد لا يزال يحد

فولوا و للسم الطوال بهامهم ركوع و للبيض الرقاق سجد

رجع إلى أخبار المنصور بعد هدنة الإفرنج: و لما انقضت مدة الهدنة، و لم يبق منها إلا القليل، خرج طائفة من الإفرنج فى جيش كثيف إلى بلاد المسلمين، فنهبوا و سعوا و عاثوا عينا فظيعا، فانتهى الخبر إليه، فتجهز لقصدهم فى جيوش موفرة و عساكر مكتبة، و احتفل فى ذلك، و جاز إلى الأندلس سنة ٥٩١، فعلم به الإفرنج، فجمعوا جمعا كثيرا من أقاصى بلادهم و أدانيها، و أقبلوا نحوه، و قيل: إنه لما أراد الجواز من مدينة سلا مرض مرضا شديدا، و يئس منه أطباؤه، فعاث الأذفونش فى بلاد المسلمين بالأندلس، و انتهز الفرصة، و تفرقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطان، فأرسل الأذفونش يتهدد و يتوعد، و يرعد و يبرق، و يطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس، و خلاصة الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك إلى لقاء النصارى، و تراحف الفريقان، فكان المصافى شمالى قرطبة على قرب قلعة رباح فى يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١، فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين.

و حكى أن يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبا يحيى بن أبى حفص عم السلطان أبى زكريا الحفصى الذى ملك بعد ذلك إفريقية، و خطب له ببعض الأندلس، فقصد الإفرنج الأعلام ظنا أن السلطان تحتها، فأثروا فى المسلمين أثرا قبيحا، فلم يرعهم إلا و السلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كسر شوكتهم، فهزمهم شر هزيمة، و هرب الأذفونش فى طائفة يسيرة، و هذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر.

و حكى أن الذى حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفا، و أما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد، و لم يسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه، و ربما صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٥

وقيل: إن فل الإفرنج هربوا إلى قلعة رباح، فتحصنوا بها، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها، وكانت قبل للمسلمين، فأخذها العدو، فردت في هذه المرة، ثم حاصر طليطلة، وقاتلها أشد قتال، وقطع أشجارها، وشنّ الغارات على أرجائها، وأخذ من أعمالها حصونا، وقتل رجالها، وسبى حريمها، وخرّب منازلها، وهدم أسوارها، وترك الإفرنج في أسوأ حال، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة، ثم رجع إلى إشبيلية، وأقام إلى سنة ٥٩٣، فعاد إلى بلاد الفرنج، وفعل فيها الأفاعيل، فلم يقدر العدو على لقائه، وضاعت على الإفرنج الأرض بما رحبت، فطلبوا الصلح، فأجابهم إليه، لما بلغه من ثورة الميرقى عليه بإفريقية مع قراقوش مملوك بنى أيوب سلاطين مصر و الشام.

ثم توفي السلطان يعقوب سنة ٥٩٥.

وما يقال «إنه ساح في الأرض، وتخلي عن الملك، وصل إلى الشام، ودفن بالبقيع» لا أصل له، وإن حكى ابن خلكان بعضه. ومن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم، وقال: إن ذلك في هذيان العامة، لولوعهم بالسلطان المذكور.

[ملك محمد الناصر بن يعقوب]

وولى بعده ولده محمد الناصر المشؤوم على المسلمين، وعلى جزيرة الأندلس بالخصوص، فإنه جمع جموعا اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاها صاحب «الذخيرة السنية» في تاريخ الدولة المرينية» ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش، فصافّ الإفرنج، فكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التي خلا بسببها أكثر المغرب، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها، ولم ينج من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جدا لم يبلغ الألف فيما قيل، وهذه الوقعة هي الطامة على الأندلس، بل والمغرب جميعا، وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخفّ بهم الناصر و وزيره، فشنق بعضهم، ففسدت النيات، فكان ذلك من بخت الإفرنج، والله غالب على أمره، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤومة سنة ٦٠٩، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد.

[المستنصر بن الناصر]

ولما مات الناصر سنة عشرين و ستمائة ولى بعده ابنه يوسف المستنصر، وكان مولعا بالراحة، فضعفت الدولة في أيامه، وتوفي سنة ٦٢٠.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٦

[عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن و العادل ابن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، و من بعده من بنى تاشفين]

فتولى عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، فلم يحسن التدبير، وكان إذ ذاك بالأندلس العادل بن المنصور، فرأى أنه أحق بالأمر، فاستولى على ما بقى في أيدي المسلمين من الأندلس بغير كلفة، ولما خلع عبد الواحد و خنق بمراكش ثارت الإفرنج على العادل بالأندلس، و تصافّ معهم، فانهزم و من معه من المسلمين هزيمة شنعاء، فكانت الأندلس قرحا على قرح، فهرب العادل، و ركب البحر يروم مراكش، و ترك ياشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس، و دخل العادل مراكش بعد خطوب، ثم قبض عليه الموخيدون، و قدموا يحيى بن الناصر صغير السن غير مجرب للأمر، فادعى حينئذ الخلافة أبو العلاء إدريس ياشبيلية، و بايعه أهل الأندلس، ثم بايعه أهل مراكش و هو مقيم بالأندلس، فثار على أبي العلاء بالأندلس الأمير المتوكل محمد بن يوسف الجذامي، و دعا إلى بنى العباس، فمال الناس إليه، و رجعوا عن أبي العلاء، فخرج عن الأندلس - أعنى أبا العلاء - و ترك ما وراء البحر لابن هود، و لم يزل أبو

العلاء يتحارب مع يحيى بن الناصر إلى أن قتل يحيى، و صفا الأمر لأبى العلاء بالمغرب، دون الأندلس، ثم مات سنة ٦٣٠. و بويح ابنه الرشيد، و بايعه بعض أهل الأندلس، ثم توفي سنة ٦٤٠. و ولى بعده أخوه السعيد، و قتل على حصن بينه و بين تلمسان سنة ٦٤٦.

و ولى بعده المرتضى عمر بن إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن، و فى سنة ٦٦٥ دخل عليه الواثق المعروف بأبى دبوس، ففر، ثم قبض، و سيق إلى الواثق، فقلته، ثم قتل الواثق بنو مرين سنة ٦٦٨، و به انقرضت دولة بنى عبد المؤمن، و كانت من أعظم الدولة الإسلامية، فاستولى بنو مرين على المغرب، و أما المتوكل بن هود فملك معظم الأندلس، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته، و قتله غدرا وزيره ابن الرميمى بالمريّة، و اغتتم الإفرنج الفرصة بافتراق الكلمة، فاستولوا على كثير مما بقى بأيدي المسلمين من البلاد و الحصون.

[بنو الأحمر]

ثم آل الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر، و خطب ببعض الأندلس لأبى زكريا الحفصى صاحب إفريقيّة، و قد سبق الكلام على أكثر المذكور هنا، و أعدناه لتناسق الحديث، و لما فى بعضه من زيادة الفائدة على البعض الآخر، و ذلك لا يخفى على المتأمل، و قد بسطنا فى الباب الثالث أحوال ابن هود و ابن الأحمر و غيرهما، رحم الله تعالى الجميع!

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٧

ثم استفحل ملك يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب و حضرة ملك فاس، فانصرف به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالبوا عليهم، فاجتاز إلى الأندلس و هزم الإفرنج أشد هزيمة، حتى قال بعضهم: ما نصر المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المرينى و فتك فى بعض غزواته بملك من النصارى يقال له ذوننه، و يقال: إنه قتل من جيشه أربعين ألفا، و هزمهم أشد هزيمة، ثم تابعت غزواته بالأندلس و جوازه للجهاد، و كان له من بلاد الأندلس رندة و الجزيرة الخضراء و طريف و جبل طارق و غير ذلك، و أعز الله تعالى به الدين، بعد تمرد الفرنج المعتدين.

[بنو مرين]

و لما مات ولى بعده ابنه يوسف بن يعقوب، ففر إليه الأذفونش ملك النصارى لائذا به، و قتل يده، و رهن عنده تاجه، فأعانه على استرجاع ملكه.

و لم يزل ملوك بنى مرين يعينون أهل الأندلس بالمال و الرجال، و تركوا منهم حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاه، فكانت لهم وقائع فى العدو مذكورة، و مواقف مشكورة، و كان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، و عليهم رئيس من بيت ملك بنى مرين يسمونه شيخ الغزاة.

[و كتاب من السلطان أبى الحسن المرينى إلى الملك الصالح بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر]

و لما أفضى الملك إلى السلطان الكبير الشهير أبى الحسن المرينى، و خلص له المغرب و بعض بلاد الأندلس أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس و اهتم بذلك غاية الاهتمام، ففضى الله تعالى أن استولى الإفرنج على كثير من تلك المراكب بعد أخذهم الجزيرة الخضراء، و كان الإفرنج جمعوا جموعا كثيرة برسم الاستيلاء على ما بقى للمسلمين بالأندلس، فاستنفر أهل الأندلس السلطان أبى الحسن المذكور، فجاء بنفسه إلى سبتة فرضة المجاز و محل أساطيل المسلمين، فإذا بالإفرنج جاؤوا بالسفن التى لا تحصى، و منعه العبور، و أغاثه أهل الأندلس حتى استولوا على الجزيرة الخضراء، و أنكوه فى مراكبه أعظم نكايته، و لله الأمر.

وقد أفصح عن ذلك كتاب صدر من السلطان أبي الحسن المذكور إلى سلطان مصر و الشام و الحجاز الملك الصالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى الألفى، رحم الله تعالى الجميع!.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٨

و هذه نسخة الكتاب المذكور الذى خاطب به أمير المسلمين السلطان أبو الحسن المرينى المذكور ملك المغرب رحمه الله تعالى السلطان الملك الصالح بن السلطان الملك الشهير الناصر محمد بن قلاوون، و وصل إلى مصر فى النصف - و قيل: فى العشر الأواخر - من شعبان المكرم سنة ٧٤٥ بعد البسملة و الصلاة: من عند أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل الله رب العالمين، المنصور بفضل الله المتوكل عليه، المعتمد فى جميع أموره لديه، سلطان البرين، حامى العدوتين، مؤثر المرابطة و المشاغرة، موازر حزب الإسلام حقّ الموازرة، ناصر الإسلام، مظاهر دين الملك العلام، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، فخر السلاطين، حامى حوزة الدين، ملك البرين، إمام العدوتين، ممدد البلاد، مبدد شمل الأعداء، مجند الجنود، المنصور الرايات و البنود، محط الرحال، مبلغ الآمال، أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، حسنة الأيام، حسام الإسلام، أبى الأمل-ك، مشجى أهل العناد و الإشراك، مانع البلاد، رافع علم الجهاد، مدوّخ أقطار الكفار، مصرخ من ناداه للانتصار، القائم لله بإعلاء دين الحق، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق، أخلص الله لوجهه جهاده! و يسر فى قهر عداة الدين مراده!.

إلى محل ولدنا الذى طلع فى أفق العلاء بدرا تمّ، و صدع بأنواع الفخار فجلا ظلاما و ظلما، و جمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علما و أحيها رسما، حائط الحرمين، القائم بحفظ القبلتين، باسط الأمان، قابض كف العدوان، الجزيل النوال، الكفيل تأمينه بحياطة النفوس و الأموال، قطب المجد و سماكه، حبّ الحمد و ملاكه، السلطان الجليل الرفيع الأصيل، الحافل العادل، الفاضل الكامل، الشهير الخطير، الأضخم الأفخم، المعان المؤزر، المؤيد المظفر، الملك الصالح أبو الوليد إسماعيل، ابن محل أخينا الشهير علاؤه، المستطير فى الآفاق ثناؤه، زين الأيام و الليال، كمال عين إنسان المجد و إنسان عين الكمال، وارث الدول، النافث بصحيح رأيه فى عقود أهل الملل و النحل، حامى القبلتين بعدله و حسامه، النامى فى حفظ الحرمين أجر اضطلاع به بذلك و قيامه، هازم أحزاب المعاندين و جيوشها، هادم الكنائس و البيع فهى خاوية على عروشها، السلطان الأجل، الهمام الأحفل، الأفخم الأضخم، الفاضل العادل، الشهير الكبير، الرفيع الخطير، المجاهد المرابط، المقسط عدله فى الجائر و القاسط، المؤيد المظفر، المنعم المقدس المطهر، زين السلاطين، ناصر الدنيا و الدين، أبى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٨٩

المعالى محمد، ابن الملك الأرضى، الهمام الأمضى، والد السلاطين الأخيار، عاقد لواء النصر فى قهر الأرمن و الفرنج و التتار و محبى رسوم الجهاد، معلى كلمة الإسلام فى البلاد، جمال الأيام، ثمال الأعلام، فاتح الأقالم، صالح ملوك عصره المتقادم، الإمام المؤيد، المنصور المسدد، قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد، الملك المنصور سيف الدنيا و الدين قلاوون، مكن الله له تمكين أوليائه، و نَمَى دولته التى أطلعها [له] السعد شمسا فى سمائه، و أحسن إيزاعه للشكر أن جعله وارث آبائه!.

سلام كريم يفواح زهر الربا مسراه، و ينافح نسيم الصبا مجراه، يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقل الفلك حر كاته، و يتولاه روح و ريحان تحييه به رحمه الله و بركاته.

أما بعد حمد الله مالك الملك، جاعل العاقبة للتقوى صدعا باليقين و دفعا للشك، و خاذل من أسرّ فى النفاق النجوى فأصر على الدخن و الإفك، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد رسوله الذى معا بأنوار الهدى ظلم الشرك، و نبه الذى ختم به الأنبياء و هو واسطة ذلك السلك، و دحا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك و ماجت بهم حامله الفلك، و الرضا عن آله و صحبه الذين سلخوا سبيل هداه فسلك فى قلوبهم أجمل السلك، و ملكوا أعتة هواهم فلزموا من محجة الصواب أنجح السلك، و صابروا فى جهاد الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء و الذهب يزيد خلوصا على السبك، و الدعاء لأولياء الإسلام، و حماته الأعلام، بنصر لمضائه

في العدا أعظم الفتك، و يسر بقضائه درك آمال الظهور و أحفل بذلك الدرک، فكتبناه إليكم، كتب الله لكم رسوخ القدم و سبوغ النعم! من حضرنا بمدينة فاس المحروسة، و صنع الله سبحانه يعزف مذاهب الألفاف، و وكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف، و يصرف من أمره العظيم، و قضائه المتلقى بالتسليم، ما يتكون بين النون و الكاف، و مكانكم العتيد سلطانه، و سلطانكم المجيد مكانه، و ولاؤكم الصحيح برهانه، و علاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه، و إلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيننا، و أفاد مقامكم تحصيلنا و تحسيننا، و سلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلا مينا.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٠

فلا خفاء بما كانت عقده أيدى التقوى، و مهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى، بيننا و بين والدكم نعم الله روحه و قدسه، و بقربه مع الأبرار في عليين آنسه، من مواخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب و الفاتحة، و حفظ عليها محكم الإخلاص معوذتها المحبة و النية الصالحة، فاعتقدت على التقوى و الرضوان، و اعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازع الأبدان، حتى استحكمت وصله الولاء، و التأمتم كلحمة النسب لحمه الإخاء، فما كان إلا و شيكا من الزمان، و لا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان، و ورد و ورد أورد رنق المشارب، و حقق قول و من «يسأل الركبان عن كل غائب» أنبا باستنثار الله تعالى بنفسه الزكية، و إكنا درته السنية، و انقلابه إلى ما أعد له من المنازل الرضوانية، بجليل ما وقر لفقده في الصدور، و عظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور، حانا للإسلام بتلك الأقطار، و إشفاقا من أن يعثور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتن عارض الإضرار، و مساهمة في مصاب الملك الكريم، و الولي الحميم، ثم عميت الأخبار، و طويت طي السجل الآثار، فلم نر مخبرا صدقا، و لا معلما بمن استقر له ذلك الملك حقا، و في أثناء ذلك حفزنا للحركة عن حضرنا استصراخ أهل الأندلس و سلطانهما، و تواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها، و نحن أثناء ذلك الشأن، نستخبر الورد من تلکم البلدان، عما أجلى عنه ليل الفتن بتلك الأوطان، فبعد لأى وقعنا منها على الخير، و جاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير، و تعرفنا أن الملك استقر منكم في نصابه، و تداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه، فأطفأ بكم نار الفتنة و أخمدها، و أبرأ من أدواء النفاق ما أعل البلاد و أفسدها، فقام سبيل الحج سابلا، و تعبد طريقه لمن جاء قاصدا و قافلا، و لما احتفت بهذا الخبر القرائن، و تواتر بنقل الحاضر [له و] المعانين، أثار حفظ الاعتقاد البواعث، و الود الصحيح تجره حقا الموارث، فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الأطوار، الجامعة بين الخير و الاستخبار، الملبسة من العزاء و الهناء ثوبى الشعار و الدثار، و مثل ذلك الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقده، و تحل عرا الاضطراب بموته و لات حين أوانه، لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين، و الأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين، و مثلكم من لا يخف وقاره، و لا يشف عن ظهور الجزع الحادث اضطباره، و من خلفكم فما مات ذكره، و من قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره، و قد طالت و الحمد لله العيشة الراضية بالحقب، و طاب بين مبداه و محتضره هنيئا بما من الأجر اكتسب،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩١

و صار حميدا إلى خير المنقلب، و وفد من كرم الله على أفضل ما منح موقنا و وهب، فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة، و حماية زوار بيته مقيلة أو معرسة.

و نحن بعد بسط هذه التعزية، نهنيكم بما خولكم الله أجمل التهنية، و فى ذات الله الإيراد و الإصدار، و فى مرضاته سبحانه الإضمار و الإظهار، فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه، و عقد الظهور عليها نطاقه، و أعطاها أمان الزمان عقده و ميثاقه، و نحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقة، و موالة محققة، و ثناء كمامه عن أذكى من الزهر غب القطر مفتقه، و لم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الأكرمين اللذين خطتهما منا اليمين، و أوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قرار مكين، و إنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه، و أورده موارد إحسانه، فى ذلكم من الفعل الجميل، و الصنع الجليل، ما ناسب مكانه الرفيع، و شاكلة فضله من البر الذى لا يضيع، حتى طبق فعله الآفاق ذكرا، و طوق أعناق الورد و الفصاد برا، و كان من أجمل ما به

تحفى و أتحف، و أعظم ما بعرفه إلى رضا الملك العلام فى ذلك تعرف، إذنه للمتوجهين إذ ذاك فى شراء رباع توقف على المصحفين، و رسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين، فجرت أحوال القراء فىهما بذلك الخراج المستفاد، ريثما يصلحهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد، على ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصله، و احترام فى تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة، و قد أمرنا مؤدى هذا لكما لكم، و موفده على جلالكم، كاتبنا الأسنى الفقيه الأجل، الأحظى الأكمل، أبا المجد، ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى، الأرضى الأفضل، الأحظى الأكمل، المرحوم أبى عبد الله بن أبى مدين حفظ الله عليه رتبته، و يسر فى قصد البيت الحرام بغيته، بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف، و يتعرف تصرف الناظر عليها و ما فعله من سداد و إسراف، و أن يتخير لها من يرتضى لذلك، و يحمد تصرفه فيما هنالك، و خاطبنا سلطانكم فى هذا الشأن، جريا على الود الثابت الأركان، و إعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى فى ذلك من الأفعال الحسان، و كمالكم يقتضى تخليد ذلكم البر الجميل، و تجديد عمل ذلكم الملك الجليل، و تشييد ما اشتمل عليه من الشكر الأصيل، و الأجر الجزيل، و التقدم بالإذن السلطانى فى إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب، على ما يتوخاه فى ذلك

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٢

الشان من طرق الصواب، و ثناؤنا عليكم الثناء الذى يفواح زهر الربا، و يطارح نغم حمام الأيك مطربا، و بحسب المصافاه، و مقتضى الموالاة، نشرح لكم المترايدات، بهذه الجهات، و ننبئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجناب، و ذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصيرىخ، و نادى مناد للجهاد عزمنا لمثل ندائه يصيخ، أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب، و حتم عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب، و أن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بياجفها، و تنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها، ليمحوا كلمة الإسلام منها، و يقلصوا ظل الإيمان عنها، فقدمنا من يشتغل بالأساطيل من القواد، و سرنا على إثرهم إلى سبتة منتهى المغرب الأقصى و باب الجهاد، فما وصلناها إلا و قد أخذ أخذه العدو الكفور، و سدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور، و أتوا من أجفانهم بما لا يحصى عددا، و أرسدوها بمجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا، و تقلصوا عن الانبساط فى البلاد، و اجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعه من الأعداء، لكننا مع انسداد تلك السبيل، و عدم أمور نستعين بها فى ذلكم العمل الجليل، حاولنا إمداد ذلكم البلاد بحسب الجهد، و أصرخناهم بمن أمكن من الجند، و جهزنا أجفانا مختلسين فرصة الإجازة، تتردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه، و أمرنا لصاحب الأندلس من المال، بما يجهز به حركته لمداناه محلة حزب الضلال، و أجرينا له و لجيشه العطاء الجزل مشاهرة، و أرضخنا لهم فى النوال ما نرجو به ثواب الآخرة، و جعلت أجفاننا تتردد فى ميناء السواحل، و تلج أبواب الخوف العاجل، لإحراز الأمن الأجل، مشحونة بالعدد الموفورة، و الأبطال المشهورة، و الخيل المسومة، و الأقوات المقومة، فمن ناج حارب دونه الأجل، و شهيد مضى لما عند الله عز و جل، و ما زالت الأجفان تتردد على ذلكم الخطر؛ حتى تلف منها سبع و ستون قطعة غزوية أجرها عند الله يدخر، ثم لم نقنع بهذا العمل فى الأمداد، فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله تعالى مساهمة به لأهل تلك البلاد، فلقى من هول البحر و ارتجاجه، و إلحاح العدو و لجاجه، ما به الأمثال تضرب، و بمثله يتحدث و يستغرب، و لما خلص لتلك العدو بمن أبقته الشدائد، نزل بإزاء الكافر الجاحد، حتى كان منه بفرسخين أو أدنى، و قد ضرب بطعن يصابح العدو و يماسيه بحرب بها يمنى.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٣

و قد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته، و قويت فى الحرب إدارته، يبلون البلاء الأصدق، و لا يبالون بالعدو و هم منه كالشامة البيضاء فى البعير الأورق، إلا أن المطاوله بحصرها فى البحر مدة ثلاثة أعوام و نصف، و منازلتها فى البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف، أدى إلى فناء الأقوات فى البلد، حتى لم يبق لأهله قوت نصف شهر مع انقطاع المدد، و به من الخلق ما يربى على عشرة آلاف دون الحرم و الولد، فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب فى الإذن له فى عقد الصلح، و وقع الاتفاق على أنه

لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح، فأذنا له فيه الإذن العام، إذ في إصراخه وإصراخ من بقطره من المسلمين توخينا ذلك المرام، هنالك دعى النصارى إلى السلم فاستجابوا، وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا، فتم الصلح إلى عشر سنين، وخرج من بها من فرسان ورجال وأهل وبنين، ولم يرزؤوا مالا ولا عدّة، ولا لقوا في خروجهم غير النزوح عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة، وصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء، وأسليناهم عما جرى بالجباء، فمن خيل تزيد على الألف عتاقتها، وخلع تربى على عشرة آلاف أطواقها، وأموال عمت الغنى والفقر، ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير، وكف الله ضر الطواغيت عما عداها، وما انقلبوا بغير مدرّة عفا رسمها وصم صداها.

وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثغر، أن قدّر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكفر، وهو المطل على هذه المدرّة، والفرصة منها إن شاء الله متيسّرة، حتى يفرق عقد الكفار، ويفرج بهذه الجهة منهم مجاور وهذه الأقطار، فلولا إجلاهم من كل جانب، وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجمعهم من الأجفان والمراكب، لما بالينا بإصعاقهم، ولحللنا بعون الله عقد اتفاهم، ولكن للموانع أحكام، ولا-راد لما جرت به الأقالم، وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المدد، وتخبرنا له ولسائر تلك البلاد العدد والعدد، وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وعشاء السفر، وترتبط الجياد وتنتخب العدد لوقت الظهور المنتظر، وتكون على أهبة الجهاد، وعلى مرقة الفرصة عند تمكنها في الأعداء،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٤

وعند عودنا من تلك المحاولة، تيسر الركب الحجازى موجّها إلى هنا لكم رواجه، فأصدرنا إليكم هذا الخطاب، إصدار الود الخالص والحب اللباب، وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء، واعتقادنا فيكم فى ذات الله لا يخشى جديده من البلاء، وما لكم من غرض بهذه الأنحاء، فموفى قصده على أكمل الأهواء، موالى تميمه على أجمل الآراء، والبلاد باتحاد الود متحدة، والقلوب والأيدى على ما فيه مرضاة الله عز وجل منعقدة، جعل الله ذلكم خالصا لرب العباد، مدخورا ليوم التناد، مسطورا فى الأعمال الصالحة يوم المعاد، بمنه وفضله، وهو سبحانه وتعالى يصل إليكم سعدا تتفاخر به سعود الكواكب، وتتصافر على الانقياد له صدور المواكب، وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب، والسلام الأتم يخضكم كثيرا أثيرا ورحمة الله وبركاته، وكتب فى يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائه، وصوره العلامة، وكتب فى التاريخ المؤرخ.

[جواب سلطان مصر على هذا الكتاب من إنشاء خليل بن أيبك]

ونسخة الجواب عن ذلك من إنشاء خليل الصفدى شارح «لامية العجم» فى سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائه، بعد البسملة، فى قطع النصف بقلم الثلث: عبد الله ووليه، صورة العلامة، ولده إسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المئاغر المظفر المنصور عماد الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيى العدل فى العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترک، فاتح الأقطار، واهب الممالك والأمصار، إسكندر الزمان، مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان، ظلّ الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه، مالك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، سيد الملوك والسلاطين، جامع كلمة الموحّدين، ولى أمير المؤمنين، أبو الفداء إسماعيل بن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبى الفتح محمد بن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون، خلد الله تعالى سلطانه! وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه! يخصّ المقام العالى الملك الأجلّ الكبير المجاهد المؤيد المرابط المئاغر المعظم المكرم المظفر المعمر الأسعد الأصعد الأوحّد الأمجد الأنجد، السنّى السرى المنصور أبا الحسن على بن أمير المسلمين أبى سعيد بن أمير

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٥

المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أمده الله بالظفر، و قرن عزمه بالتأييد في الآصال و البكر!

سلام وشت البروق و شائعه، و ادخرت الكواكب ودائعه، استوعب الزمان ماضيه و مستقبله و مضارعه، و ثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه، و نبه للتغريد في الروض سواجعه، و جلى في كاسه من الشفق المحمر مدامه من النجوم فواقعه.

[أما] بعد حمد الله على نعم أدت لنا الأمانة في عود سلطنة والدنا الموروثة، و أجلسنا على سرير مملكة زرايتها بين النجوم مبنوثة، و أحسنت بنا الخلف عن سلف عهوده في الأعناق غير منكورة و لا منكوثه، و صلته على سيدنا محمد عبده و رسوله، و على آله و صحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة غاية أمله و رسوله، صلاة تحط بالرضوان سيولها، و تجر بالغفران ذيولها، ما تراسل أصحاب، و تواصل أحباب، و يوضح للعلم الكريم، و ورد كتابكم العظيم، و خطابكم الفائق على الدر النظيم، تفاخر الخمائل سطوره، و يصبغ خد الورد بالخجل منشوره، و يحكى الرياض اليانعة فالألقات غصونه و الهمزات عليها طيوره، و يخلع على الآفاق حلال الأيام و الليالي فالطرس صباحه و النقس ديجوره، لفظه يطرب، و معناه يعرب فيغرب، و بلاغته تدلّ على أنه آية لأن شمس بيانها طلعت من المغرب، فاتخذنا سطوره ريحانا، و رجعنا أفاظه ألحانا، و رجعنا إلى الجدّ فشبهننا ألفاته بظلال الرماح، و ورقه بصقال الصّفاح، و حروفه المفرقة بأفواه الجراح، و سطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة في يوم الكفاح، و انتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ المسجوع، و المعنى الذى يطرب طائره المسموع، و البلاغة التى فضح المتطبع بيانها المطبوع.

فأما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه و سقى عهده، و أحسن لسلفه خلفنا بعده، فلنا برسول الله أسوة حسنة، و لو لا الوثوق بأنه فى عدّة الشهداء ما رأى القلب قراره و لا الطرف و سنه، عاش سعيدا يملك الأرض، و مات شهيدا يفوز بالجنة يوم العرض، قد خلد الله

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٢٩٥

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٦

ذكره يسير مسير الشمس فى الآفاق، و يوقف على نضارة حدائقه نظرات الأحداق، و ورثنا منه حسن الإخاء لكم، و الوفاء بعهود مودة تشبه فى اللطف شمائلكم، و أما الهناء بورائه ملكه، و الانخراط مع الملوك فى سلكه، قد شكرنا لكم منحة هذه المنحة، و قابلناها بثناء يعطر النسيم فى كل نفحه، و وقفنا عليها حمدا جعل الود علينا إيراد و على أنفاس سرحة الروض شرحه، و تحققنا به حسن و دكم الجميل، و كريم إخوانكم الذى لا يمد طود رسوخه و لا يميل.

و أما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمين المنيفين، و أنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجلّ الأسنى الأسمى أبا المجد ابن كاتبكم أبى عبد الله بن أبى مدين أعزه الله تعالى لتفقد أحوالهما، و النظر فى أمر أوقافهما، فقد وصل المذكور بمن معه فى حرز السلامة و أكرمنا نزلهم، و سهلنا بالترحيب سبلهم، و جمعنا على بذل الإحسان إليهم شملهم، و حضر المذكور بين أيدينا و قربناه، و سمعنا كلامه و خاطبناه، و أمرنا فى أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم، و رسمنا لنوابنا فى نواحي أوقافهما بما ذكرتم، و هذا الوقف المبرور جار على أحسن عادة ألفتها، و أثبت قاعدة عرفها، مرعى الجوانب، محمى المنازل و المضارب، آمن من إزالة رسمه، أو إزالة حكمه، بدره أبدا فى مطالع تمه، و زهره دائما يرقص على كفه، لا يزداد إلا تخليدا، و لا إطلاق ثبوته إلا تقييدا، و لا عنق اجتهاده إلا تقليدا، جريا على قاعدة أوقاف ممالكننا، و عادة تصرفاتنا فى ممالكننا، و له مزيد الرعاية، و إفادة الحماية، و وفادة العناية.

و أما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء و ما لاقاه أهلها، و منى به من الكفار حزنها و سهلها، فإنه شقّ علينا سماعه الذى أنكى أهل الإيمان، و عدّد به نوب الزمان، كل قلب بأنامل الخفقان، و طالما فترتم بالظفر، و رزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة و فز، و لكن الحروب سجال، و كل زمان لدوائه دولة و لرجائه رجال، و لو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسومة، و سالت على عدوكم أباطحهم بقسينا المعوجة و سهامنا المقومة، و كحلنا عيون النجوم بمرآود الرماح، و جعلنا ليل العجاج ممزقا ببروق الصّفاح،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٧

و اتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كرات، و فرجنا مضايق الحرب بتوالى الكرات، و عطفنا عليهم الأعنة، و خضنا جداول السيوف و دسنا شوكة الأسننة، و فلقنا الصخرات بالصرخات، و أسلنا العبرات بالربعات، و لكن أين الغاية من هذا المدى المتطول؟ و أين الثريا من يد المتناول؟ و ما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذى نرفعه نحن و رعايانا، و التوجه الصادق الذى تعرفه ملائكة القبول من سجايانا.

و أما ما فقدتموه من الأجنان التى طرقها طيف التلايف، و أم حرم فنائها الفناء و طاف به بعد الإلطف، فقد روع هذا الخير قلب الإسلام، و نوع له الحزن على اختلاف الإصباح و الإظلام، و هذه الدار ما يخلو صفوها من كدر القدر، و طالما أنامت بالأمن أول الليل و خاطبت بالخطب فى السحر، و لكن فى بقائكم ما يسلى من خطب العطب، و مع سلامة نفسكم الكريمة فلأمر هين لأن الدر يفدى بالذهب.

و أما ما رأيتموه من الصلح فرأى عقده مبارك، و أمر ما فيه فارط عزم و إن كان فيتدارك، و الأمر يجيء كما يحب لا كما نحب، و الحروب يزورها نصرها تارة و يغب، و مع اليوم غدا، و قد يرد الله الردى، و يعيد الظفر بالعدا.

و أما عودكم إلى فاس المحروسة طلبا لإراحة من عندكم من الجنود، و تجهيزا لمن يصل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود، فهذا أمر ضرورى التدبير، سرورى التثمير، لأن النفوس تمل وثير المهاد، فكيف ملازمة صهوات الجياد، و تسأم من مجالسة الشرب، فكيف بممارسة الحرب، و تعرض عن دوام اللذة، فكيف بمباشرة المنايا الفذة، و هذا جبل طارق الذى فتح الله به عليكم، و ساق هدى هديته إليكم، لعله يكون سببا إلى ارتجاع ما شرد، و حسما لهذا الطاغية الذى مرد، و ردا لهذا النازل الذى قدم ورد الصبر لما ورد، فعادة الألفاظ الإلهية بكم معروفة، و عزما تمكم إلى جهات الجهاد مصروفة، و قد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يطرق، و جبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار و يمرق.

و أما ما منحتموه من الخيل العتاق، و الملابس التى تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق، و الأموال التى زكت عند الله تعالى و نمت على الإنفاق، فعلى الله عز و جل خلفها،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٨

و لكم فى منازل الدنيا و الآخرة [سرفها] و شرفها، و إليكم تساق هدايا أثنتها و تحفكم تحفها، و إذا وصل وفدكم الحاج، و أثار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا، و شمول إسعافنا لهم و إنعامنا، يتخولون تحفا أنتم سببها، و يتناولون طرفا فى كؤوس الاعتناء بهم تنضد حبيها، و إذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق، و سهلنا لهم الرفيق، و بلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى، و سؤلهم ممن إذا زاروا حجرته الشريفة حازوا الراحة من العنا، و فازوا بالغنى، و إذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب، و يخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق و الغرب، و غمرناهم بالإحسان فى العود إليكم، و أمرناهم بما ينهونه شفاها لديكم، و عناية الله تعالى تحوط ذاتكم، و توفر لأخذ الثار حما تمكم، و تخصصكم بتأييد تنزلون روضه الأنضر، و تجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر، و تتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه، و عز لا يمحو شبابه مشيبه، و تحيته المباركة تغادىكم و تراوحكم، و تفواحكم أنفاسها المعبرة و تنافحكم، بمنه و كرمه، انتهى.

و رأيت بخط منشئ هذا الجواب الصلاح الصفدى رحمه الله تعالى أثر ذكره ما نصه:

أما بعد حمد الله تعالى على نعمائه، و صلواته على سيدنا محمد عبده و رسوله خاتم أنبيائه، فقد قرأ الشيخ الإمام العالم العامل العلامة المفيد القدوة عز الدين أبو يعلى حمزة بن الرئيس الكبير الفاضل القاضى قطب الدين موسى بن أحمد بن شيخ السلامية الأحمدى أمتع الله بفوائده!- الكتاب الوارد من سلطان المغرب الملك المجاهد المرابط أبى الحسن المرينى صاحب مراکش تغمده الله تعالى برحمته و الجواب عنه عن السلطان الشهيد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد قدس الله

تعالى روحهما من إنشائي، وأنا أسمع ذلك جميعا من أولهما إلى آخرهما، قراءة أطربت السمع لفصاحتها، و أمالت العطف لرجاحتها. [السريع]

و أخجلت ورق الحمى باللوى إن صدحت في ذروة الغصن

تكاد من لطف و من رقة تدخل في الأذن بلا إذن

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٩٩

و ذلك في مجلس واحد في ذي القعدة سنة ٧٥٦، بالجامع الأموي بدمشق المحروسة فإن رأى رواية ذلك عنى فله علو الرأى في تشريفي بذلك، و كتبه خليل بن أيبك الصفدى الشافعى عفا الله عنه! انتهى.

[السلطان أبو الحسن المريني يكتب بيده ثلاثة مصاحف و يهديها للمساجد الثلاثة و وصف بعض المشاركة للسلطان أبي الحسن المريني]

و كان السلطان أبو الحسن المريني المذكور كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه، و أرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، و وقف عليها أوقافا جليله كتب توقيعه سلطان مصر و الشام بمسامحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين بن نباتة المصرى، و نص ما يتعلق به الغرض منه هنا قوله: و هو الذى مدّ يمينه بالسيف و القلم فكتب فى أصحابها، و سطر الختمات الشريفة فأيد الله حربه بما سطر من أحزابها، و اتصلت ملائكة النصر بلوائه تغدو و تروح، و كثرت فتوحه لألمياء الغرب فقالت أوقاف الشرق: لا بد للفقراء من فتوح، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدى، و خط سطورها بالعربى و طالما خط فى صفوف الأعداء بالهندي، و رتب عليها أوقافا تجرى أقلام الحساب فى إطلاقها و طلقها، و حبس أملاكا شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها، و الله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له فى أكرم الصحائف، و ينفع الجالس من ولاة الأمور فى تقريرها و يتقبل من الواقف، انتهى.

قلت: و قد رأيت أحد المصاحف المذكورة، و هو الذى ببنت المقدس، و ربعته فى غاية الصنعة.

و قال بعض المشاركة فى حق السلطان أبي الحسن، ما صورته: ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله، و جرت إلى المشرق أنواء نواله، و طابت نسماته، و اشتهرت عزماته، كان حسن الكتابة، كثير الإنابة، ذا بلاغة و براعة، و شهامة و شجاعة، كتب بخطه ثلاثة مصاحف و وقفها على المساجد الثلاثة، أقام فى الملك عشر سنين و سبعة أيام، ثم صرف بولده أبى عنان بعد حروب يطول شرحها، انتهى من كتاب نزوهة الأنام.

[هدية من السلطان أبي الحسن إلى السلطان الملك الناصر برواية الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق]

و لما ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق فى كتابه «المسند الصحيح الحسن، من

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٠

أخبار السلطان أبي الحسن» أمر الربعة التي أرسلها السلطان أبو الحسن بخطه قال ما ملخصه:

و أرسل معها للسلطان الملك الناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر و الثمن ثمانمائة و خمسة و عشرين، و من الزمرد مائة و ثمانية و عشرين، و من الزبرجد مائة و ثمانية و عشرين، و من الجواهر النفيس الملوكة ثلاثمائة و أربعة و ستين، و أرسل حللا- كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر، و من الإناق عشرين مذهبة، و من الخلادى ستة و أربعين، و من القنوع ستة و عشرين مذهبة، و من المحررات المختمة ثمانمائة، و من الرصان عشرين شقة، و الأكسية المحررة أربعة و عشرين، و البرانس المحررة ثمانية عشر، و المشففات مائة و خمسين، و أحارم الصوف المحررة عشرين، و من شقق الملف الرفيع ستة عشر، و من الفضالى المنوعة و الفرش و المخاد المنبوق و الحلل ثمانمائة، و أوجه اللحف المذهبة عشرين، و حائطان حله و حنايل مائة و اثني عشر كلها حرير، و

فرش جلد مخروز بالذهب والفضة، و من السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجواهر عشرة، و السروج عشرة بركب ذهب و مهاميز ذهب كذلك، و ثلاث ركب فضة، و ستة مزججة و مذهبة، و مضمتان من ذهب مما يليق بالملوك، و شاشية حرير مطوقة بذهب مكلل بالجواهر، و من لزمات الفضة عشرة، و سرج مخروزة بالفضة عشرة، و عشر علامات معششة مذهبة، و عشر رايات مذهبة، و عشر براقع مذهبة، و عشر أمثلة مرقومة، و ثلاثين جلدا شرك، و أربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب و ثمانية عشر بنهود الفضة، و خباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب، و قبة أخرى مضربة من ست و ثلاثين بنيقة مبطنه بحلّة مذهبة، و هي حرير أبيض و مرابطها حرير ملون و عمودها عاج و آبنوس، و أكبارها من فضة مذهبة، و من البزاة الأحرار المنتقاء أربعة و ثلاثين، و من عتاق الخيل العرب ثلاثمائة و خمسا و ثلاثين، و من البغال الذكور و الإناث مائة و عشرين، و من الجمال سبعمائة، و توجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الربعة المكرمة، و أعطى الحرّة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف و خمسمائة ذهبا، و لقاضى الركب ثلاثمائة و كسوة، و لقائد الركب أربعمائة و كساوى متعددة و بغلات، و للرسول المعين للهدية ألفا، و لشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة، و لجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة، و برسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف و ثمانمائة، و لشراء ربيع ستة عشر ألفا و خمسمائة ذهبا، انتهى.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠١

و ذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن الموصوف أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك، و منها لصاحب الأندلس صلة و صدقة [و هدية] في مرات، و منها لملوك النصارى بعد هداياهم، و منها لسلطين السودان كصاحب مالى، و منها لصاحب إفريقيا، و منها لصاحب تلمسان، انتهى.

[رواية المقرئ مؤرخ مصر لهذه الهدية]

و قال مؤرخ مصر المقرئ في كتاب «السلوك» في سنة ٧٣٨ ما نصه: و في ثانی عشرين من رمضان قدمت الحرّة من عند السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج، و معها هدية جليّة إلى الغاية، نزل لحملها من الإصطبل السلطاني ثلاثون قطارا من بغال النقل سوى الجمال، و كان من حملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة و مائة فحل و مائتا بغل و جميعها بسرج و لجم مسقطة بالذهب و الفضة، و بعضها سرجها و ركبها كلها ذهب، و كذلك لجمها، و عدتها اثنان و أربعون رأسا منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر، و فيها اثنان و ثلاثون بازا، و فيها سيف قرابه ذهب مرصع، و حياصه ذهب مرصع، و فيها مائة كساء، و غير ذلك من القماش العال، و كان قد خرج المهمندار إلى لقائهم، و أنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح، و هم جمع كثير جدا، و كان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة، ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم، حتى نفذت كلها سوى الجواهر و اللؤلؤ فإنه اختص به، فقدرت قيمة هذه الهدية ما يزيد على مائة ألف دينار، ثم نقلت الحرّة إلى الميدان بمن معها، و رتب لها من الغنم و الدجاج و السكر و الحلوى و الفاكهة في كل يوم بكرة و عشيّة ما عمهم و فضل عنهم، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسا من الغنم، و نصف أردب أرز، و قنطار حب رمان، و ربع قنطار سكر، و ثمان فانوسيات شمع، و توابل الطعام، و حمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة و سبعين ألف درهم، و أجره حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم، ثم خلع على جميع من قدم مع الحرّة، فكانت عدة الخلع مائتين و عشرين خلع على قدر طبقاتهم، حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول، و حمل إلى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٢

الحرّة من الكسوة ما يجعل قدره، و قيل لها أن تملى ما تحتاج إليه و لا يعوزها شيء، و إنما تريد عناية السلطان بإكرامها و إكرام من معها حيث كانوا، فتقدم السلطان إلى النشو و إلى الأمير أحمد أقبغا بتجهيزها اللائق بها، فقاما بذلك، و استخدموا لها السقائين و الضوية، و هيّا كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلوات و السكر و الدقيق و البقسماط، و طلبا الحمالة لحمل جهازها و

أزودتها، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولى الجزيرة، وأمره أن يرحل بها فى مركب لها بمفردها قدام المحمل، و يمتثل كل ما تأمر به، و كتب لأميرى مكة و المدينة بخدمتها أتم خدمة.

وقال فى سنة خمس و أربعين و سبعمائة ما نصه: و فى نصف شعبان قدمت الحرّة أخت صاحب المغرب فى جماعة كثيرة، و على يدها كتاب السلطان أبى الحسن يتضمن السلام، و أن يدعو له الخطباء فى يوم الجمعة و مشايخ الصلاح و أهل الخير بالنصر على عدوهم، و يكتب إلى أهل الحرمين بذلك، و ذلك أن فى السنة الخالية كانت بينه و بين الفرنج وقعة عظيمة قتل فيها ولده، و نصره الله تعالى بمنه على العدو، و قتل كثيرا منهم، و ملكوا منهم الجزيرة الخضراء، فعمر الفرنج مائتى شينى، و جمعوا طوائفهم، و قصدوا المسلمين، و أوقعوا بهم على حين غفلة، فاستشهد عالم كثير، و نجا أبو الحسن فى طائفة من أزمائه بعد شداوند، و ملك الفرنج الجزيرة، و أسروا و سبوا و غنموا شيئا يجلب وصفه، ثم مضوا إلى جهة غرناطة، و نصبوا عليها مائة منجنيق حتى صالحهم على قطعة يقومون بها، و تهادنوا مدة عشر سنين، اه كلامه.

و قد تقدم نص هذا الكتاب الموجه من السلطان أبى الحسن فليراجع قريبا.

وقال ابن مرزوق فى «المسند الصحيح الحسن» بعد كلام ما ملخصه: و كان يعنى السلطان أبا الحسن - مجتهدا فى الجهاد بنفسه و حرمة، و جاز للأندلس برسم ذلك بنفسه، و أظهر آثاره الجميلة، و منها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد أن أنفق عليه الأموال، و صرف إليه الجنود و الحشود، إذ كان من عمالته هو و الجزيرة و رندة، و نازلته جيوشه مع ولده و خواصه و ضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، و أنفق على بنائه أحمال مال، و اعتنى بتحصينه، و بنى حصنه و أبراجه و سورته و جامعته و دورته و مخازنه، و لما كاد يتم ذلك نازله العلو برا و بحرا، فصبر المسلمون صبر الكرام، فخبب الله تعالى أمل العدو، و عاد خاسرا، و المنة لله، فرأى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٣

أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو فى منازلته، و لا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته، و رأى الناس ذلك من المحال، فأنفق الأموال، و أنصف العمال، فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، و أما بناؤه للمحاسن و الطواع فأمر غير مجهول، اه.

[و من إنشاء لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه إلى أحد السلاطين من بنى السلطان أبى الحسن المرينى]

و قد رأيت أن أذكر هنا بعض إنشاء لسان الدين بن الخطيب فى شأن ما يتعلق بجبل الفتح و غيره من بلاد الأندلس، و حال العدو الكافر، و ما ينخرط فى هذا السلك: فمن ذلك على لسان سلطانه يخاطب به أحد السلاطين من أولاد السلطان أبى الحسن المرينى، و نصه:

المقام الذى يصرخ و ينجد، و يتهم فى الفضل و ينجد، و يسعف و يسعد، و يبرق فى سبيل الله و يردد، فياخذ الكفر من عزماته المقيم المقعد، حتى ينجز من نصر الله تعالى الموعد، مقام محل أخينا الذى حسن الظن بمجده جميل، و حد الكفر بسعده كليل، و للإسلام فيه رجاء و تأميل، ليس للقلوب عنه مميل، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله تعالى و عزمه الماضى لصوله الكفر قامعا، و تدبيره الناجح لشمع الإسلام جامعا، و ملكه الموقوق لنداء الله مطيعا سامعا، معظم مقداره، و ملتزم إجلاله و إكباره، المعتد فى الله بكرم شيمته و طيب نجاره، المستظهر على عدو بإسراعه إلى تدمير الكافر و بداره.

سلام كريم عليكم و رحمة الله و بركاته، أما بعد حمد الله مجيب دعوة السائل، و متقبل الوسائل، و متيح النعم الجلائل، مريح من عامله فى هذا الوجود الزائف الزائل، و الأيام القلائل، بالمتاع الدائم الطائل، و النعيم غير الحائل، و مقيم أود الإسلام المائل، بأولى المكارم من أوليائه و الفضائل، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد رسوله المنقذ من الغوائل، المنجى من الزوع الهائل، الصادع بدعوة الحق الصائل، بين العشائر و الفصائل، الذى ختم به و برسالته ديوان الرسل و الرسائل، و جعله فى الأواخر شرف

الأوائل، فجه كثر العائل، و الصلاة عليه زكاة القائل، و الرضا عن آله و صحبه و عترته و حزبه تيجان الأحياء و القبائل، المتميزين بكرم السجايا و طيب الشمائل، و الدعاء لمقام أخوتكم في البكر و الأصائل، بالسعد الصادق المخايل، و الصنع الذي تتبرج مواهبه تبرج العقائل، و النصر الذي تهز له الصّعاد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٤

الملد عطف المترانح المتخايل، فإننا كتبنا إليكم كتب الله لكم عزا يانع الخمائيل، و نصرا يكفل للكتائب المدونة في الجهاد و مرضاة رب العباد بسرد المسائل و إقناع السائل، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى! و لا زائد بفضل الله سبحانه إلا استبصار في التوكل على من بيده الأمور، و تسبب مشروع تتعلق به بإذن الله تعالى أحكام القدر المقدر، و رجاء فيما وعد به من الظهور، يتضاعف على توالى الأيام و ترادف الشهور، و الحمد لله كثيرا كما هو أهله، فلا فضل إلا فضله، و مقامكم المعروف محله، الكفيل بالإرواء نهله و عله، و إلى هذا وصل الله تعالى سعدكم، و حرس مجدكم، و والى النعم عندنا و عندكم، فإننا في هذه الأيام، أهمنا من أمر الإسلام، ما رنق الشراب و نغض الطعام، و زاد المنام، لما تحققنا من عمل الكفر على مكايده، و سعى الضلال، و الله الواقى، في استئصال بقيته، و عقد النوادي للاستشارة في شأنه، و شروع الحيل في هد أركانه، و من يؤمل من المسلمين لدفع الردى و كشف البلوى و بث الشكوى، و أهله حاطهم الله تعالى و تولاهم، و تمم عوائد لطفه الذي أولاهم، فهو مولاهم، في غفلة ساهون، و عن المغبة فيه لاهون، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم، و عاجلهم عن آجلهم، و طول الأمل، عن نافع العمل، إلا من نور الله تعالى قلبه بنور الإيمان و تمللم بمناصحة الله تعالى و الإسلام تمللم السليم، و استدلل بالمشاهد على الغائب، و صرف الكفر إلى مطالب الأمم النوائب، فلما رأينا أن الدولة الميرنية التي على ممر الأيام شجا العدا، و متوعد من يكيد الهدى، و فته الإسلام التي إليها يتحيز، و كهفه الذي إليه يلجأ، قد أذن الله تعالى في صلاح أمورها، و لم شعنها، و إقامة صغاها، بأن صرف الله تعالى عنها هنات الغدر، و أراحها من مس الضر، و ورد قوسها إلى يد باريها، و صير حقها إلى وارثها، و أقام لرعى مصالحها من حسن الظن بحسبه و دينه، و رحى الخير من ثمرات نصحه، و من لم يعلم إلا الخير من سعيه و السداد من سيرته، و من لا يستريب المسلمون بصحة عقده، و استقامة قصده، أردنا أن نخرج لكم عن العهدة في هذا الدين الحنيف الذي و سمت دعوته و جوه أحبابكم شملهم الله تعالى بالعافية، و تشبث به أنفس من صار إلى الله تعالى من السلف تعمدهم الله بالرحمة و المغفرة، و في هذا القطر الذي بلاده ما بين مكفول يجب رعيه طبعاً و شرعاً، و جار يلزم حقه دينا و دنيا و حمية و فضلا، و على الحالين فعليكم بعد الله المعول،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٥

و فيكم المؤمل، فأرعونا أسماعكم المباركة نقص عليكم ما فيه رضا الله، و المنجاة من نكيره، و الفخر و الأجر و حفظ النعم، و الخلف في الذرية، بهذا وعدت الكتب المنزلة، و الرسل المرسله، و هو أن هذا القطر الذي تعددت فيه المحاريب و المناير، و الراكع و الساجد و الذاكر، و العابد و العالم و اللفي، و الأرملة و الضعيف، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام، و شحت الأيدي به منذ أعوام، و سلم إلى عبدة الأصنام، و قوبلت ضرائره بالأعدار، و المواعيد المستغرقة للأعمار، و إن عرضت شواغل و فتن، و شواغب و إحن، فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته، و لا يذهب المعروف بكليته: [الطويل]

و لا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

و لو كانت الأشغاب تقطع المعروب و تصرف عن الواجب لم يفتح المقدس و الدكم جبل الفتح و هو منازل أخاه بسجلماسه، و لا أمده ولده السلطان أبو عنان و هو بمراكش، و بالأحس بعثنا إلى الجبل و سماته في جملة ما أهمنا مبلغ جهد و سداد من عوز، و قد فضلت عن ضرائرتنا أموال فرضت من أجل الله على عباده، و طعام سمحنا به على الاحتياج إليه في سبيل جهاده، فلم يسهم المتغلب منها لجانب الله بحبه، و لا أقطعه منها ذرة مستخفا به جل و علا، متهاونا بنكيره الذي هو أحق أن يخشى، فضاعت الأمور، و اختلت الثغور، و تشذبت الحامية، و تبددت العدد، و خلت المخازن، و هلكت بها الجرادن، و عظمت بها حسرة الإسلام، أضعاف ما عظمت

حبرته أيام ما كانت تكفلها همم الملوك الكرام و الخلفاء العظام، و الوزراء و النصحاء، و الأشياخ الأمجاد، قدس الله تعالى أرواحهم! و ضاعف أنوارهم! و لا كالحسرة في الجبل باب الأندلس و ركاب الجهاد و حسنة بنى مريم و مآثر آل يعقوب و كرامة الله للسلطان المقدس أبى الحسن والد الملوك و كبير الخلفاء و المجاهدين والدكم الذى ترد على قبره مع الساعات و الأنفاس و فود الرحمة، و هدايا الزلفه، و ريحان الجنة، فلو لا أنكم على علم من أحواله لشرحنا المجل، و شكلنا المهمل، إنما هو اليوم شيخ مائد، و طلل بائد، لو لا أن الله تعالى شغل العدا عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلا إليه، و لا حوم طيره إلا عليه، و لكان بصدد أن يتخذ الصليب دارا، و أن يقر به عينا، و العدو فضلا عن الأندلس، قد أوسعها شرا، و أرهق ما يجاوره عسرا، نسأل الله تعالى بنور وجهه أن لا يسود الوجوه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٦

بالفجع فيه، و لا يسمع المسلمين الثكلة، و ما دونه فهو- و إن أنعش بالتعليل عليه، و وقع بالجهد خلقه- لحم على وضم، إلا أن يصل الله تعالى وقايته، و يوالى دفاعه و عصمته، لا إله إلا هو الولى النصير، و ما زلنا نشكو إلى غير المصمت، و نمّد اليد إلى المدبر عن الله المعرض، و نخطب له زكاة الأموال من المباني الضخمة، و الخزائن الثرة، و الأهرام الطاميه، و الحظ التافه من المفترض برسمة، فتمضى الأيام لا تزيد الضرائر فيها إلا ضيقا، و لا الأحوال إلا شدة، و لا الثغر إلا ضعفة، و لا نعلم أن نظرا وقع له فكرا أعمل فيه إلا ما كان من تسخير رعيته الضعيفة، و بلائه مجباه السخيفة، فى بناء قصر بمنت ميور من جباله:

[الخفيف]

شاده مرمزا و جلّه كل سا فلطير فى ذراه و كور

جلب إليه الزليج، و اختلفت فيه الأوضاع فى رأس نيق، لأمل نزوة، و سوء فكرة، فلما تم أقطع الهجران، فهو اليوم ممتنع البوم و حظ الخراب، فلا حول و لا قوة إلا بالله، حتى جاء أمر الله خالى الصحيفة من البر، صفر اليد من العمل الصالح، نعوذ بالله من ذلك، و نسأله الإلهام و الشداد، و التوفيق و الرشاد، و قد بذلنا جهدنا قولا و فعلا، و موعظة و نصحا، و استدعينا لتلك الجهة صدقة المسلمين محمولة على أكتاد العباد الضعفاء الذين كانت صدقات فاتحيه رضى الله تعالى عنهم ترفدهم، و نوافلهم تتعهدهم، فما حرك ذلك الجوار حلوبا، و لا استدعى مطلوبا، و لا رفدا مجلوبا، فإلى متى تنضى ركاب الصبر و قد بلغ الغاية، و استنفد البلاله، بعد أن أعاد الله تعالى العهد، و جبر المال، و أصلح السعى، و أجرى ينابيع الخير، و أنشق رياح الإقالة، و جملة ما نريد أن نقرره فهو الباب الجامع، و القصد الشامل، و الداعى و الباعث أن صاحب قشتالة لما عاد إلى ملكه، و رجع إلى قطره، جرت بيننا و بينه المراسلة التى أسفرت بعدم رضاه عن كدحنا لنصره، و مظاهرتنا إياه على أمره، و إن كنا قد بلغنا جهدا، و أبعدنا وسعا، و أجلت عن شروط ثقيلة لم نقبلها، و أغراض صعبة لم نكملها، و نحن نتحقق

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٧

إنه إما أن تهيج حفيظته، و تثور إحتته، فيكشف وجه المطالبة مستكثرا بالأمة التى داس بها أهل قشتالة، فراجع أمره غلابا، و حقه ابترازا و استلابا، أو يصرفها و يهادن المسلمين بخلال ما لا يدع جهة من جهات دينه الغريب إلا عقد معها صلحا، و أخذ عليها بإعاتنها إياه عهدا، ثم تفرغ إلى شفاء غليله، و بلوغ جهده، و لا شك أنها تجيبه صرفا لبأسه عن نحورها، و مقارضة كما وقع باطرية من مضيق صدورها، و مؤسف جمهورها، و كل من له دين ما فهو يحرص على التقرب إلى من دانه به و كلفه وظائف تكليف، رجاء لو عده و خوفا من وعيده، و بالله ندفع ما لا نطبق من جموع تداعت من الجزر و وراء البحور و البر المتصل الذى لا تقطعه الرفاق، و لا تحصى ذرعه الحذاق، و قد أصبحنا بدار غريبه، و محل روعة، و مفترس نبوة، و مظنة فتنة، و الإسلام عدده قليل، و منتجعه فى هذه البقعة جديب، و عهده بالإرفاد و الإمداد من المسلمين بعيد، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا [البقرة: ٢٨٦] إلى آخر السورة.

و إذا تداعت أمم الكفر نصره لدينها المكذوب، و حمية لصلبيها المنسوب، فمن يستدعى لنصر دين الله و حفظ أمانه نبيه إلا أهل ذلك الوطن؟ حيث المآذن بذكر الله تعالى تملأ الآفاق، و كلمة الإسلام قد عمت الربا و الوهاد، إنما الإسلام غريق قد تشبث

بأهدابكم، يناشدكم الله في بقیة الرمق، وقبل الرمی تراش السهام، وهذا أوان الاعتناء، واختيار الحماة، وإعداد الأقوات، قبل أن يضيق المجال، وتمنع الموانع، وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مقرراً الضرورة، منها الرغبة، مذكراً بما يقرب عند الله، مذكراً لذمام الإسلام، جالباً على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور، وتسنى الآمال، وتستدعى الدعاء والثناء، فالمؤمن كثير بأخيه، ويد الله مع الجماعة، والمسلمون يد على من سواهم، والمؤمن للمؤمن كالبنیان المرصوص يشد بعضه بعضاً، والتعاون على البر والتقوى مشروع، وفي الذكر الحكيم مذکور، وحق الجار مشهور، وما كان جبریل یوصی به فی الصحيح مكتوب، وكما راع المسلمین اجتماع كلمه الكفر، فخرجوا أن يروّع الكفر من العز بالله، وشدّ الحيازيم في سبيل الله، ونفير النفرة لدين الله، والشعور لحماية الثغور وعمرانها، وإزاحة عائلها، و جلب الأقوات إليها، وإنشاء الأساطيل، و جبر ما تلف من عدة البحر أمور

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٨

تدل على ما وراءها، وتخبر بمشيئة الله تعالى عما بعدها، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى [البقرة: ١٩٦] و من خطب على رضى الله تعالى عنه: أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رهبةً ألبسه الله تعالى سيما الخسف، و سمه بالصغار، و ما بعد الدنيا إلا الآخرة، و ما بعد الآخرة إلا إحدى دارى البقاء، أفى الله شك؟

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الحشر: ٩] والاعتناء بالجبل عنوان هذا الكتاب، و مقدمة هذا الباب، و الغفلة عنه منذ أعوام قد صيرتنا لا- نقتنع باليسير، و قد أبرمته المواعيد، و غير رسومه الانتظار، و من المنقول «ارحموا السائل و لو جاء على فرس» و الإسراف فى الخير أرجح فى هذا المنحل من عكسه، و كان بعض الأجواد يقول و قد أقر: اللهم هب لى الكثير، فإن حالى لا تقوم على القليل، و عسى أن يكون النظر له بنسبة الغفلة عنه، و الامتعاض له مكافئاً للإزراء به، و خلو البحر يغتم لإمداده و إرفاده، قبل أن يثوب نظر الكفر إلى قطع المدد و سد البحر، و من ضيع الحزم ندم، و لا عذر لمن علم، و الله عز و جل يطلع من قبلكم على ما فيه شفاء الصدور، و جبر القلوب، و شعب الصدوع، و ما نقص مال من صدقه، و طعام الواحد كافى الاثنين، و الدين دينكم، و البلاد بلادكم، و محل رباطكم و جهادكم، و سوق حسناتكم، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٧، ٨] و قد قلدنا العهد الحفيظ علينا، المصروف العناية بفضل الله تعالى إلينا، و الله المستعان، و عليه التكلان؛ و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته؛ انتهى.

و فى اعتقادى أن هذا المكتوب للسلطان أبى فارس عبد العزيز بن السلطان أبى الحسن المرينى؛ و أن المراد بالمتغلب الوزير عمر بن عبد الله ظفر به أبو فارس المذكور و استقل بالملك بعد محو أثره؛ حسبما ذكرناه فى غير هذا المحل؛ و الله سبحانه أعلم.

[من إنشاء لسان الدين لاستنهاض صاحب فاس لنصرة الأندلس]

و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه فى استنهاض عزم صاحب فاس السلطان المرينى لنصرة الأندلس، ما نصه: المقام الذى يؤثر حظ الله إذا اختلفت الحظوظ و تعددت المقاصد، و يشرع الأدنى منه إذا تفاضلت المشارع و تمايزت الموارد، و تشمل عادة حلمه و فضله الشارد، و يسع وارف ظله الصادر و الوارد، و الغائب و الشاهد، و يعيد من نصر الله للإسلام العوائد، و يسدّ الذرائع و يدّر الفوائد، مقام محل أحننا الذى حسنت فى الملك سيره، و تعاضد فى الفضل خبره و خبره، و دلت شواهد مداركه للحقوق، و تغمده للعقوق، على أن

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٠٩

الله تعالى لا يهمله و لا يذره، فسلك فخره متسقة درره، و وجه ملكه شادخة غرره، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله رفيعاً علاؤه! هاميةً لديه منن الله تعالى و آلاؤه! مزدانةً بكواكب السعد سماؤه! محروسةً بعز النصر أرجاؤه! مكملًا من

فضل الله تعالى في نصر الإسلام، و كبت عبدة الأصنام، أمله و رجاؤه! معظم قدره الذي يحق له التعظيم، و موقر سلطانه الذي له الحسب الأصيل و المجد الصميم، الداعى إلى الله تعالى بأتصال سعادته حتى ينتصف من عدو الإسلام الغريم، و يتاح على يد سلطانه الفتح الجسيم، فلان.

سلام كريم، طيب عميم، و رحمة الله و بركاته.

أما بعد حمد الله الذي لا- يضيع أجر من أحسن عملا و لا- يخيب لمن أخلص الرغبة إليه أملا و موفى من ترك له حقه أجره المكتوب متمما مكملا، و جاعل الجنة لمن اتقاه حق تقاته نزلا، ملك الملوك الذي جل و علا، و جبار الجبابرة الذي لا يجدون عن قدره محيصا و لا من دونه موثلا، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد الذي أنزل الله تعالى عليه الكتاب مفضيلا، و أوضح طريق الرشده و كان مغفلا، و فتح باب السعادة و لولاه كان مقفلا، و الرضا عن آله و أصحابه، و عترته و أحزابه، الذين ساهموا فيما مرّ و ما حلا، و خلفوه من بعد بالسيرة التي راقت مجتلي، و رفعوا عماد دينه فاستقام لا يعرف ميلا، و كانوا في الحلم و العفو مثلا، و الدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يلقى نصه صريحا لا متأولا، و الصنع الذي يبهر حالا و مستقبلا، و العز الذي يرسو جبلا، و السعد الذي لا- يبلغ أمدا و لا- أجلا، فإننا كتبناه إليكم أصحاب الله تعالى ركابكم حلف التوفيق حلا و مرتحلا، و عرفكم عوارف اليمن الذي يثير جدلا، و يدعو وافد- الفتح المبين فيرد مستعجلا، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى و لا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من التشيع لمقامكم حرس الله تعالى سلطانه، و مهّد أوطانه، إلا الخير الذي نسأل بعده تحسين العقبي، و توالى عادة الرحمي، و الحمد لله على التي هي أزكى، و سدل جناح الستر الأضفى، و صلة اللطائف التي هي أكفل و أكفى، و أبر و أوفى، و مقامكم عندنا العدة التي بها نصول و نرهب، و العمدة التي نطيل في ذكرها و نسهب، و قد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٠

أوفدنا عليكم كل ما زاد لدينا، أو فتح الله تعالى به علينا، و نحن مهما شد المخنق بكم نستنصر، أو تراخى ففى و دكم نستبصر، أو فتح الله تعالى فأبوابكم نهني و نبشر، و قررنا عندكم أن العدو في هذه الأيام توقف عن بلاد المسلمين فلم نصل منه إليها سرية، و لا بطشت له يد جرية، و لا افتترعت من تلقائه ثنية، و لا ندرى أ لمكيدة تدبر، أم آراء تنقض بحول الله و تتبر، أو لشاغل في الباطن لا يظهر، و بعد ذلك وردت على بابنا من بعض كبارهم، و زعماء أقطارهم، مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم في سبيل النصح، لأبياد سلفت منّا لهم قررهما، و رسائل ذكرهما، فلم يخف عنا أنه أمر دبر بليل، و خبيّة تحت ذيل، فظهر لنا أن نسبر الغور، و نستفسر الأمر، فوجهنا إليه، على عادتنا مع سلفه لنعتبر ما لديه، و ننظر إلى بواطن أمره، و نبحت عن زيد قومه و عمره، فتأتى ذلك و جر مفاوضة في الصلح أعدنا لأجلها الرسالة، و استشعرنا البسالة، و وازنا الأحوال و اخترنا، و اعترزنا في الشروط ما قدرنا، و نحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الأفوات المهيأة للانتساف، و تسكن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف، و نفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته، حتى يظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته، و لم نجعل سبب الاعتزاز فيما أردناه، و شموخ الأنف فيما أصدرناه، إلا ما أشعنا من عزمكم على نصره الإسلام، و ارتقاب حقوق الأعلام، و النهوض إلى دعوة الرسول عليه الصلاة و السلام، و أن الأرض حمية لله تعالى قد اهتزت، و النفرة قد غلبت النفوس و استفتزت، و استظهرنا بكتبكم التي تضمنت ضرب المواعد، و شمردت عن السواعد، و أن الخيل قد أطلقت إلى الجهاد في سبيل الله الأعنة، و الثنايا سدتها بروق الأستة، و فرض الجهاد قد قام به المؤمنون، و الأموال قد سمح بها المسلمون، و هذه الأمور التي تمشت بقربها أو بعيدا أحوال الإسلام، و الأمانى المعدة لترجيئة الأيام، ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان من حور العزائم المؤمنة بعد كورها،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١١

و تسويّف مواعد النصره بعد استشعار فورها، و أن الحركة معملة إلى مراکش الجهة التي في يديكم زمامها، و إليكم و إن تراخى الطول ترجع أحكامها، و القطر الذي لا- يفوتكم مع الغفلة، و لا- يعجزكم عن الصولة، و لا- يطلبكم إن تركتموه، و لا- يمنعكم إن

طرقتموه و عركتموه، فسقط في الأيدي الممدودة، و اختلفت المواعيد المحدودة، و خست الأبصار المرتقبة، و رجفت المعائل الأشبه، و ساءت الظنون، و ذرفت العيون، و أكذب الفضلاء الخبر، و نفوا أن يعتبر، و قالوا: هذا لا- يمكن حيث الدين الحنيف، و الملك المنيف، و العلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم، و حمل النصيحة أعناقهم، هذا المفترض الذي يبعد، و القائم الذي يقعد، يأباه الله تعالى و الإسلام، و تأباه العلماء الأعلام، و تأباه المآذن و المنابر، و تأباه الهمم و الأكابر، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبأ الذي إذا كان باطلا فهو الظن، و لله المن، و إن كان خلافه لرأى ترخّج، و تنفّق بقرب الملك و تبجح، فنحن نوفد كل من يقدم إلى الله تعالى بهذا القطر في شفاعه، و يمد إليه كف ضراعه، و من يوسم بصلاح و عباده، و يقصد في الدين بثّ إفاده، يتطارحون عليكم في نقض ما أبرم، و نسخ ما أحكم، فإنكم تجنون به على من استنصركم عكس ما قصد، و تحلون عليه ما عقد، و هب العذر يقبل في عدم الإعانة، و ضرورة الاستعانة و الاستكانة، أى عذر يقبل في الإطراح، و الإعراض الصّراح؟ كأن الدين غير واحد، كأن هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد، كأن ذمام الإسلام غير جامع، كأن الله غير راء و لا سامع، فنحن نسألكم الله الذي تساءلون به و الأرحام، و نأنف لكم من هذا الإحجام، و نتطرح عليكم أن تتركوا حظكم في أهل تلك الجهة حتى يحكم الله بيننا و بين العدو الذي يتكالب علينا بإدباركم، بعد ما تضائل لاستنفاركم و لا نكلفكم غير اقتراب داركم، و ما سامكم المسلمون بها شططا، و لا حملوكم إلا قصدا و سطا، و ما ذهبتم إليه لا- يفوت، و لا- يبعد و قد تجاوزت البيوت، إنما الفئات ما وراءكم، من حديث تأنف من سماعه أودأؤكم، و دين يشمت به أعداؤكم، فأسعفوا بالشفاعة فيمن بتلك الجهة المراكشية قصدنا، و حاشا إحسانكم أن يرى فيه ردنا، و أنتم بعد بالخيار فيما يجريه الله على يديكم من قدره، أو يلهمكم إليه من نصره،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٢

و جوابكم مرتقب بما يليق بكم، و يجمل بحسبكم، و الله سبحانه يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و السلام الكريم عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته.

[و من إنشاء لسان الدين في مخاطبة سلطان فاس أيضا، في المعنى السابق]

و من إنشاء لسان الدين أيضا في مخاطبة سلطان فاس و المغرب على لسان سلطان غرناطة فيما يقرب من الأنحاء السابقة، ما نصه:
المقام الذي أعمار سعده في انتظام و اتساق، و جياذ عزه إلى الغاية القصوى ذات استباق، و القلوب على حبه ذات اتفاق، و عناية الله تعالى عليه مديدة الزواق، و أيديه الجمّة في الأعناق، ألزم من الأطواق، و أحاديث مجده سمر النوادي و حديث الرفاق، مقام محل أينا الذي شأن قلوبنا الاهتمام بشأنه، و أعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله تعالى و الصنائع الإلهية تحط ببابه، و الألفاظ الخفية تعرس في جنبه، و النصر العزيز يحفّ بركابه، و أسباب التوفيق متصلّة بأسبابه، و القلوب الشجية لفرقه مسرورة باقترابه، معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتموة، و الفواضل المشهورة المعلومة، و المكارم المسطورة المرسومة، و المفخر المنسوقة المنظومة، الداعي إلى الله تعالى في وقاية ذاته المعصومة، و حفظها على هذه الأمة المرحومة، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

سلام كريم، طيب برّ عميم، كما سطعت في غيب الشدة أنوار الفرج، و هبت نواسم أطاف الله عاطرة الأرج، يخص مقامكم الأعلى، و رحمة الله و بركاته.

أما بعد حمد الله جالى الظلم بعد اعتكارها، و مقيل الأيام من عثارها، و مزين سماء الملك بشموسها المحتجبة و أقمارها، و مريح القلوب من وحشة أفكارها، و منشئ سحاب الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها، و شدة اضطرابها و اضطرارها، و متداركها باللطف الكفيل بتمهيد أوطانها و تيسير أوطارها، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد رسوله صفوة النبوة و مختارها، و لباب مجدها السامى و نجارها، نبى الملاحم و خائض تيارها، و مذهب رسوم الفتن و مطفى نارها، الذى لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها، حتى

بلغت كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها، و وضوح آثارها، و الرضا عن آله و أصحابه الذين تمسكوا بعهدده على إجلاء الحوادث و إمرارها، و باعوا نفوسهم في إعلاء دعوته الحنيفية و إظهارها، و الدعاء لمقامكم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٣

الأعلى باتصال السعادة و استمرارها، و انسحاب العناية الإلهية و إسدال أستارها، حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها، و تعرض على مشابكتكم ذنوبها رغبة في اغتفارها، فإننا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحى الملوك من مواهب إسعاده، و عزفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع و إيراده، و أرجى الفلك الدوار بحكم مراده، و جعل العاقبة الحسنى كما وعد به محكم كتابه المبين للصالحين من عباده، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى، و ليس بفضل الله الذى عليه فى الشدائد الاعتماد، و إلى كنف فضله الاستناد، ثم ببركة جاه نبينا الذى وضح بهدايته الرشاد، إلا الصنائع التى تشام بوارق اللطف من خلالها، و تخبر سيماها بطلوع السعود و استقبالتها، و تدلّ مخايل يمنها على حسن مآلها، لله الحمد على نعمه التى نرغب فى كمالها، و نستدرّ عذب زلالها، و عندنا من الاستبشار باتساق أمركم و انتظامه، و السرور بسعادة أيامه، و الدعاء إلى الله تعالى فى إظهاره و إتمامه، ما لا تفى العبارة بأحكامه، و لا تتعاطى حصر أحكامه، و إلى هذا أيد الله تعالى أمركم و علاه، و صان سلطانكم و تولاه، فقد علم الحاضر و الغائب، و خلص الخلوص الذى لا غيره الشوائب، ما عندنا من الحب الذى وضحت منه المذاهب، و أننا لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التى صحبت مقامكم فيها العناية من الله و العصمة، و جعل على العباد و البلاد الوقاية و النعمة، لا يستقر بقلوبنا القرار، و لا تتأتى بأوطاننا الأوطار، تشوّفا لما تتيحه لكم الأقدار، و يبرزه من سعادتكم الليل و النهار، و رجاؤنا فى استئناف سعادتكم يشتد على الأوقات و يقوى، علما بأن العاقبة للتقوى، و فى هذه الأيام عميت الأنباء، و تكالبت فى البر و البحر الأعداء، و اختلفت الفصول و الأهواء، و عاقت الوارد الأنواء، و على ذلك من فضل الله الرجاء، و لو كنا نجد للاتصال بكم سببا، أو نلقى لإعانتكم مذهباً، لما شغلنا البعد الذى بيننا اعترض، و العدو بساحتنا فى هذه الأيام ربض، و كان خديمكم الذى رفع من الوفاء راية خافقه، و افتنى منه فى سوق الكساد بضاعة نافقه، الشيخ الأجل الأوفى، الأود الأخلص الأصفى، أبو محمد ابن أحبانا سنى الله مأموله، و بلغه من سعادة أمركم سوله، و قد ورد على باننا، و تحيز إلى اللحاق

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٤

بجناننا، ليتيسر له من جهتنا القدوم، و يتأتى له بإعانتنا الغرض المروم، فبينما نحن نظرفى تميم غرضه، و إعانته على الوفاء الذى قام بمفترضه، إذ اتصل بنا خبر قرقوريتين من الأجفان التى استعتم بها على الحركة، و العزيمة المقترنة بالبركة، حطت إحدهما بمرسى المنكب و الأخرى بمرسى المريّة، فى كنف العناية الإلهية، فتلقينا من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها، و الأخبار التى يغنى نصّها عن قياسها، و تعرفنا ما كان من عزمكم على السفر، و حركتكم المعروفة باليمن و الظفر، و أنكم استخرتم الله تعالى فى اللحاق بالأوطان التى يؤمن قدومكم خائفها، و يؤلف طوائفها و يسكن راجفها، و يصلح أحوالها، و يسكن أهوالها، و أنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور، و السعد الموفور، و اليمن الرائق السفور، و الأسطول النصور، فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها، و نهوض طيور الرجاء من وكونها، و استبشار الأمة المحمدية منكم بقره عيونها، و تحقق ظنونها، و ارتياح البلاد إلى دعوتكم التى ألبستها ملابس العدل و الإحسان، و قلدها قلائد السير الحسان، و ما منها إلا من باح بما يخفيه من وجده، و جهر بشكر الله تعالى و حمده، و ابتهل إليه فى تيسير غرض مقامكم الشهير و تميم قصده، و استثناس نور سعده، و كم مطل الانتظار بديون آمالها، و المطاولة من اعتلالها، و أما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنوّ حبيبه، بعد طول مغيبه، إنما هو صدر راجعه فؤاده، و طرف ألفه رقادته، و فكر ساعده مراده، فلما بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخديمكم المذكور من الوعد، و اغتئمنا ميقات هذا السعد، ليصل سببه بأسبابكم، و يسرع لحاقه بجنانكم، فعنده خدم نرجو أن ييسر الله تعالى أسبابها، و يفتح ببيتكم الصالحة أبوابها، و قد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذى ندين له بالتشيع الكريم الودد، و نصل له على بعد المزار و نزوح الأقطار سبب الاعتداد، ما يغنى عن القلم

و المداد، و قد ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد، و كتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحدّ لهم ما يكون عليه عملهم في برّ من يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمة، ذات الحقوق العظيمة و الأيادي الحديثة و القديمة، و هم يعملون في ذلك بحسب المراد، و على شاكلة جميل الاعتقاد، و يعلم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٥

اللّه تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة، و الموانع الكثيرة، و الاعداء الذين دهيت بهم في الوقت هذه الجزيرة، ما قدمنا عملا على اللحاق بكم، و الاتصال بسبيكم، حتى نوفي لأبوتكم الكريمة حقها، و نوضح من المسرة طرقها، لكن الأعداء واضحة و ضوح المثل السائر، و الله العالم بالسرائر، و إلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح لكم من التيسير طريقا، يجعل السعد لكم مصاحبا و رفيقا، و لا يعدمكم عناية منه و توفيقا، و يتم سرورنا عن قريب بتعرف أنبائكم السارة، و سعودكم الدارة، فذلك منه سبحانه غاية آمالنا، و فيه إعمال ضراعتنا و ابتهالنا، هذه ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرع البدار، و الله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار، بسعادة ملككم السامى المقدار، و ييسر ماله من الأوطار، و يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته، انتهى.

و كان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور الأندلس و سلاطين فاس كثيرة ما يدسّ لأقارب الملوك القيام على صاحب الأمر، و يزين له الثورة، و يعده بالإمداد بالمال و العدة، و قصده بذلك كله توهين المسلمين، و إفساد تدبيرهم، و نسخ الدول بعضها ببعض، لما له في ذلك من المصلحة، حتى بلغ أبعده الله تعالى من أمله الغاية.

[كتاب آخر من سلطان الأندلس إلى سلطان فارس (إنشاء لسان الدين)]

و من إنشاء لسان الدين بن الخطيب - رحمه الله تعالى! - عن سلطان الأندلس إلى سلطان فاس المريني، يعتذر عن فرار الأمير أبي الفضل المريني الذي كان معتقلا بغرناطة، فتحيل الطاغية في أمره حتى خرج طالبا للملك، ما نصه:

المقام الذى شهد الليل و النهار بأصالة سعادته، و جرى الفلك الدوّار بحكم إرادته، و تعود الظفر بمن يناويه فاطرد و الحمد لله جريان عادته، فولّيه متحقق لإفادته، و عدوه مرتقب لإبادته، و حلل الصنائع الإلهية تضفو على أعطاف مجادته، مقام محل أخينا الذى سهم سعده صائب، و أمل من كاده خاسر خائب، و سير الفلك المدار فى مرضاته دائب، و صنائع الله تعالى له تصحبها الألفاظ العجائب، فسيان شاهد منه فى عصمة و غائب، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله تعالى مسدّد السهم! ماضى العزم! تجل سعوده عن تصور الوهم! و لا زال مرهوب الحد ممثّل الرسم! موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسم! فائزا بفلج الخصام عند لد الخصم! معظم قدره، و ملتزم بره، المبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره، و إظهار أمره، فلان.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٦

سلام كريم، طيب برعميم، يخص مقامكم الأعلى، و مثابتمكم الفضلى، التى حازت فى الفخر الأمد البعيد، و فازت من التأييد و النصر بالحظ السعيد، و رحمة الله تعالى و بركاته.

أما بعد حمد الله الذى فسح لملككم الرفيع فى العزم مدى، و عرفه عوارف آلائه و عوائد النصر على أعدائه يوما و غدا، و حرس سماه علائه بشهب ما قدره و قضائه فَمَنْ يَشْتَمِعِ الآنَّ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصِداً [الجن: ٩] و جعل نجح آماله و حسن مآله قياسا مطردا، فربّ مرید ضره ضر نفسه و هاد إليه أهدي و ما هدى، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد نبيه و رسوله الذى ملأ الكون نورا و هدى، و حيا مراسم الحق و قد صارت طرائق قدا، أعلى الأنام يدا، و أشرفهم محتدا، الذى بجاهه نلبس أثواب السعادة جديدا، و نظفر بالنعيم الذى لا ينقطع أبدا، و الرضا عن آله و أصحابه الذين رفعوا لسماء سنته عمدا، و أوضحوا من سبيل اتباعه مقصدا، و تقبلوا شيمه الطاهرة ركعا و سجدا، سيوفا على من اعتدى، و نجومنا لمن اهتدى، حتى علت فروع ملته سعدا، و أصبح بناؤها مديدا مخلدا، و الدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذى يتوالى مثنى و موحدا، كما جمع لملككم ما تفرق من الألقاب، على توالى الأحقاب، فجعل سيفكم

سفاحا و علمكم منصورا و رأيكم رشيدا و عزمكم مؤيدا، فإننا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم صنعا يشرح للإسلام خلدا، و نصرا يقيم للدين الحنيف أودا، و عزما يملأ أفئدة الكفر كمداء، و جعلكم ممن هيا له من أمره رشدا، و يسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به فى كتابه العزيز و الله أصدق موعدا، من حمراء غرناطة حرسها الله و لا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعودكم فى آفاق العناية، و اعتقاد جميل صنع الله فى البداية و النهاية، و العلم بأن ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بأية، و أجرى جياذ السعد فى ميدان لا يحد بغاية، و خرق حجاب المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب الكرامة و الولاية، و نحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عطفاء، و يسدل عليه من العصمة سجفا نقاسمه الارتياح

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٧

لمواقع نعم الله تعالى نصفا و نصا، و نعقد بين أبناء مسرته و بين الشكر لله حلقا، و نعدّ التشيع له مما يقربنا إلى الله زلفى، و تؤمل من إمداده و نرتقب من جهاده وقتا يكفل به الدين و يكفى، و تروى غلل النفوس و تشفى، و إلى هذا وصل الله سعدكم، و والى نصركم و عضدكم، فإننا من لدن صدر عن أخيكم أبى الفضل ما صدر من الانقياد لخدع الآمال، و الاغترار بموارد الآل، و قال رأيه فى اقتحام الأهوال، و تورط فى هفوة حار فيها حيرة أهل الكلام فى الأحوال، و ناصب من أمركم السعيد جبلا- قضى الله له بالاستقراء، و الاستقبال، و من ذا يزاحم الأطواد و يزحج الجبال؟ و أخلف الظن منا فى وفائه، و أضمر عملا استأثر عنا بإخفائه، و استعان من عدو الدين بمعين قلما يورى لمن استنصر به رند، و لا- خفق لمن تولاه بالنصر بند، و إن الطاغية أعانه و أنجده و رأى أنه سهم على المسلمين سدده و غضب للفتنة جرده، فسخر له الفلك، و أمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك، فأورده الهلك و الظلم الحلك، علمنا أن طرف سعادته كاب، و سحاب آماله غير ذات انسكاب، و قدم عزته لم يستقر من السداد فى غرز ركاب، فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط بتياتها، و غايات الأمور تظهر فى بداياتها، و عوائد الله تعالى فىمن نازع قدرته لا تجهل، و من غالب أمر الله خاب منه المعول، فىنما نحن نرتقب خسار تلك الصفة المعقودة، و خمود تلك الشعلة الموقودة، وصلنا كتابكم يشرح الصدور و يشرح الأخبار، و يهدى طرف المسرات على أكف الاستبشار، و يعرب بلسان حال المسارعة و الابتدار، عن الود الواضح و وضوح النهار، و التحقق بخلوصنا الذى يعلمه عالم الأسرار، فأعاد فى الإفادة و أبدى، و أسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى، فعلم منه مآل من رام أن يقدح زند الشتات من بعد الالتئام، و يثير عجاجة المنازعة من بعد ركود القتام، هيهات تلك قلادة الله تعالى التى ما كان يتركها بغير نظام، و لم يدر أنكم نصبتم له من الحزم حباله لا يفلتها قيص، و سدّتم له من السعد سهما ما له عنه من محيص، بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد فى مطاره، حائلا- بينه و بين أوطاره، فما كان إلا التسمية و الإرسال، ثم الإمساك و القتال، ثم الاقتيات و الاستعمال، فيا له من زجر استنطق لسان الوجود فجده، و استنصر البحر فخذله، و صارع القدر فجده لما جد له، و إن خدامكم استولوا على ما كان فيه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٨

من مؤمل غاية بعيدة، و منتسب إلى نسبة غير سعيدة، و شانىء غمرته من الكفار، خدام الماء و أولياء النار، تحكمت فىهم أطراف العوالى و صدور الشّفار، و تحصل منهم من تخطاه الحمام فى قبضة الإسار، فعجبنا من تيسير هذا المرام، و إخماد الله لهذا الضّرام، و قلنا: تكييف لا يحصل فى الأوهام، و تسديد لا تستطيع إصابته السهام، كلما قدح الخلاف زندا أطفأ سعدكم شعلته، أو أظهر الشتات ألما أبرأ يمن طائرهم علتة، ما ذاك إلا- لنية صدقت معاملتها فى جنب الله تعالى و صحت، و استرسلت بركتها و سحت، و جهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلهم و تمت، و اهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التى أهّمت، فنحن نهنيكم بمنح الله و مننه و نسأله أن يلبسكم من إعانته أوقى جننه، فأملنا أن تطرد آمالكم، و تنجح فى مرضاة الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة التى يدفع العدوّ بسلاحها، و تنبلج ظلمات صفاحها، و كيف لا نهنيكم بصنع على جهتنا يعود، و بأفاقنا تطلع منه السعود، فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذى رسومه قد استقلت و اكتفت، و ديمه بساحة الود قد و كفت، و الله عز و جل يجعل لكم الفتوح عادة، و لا يعدمكم عناية و سعادة، و هو سبحانه

يعلى مقامكم، و ينصر أعلامكم، و يهنى الإسلام أيامكم، و السلام الكريم يخصكم، و رحمة الله و بركاته. انتهى.

و كان سلطان الأندلس فى الأزمان المتأخرة كثيرا ما يشم أرج الفرج فى سلم الكفار و مهادنتهم، حيث لم يقدر فى الغالب على مقاومتهم، و لذلك لما قتل السلطان أبو الحجاج الذى كان لسان الدين كاتبه و وزيره، و قام بالأمر بعده ابنه محمد الغنى بالله الذى ألقى مقاليد لسان الدين - أكد أمر السلم، و انتظم ما يبرمه القضاء الجزم، و القدر الحتم.

[و من إنشاء لسان الدين على لسان الفتى مخاطبا لسلطان فاس و المغرب أبى عنان]

و من إنشاء لسان الدين فى ذلك على لسان الغنى مخاطبا لسلطان فاس و المغرب أبى عنان ما صورته:

المقام الذى يغنى عن كل مفقود بوجوده، و يهز إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده، و نستضىء عند إظلام الخطوب بنور سعوده، و نرث من الاعتماد عليه أسنى ذخر يرثه الولد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣١٩

عن آباءه و جدوده، مقام محل أبينا الذى رعى الأذمة شأنه، و ضلله الرعى سجية انفرد بها سلطانه، و مواعد النصر ينجزها زمانه، و القول و الفعل فى ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة و لسانه، و تطابق فيهما إسراره و إعلانه، السلطان الكذا بين السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله تعالى محروسا من غير الأيام جنبه، موصوله بالوقاية الإلهية أسبابه، مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله تعالى و حجاب، مصروفا عنه من صروف القدر ما يعجز عن رده بؤابه، و لا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التى تدخرها لأولادها أولياؤه و أحبابه، و يسطر فى صحف الفخر ثوابه، و تشتمل على مكارم الدين و الدنيا أثوابه، و تتكفل بنصر الإسلام و جبر القلوب عند طوارق الأيام كتائبه و كتآبه، معظم ما عظم من حقه السائر من إجلاله و شكر خلاله على لاحب طرقة، المستضىء فى ظلمة الخطب بنور أفقه، الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر.

سلام كريم، طيب بر عميم، يخص مقامكم الأعلى، و رحمة الله تعالى و بركاته.

أما بعد حمد الله الذى لا راد لأمره و لا معارض لفعله، مصرف الأمر بقدرته و حكمته و عدله، الملك الحق الذى بيده ملاك الأمر كله، مقدر الآجال و الأعمال فلا يتأخر شىء عن ميقاته و لا يبرح عن محله، جاعل الدنيا مناخ قلعة لا يغتبط العاقل بمائه و لا بظله، و سبيل رحله فما أكتب ظعنه من حله، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد صفوة خلقه و خيرة أنبيائه و سيد رسله، الذى نعتم بسببه الأقوى و نتمسك بحبله، و نمد يد الافتقار إلى فضله، و نجاهد فى سبيله من كذب به أو حاد عن سبله، و نصل إليه ابتغاء مرضاته و من أجله، و الرضا عن آله و أحزابه و أنصاره و أهله، المستولين من ميدان الكمال على خصله، و الدعاء لمقامكم الأعلى بعز نصره و مضاء فضله، فإننا كتبنا إليكم - كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها، و عصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فوّقها الدهر و رماها، و عناية لا تغير الحادث اسمها و لا مسماها، و عزا يزاحم أجرام الكواكب منتماها! - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى و نعم الله سبحانه تتواتر لدينا دفعا و نفعا، و أطفاه نتعرفها و ترا و شفعا،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٠

و مقامكم الأبوى هو المستند الأقوى، و المورد الذى ترده آمال الإسلام فتروى، و تهوى إليه أفئدتهم فتجد ما تهوى، و مثابتم العدة التى تأسست مبانيها على البر و التقوى، و إلى هذا وصل الله تعالى سعدكم، و أبقى مجدكم، فإننا لما نعلم من مساهمة مجدكم التى تقتضيها كرام الطباع و طباع الكرم، و تدعو إليها ذم الرعى و رعى الذمم، نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه، و إمتاع المسلمين ببقائه، بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالشهادة، التى ألبسه حلتها، و الشهادة التى فى أعماله الزكية كتبها، و الدرجة العالية التى حتمها له و أوجبها، و بما تصير إلينا من أمره، و ضم بنا من نشره، و سدل على من خلفه من ستره، و إنها لعبرة لمن ألقى السمع، و موعظة تهز الجمع و ترسل الدمع، و حادثة أجمل الله سبحانه فيها الدفع، و شرح مجملها و إن أخرس اللسان

هولها، وأسلم العبارة قوتها و حولها، أنه رضى الله تعالى عنه لما برز لإقامته سنة هذا العيد، مستشعرا شعار كلمة التوحيد، مظهرها سمة الخضوع للمولى الذى تضرع بين يديه رقاب العبيد، آمنا بين قومه وأهله، متسرّبا في حلل نعم الله تعالى وفضله، قرير العين باكمال عزه واجتماع شمله، قد احترس بأقصى استطاعته، واستظهر بخلصان طاعته، والأجل المكتوب قد حضر، والإرادة الإلهية قد أنفذت القضاء والقدر، وسجد بعد الركعة الثانية من صلاته، أتاه أمر الله لميقاته، على حين الشباب غضّ جلابه، والسلاح زاخر عبابه، والدين بهذا القطر قد أئيع بالأمن جنابه، وأمر من يقول للشىء كن فيكون قد بلغ كتابه، ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب، إلبا شقى قيضه الله لسعادته غير معروف ولا منسوب، وحيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب، تخلّل الصفوف المعقودة، وتجاوز الأبواب المسدودة، وخاض الجموع المشهودة، والأمم المحشورة إلى طاعة الله المحشودة، لا تدل العين عليه شارة ولا بزة، ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة، وإنما هو حيث ممرور، و كلب عقور، وحية سمها وحي محذور، وآله مصرفة لينفذ بها قدر مقدور، فلما طعنه وأثبته، وأعلق به

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢١

شرك الحين فما أفلته، قبض عليه من الخالصان الأولياء من خبر ضميره، وأحكم تقريره، فلم يجب عند الاستفهام جوابا يعقل، ولا عثر منه على شىء عنه ينقل، لطفنا من الله أفاد براءة الذمم، وتجاوزته للحين أيدى التمزيق، وأتبع شلوه بالتحريق، واحتمل مولانا الوالد رحمه الله تعالى إلى القصر وبه ذم لم يلبث بعد الفتنة العمرية إلا أيسر من اليسير، وتخلّف الملك ينظر من الطرف الحسير، ينهض بالجنح الكسير، وقد عاد جمع السلامة إلى التكسير، إلا أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب بأن أقامنا مقامه لوقته وحينه، ورفع بناء عماد ملكه ولم شعث دينه، وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم، وأعلامهم ولفيفهم، قد جمعه ذلك الميقات، وحضر الأولياء الثقات، فلم تختلف علينا كلمة، ولا شذت منهم عن بيعتنا نفس مسلمة، ولا أخيف برى، ولا حذر جرى، ولا فرى فرى، ولا وقع لبس، ولا استوحشت نفس، ولا نبض للفتنة عرق، ولا أغفل للدين حق، فاستند النقل إلى نصه، ولم يعد من فقيدنا غير شخصه، وبادرنا إلى مخاطبة البلاد نمهدا ونسكنها، ونقرر الطاعة فى النفوس ونمكنها، وأمرنا الناس بها بكف الأيدى، ورفع التعدي، والعمل من حفظ شروط المسالمة المعقودة بما يجدى، ومن شره منهم للفرار، وعاجلناه بالإنكار، و صرفنا على النصارى ما أوصاه مصحبا بالاعتذار، وخاطبنا صاحب قشتالة نرى ما عنده فى صلته السلم إلى أمدها من الأخبار، واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار، وعفى على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار، واستبقوا تطير بهم أجنحة الابتدار، جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار، وكان على حذر من تصاريق الأقدار، واختلاف الليل والنهار، وأعاننا على إقامة دينه فى هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو والطاغى والبحر الزخار، وألهمنا من شكره ما يتكفل بالمزيد من نعمه، ولا قطع عنا عوائد كرمه، وإن فقدنا والدنا فأنتم لنا من بعده الوالد، والذخر الذى تكرم منه العوائد، والحب يتوارث كما ورد فى الأخبار التى صحت منها الشواهد، ومن أعدّ مثلكم لبنيه، فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه، وتأسست قواعد ملكه وتشيدت مبانيه، والاعتقاد الجميل موصول، والفروع لها فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٢

التشيع إليكم أصول، وفى تقرير فخركم محصول، وأتم رداء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذى يعينهم بإرفاده، وينصرهم بإنجاده، ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده.

وعندما استقر هذا الأمر الذى تبعت المحنة فيه المنحة، وراقت من فضل الله تعالى و لطفه فيه الصفحة، وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم، وتزاحمت على رفقها المنشور خطوط أيمانهم، وتأصلت قواعد ألفاظها ومعانيها فى قلوبهم و آذانهم، وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم، بادرنا تعريف مقامكم الذى نعلم مساهمته فيما ساء و سر وأحلى وأمر، عملا- بمقتضى الخلوص الذى ثبت واستقر، والحب الذى ما مال يوما ولا ازورّ وما أحق تعريف

مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور، و انجلاء ليله عن صبح الصنع البادى السفور، و إن كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر إعلامكم بالأمر، إلا أنه أمر له ما بعده، و حادث يأخذ حدّه، و نبعث إلى بابكم من شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأى العيان، و تولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة و مقاصده الحسان، ليكون أبلغ فى البر و أشرح للصدر و أوعب للبيان، فوجهنا إليكم وزير أمرنا، و كاتب سرنا، الكذا أبا فلان، و ألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى، و استنادنا من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبنى، ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأعنى، و الثمرة العذبة المجنى، فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذى هو أساس بنائنا، و قاع أعدائنا، آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه، و مدار الحال عليه، و المرغوب من أبتوكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالى، و الخلافة السامية المعالى، و الله عز و جل يديم أيامكم لصله الفضل المتوالى، و يحفظ مجدكم من غير الأيام و الليالى، و هو سبحانه يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و يوالى نصركم و عضدكم، و السلام الكريم يخصصكم، و رحمة الله و بركاته. انتهى.

و قوله فى هذه الرسالة «فوجهنا إليكم وزير أمرنا- إلى آخره» هو لسان الدين رحمه الله تعالى! إذ هو كان الوزير إذ ذاك و السفير فى هذه القضية، و من صفحات هذا الكلام يتضح لك ما نال لسان الدين رحمه الله تعالى من الرياسة و الجاه و نفوذ الكلمة بالأندلس و بالمغرب

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٣

رحمه الله تعالى! و قد أكرمه السلطان أبو عنان فى هذه الوفاة و غيرها غاية الإكرام، و كان المقصود الأعظم من هذه الوفاة استعانة سلطان الأندلس الغنى بالله بالسلطان أبى عنان على طاغية النصارى، كما ألمعنا بذلك فى الباب الثانى من القسم الثانى الذى تعلق بلسان الدين.

و كان السلطان أبو عنان ابن السلطان أبى الحسن معنيا بالأندلس غاية الاعتناء، و خصوصا بجبل الفتح، حتى إنه بلغ من اعتناؤه به أن أمر عليه ولده أبا بكر السعيد، و هو الذى تولى الملك بعده.

و من إنشاء لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى على لسان سلطانه ما خاطب به الأمير السعيد المذكور إذ قلده والده جبل الفتح، و هو:

الإمارة التى أشرق فى سماء الملك شهابها، و اتصلت بأسباب العز أسبابها، و اشتملت على الفضل و الطهارة أثوابها، و أجيلت قداح المفاخر فكان إلى جهة الله تعالى انتدابها، إمارة محلّ أحنينا الذى تأسس على مرضاء الله تعالى أصيل فخره، و اتّسم بالمرابط المجاهد على اقتبال سنه و جدّه عمره، و بدأ بفضل الجهاد صحيفة أجره، و افتتح بالرباط و الصلاح ديوان نهيه و أمره، لما يسيّره من سعادة نصيبته و حباه من عز نصره، الأمير الأجل الأعز الأرفع الأسنى الأطهر الأظهر الأيمن الأصعد الأسمى الموفق الأرض، محلّ أحنينا العزيز علينا، المهداة أبناء مأمول جواره إلينا، أبى بكر السعيد ابن محلّ والدنا الذى مقاصده للإسلام و أهله على مرضاء الله تعالى جارية، و عزائمه على نصر الملة الحنيفة متبارية، السلطان الكذا أبو عنان ابن السلطان الكذا أبى الحسن ابن السلطان الكذا أبى سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق، أبقاه الله تعالى سديدة آراؤه ناجحة أعماله، ميسرة أغراضه من فضل الله تعالى متممة آماله، رحيبا فى العدل مجاله، يكنفه من الله تعالى و محلّ أينا غمام و ارفه ظلاله، هامر نواله، حتى يرضى الله تعالى مصاعه بين يديه و مصاله، و تمضى فى الأعداء أمام رايته المنصورة نصاله، أخوه المسرور بقربه، المنطوى على مضمربه، أمير المسلمين محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٤

سلام كريم، طيب بر عميم، يخص أحوّتكم الفضلى، و إمارتكم التى آثار فضلها بحول الله تعالى، و رحمة الله تعالى و بركاته. أما بعد حمد الله على ما كيف من أطفاه المشرقة الأنوار، و يسيّره لهذه الأوطان بنصرته من الأوطار، فكلما دجت بها شدة طلع الفرج عليها طلوع النهار، و كلما اضطرب منها جانب أعاده بفضل الله تعالى من أقامه لذلك و اختاره إلى حال السكون و القرار، و الصلاة و

السلام على سيدنا و مولانا محمد رسوله المصطفى المختار، الذى أكد عليه جبريل صلوات الله عليه حقّ الجوار، حتى كاد يلحقه بالوسائل و القرب الكبار، الذى وصانا بالالتئام، و اتصال اليد فى نصره الإسلام، فنحن نقابل وصاته بالبدار، و نجري على نهجه الواضح الآثار، و نرتجى باتباعه الجمع بين سعادة هذه الدار و تلك الدار، و الرضا عن آله و أصحابه، و أنصاره و أحزابه، أكرم الآل و الأصحاب و الأحزاب و الأنصار، الذين كانوا كما أخبر الله تعالى عنهم على لسان الصادق الأخبار «رحماء بينهم أشداء على الكفار» و الدعاء لإمارتكم السعيدة بالتوفيق الذى تجرى به الأمور على حسب الاختيار، و العز المنيع الذّمار، و السعد القويم المدار، و الوقاية التى يأمن بها أهلها من الشرار، فإننا كتبناهم إليكم كتب الله تعالى لكم أسنى ما كتب للأمرء الأرضياء الأخيار، و متعكم من بقاء والدكم بالعدة العظمى و السيرة الرحمى و الجلال الرفيع المقدار، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى و لا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا و مولانا محمد رسوله صلى الله عليه و سلم الذى أوضح برهانه إلا ألطاف باهرة، و عناية من الله تعالى باطنه و ظاهره، و بشاره بالقبول واردة و بالشكر صادرة، و الله تعالى يصل لدينا نعمه، و يوالى فضله و كرمه، و إلى هذا فإننا اتصل بنا فى هذه الأيام ما كان من عناية والدكم محلّ أئبنا أبقاه الله تعالى بهذه البلاد المستندة إلى تأميل مجده، و إقطاعها الغاية التى لا فوقها من حسن نظره و جميل قصده، و تعيينكم إلى المقام بجبل الفتح إبلاغاً فى اجتهاده الدينى و جدّه، فقلنا:

هذا خبر إن صدق مخبره، و تحصل منتظره، فهو فخر تجددت أثوابه، و اعتناء تفتحت أبوابه، و عمل عند الله تعالى ثوابه، فإن الأندلس عصمها الله تعالى و إن أنجدته عدده و أمواله، و نجحت فى نصرها مقاصده الكريمة و أعماله، لا تدرى موقع النظر لها من نفسه، و زيادة يومه فى العناية

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٥

على أمسه، حتى يسمح لها بولده، و يخصها بقره عينه و فلذة كبده، فلما ورد منه الخبر، الذى راقت منه الحبر، و وضحت من سعادته الغرر، بإجازتكم البحر، و اختياركم فى حال الشبيبة الفخر، و صدق مخيلة الدين فيكم، و استقراركم فى الثغر الشهير الذى افتتحه سيف جدّكم و استنقذه سعد أبيكم، سررنا بقرب المزار، و دنوّ الدار، و قابلنا صنع الله تعالى بالاستبشار، و وثقنا و إن لم نزل على ثقة من عناية الله تعالى و عناية محل والدنا بهذه الأقطار، و حمدنا الله تعالى على هذه الآلاء المشرقة، و النعم المغدقة، و الصنائع المتألقة، بادرنا نهئى أخوتكم أو لا بما يسره الله تعالى لكم من سلامة المجاز، ثم بما منحكم الله تعالى من فضل الاختصاص بهذا الغرض و الامتياز، فإمارتكم الإمارة التى أخذت بأسباب السماء، و ركبت إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى جياذ الخيل و الماء، و أصبحت على حال الشبيبة شجا فى حلق الأعداء، و نحن أحق بهذا الهناء، و لكنها عادة الود و سنّة الإخاء، فالله عز و جل يجعله مقدما ميمون الطائر، متهلل البشائر، تتهلل بصنع الله بعده و جوه القبائل و العشائر، و يجرى خبر سعادتكم مجرى المثل السائر، و يشكر محل والدنا فيما كان من اختياره، و مزيد إيثاره، و يجازيه جزاء من سمح فى ذاته بمظنة ادّخاره، و مذ رأينا أن هذا الغرض لا يجتري فيه بالكتابة، دون الاستنابة، و جهنا لكم من يقوم بحقه، و يجرى من تقرير ما لدينا على أوضح طريقة، و هو القائد الكذا، و مجدكم يصغى لما يليه، و يقابل بالقبول ما من ذلك يؤديه، و الله تعالى يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و السلام.

و كان الطاغية الملعون أيام السلطان أبى عنان رحمه الله تعالى نازل جبل الفتح ثم كفى الله تعالى شره فى ذلك التاريخ.

[و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب أبى عنان سلطان المغرب]

و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب أبى عنان سلطان فاس و المغرب و ذلك بما نصه:
المقام الذى رمى له الملك الأصيل بأفلاذه، و أدّى منه الإسلام إلى ملجئه الأحمى و ملاذه، و كفلت السعود يامضاء أمره المطاع و إنفاذه، و شأى حلبة الكرم فكان و حيد آحاده و فدّ أفذاذه، و ابتدع غرائب الجود فقال لسان الوجود: نعمت البدعة هذه، مقام محل أحيينا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٦

الذى أركان مجده راسية راسخه، و غرر عزه بادية باذخه، و أعلام فخره سامية شامخه، و آيات سعده محكمة ناسخه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله تعالى يجرى بسعده الفلك، و يجلى بنور هديه الحلک، و يسطر حسنات ملكه الملك، و يشهد بفضل بأسه و نداء النادى و المعترك، معظم حقوقه التى تأكد فرضها، المثنى على مكارمه التى أعيا الأوصاف البليغة بعضها، أمير المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

سلام كريم، طيب برّ عميم، يخص أخوتكم الفضلى، و رحمه الله و بركاته.

أما بعد حمد الله الذى هيا لمة الإسلام، بمظاهرة ملككم المنصور الأعلام، إظهارا و إعزازا، و جعل لها العاقبة الحسنى يمين مقامكم الأسنى تصديقا لدعوة الحق و إنجازا، و سهل لها بسعدهم كل صعب المرام و قد سامتها صروف الأيام ليا و إعوازا، و أتاح لها منكم ولنا يسوم أعداءها استلابا و ابتزازا، و يسكن آمالها و قد استشعرت انحفازا، حمدا يكون على حلل النعم العميمة و الآلاء الكريمة طرازا، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد رسوله الذى بهرت آياته و ضوحا و إعجازا، و استحقت الكمال صفاته حقيقة لا مجازا، و نبيه الذى بين للخلق أحكام دينه الحق امتناعا و جوازا، و يسّر لهم و قد ضلوا فى مفاوز الشك مفازا، و الرضا عن آله و أصحابه المستولين على ميادين فضائل الدنيا و الدين اختصاصا بها و امتيازها، فكانوا غيوثا إن وجدوا محلا و ليوثا إن شهدوا برازا و الدعاء لمقام أخوتكم الأسمى بنصر على أعدائه تبدى له الجياد الجرد ارتياحا و الرماح الملد اهتزازا، و عز يظاً من أكناف البسيطة و أرجائها المحيطة سهلا و عزازا، و يمن يشمل من بلاد الإيمان أقطارا نازحه و يعم أحوازا، و سعد تجول فى ميدان ذكره المذاع أطراف ألسنة الرياح إسهابا و إيجازا، و فخر يجوب جيوب الأقطار جوب المثل السيار عراقا و حجازا، و لزال كتائب سعده تنتهز فرص الدهر انتهازا، و توسع مملكات

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٧

الكفر انتهابا و احتيازا، فإننا كتبناه إلى مقامكم كتب الله تعالى لكم سعدا ثابت المراكز، و عزا لا تلين قناته فى يد الغامز، و ثناء لا يثنى عنان سراه عرض المفاوز، و صنعا رحيب الجوانب رغب الجوائز، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى و فضله عز و جل قد أдал العسر يسرا و أحال القبض بسطا، و قرّب نوازع الآمال بعد أن تناءت ديارها شحطا، و راض مركب الدهر الذى كان لا يلين لمن استمطى، و قرب غريم الرجاء فى هذه الأرجاء و كان مشتطا، و التوكل عليه سبحانه و تعالى قد أحكم منه اليقين و الاستبصار المبين ربطا، و مشروط المزيد من نعمه قد لزم من الشكر شرطا، و مقامكم هو عدّة الإسلام إذا جدّ حفاظه، و ظلّه الظليل إذا لفح للكفر شواظه، و ملجؤه الذى تنام فى كنف أمنه أيقاظه، و وزره الذى إلى نصره تمدّ أيديه و تشير ألاحظه، ففى أرجاء ثنائه تسرح معانيه و أفاظه، و لخطب تمجيده و تحميده يقول قسه و تحتفل عكاظه، و تشيّعنا إلى ذلك الجناب الكريم طويل عريض، و مقدمات ودنا إياه لا يعترضها نقيض، و أفلاك تعظيمنا له ليس لأوجها الرفيع حضيض، و أنوار اعتقادنا الجميل فيه يشف سواد الحبر عن أوجهها البيض، و إلى هذا ألبسكم الله تعالى ثوب السعادة المعادة فضفاضا، كما صرف ببركة إياتكم الكريمة على ربوع الإسلام وجوه الليالى و الأيام و قد أزورت إعراضا، و بسطت آمالها و قد استشعرت انقباضا، فإننا ورد علينا كتابكم الذى كرم أنحاء و أغراضا، و جالت البلاغة من طرسه الفصيح المقال رياضا، و وردت الأفكار من معانيه الغرائب و ألفاظه المزريّة بدرر النحور و الترائب بحورا صافية و حياضا، فاجتلبنا منه حلة من حلل الود سابغة، و حجة من حجج المجد بالغة، و شمسا فى فلك السعد بازغة، الذى بين المقاصد الكريمة و شرحها، و جلا الفضائل العميمة و أوضحها، فما أكرم شيم ذلك الجلال و أسمحها، و أفضل خلال ذلك الكمال و أرجحها، حشتم فيه على إحكام السلم التى تحوط الأنفس و الحریم بسياج، و يداوى القطر العليل منها بأنجع علاج، و الحال ذات احتياج، و ساحة الجبل

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٨

عصمه الله تعالى ميدان هياج، و متبوءاً أعلاج، و مظنةً اختلاف للظنون الموحشة و اختلاج، فحضر لدينا محتمله وزيركم الشيخ الأجل الأَعْظَم الموقر الأسمى الخاصة الأخطى أبو علي ابن الشيخ الوزير الأجل الحافل الفاضل المجاهد الكامل أبي عبد الله بن محلي و الشيخ الفقيه الأستاذ الأعراف الفاضل الكامل أبو عبد الله ابن الشيخ الفقيه الأجل العارف الفاضل الصالح المبارك المبرور المرحوم أبي عبد الله القشتالي، وصل الله سبحانه سعادتتهما، و حرس مجادتهما، حالين من مراتب ترفيعنا أعلى محل الإعزاز، و واردين على أحلى القبول الذى لا- تشاب حقيقته بالمجاز، عملاً- بما يجب علينا لمن يصل إلينا من تلك الأنحاء الكريمة و الأحواز، فتلقينا ما اشتملت عليه الإحالة السلطانية من الود الذى كرم مفهومها و نصابها، و البر الذى ذهب من مذاهب الفضل و الكمال الأمد الأقصى، و قد كان سبقهما صنع الله جلّ جلاله بما أخلف الظنون، و شرح الصدور و أقر العيون، فلم يصل إلينا إلا و قد أهلك الله تعالى الطاغية، و مزق أحزابها الباغية، نعمته منه سبحانه و تعالى و منه ملأت الصدور انشراحاً، و عمت الأرجاء أفراحاً، و عنواننا على سعد مقامك الذى راق غرراً فى المكرمات و أوضاحاً، و مد يده إلى سهام المواهب الإلهية فحاز أعلاها قداحاً، فثبوت نفوس المسلمين إلى ما كانت تؤمله من فضل الله تعالى و ترجمه، و بدت فى القضية التى أشرتم بأعمالها الوجوه، و انبعثت الآمال إلى ما آلت إليه هذه الحال انبعثاً، و الناثت أمور العدو قصمه الله تعالى التياثا، و انتقض غزله من بعد قوته بفضل الله تعالى أنكاثا، و احتملت المسألة التى تفضلتم بعرضها و أشرتم إلى فرضها مأخذاً و أبحاثاً، فألقينا فى هذه الحال إلى رسولكم أعزهما الله تعالى ما يلقيانه إلى مقامكم الأعلى، و مثابتمكم الفضلى، و ما يتزيد عندنا من الأمور فركائب التعريف بها إليكم محثوثة، و حزنياتها بين يدي مقامكم الرفيع مبثوثة، و قد اضطربت أحوال الكفر و فالت

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٢٩

آراؤه، و استحكم بالشتات داؤه، و ارتجت بزلال الفتن أرجاؤه، و تيسرت آمال الإسلام بفضل الله تعالى و رجاؤه، و ما هو إلا السعد يذلل لكم صعب العدو و يروضه، و الله سبحانه يهيئ لكم فضل الجهاد حتى تقضى بكم فروضه، و أما الذى لكم عندنا من الخلوص الصافية شرائعه، و الثناء الذى هو الروض تأرج ذائعه، فأوضح من فلق الصبح إذا أشرقت طلائعه، جعله الله تعالى فى ذاته، و وسيلة إلى مرضاته! و رسولاكم يشرحان لكم الحال بجزئياته، و يقران ما عندنا من الود الذى سطع نور آياته، و هو سبحانه و تعالى يصل لكم سعدا سامى المراتب و المراقى، و يجمع لكم بعد بعد المدى و تمهيد دين الهدى بين نعيم الدنيا و النعيم الباقي، و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته. انتهى.

[و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أمير المسلمين عبد الله يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر إلى سلطان المغرب]

و أبين من هذا فى القضية كتاب آخر من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى صورته:

من أمير المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، إلى محل أخينا الذى نشنى على مجادته أكرم الثناء، و نجدد له ما سلف بين الأسلاف الكرام من الولاء، و نتحفه من سعادة الإسلام و أهله بالأخبار السارة و الأنباء، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله تعالى رفيع المقدار، كريم المآثر و الآثار، و عرّفه من عوارف فضله كلّ مشرق الأنوار، كفيل بالحسنى و عقبى الدار.

سلام كريم، برّ عميم، يخص جلالكم الأرفع، و رحمة الله و بركاته.

أما بعد حمد الله على عميم آلائه، و جزيل نعمائه، ميسر الصعب بعد إباءه، و الكفيل بتقريب الفرج و إدنائه، له الحمد و الشكر ملء أرضه و سمائه، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد خاتم رسله الكرام و أنبيائه، الهادى إلى سبيل الرشده و سوائه، مطلع نور الحق يجلو ظلم الشك بضيائه، و الرضا عن آله و أصحابه و أنصاره و أحزابه و خلفائه، السائرين فى الدنيا و الآخرة تحت لوائه، الباذلين نفوسهم فى إظهار دينه القويم و إعلائه، و الدعاء لمقامكم بتيسير أمله من فضل الله سبحانه و رجائه، و اختصاصه بأوفر

الحظوظ من اعتنائه، فإننا كتبناه إليكم كتبكم الله تعالى فيمن ارتضى قوله وعمله من أوليائه، و عرفكم عوارف السعادة المعادة

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٠

في نهاية كل أمر و ابتدائه، من حمراء غرناطة- حرمها الله تعالى!- و لا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا و مولانا محمد رسوله الكريم الذى أوضح برهانه، و عظم أمره و رفع شأنه، ثم بما عندنا من الود الكريم و تجديد العهد القديم لمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه، إلا-الخير الهامى السحاب، و التيسير المتين الأسباب، و اليمن المفتوح الأبواب، و السعد الجديد الأثواب، و مقامكم معتمد بترفع الجناب، متعهد بالود الخالص و الاعتقاد اللباب، معلوم له فضل الدين و أصالة الأحساب، و إلى هذا وصل الله تعالى سعدكم مديد الأطناب، ثاقب الشهاب، و أطلع عليكم وجوه البشائر سافرة النقاب، فإنه قد كان بلغكم ما آلت الحال إليه بطاغية قشتالة الذى كلب على هذه الأقطار الغربية من وراء البحار، و ما سامها من الأوصاب و الإضرار، و أنه جرى فى ميدان الإملاء و الاغترار، و مخصص المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار، و أنه نكث العهد الذى عقده، و حل الميثاق الذى أكدده، و حمله الطمع الفاضح على أن أجلب على بلاد المسلمين بخيله و رجله، و دهمها بتيار سيله و قطع ليله، و أمل أن يستولى على جبل الفتح الذى يدعى منه فتحها، و طلع للملة المحمدية صباحها، فضيقه حصارا، و اتخذ دارا، و عندما عظم الإشفاق، و أظلمت الآفاق، ظهر فينا لقدرة الله تعالى الصنع العجيب، و نزل الفرج القريب، و قبل الدعاء السميع المجيب، و طرق الطاغية، جند من جنود الله تعالى أخذه أخذه راييه، و لم يبق له من باقية، فهلك على الجبل حتف أنفه، و غالته غوائل حتفه، فتفرقت جموعه و أحزابه، و انقطعت أسبابه، و تعجل لنار الله تعالى مآبه، و أصبحت البلاد مستبشرة، و رحمة الله منتشرة، و رأينا أن هذه البشارة التى يأخذ منها كل معلم بالنصيب الموفور، و يشارك فيما جلبته من السرور، أنتم أولى من نتحفه بطيب رياها. و نطلع عليه جميل محتياها، لما تقرر عندنا من دينكم المتين، و فضلكم المبين، و عملكم فى المساهمة على شاكلة صالحى السلاطين، فما ذلك إلا فضل نيتكم للمسلمين فى هذه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣١

البلاد، و أثر ما عندكم من جميل الاعتقاد، و قد ورد علينا رسولكم القائد أبو عبد الله محمد بن أبى الفتح، أعزه الله تعالى! مقررا ما لديكم من الود الراسخ القواعد، و الخلوص الصافى الموارد، الواضح الشواهد، و أثنى على مكارمكم الأصيله، و ألقى ما عندكم من المذاهب الجميلة، فقابلنا ذلك بالشكر الذى يتصل سببه، و يتضح مذهبه، و سألنا الله أن يجعله وداً فى ذاته، و وسيلة إلى مرضاته، و تعرفنا ما كان من تفضلكم بالطريده المفتوحة المؤخر، و ما صدر عن الرئيس المعروف بالناظر من خدام دار الصنعة بالمريه من قبح محاولته، و سوء معاملته، فأمرنا بقطع جريته و ثقافه بمطموره القصه جزاء لجنايته، و لو لا أننا توقفنا أن يكون عظيم عقابه مما لا يقع من مقامكم بوقفه، لمشهور عفافه و رفقته، لجعلناه نكالا لأمثاله، و عبرة لأشكاله، و قد وجهنا جفنا سفريا لإيساق الخيل التى ذكرتم، و إيصال ما إليه من ذلك أشرتهم، و يكمل القصد إن شاء الله تعالى تحت لحظ اعتنائكم، و فضل ولائكم، هذا ما تزيد عندنا عرفناكم به، عملا على شاكلة الود الجميل، و الولاء الكريم الجملة و التفصيل، فعرفونا بما يتزيد عندكم يكن من جملة أعمالكم الفاضلة، و مكارمكم الحافلة، و الله تعالى يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و السلام الكريم عليكم و رحمة الله و بركاته. انتهى.

[و من إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بالأندلس و انقطاعها، و أنها لا غنى لها عن البر العدو]

و من إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بالأندلس و انقطاعها، و أنها لا غنى لها عن العدو و غير ذلك، ما صورته:

المقام الذى بنور سعاده تنجلي الغماء و تتصل النعماء، من نيته قد حصل منها لجانب الله تعالى الانتماء، و اتفقت منها المسميات و الأسماء، مقام محل أبينا الذى تنفياً هذه الجزيرة الغربية أفياء نيته الصالحه و عمله، و تثق بحسن العاقبة اعتمادا على وعد الله تعالى المنزل على خيره رسله، و تجتنى ثمار النجاح من أفنان آرائه المتألقه تألق الصبح حالى ريثه و عجله، و تعرف حالى المودود و المكروه عارفة الخير و الخيره من قبله، أبقاه الله تعالى يحسم الأدواء

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٢

كلما استشرت، و يحلى موارد العاقبة كلما أمّرت، و يعفَى على آثار الأطماع الكاذبة مهما خدعت بخلبها و غرت، و يضمّن سعده عودة الأمور إلى أفضل ما عليه استقرت، معظم مقامه الذى هو بالتعظيم حقيق، و موقر ملكه الذى لا يلتبس منه فى الفخر و العز طريق، و لا يختلف فى فضله العميم و مجده الكريم فريق.

أما بعد حمد الله المثيب المعاقب، الكفيل لأهل التقوى بحسن العواقب، المشيد بالعمل الصالح إلى أرفع المراقى و المراقب، يهدى من يشاء و يضل من يشاء فبقضائه و قدره اختلاف المسالك و المذاهب، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد رسوله الحاشر العاقب، و نبيه الكريم الرؤوف الرحيم ذى المفآخر السامية و المناقب، و الرضا عن آله و أصحابه و أنصاره و أحزابه الذين ظاهره فى حياته بإعمال التيمر العوالى و البيض القواضب، و خلفوه فى أمتة بخلوص الضمائر عن شوب الشوائب، فكانوا فى سماء ملته كالنجوم الثواقب، و الدعاء لمقامكم الأسمى بالسعادة المعادة فى الشاهد من الزمن و الغائب، و النصر الذى يقضى بجز الكتائب، و الصنع الذى تطلع من ثنياه غرر الصنائع العجائب، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى و لا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من الاعتداد بمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه، و شمل بالتمهيد أوطانه، إلّا نشيخ ثابت و يريد، و إخلاص ما عليه فى ميدان الاستطاعة مزيد، و تعظيم أشرق منه جيد، و ثناء راق فوق رياضه تحميد و تمجيد، و إلى هذا وصل الله تعالى سعدكم، و حرس الطاهر الكريم مجدكم، فقد وصلنا كتابكم الذى هو على الخلوص و الاعتقاد عنوان، و فى الاحتجاج على الرضا و القبول برهان، تنطق بالفصل فصوله، و تشير إلى كرم العقد فروعه الزكية و أصوله، و يحق أن ينسب إلى ذلك الفخر الأصيل محصوله، عرفتمونا بما ذهب إليه عيسى بن الحسين من الخلاف الذى ارتكبه، و سبيل الصواب الذى انتكبه، و تنبهون على ما حده الحق فى مثل ذلك و أوجه، حتى لا يصل أحد من جهتنا سببه، و لا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٣

يظاها مهما ندبه، و لا يسعف فى الإيواء طلبه، فاستوفينا ما استدعاه ذلك البيان الصريح و جلبه، و خطه القلم الفصيح و كتبه، و ليعلم مقامكم و هو من أصالة النظر غنى عن الإعلام، و لكن لا بد من الاستراحة بالكلام، و التفتت بنفثات الأقلام، أننا إنما نجرى أمورنا مع هذا العدو الكافر الذى رمينا بجواره، و بلينا و الحمد لله بمصادمة تياره، على تعداد أقطاره، و اتساع براريه و بحاره، بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق، و أسواق التفاف غير ذات نفاق، و الجماهير تحت عهد من الله تعالى و ميثاق، فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقد، و وقع بينهما فى قبول الطاعة رد، ساءنا واقعه، و عظمت لدينا مواقعه، و سألنا أن يتدارك الخرق راقعه، لما توقعه من التشاغل عن نصرنا، و تفرغ العدو إلى ضرنا، فكيف إذا وقعت الفتنة فى صقعنا و قطرنا، إنما هى شعله فى بعض بيوتنا وقعت، و حادثه إلى جهتنا أشرعت، و إن كان لسوانا لفظهما فلنا معناها، و على وطننا يعود جناها، فنحن أحرص الناس على إطفائها و إخمادها، و أسعى فى إصلاح فسادها، و المثابرة على كفها و استئسادها، و ما الظن بدار فسد بابها، و آمال رثت أسبابها، و جزيرة لا تستقيم أحوال من بها إلا بالسكون، و سلم العدو و المغرور المفتون، حتى تقضى منه بإعانتكم الديون، و إن اضطرابها إنما هو داء نستبصر من رأيكم فيه بطيب، و هدف خطب نرنيه من عزمكم بسهم مصيب، و أمر نضرع فى تداركه إلى سميع للدعاء مجيب، و نحن فيه يد أمام يدكم، و مقصدنا فيه تبع لقصدم، و تصرفنا على حد إشارتكم جار، و عزمنا إلى منتهى مرضاتكم متبار، و عقدنا فى مشايعة أمركم غير متوار، و قد كنا لأول اتصال هذا الخبر، القبيح العين و الأثر، بادرنا تعريفكم بجميع ما اتصل بنا فى شأنه، و لم نطو عنكم شيئاً من إسراره و لا إعلانه، و بعثنا رسولنا إلى بابكم العلى نعتدّ بسلطانه، و نرتجى تمهيد هذا الوطن بتمهيد أوطانه، و بادرنا بالمخاطبة من وجبت مخاطبته من أهل مربلة و أسطبوته ثبت بصائرهم فى الطاعة و نقويها، و نعدهم بتوجيه من يحفظ جهاتهم و يحميها، و عجلنا إلى بعضها مددا من الرماة و السلاح ليكون ذلك عده فيها، و علمنا ما أوجب الله تعالى من الأعمال التى يزلف بها و يرتضيها، و كيف لا نظاهر أمركم الذى هو العدة المذخورة، و الفتنة الناصرة المنصورة، و الباطل سراب يخدع، و الحق إليه يرجع، و

البعي

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٤

يردى و يصرع، و كم تقدم فى الدهر منتز شذ عن الطاعة، و خرج عن الجماعة، و مخالف على الدول، فى العصور الأول، بهرج الحق زائفه، و رجمت شهب الأسنة طائفه، و أخذت عليه الضيقه و هاده و تنائفه، فتقلص ظله، و نبا به عن الحق محله، و كما قال يذهب الباطل و أهله، لا سيما و سعادة ملككم قد وطأت المسالك و مهدها، و قهرت الأعداء و تعبدتها، و أطفأت جداول سيوفكم النار التى أوقدتها، و كأن بالأمر إذا أعملتم فيها رأيكم السيد و قد عادت إلى خير أحوالها، و البلاد ييمن تدبيركم قد شفى ما ظهر من اعتلالها، و على كل حال فإنما نحن إلى تكميل مرضاتكم مبادرون، و فى أغراضكم الدينيه واردون و صادون، و لإشاراتكم التى تتضمن الخير و الخيره منتظرون، عندنا من ذلك عقائد لا يحتمل نصيها التأويل، و لا يقبل صحيحها التعليل، فلتكن أبوتكم من ذلك على أوضح سبيل، فشمس النهار لا تحتاج إلى دليل، و الله تعالى يستنى لكم عوائد الصنع الجميل، حتى لا يدع عزمكم مغضوبا إلا رده، و لا ثلما فى ثغر الدين إلا سده، و لا هدفا متعاصيا إلا هدده، و لا عرفا من الخلاف إلا حده، و هو سبحانه يبقى ملككم و يصل سعده، و يعلى أمره و يحرس مجده، و السلام الكريم يخصكم و رحمه الله و بركاته. انتهى.

[و من إنشاء لسان الدين من جملة رسالة على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب الرعايا]

و من إنشائه رحمه الله تعالى من جملة رسالة على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب الرعايا، ما نص محل الحاجة منه: و إلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقه البلاد و العباد بهذا الطاغية الذى جرى فى ميدان الأمل جرى الجموح، و دارت عليه خمرة النخوة و الخيلاء مع الغبوق و الصبوح، حتى طمح بسكر اغتراره، و مخص المسلمون على يده بالوقائع التى تجاوز منتهى مقداره، و توجهت إلى استئصال الكلمة مطامح أفكاره، و وثق بأنه يطفى نور الله بناره، و نازل جبل الفتح فشد محقق حصاره، و أدار أشياعه فى البر و البحر دور السوار على أسواره، و انتهز الفرصة بانقطاع الأسباب و انبهام الأبواب، و الأمور التى لم تجر للمسلمين بالعدوتين

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٥

على مألوف الحساب، و تكالب التثليث على التوحيد، و ساءت الظنون فى هذا القطر الوحيد، المنقطع بين الأمة الكافرة و البحور الزاخرة و المرام البعيد، و إننا صابرينا بالله تعالى تيار سيله، و استضأنا بنور التوكل عليه فى جنح هذا الخطب و دجنه ليله، و لجأنا إلى من بيده نواصى الخلائق، و اعتلقنا من حبله المتين بأوثق العلائق، و فسحنا مجال الأمل فى ذلك الميدان المتضيق، و أخلصنا لله مقيل العثار و مؤوى أولى الاضطراب قلوبنا، و رفعنا إليه أمرنا و وقفنا عليه مطلوبنا، و لم نقصر مع ذلك فى إبرام العزم، و استشعار الحزم، و إمداد الثغور بأقصى الإمكان، و بعث الجيوش إلى ما يلينا من بلاد على الأحيان، فرحم الله تعالى انقطاعنا إلى كرمه، و التجأنا إلى حرمة، فجلى بفضل سبحانه ظلم الشدة، و مد على الحريم و الأطفال ظلال رحمته الممتدة، و عرفنا عوارف الصنع الذى قدم به العهد على طول المدّة، و رماه بجيش من جيوش قدرته أغنى عن إيجاف الركاب، و احتشاد الأحزاب، و أظهر فينا قدرة ملكه عند انقطاع الأسباب، و استخلاص العباد و البلاد من بين الظفر و الناب، فقد كان جعجع على الحق بأباطيله، و سد المجاز بأساطيله، و رمى الجزيرة الأندلسية بشؤبوب شره، و صيرها فريسة بين غربان بحره و عقبان بره، فلم يخلص إلى المسلمين من إخوانهم مرقبة إلا على الخطر الشديد، و الإفلات من يد العدو العنيد مع توفر العزائم و الحمد لله على العمل الحميد، و السعى فيما يعود على الدين بالتأييد، و بينما شفقتنا على جبل الفتح تقيم و تقعد، و كلب الأعداء عليه يبرق و يردد، و اليأس و الرجاء خصمان هذا يقرب و هذا يبعد، إذا طلع علينا البشير بانفراج الأزمة، و حلّ تلك العزمة، و موت شاه تلك الرقعة، و إبقاء الله تعالى على تلك البقعة، و أنه سبحانه أخذ الطاغية أكمل ما كان اغترارا، و أعظم أنصارا، و زلزلت أرض عزه و قد أصابت قرارا، و أن شهاب سعده قد أصبح آفلا، و علم كبره انقلب

سافلا، وأن من بيده ملكوت السماوات والأرض طرقة بحتفه، وأهلكه برغم أنفه، وأن محلته عاجلها التباب والتبار، وعانت في منازلها النار، وتمخض عن سوء عاقبتها الليل والنهار، وأن حمايتها يخبرون بيوتهم بأيديهم، وينادي بشتات الشمل لسان مناديتهم، وتلاحق الفرسان من جبل الفتح المعقل الذي عليه من عنابة الله تعالى رواق مضروب، والرباط الذي من حاربه فهو المحروب،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٦

فأخبرت بانفراج الضيق، وارتفاع العائق لها عن الطريق، وبراء الداء الذي أشرق بالريق، وأن النصارى دمرها الله تعالى جدت في ارتحالها، وأسرت بجيفة طاغيتها إلى سوء مآلها وحالها، وسمحت للنار والنهب بأسلابها وأموالها، فبهرنا هذا الصنع الإلهي الذي مهد الأقطار بعد رجفانها، وأنام العيون بعد سهاد أجفانها، وسألنا الله تعالى أن يعيننا على شكر هذه النعمة التي إن سلطت عليها قوى البشر فضحتها، ورجحتها، ورأينا سر الطائف الخفية كيف سريانه في الوجود، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلهية والوجود، وقلنا: إنما هو الفتح الأول شفع بثان، وقواعد الدين الحنيف أيدت من صنع الله تعالى بنيان، اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة، ومنك الوافرة، إنك ولينا في الدنيا والآخرة. انتهى.

[و من إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بضيق حال المسلمين ببلاد الأندلس]

و من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى من أخرى مما يتعلق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته:

و إن تشوّقتم إلى أحوال هذا القطر و من به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين، فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً، ونكابر بحرا زخاراً، ونتوقع إلا إن وقى الله تعالى خطوباً كباراً، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً، ونلجأ إليه اضطراراً، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعداداً به واستظهاراً، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطاراً، وينشئ ريح روح الله طيبة معطاراً، فإذا القومس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع، ومخالفته لا تستطيع، رمى هذه الأمة الغربية المنقطعة منهم بجراد لا يسد طريقها، ولا يحصى فريقها، التفت على أخى صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله، وتبلغه أمله، ويكون الكل يدا واحدة على المسلمين، ومناصبه هذا الدين، واستئصال شأفة المؤمنين، وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد، ولا عرفها نجد ولا وهد، وقد اقتحموا الحدود القريبة، والله تعالى ولي هذه الأمة الغربية، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يقوى الضعيف، ويدراً الخطب المخيف، ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران: ١٧٣]، وهو سبحانه المرجو

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٧

في حسن العقبي والمآل، ونصر فئه الهدى على فئه الضلال، وما قل من كان الحق كنزه، ولا ذل من استمد من الله عزه قل هل تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ [التوبة: ٥٢] ودعاء من قبلكم من المسلمين مدد موفور، والله سبحانه على كل حال محمود مشكور. انتهى.

[و من رسالة أخرى من إنشاء لسان الدين في المعنى السابق]

و من أخرى طويلة من جملتها ما صورته:

وقد اتصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام، ورعى الجوار والدمام، وما جعل الله تعالى للمأموم على الإمام، إيقاظكم من مراقدم المستغرقة، وجمع أهوائكم المتفرقة، وتهيئكم إلى مصادمة الشدائد المرعدة المبرقة، وهو أن كبير دين النصرانية الذي إليه ينقادون، وفي مرضاته يصادقون ويعادون، وعند رؤية صليبه يكبرون ويسجدون، لما رأى الفتن قد أكلتهم خضماً وقضماً، وأوسعتهم هضماً، فلم تبق عصباً ولا عظماً، ونثرت ما كان نظماً، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق، ويرفع ما طرق، ويرفو ما مزق

الشتات و خرق، فرمى الإسلام بأمة عددها القطر المنتال، و أمرهم و شأنهم الامتثال، أن يدمنوا لمن ارتضاه من أمتة الطاعة، و يجمعوا في ملته الجماعة، و يطلع الكل على هذه الفئة القليلة الغريبة بغتة كقيام الساعة، و أقطعهم قطع الله تعالى بهم العباد و البلاد، و الطارف و التلاد، و سوغهم الحريم و الأولاد، و بالله تعالى نستدفع ما لا نطيعه، و منه نسأل عادة الفرج فما سدّت طريقه، إلا أنا رأينا غفلة الناس مؤذنة البوار، و أشفقنا للدين المنقطع من وراء البحار، و قد أصبح مضغاً في لهوات الكفار، و أردنا أن نهزكم بالموعظة التي تكحل البصائر بميل الاستبصار، فإن جبر الله تعالى الخواطر بالضراعة إليه و الانكسار، و نسخ الإعسار بالإيسار، و أنجد اليمين بأختها اليسار، و إلا فقد تعين في الدنيا و الآخرة حظ الخسار، فإن من ظهر عليه عدو دين الله تعالى و هو من الله مصروف، و بالباطل مشغوف، و بغير العرف معروف، و على الحطام المسلوب عنه ملهوف، فقد تله الشيطان للجبين، و قد خسر الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين، و من نفذ فيه أوله قدر الله عن أداء الواجب و بذل المجهود، و أفرد بالعبودية وجه الواحد الأحد المعبود، و وطن النفس على الشهادة المبوّنة دار الخلود، العائدة بالحياة الدائمة و الوجود، أو الظهور

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٨

على عدوّه المحشور إليه المحشود، صبرا على المقام المحمود، و بيعا من الله تعالى تكون الملائكة فيه الشهود، حتى يعين يد الله في ذلك البناء [المهدوم بقوة الله و] المهدود، و السواد الأعظم الممدود، كان على أمره بالخيار المردود قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ [التوبة: ٥٢]. انتهى.

و قال صاحب «مناهج الفكر» بعد وصفه لجزيرة الأندلس و أقطارها، ما صورتها:

و لم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد و الوفاق، إلى أن طما بمتريفها سيل العناد و النفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، و جعله معقلا- يعتم صم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم يشنّ الغارة على جاره، و يحاربه في عقر داره، إن أن ضعفوا عن لقاء عدوّ في الدين يعادى، و يراوح معاقلهم بالعيث و يغادى، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدّرة، و إتاوة في كل عام على الكبير و الصغير مقررّة، كان ذلك في الكتاب مسطورا و قدرا في سابق علم الله مقدورا، انتهى.

[أخذ الكفار قواعد بلاد الأندلس و أخذهم طليطلة و أخذهم بلنسية]

و هذا قاله قبل أن يستولى العدو على جميعها، و الله وارث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

و لئرجع إلى ما كنا بصدده من أخذ النصارى قواعد الأندلس فنقول:

قد قدمنا أوائل هذا الباب أن طليطلة أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفار من المدن العظام بالأندلس.

قال ابن بسام: لما توالى على أهل طليطلة الفتن المظلمة، و الحوادث المظلمة و ترادف عليهم البلاء و الجلاء، و استباح الفرنج لعنهم الله تعالى أموالهم و أرواحهم، كان من أعجب ما جرى من النوادر الدالة على الخذلان أن الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير، و لا يؤثر فيها طول المدّة بما يمنع من أكلها، فلما كانت السنة التي استولى عليها العدو فيها لم ترفع الغلة من الأندر حتى أسرع فيها الفساد، فعلم الناس أن ذلك بمشيئة الله تعالى لأمر أراده، من شمول البلوى، و عموم الضراء، فاستولى العدو على طليطلة، و أنزل من

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٣٩

بها على حكمه، و خرج ابن ذى النون منها على أقبح صورة، و أفضع سيرة، و رآه الناس و بيده اصطرلاب يأخذ به وقتا يرحل فيه، فتعجب منه المسلمون، و ضحك عليه الكافرون، و بسط الكافر العدل على أهل المدينة، و حجب التنصر إلى عامة طغامها، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله، و شرع في تغيير الجامع كنيسة في ربيع الأول سنة ست و تسعين و أربعمائه.

و مما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامى رحمه الله تعالى صار إلى الجامع، و صلى فيه، و أمر مريدا له بالقراءة، و وافاه الفرنج لعنهم الله تعالى و تكاثروا لتغيير القبلة، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ و لا معارضته، و عصمه الله تعالى منهم، إلى أن أكمل القراءة، و سجد سجدة، و رفع رأسه، و بكى على الجامع بكاء شديدا، و خرج و لم يعرض أحد له بمكروه.

و قيل لملك النصارى: ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك، فقال: حتى نأخذ قرطبتهم، و أعد لذلك ناقوسا تأتق فيه و فيما رضع به من الجواهر، فأكذبه الله و أزعه.

و ورد أمير المسلمين و ناصر الدين يوسف بن تاشفين، فما قصر فيما أثر من إذلال المشركين، و إرغام الكافرين، و استدراك أمور المسلمين، انتهى ملخصا، و قد مر مطولا.

و كانت قبلها وقعة بطرنة سنة ست و خمسين و أربعمائه، و ذلك أن الفرنج - خذلهم الله تعالى! - انتدبت منهم قطعة كثيفة، و نزلت على بلنسية في السنة المذكورة، و أهلها جاهلون بالحرب، معرضون عن أمر الطعن و الضرب، مقبلون على اللذات من الأكل و الشرب، و أظهر الفرنج الندم على منازلها، و الضعف عن مقاومتها من فيها، و خدعهم بذلك فانخدعوا، و أطعموهم فطمعوا، و كمن في عدة أماكن جماعة من الفرسان، و خرج أهل البلد بثياب زينتهم، و خرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر، فاستدرجهم العدو لعنهم الله تعالى، ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل و الأسر، و ما نجا منهم إلا من حصينه أجله، و خلص الأمير نفسه، و مما حفظ عنه أنه أنشد لما أعياه الأمر: [الطويل]

خليتي ليس الزأى في صدر واحد أشيرا على اليوم ما تريان

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٠

و في أهل بلنسية يقول بعض الشعراء حين خرجوا في ثياب الزينة و الترفه: [الكامل]

لبسوا الحديد إلى الوغى و لبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم و أحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا

قال ابن بسام: و هكذا جرى لأهل طليطلة، فإن العدو - خذله الله تعالى! - استظهر عليهم، و قتل جماهيرهم، و كان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم في ثياب الترفه ألف غفارة خارجا عما سواها.

[أخذهم بربشتر قصبه بلد برطانية]

و قال ابن حيان: و كان تغلب العدو - خذله الله تعالى! - على بربشتر قصبه بلد برطانية، و هي تقرب من سرقسطة، سنة ست و خمسين و أربعمائه، و ذلك أن جيش الأردمليس نازلها و حاصرها، و قصير يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها، و وكل أهلها إلى نفوسهم، فأقام العدو عليها أربعين يوما، و وقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، و اتصل ذلك بالعدو، فشدد القتال عليها و الحصر لها حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مدرع، فدهش الناس، و تحصنوا بالمدينة الداخلة، و جرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجي، ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سرب موزون انهارت و فسدت، و وقعت فيها صخرة عظيمة سدت الشرب بأسره، فانقطع الماء عن المدينة، و يئس من بها من الحياة، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال و عيال، فأعطاهم العدو الأمان، فلما خرجوا نكث بهم و غدر، و قتل الجميع إلا القائد ابن الطويل و القاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه، و حصل للعدو من الأموال و الأمتعة ما لا يحصى، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو لحصنه و هو قائد خيل رومه نحو ألف و خمسمائة جارية أبقارا، و من أوقار الأمتعة و الحلوى و الكسوة خمسمائة جمل، و قدر من قتل و أسر مائة ألف نفس، و قيل: خمسون ألف نفس، و من نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة و انقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور و تنادى من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها، فيقول لها: اعطيني ما معك، فتعطيها ما معها من كسوة و حلوى و غيره.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤١

قال: و كان السبب فى قتلهم أنه خاف من يصل لنجدتهم و شاهد من كثرتهم ما هاله، فشرع فى القتل لعنه الله تعالى، حتى قتل منهم نيفا على ستة آلاف قتيل، ثم نادى الملك بتأمين من بقى و أمر أن يخرجوا فازدحموا فى الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم، و نزلوا من الأسوار فى الجبال للخشية من الازدحام فى الأبواب و مبادرة إلى شرب الماء، و كان قد تحيز فى وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه و حاروا فى نفوسهم، و انتظروا ما ينزل بهم، فلما خلت ممن أسر و قتل و أخرج من الأبواب و الأسوار، و هلك فى الزحمة نودى فى تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله، و له الأمان، و أرهقوا و أزعجوا، فلما حصل كل واحد [منهم] بمن معه من أهله فى منزله اقتسمهم الإفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك، و أخذ كل واحد [منهم] دارا بمن فيها من أهلها، نعوذ بالله تعالى. و كان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا براءوس الجبال، و تحصنوا بمواضع منيعة، و كادوا يهلكون من العطش، فأمنهم الملك على نفوسهم، و برزوا فى صور الهلكى من العطش، فأطلق سبيلهم، فبينما هم فى الطريق إذا لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة، فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله.

[ذكر بعض فظائع الإفرنج التى كانوا يعملونها حين يستولون على البلاد]

قال: و كان الفرنج لعنهم الله تعالى، لما استولوا على أهل المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها، و الثيب بعين زوجها و أهلها، و جرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان، و من لم يرض منهم أن يفعل ذلك فى خادم أو ذات مهنة أو وحش أعطاهن خوله و غلمانه يعيشون فيهن عيته، و بلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة، و لما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار و الثيبات ذوات الجمال، و من صبيانهم الحسان ألوفا عدة حملهم معه ليهدبهم إلى من فوقه، و ترك من رابطة خيله ببر بشر ألفا و خمسمائة، و من الرجال ألفين. انتهى.

قال ابن حيان: و أختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولى الألباب بنادرة منها يكتفى باعتبارها عما سواها، و هى أن بعض تجار اليهود جاء برّ بشر بعد الحادثة ملتصقا فدية بنات

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٢

بعض الوجوه ممن نجا من أهلها حصلن فى سهم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه، قال:

فهديت إلى منزله فيها، و استأذنت عليه، فوجدته جالسا مكان رب الدار، مستويا على فراشه، رافلا فى نفيس ثيابه، و المجلس و السرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئا من ريشهما و زيتنهما، و وصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه ساعات فى خدمته، فرحب بى، و سألتنى عن قصدى، فعرفته وجهه، و أشرت إلى وفور ما أبدله فى بعض اللواتى على رأسه و فيهن كانت حاجتى، فتبسم و قال بلسانه: ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك! عرض عمن هنا و تعرّض لمن شئت ممن صيرته لحصنى من سببى و أسراى أقاربك فيمن شئت منهن، فقلت له: أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لى فيه، و بقربك أنست، و فى كنفك اطمأنت، فسمنى ببعض من هنا فإنى أصير إلى رغبتك، فقال: و ما عندك؟ قلت: العين الكثير الطيب و البز الرفيع الغريب، فقال: كأنك تشهينى ما ليس عندى، يا مجه، ينادى بعض أولئك الوصائف، يريد «يا بهجة» غيره بعجمته، قومى فاعرضى عليه ما فى ذلك الصندوق،؟؟؟؟ إليه و أقبلت ببدر الدنانير و أكياس الدراهم و أسفاط الحلى، فكشف و جعل بين يدى العليج حتى كادت توارى شخصه، ثم قال لها: أدنى إلينا من تلك التخوت، فأذنت منه عدة من قطع الوشى و الخز و الديباج الفاخر مما حار له ناظرى و بهت، و استرذلت ما عندى، ثم قال لى: لقد كثر هذا عندى حتى ما ألد به، ثم حلف بإلايه أنه لو لم يكن عنده شىء من هذا ثم بذل له بأجمعه فى ثمن تلك ما سخت بها يدى، فهى ابنة صاحب المنزل، و له حسب فى قومه، اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتى حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم، و قدر لنا الكرة عليهم، فصرنا فيما تراه، و أزيدك بأن تلك الخودة الناعمة، و أشار إلى جارية أخرى قائمة إلى

ناحية أخرى، مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة، يناديها بلكنته، خذى عودك فغنى زائرنا بشجوك، قال:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٣٤٢

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٣

فأخذت العود، وقعدت تسويه، و إنى لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العليج مسحه، و اندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العليج، فصار من الغريب أن حث شربه هو عليه، و أظهر الطرب منه، فلما يئست مما عنده قمت منطلقا عنه، و ارتدت لتجارتي سواء، و اطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي و المغنم على ما طال عجبى به، فهذا فيه مقنع لمن تدبره، و تذكر لمن تذكره. قال ابن حيان: قد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة مصائب جليئة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من أثاره، و لا شك عند ذوى الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع و قد أمرنا بالتواصل و الألفة، فأصبحنا من استشعار ذلك و التمادى عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة. انتهى ببعض اختصار.

و ذكر بعده كلاما في ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس، و أنهم يعللون أنفسهم بالباطل، و أن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم، و بعدهم عن طاعة خالقهم، و رفضهم وصية نبيهم، و غفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم، يجوس خلال ديارهم، و يستقرى بسائط بقاعهم، و يقطع كل يوم طرفا، و يبني أمه، و من لدينا و حوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهأة عن بثهم، ما إن سمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا، مذكر لهم أو داع، فضلا عن نافر إليهم أو ماش لهم، حتى كأنهم ليسوا منا أو كأن بثقهم ليس بمفض إلينا، و قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء، عجائب فاتت التقدير، و عرضت للتغيير، و لله عاقبة الأمور، و إليه المصير.

و لقد صدق رحمه الله تعالى، فإن البثق سرى إليهم جميعا كما ستره، و لا حول و لا قوة إلا بالله.

و قال قبله: إن بر بشر هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة و ثلاث و ستين سنة، من عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس، فرسخ فيها الإيمان، و تدورس القرآن، إلى أن طرق الناعى بها قرطبتنا صدر رمضان من العام، فصك الأسماع، و أطار الأفتدة، و زلزل أرض الأندلس قاطبة، و صير لكل شغلا يشغل الناس فى التحديث به، و التساؤل عنه، و التصور لحلول مثله، أياما لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوجل، و الاغترار بالأمل، و الاستناد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٤

إلى أمراء الفرقة الهمل، الذين هم منهم ما بين فشل و وكل، يصدونهم عن سواء السبيل، و يلبسون عليهم الدليل، و لم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين هم كالملاح فيهم الأمراء و الفقهاء بصلاحتهم يصلحون و بفسادهم يفسدون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفهم لدينا بما لا- كفاية له و لا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة، و جريا إلى الفرقة، و الفقهاء أئمتهم صموت عنهم صدوف عما أكده الله تعالى عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا ما بين آكل من حلوائهم، و خابط فى أهوائهم، و بين مستشعر مخافتهم، آخذ فى التقيء من صدقهم، و أولئك هم الأقلون فيهم، فما القول فى أرض فسد ملحها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها؟ و ما هى إلا مشفية من بوارها، و لقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق، و تعليه الأسوار، و شد الأركان، و توثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوء السوأى من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليه أمورا قبيحات الصور، مؤذيات الصدور بأعجاز الغير. [الوافر]

أمور لو تدبرها حكيم إذا لنهى و هتب ما استطاعا

ثم قال ابن حيان: فلما كان عقب جمادى الأولى سنة ٤٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إليها، و ذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها، و المتهم على أهلها، لانحرافهم إلى أخيه، صمد لها مع إمداد لحليفه عبّاد، و سعى لإصمات سوء المقالة عنه، و قد كتب

الله تعالى عليه منها ما لا- يمحوه إلا عفوه، فتأهب لقصده بر بشر في جموع من المسلمين، فجالدوا الكفار بها جلادا ارتاب منه كل جبان، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان، وحمى الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أوليائه، وخذل أعداءه، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة، فاقتمها المسلمون عليهم، وملكوهم أجمعين، إلا- من فر من مكان الوقعة، ولم يدخل المدينة، فأجبل السيف في الكافرين، واستؤصلوا أجمعين، إلا من استرق من أصاغرهم، وفدى من أعاضهم، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم، وملكوا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٥

المدينة بقدرة الخالق البارئ، وأصيب في منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصر الدين، نحو الخمسين، كتب الله تعالى شهادتهم، وقتل فته من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل، فغسلها المسلمون من رجس الشرك، وجلوها من صدى الإفك. انتهى.

وليت طليطلة البائسة استرجعت كهذه، ومع هذا فقد غلب العدو بعد على الكل، والله سبحانه المرجو في الإدالة.

[أخذ الإفرنج مدينتي تطيلة وطرشونة]

وقال ابن اليسع: أخذ العدو مدينة تطيلة وأختها طرشونة سنة أربع وعشرين وخمسائة، ولما صار أمر بلنسية إلى الفقيه القاضي أبي أحمد بن جحاف قاضيها صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فحصره بها القادر بن ذي النون الذي مكن الأذفونش من طليطلة، فهجم عليه القاضي في لمة من المرابطين، وقتله، ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان، ورجعت عنه طائفة المثلثين الذي كان يعتد بهم، وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين فيبطيء عليه، وفي أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة لذريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية، فدخلها، وعاهده القاضي ابن جحاف، واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون، فأقسم أنها ليست عنده، فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله، فاتفق أنه وجدها عنده، فأحرقه بالنار، وعاث في بلنسية، وفيها يقول ابن خفاجة حينئذ: [الكامل]

عاثت بساحتك الظبا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعمار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كسبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

و كان استيلاء القنبطور - لعنه الله تعالى!- عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وقيل:

في التي قبلها، و به جزم ابن الأبار قائلا: فتم حصار القنبطور إياها عشرين شهرا، وذكر أنه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٦

دخلها صلحا، وقال غيره: إنه دخلها عنوة، و حرقها، و عاث فيها، و ممن أحرق فيها الأديب أبو جعفر البني الشاعر المشهور رحمه الله تعالى و عفا عنه، فوجه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلي ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس و تسعين و أربعمائة، و توالى عليها أمراء المثلثين، ثم صارت ليحيى بن غانية المثلث حين ولى جميع شرق الأندلس، فقدم عليها أخاه عبد الله بن غانية، و لما ثارت الفتنة في المائة السادسة أخرجه منها مروان بن عبد العزيز، إلى أن قام عليه جيش بلنسية سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة، و بايعوا لابن عياض ملك شرق الأندلس، ففر مروان إلى المرية، ثم رجعت بلنسية إلى أبي عبد الله بن مردنيش ملك شرق الأندلس بعد ابن عياض، و قدم عليه أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، إلى أن رجع أبو الحجاج إلى جهة بني عبد المؤمن، إلى أن ولى عليها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص ابن أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي،

فلما ثار العادل بمرسیة تمنع و اعتز، و أظهر طاعة في باطنها معصية، و دام على ذلك مع أبي العلاء المأمون، و كان قائد الأعنة المشار إليه في الدفاع عن بلنسية الأمير زياد بن أبي الحملات بن أبي الحجاج بن مردنيش، فأخرجه من بلنسية، و ملكها، وفر السيد إلى النصارى، و لم يزل أمر بلنسية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك برشلونة النصراني،

[القصيدة السينية التي ألهاها ابن الأبار القضاى بين يدى أبي زكريا بن أبي حفص سلطان إفريقية و قد أقبل عليه يستغيثه]

فاستغاث زيان بصاحب إفريقية أبي زكريا بن أبي حفص، و أوفد عليه في هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبد الله بن الأبار القضاى صاحب كتاب «التكملة» و «إعتاب الكتاب» و غيرهما، فقام بين يدى السلطان منشدا قصيدته السينية الفريدة التي فضحت من باراهها، و كبا دونها من جاراها، و هى: [البسيط]

أدرک بخيلک خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
و هب لها من عزيز النَّصر ما التمتست فلم يزل منك عزَّ النَّصر ملتَمسا
و حاش ممَّا تعانیه حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا للحادثات و أمسى جدَّها تعسا
فى كلَّ شارقة إمام بارقة يعود مأتمها عند العدا عرسا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٧
و كلَّ غاربة إخجال شائبة تشنى الأمان حذارا و السرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم إلَّا عقائلها المحجوبة الأنسا
و فى بلنسية منها و قرطبة ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلَّها الإشراك مبتسما جدلان، و ارتحل الإيمان مبتسما
و صيرتها العوادي العائثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرسا و من كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعا و للنداء غدا أثناءها جرسا
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها مدارس للمثاني أصبحت درسا
و أربعا نممت أيدي الزبيع لها ما شئت من خلع موشية و كسا
كانت حدائق للأحداق مونقة فصوح النضر من أدواحها و عسا
و حال ما حولها من منظر عجب يستجلس الزكب أو يتركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر و حربا عيث الدبا فى مغانيها التى كبسا
و ابتزَّ بزتها مما تحيفها تحيف الأسد الضارى لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضرا و أين عصر جليناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ما نام عن هضمها حيناً و لا نعسا
و رجَّ أرجاءها لمَّا أحاط بها فغادر الشَّم من أعلامها خنسا
خلا له الجوّ فامتدَّت يدها إلى إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
و أكثر الزعم بالتثليث منفردا و لو رأى رايه التوحيد ما نسا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٨

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
 و أحي ما طمست منها العداة كما أحييت من دعوة المهدي ما طمسا
 أيام صرت لنصر الحق مستبقا وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
 و قمت فيها بأمر الله منتصرا كالصارم اهتر أو كالعارض انبجسا
 تمحو الذي كشف التجسيم من ظلم و الصبح ماحية أنواره الغلسا
 و تقتضى الملك الجبار مهجته يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
 هذى رسائلها تدعوك من كتب و أنت أفضل مرجو لمن يسا
 وافتك جارية بالنجح راجية منك الأمير الرضا و السيد الندسا
 خاضت خضارة يعليها و يخفضها عبابه فتعاني اللين و الشرسا
 و ربما سبحت و الريح عاتية كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
 تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبله من تربه القدسا
 ملك تقلدت الأملاك طاعته دينا و دنيا فغشاها الرضا لبسا
 من كل غاد على يمناه مستلما و كل صاد إلى نعماه ملتسا
 مؤيد لو رمى نجما لأثبته و لو دعا أفقا لبي و ما احتبسا
 تالله إن الذي ترجى السعود له ما جال في خلد يوما و لا هجسا
 إمارة يحمل المقدار رايتها و دوله عزها يستصحب القعسا
 يبدى النهار بها من ضوئه شبا و يطلع الليل من ظلماته لعسا
 ماضى العزيمة و الأيام قد نكلت طلق المحيا و وجه الدهر قد عيسا
 كأنه البدر و العلياء هالته تحف من حوله شهب القنا حرسا
 تدبيره وسع الدنيا و ما وسعت و عرف معروفه و اسى الورى و أسا
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٤٩
 قامت على العدل و الإحسان دولته و أنشرت من وجود الجود ما رمسا
 مبارك هديه باد سكينته ما قام إلّا إلى حسنى و ما جلسا
 قد نور الله بالتقوى بصيرته فما يبالي طروق الخطب ملتبسا
 برى العصاة وراش الطائعين فقل فى الليث مفترسا و الغيث مرتجسا
 و لم يغادر على سهل و لا جبل حيا لقاحا إذا وافيته بخسا
 فرب أصيد لا تلقى به صيدا و رب أشوس لا تلقى له شوسا
 إلى الملائك ينمى و الملوك معا فى نبعه أثمرت للمجد ما غرسا
 من ساطع النور صاغ الله جوهره و صان صيقله أن يقرب الدنسا
 له الثرى و الثريا خطتان فلا أعز من خطتيه ما سما ورسا
 حسب الذى باع فى الأخطار يركبها إليه محياه أن البيع ما وكسا
 إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته عصاه محترما بالعدل محترسا
 فظل يوطن من أرجائها حرما و بات يوقد من أضوائها قبسا

بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا آماله و من العذب المعين حسا
 كأنما يمتطى و اليمن يصحبه من البحار طريقا نحوه يبسا
 فاستقبل السعد وضاحا أسرته من صفحة فاض منها النور و انعكسا
 و قبل الجود طفاحا غواربه من راحه غاص فيها البحر و انغمسا
 يا أيها الملك المنصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى تعسا
 و قد تواترت الأنباء أنك من يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
 طهر بلادك منهم إنهم نجس و لا طهارة ما لم تغسل النجسا
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٠
 و أوطىء الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطىء رأسا كل من رأسا
 و انصر عبدا بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعا تهمل زكا و حسا
 هم شيعه الأمر و هي الدار قد نهكت داء متى لم تباشر حسمه انتكسا
 فاملاً هنيئاً لك التأيد ساحتها جردا سلاهب أو خطية دعسا
 و اضرب لها موعدا بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى و عسى

[تغلب الإفريج على بلنسية و وقعة كتندة]

فبادر السلطان بإعانتهم، و شحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال و الأقوات و الكسى، فوجدوهم فى هوة الحصار، إلى أن تغلب
 الطاغية على بلنسية، و رجع ابن الأبار بأهله إلى تونس، و كان تغلب العدو على بلنسية صلحا يوم الثلاثاء، السابع عشر لصفر من سنة
 ست و ثلاثين و ستمائة، فهزّت هذه القصيدة من الملك عطف ارتياح، و حركت من جناحه أخفض جناح، و لشغفه بها و حسن موقعها
 منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها، فجاوبها غير واحد، و حال العدو بين بلنسية و بينه، و تعاهد أهلها مع النصرانى على أن يسلمهم فى
 أنفسهم، و ذلك سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، أعادها الله تعالى للإسلام.

و كانت وقعة كتندة على المسلمين قبل هذا التاريخ بمدة، و كتندة- يقال «قتندة» بالقاف- من حيز دورقة من عمل سرقسطة من الثغر
 الأعلى، و كانت الهزيمة على المسلمين جبرهم الله تعالى، قتل فيها من المطوعة نحو من عشرين ألفا، و لم يقتل فيها من العسكر أحد،
 و كان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذى أَلف الفتح باسمه «قلاند العقيان» و كانت سنة أربع عشرة و خمسمائة،
 و ممن حضرها الشيخ أبو على الصدفى السابق الذكر، و قرينه فى الفضل أبو عبد الله بن الفراء خرجا غازيين، فكانا ممن فقد فيها.
 و قال غير واحد: إن العسكر انصرف مفلولا إلى بلنسية، و إن القاضى أبا بكر بن العربى كان ممن حضرها، و سئل مخلصه منها عن
 حاله، فقال: حال من ترك الخباء و العباء، و هذا مثل عند المغاربة معروف، يقال لمن ذهب ثيابه و خيامه، بمعنى أنه ذهب جميع ما
 لديه.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥١

[استيلاء العدو على لوشة و المرية]

و دخل العدو لوشة سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، مع السيد أبى محمد البياسى فى الفتنة التى كانت بينه و بين العادل، فعاتوا فيها أشد
 العيث، ثم ردها المسلمون إلى أن أخذت بعد ذلك كما يأتى.

و دخل العدو مدينة المرية يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة، عنوة.

و حكى أبو زكريا الجعدي عن أبي عبد الله بن سعادة الشاطبي المعمر أن أبا مروان بن ورد أتاه في النوم شيخ عظيم الهيئة فرمى يديه في عضديه من خلفه، و هزه هزا عنيفا حتى أربعه، و قال له قل: [الطويل]

ألا أيها المغرور ويحك لا تنم فلله في ذا الخلق أمر قد انبهم
فلا بد أن يرزوا بأمر يسوءهم فقد أحدثوا جرما على حاكم الأمم

قال: و كان هذا في سنة أربعين و خمسمائة، فلم يمض إلا يسير حتى تغلب الروم على المريّة في سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة، بعد تلك الرؤيا بعامين أو نحوهما.

و هو مما حكاه ابن الأبار الحافظ في كتاب «التكملة» له.

و في وقعة المريّة هذه استشهد الرّشاطي لإمام المشهور، و هو أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر، اللخمي، الرشاطي، المريبي، و كانت له عناية كبيرة بالحديث و الرجال و الرواة و التواريخ، و هو صاحب كتاب «اقتباس الأنوار، و التماس الأزهار، في أنساب الصحابة و رواة الآثار» أخذه الناس عنه، و أحسن فيه، و جمع و ما قصر، و هو على أسلوب كتاب أبي سعد بن السمعاني الحافظ المسمى «بالأنساب».

و ولد الرّشاطي سنة ٤٦٦ بقرية من أعمال مرسية يقال لها أوريوا له - بفتح الهمزة، و سكون الواو، و كسر الراء، و ضم المثناة التحتية، و بعد الألف لام مفتوحة، و بعدها هاء - و توفي شهيدا بالمريّة عند تغلب العدو عليها صبيحة الجمعة العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢.

و الرشاطي - بضم الراء، و فتح الشين المخففة - و ذكر هو أن أحد أجداده كان في جسمه نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٢

شامة كبيرة، و كانت حاضنته عجمية، فإذا لاعبته قالت: رشاطة، و كثر ذلك منها، فقيل له: الرشاطي، انتهى ملخصا من «وفيات الأعيان»، و بعضه بالمعنى.

[عودة المريّة إلى المسلمين ثم فقدانها]

و بعد أخذ النصارى المريّة هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين، و استنقذها الله تعالى على يد الموحدين، و بقيت بأيدي أهل الإسلام سنين، و كان أول الولاة عليها حين استولى عليها أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي رجلا يقال له يوسف بن مخلوف فتار عليه أهل المريّة، و قتلوه، و قدموا على أنفسهم الرميمي، فأخذها النصارى منه عنوة كما ذكرنا، و أحصى عدد من سبى من أبكارها فكان أربعة عشر ألفا.

و قال ابن حبيش آخر الحفاظ بالأندلس: كنت في قلعة المريّة لما وقع الاستيلاء عليها أعادها تعالى للإسلام، فتقدّمت إلى زعيم الروم السليطين، و هو ابن بنت الأذفونش، و قلت له: إني أحفظ نسبك منك إلى هرقل، فقال لي: قل، فذكرته له، فقال لي: اخرج أنت و أهلك و من معك طلقاء بلا شيء.

و ابن حبيش شيخ ابن دحية و ابن حوط الله و أبي الربيع الكلاعي، رحمهم الله تعالى!.

و لما أخذت المريّة أقبل إليها السيدان أبو حفص و أبو سعيد ابنا أمير المؤمنين فحصرنا النصارى بها، و زحف إليهما أبو عبد الله بن مردنيش ملك شرق الأندلس محاربا لهما، فكانا يقاتلان النصارى و المسلمين داخلا و خارجا، ثم رأى ابن مردنيش العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى، فارتحل، فقال النصارى: ما رحل ابن مردنيش إلا و قد جاءهم مدد، فاصطلحوا و دخل الموحدون المدينة، و قد خربت و ضعفت، إلى أن أحيا رمقها الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال، و ذلك أن أخته أخذت سيبة في دخله عبد المؤمن ليجانته، فاختلفت بقصره و اعتنت بأخيها، فولاه بلده، فصلح به حالها، و كان جوادا حسن المحاولة كثير الرفق، و

اشتهر من ولاتها في مدة بنى عبد المؤمن في المائة السابعة الأمير أبو عمران بن أبي حفص عم ملك إفريقية أبي زكريا. ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة و ثارت الأندلس على مأمون بنى عبد المؤمن نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٣

بسبب قيام ابن هود بمرسية قام في المرية بدعوة ابن هود أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى بن الرميمي، وجده أبو يحيى هو الذى أخذها النصارى من يده، ولما قام بدعوة ابن هود وفد عليه بمرسية و ولاء وزارته، و صرف إليه سياسته، و آل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصن قلعة المرية، و يجعلها له عدة، و هو يبغي ذلك عدة لنفسه، و ترك ابن هود فيها جارية تعلق ابن الرميمي بها، و اجتمع معها، فبلغ ذلك ابن هود، فبادر إلى المرية، و هو مضمر الإيقاع بابن الرميمي، فتغذى به قبل أن يتعشى به، و أخرج من قصره ميتا، و وجهه فى تابوت إلى مرسية فى البحر، و استبد ابن الرميمي بملك المرية، ثم ثار عليه ولده، و آل الأمر بعد أحوال إلى أن تملكها ابن الأحمر صاحب غرناطة، و بقيت فى يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدو الكافر عندما طوى بساط بلاد الأندلس كما سنبه عليه، و الله غالب على أمره.

و ما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي فى هزيمة العقاب بإشبيلية: [الوافر] و قائله أراك تطيل فكرا كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر فى عقاب غدا سببا لمعركة العقاب
فما فى أرض أندلس مقام و قد دخل البلا من كل باب
و قول القائد أبى بكر ابن الأمير ملك شلب أبى محمد عبد الله ابن وزيرها يخاطب منصور بنى عبد المؤمن و قد التقى هو و أصحابه مع جماعة من الفرنج فتناصفوا، ثم كان الظفر للمسلمين: [الطويل]

و لما تلاقينا جرى الطعن بيننا فمنا و منهم طائحون عديد
و جال غرار الهند فينا و فيهم فمنا و منهم قائم و حصيد
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٤
فلا صدر إلا فيه صدر مثقف و حول الوريد للحسام و ررود
صبرنا و لا كهف سوى البيض و القنا كلانا على حرّ الجلاذ جليد
و لكن شددنا شدة فتبلدوا و من يتبلد لا يزال يحيد
فولوا و للسمر الطوال بهامهم ركوع و للبيض الرقاق سجود

و كان المذكور من فرسان الأندلس، و كان ابنه الفاضل أبو محمد غير مقصر عنه فروسيه و قدرا و أدبا و شعرا، و ولاء ناصر بنى عبد المؤمن مدينة قصر أبى دانس فى الجهة الغربية، و قتله ابن هود بإشبيلية، و زعم أنه يروم القيام عليه، و من شعره قوله فى ابن عمرو صاحب أعمال إشبيلية: [الكامل]

لا تياسن من الخلافة بعد ما ولى ابن عمرو خطه الأشراف
تبا لدهر هذه أفعاله يضع النوافج فى يدي كناف

[أخذ الإفنج كورة ماردة و الملك المظفر محمد بن المنصور بن الأفضس ملك بطليوس و ماردة]

رجع: و دخل العدو كورة ماردة من محمد بن هود سنة ست و عشرين و ستمائة، و كان مفتتح المصائب على يده، أعادها الله تعالى للإسلام! و هى قاعدة بلاد الجوف فى مدة العرب و العجم، و الحضرة المستجدة بعدها هى مدينة بطليوس، و بين ماردة و قرطبة خمسة أيام.

و ملك بطليوس و ماردة و ما إليها المظفر محمد بن المنصور بن الأفضس مشهور، و هو من رجال «القلائد» و «الذخيرة» و هو أديب ملوك عصره بلا مدافع و لا منازع، و له التصنيف الرائق، و التأليف الفائق، المترجم ب «التذكر المظفرى» خمسون مجلدا اشتمل على فنون و علوم من مغاز و سير و مثل و خبر و جميع علوم الأدب، و قال يوما: و الله ما يمنعنى من إظهار الشعر إلا كونى لا أقول مثل قول أبى العشائر بن حمدان: [الكامل]

أقرأت منه ما تخطّ يد الوغى و البيض تشكّل و الأسنة تنقط

و قول أبى فراس ابن عمه: [الوافر]

و جرّنا العوالى فى مقام تحدّث عنه ربّات الحجال

كأنّ الخيل تعلم من عليها ففى بعض على بعض تعالى

فأين هذا من قولى: [الوافر]

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٥

أنفت من المدام لأنّ عقلى أعزّ علىّ من أنس المدام

و لم أرتح إلى روض و زهر و لكن للحمائل و الحسام

إذا لم أملك الشّهوات قهرا فلم أبغى الشّفوف على الأنام

و له رحمه الله تعالى: [الخفيف]

يا لحظه زد فتورا ترد على اقتدارا

فالحظ كالسيف أمضا ه ما يرقّ غرارا

و ابنه المتوكل من رجال «القلائد» و «المسهب» و كان فى حضرة بطليوس كالمعتمد بن عباد بإشبيلية، قد أناخت الآمال بحضرتهما، و شدّت رحال الآداب إلى ساحتها، يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواسم بين جنتين، و ينظر الأدب منهما عن مقلتين، و المعتمد أشعر، و المتوكل أكتب.

[أبو عبد الله محمد الفازى (ترجمة)]

رجع: و قال الفاضل الكاتب أبو عبد الله محمد الفازى، و قيل: إنها وجدت برقعة فى جيبه يوم موته: [الكامل]

الروم تضرب فى البلاد و تغنم و الجور يأخذ ما بقى و المغرم

و المال يورد كلّ قشائله و الجند تسقط و الرعية تسلم

و ذوو التعين ليس فيهم مسلم إلا معين فى الفساد مسلم

أسفى على تلك البلاد و أهلها الله يلفظ بالجميع و يرحم

و قيل: إن هذه الأبيات رفعت إلى سلطان بلده، فلما وقف عليها قال بعد ما بكى:

صدق رحمه الله تعالى، و لو كان حيا ضربت عنقه!

و هذا الفازى أخو الشاعر الشهير الكاتب الكبير أبى زيد عبد الرحمن الفازى صاحب الأمداح فى سيد الوجود محمد صلى الله عليه و سلم، و هو كما قال فيه بعضهم: صاحب القلم الأعلى، و القدح المعلى، أبرع من ألف و صنف، و أبدع من قرط و شنف، فقد طاع القلم لبنانه، و النظم و النثر لببانه، كان نسيج وحده رواية و أخبارا، و وحيد نسجه رواية و ابتكارا، و فريد وقته خبرا و أخبارا، و صدر عصره إيرادا و إصدارا، صاحب فهم، و رافع أولوية علوم، أما الأدب فلا يسبق فيه مضماره، و لا يشق غباره، إن شاء إنشاء أنشى و وشى، سائل الطبع، عذب النبع، له فى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٦

مدح النبي صلى الله عليه وسلم، بدائع قد خضع لها البيان وسلم، أعجز بتلك المعجزات نظما ونثرا، وأوجز في تحبير تلك الآيات البيئات فجلا سحرا، ورفع للقوافي راية استظهار تخير فيها الأظهر، فعجم وعشر وشفع وأوتر، وأما الأصول فهي التي من فروعه، في متفرق منظومه ومنتور مجموعته، وأما النسب، فإلى حفظه انتسب، وأما الأيام والدول، ففي تاريخه الأواخر والأول، وقد سبك من هذه العلوم في مثوره وموزونه، ما يشهد بإضافتها إلى فنونه، وله سماع في الحديث وروايته، وفهم بقوانينه ودرأيه، سمع من أبي الوليد اليزيد بن عبد الرحمن بن بقى القاضي، ومن أبي الحسن جابر بن أحمد القرشي التاريخي، وهو آخر من حدث عنه، ومن أبي عبد الله التجيبي كثيرا وهو أول من سمع عنه في حياة الحافظ أبي الطاهر السلفي إذ قدم عليهم تلمسان، وأجازه الحافظ السهيلي وابن خلف الحافظ وغيرهما، وولد بعد الخمسين والخمسمائة، وتوفي بمراكش سنة ٦٣٧هـ، رحمه الله تعالى! انتهى ملخصا.

[أخذ الإفنج جزيرة ميورقة]

رجع: ولما ثارت الأندلس على طائفة عبد المؤمن كان الوالى بجزيرة ميورقة أبو يحيى بن أبي عمران التينملى فأخذها الفرنج منه، كذا قال ابن سعيد، وقال ابن الأبار: إنها أخذت يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع وعشرين وستمائة، وقال المخزومي في تاريخ ميورقة: إن سبب أخذها من المسلمين أن أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحد أعيانها، وليها سنة ست وستمائة، واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة، فأنفذ طريده بحرية وقطعة حربية، فعلم بها والى طرطوشة، فجهر إليها من أخذها، فعظم ذلك على الوالى، وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم، وكان ذلك رأيا مشؤوما، وقع بينه وبين الروم، وفي آخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بلغه أن مسطحا من برشلونة ظهر على يابسة، مركبا وآخر من طرطوشة انضم إليه، فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل [في] مرسى يابسة، ووجد فيه لأهل جنوة مركبا كبيرا، فأخذه و سار حتى أشرف على المسطح، فقاتله وأخذه، وظن أنه غالب الملوكة، وغاب عنه أنه أشأم من عاقر الناقة، وأن الروم لما بلغهم الخبر قالوا لملكهم وهو من ذرية أذفونش: كيف يرضى الملك بهذا الأمر

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٧

ونحن نقاتل بنفوسنا وأموالنا؟ فأخذ عليهم العهد بذلك، وجمع عشرين ألفا من أهل البلاد، و جهز في البحر ستة عشر ألفا، و شرط عليهم حمل السلاح، وفي سنة ست وعشرين وستمائة اشتهر أمر هذه الغزوة فاستعد لها الوالى، و ميز نيفا على ألف فارس من فرسان الحضرة والرعية مثلهم، ومن الرجال ثمانية عشر ألفا، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة، ومن سوء الاتفاق أن الوالى أمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر، فساقهم وضرب أعناقهم، وكان فيهم ابنا خاله، وخالهما أبو حفص بن سيرى ذو المكانة الوجيهة، فاجتمعت الرعية إلى ابن سيرى، فأخبروه بما نزل، وعزوه فيمن قتل وقالوا: هذا أمر لا يطاق، ونحن كل يوم إلى الموت نساق، وعاهدوه على طلب الثأر، وأصبح الوالى يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم، وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالى، وأخبره بأن الروم قد أقبلت، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع، وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر من جانب آخر وقال: إن أسطول العدو قد تظاهر، وقال: إنه عد سبعين شرعا، فصح الأمر عنده، فسمح لهم بالصفح والعفو، وعرفهم بخبر العدو، وأمرهم بالتجهز، فخرجوا إلى دورهم، كأنما نشروا من قبورهم، ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد، فإنهم عدوا مائة وخمسين قلعا، ولما عبر وقصد المرسى أخرج الوالى جماعة تمنعهم النزول، فباتوا على المرسى فى الرجل والخيل، وفى الثامن عشر من شوال، وهو يوم الاثنين، وقع المصافى، وانهمز المسلمون، وارتحل النصارى إلى المدينة، ونزلوا منها على الحربية الحزينة من جهة باب الكحل، ولم يزل الأمر فى شدة وقد أشرفوا على أخذ البلد، ولما رأى ابن سيرى أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى البادية، ولما كان يوم الجمعة

الحادى عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديدا، و لما كان يوم الأحد أخذ البلد، و أخذ منه أربعة و عشرون ألفا قتلوا على دم واحد، و أخذ الوالى، و عذب، و عاش بعد ذلك خمسة و أربعين يوما، و مات تحت العذاب، و أما ابن سيرى فإنه صعد إلى الجبل، و هو منيع لا ينال من تحصن فيه، و جمع عنده سنة عشر ألف مقاتل، و ما زال يقاتل إلى أن قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان و عشرين نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٨

و ستمائة، و جده من آل جبله بن الأيهم الغسانى، و أما الحصون فأخذت فى آخر رجب سنة ثمان و عشرين و ستمائة، و فى شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين إلى بلاد الإسلام، انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومى ملخصا.

[شعر بعض أهل جزيرة ميورقة]

و كان بميورقة جماعة أعلام و شعراء، و من شعر ابن عبد الولى الميورقى: [الخفيف]

هل أمان من لحظك الفتان و قوام يميل كالخيزران

مهجتى منك فى جحيم، و لكنّ جفونى قد متعت فى جنان

فتنتنى لواحظ ساحرات لست أخشى من فتنة الشيطان

و لما استولى النصارى على ميورقة فى التاريخ المتقدم ثار بجزيرة منورقة، و هى قريبه منها الجواد العادل العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشى، و كان وليها من قبل الوالى أبى يحيى المقتول، و تصالح مع النصارى على ضريبه معلومه، و اشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى، و ضبطها أحسن ضبط، قال أبو الحسن على بن سعيد: أخبرنى أحد من اجتمع به أنه لقي منه برا حجب إليه الإقامة فى تلك الجزيرة المنقطعة، و ذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف ضيقه و قد أثرت فى عنقه، فأمر له بإحسان و غنباز، و كتب معه: [البسيط]

حمالة السيف توهى جيد حاملها لا سيما يوم إسراع و إنجاز

و خير ما استعمل الإنسان يومئذ لحسم علتها لباس غنباز

و الغنباز عند أهل المغرب: صنف من الملبوس غليظ يستر العنق.

و أصل أبى عثمان من مدينة طليبره من غرب الأندلس، و قد ألفت باسمه التآليف المشهورة بالمغرب ككتاب «روح الشحر، و روح الشعر» و غيره.

و أخذ العدو منورقة بعد مدة.

[أخذ العدو جزيرة شقر و أخذ مدينة سرقسطه]

و أخذ العدو جزيرة شقر صلحا سنة تسع و ثلاثين و ستمائة فى آخرها.

و أخذ العدو- دمره الله تعالى!- مدينة سرقسطه يوم الأربعاء لأربع خلون من رمضان سنة اثنتى عشرة و خمسمائة.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٥٩

[أخذ شرق الأندلس شاطبة و غيرها و أخذ مدينة قرطبة و أخذ مدينة مرسية و حصار إشبيلية]

و كان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس شاطبة و غيرها و إجلاؤهم من يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه منها فى شهر رمضان سنة خمس و أربعين و ستمائة.

و كان استيلاء العدو- دمره الله تعالى!- على مدينة قرطبة يوم الأحد الثالث و العشرين لشوال من سنة ست و ثلاثين و ستمائة.

و كان تملك العدو مرسية صلحا ظهر يوم الخميس العاشر من شوال قدم أحمد بن محمد بن هود ولد والى مرسية بجماعة من وجوه النصارى، فملكهم إياها صلحا و لا حول و لا قوة إلا بالله [العلی العظيم!].

و حصر العدو أشيلية سنة خمس و أربعين و ستمائة.

و فى يوم الاثنين الخامس من شعبان للسنة بعدها ملكها الطاغية صاحب قشتالة صلحا بعد منازلها حولا كاملا و خمسة أشهر أو نحوها.

و قال ابن الأبار فى ترجمه أبى على الشلوين من «التكملة» ما صورته: و توفى بين یدى منازل الروم إشبيلية ليلة الخميس منتصف صفر سنة خمس و أربعين و ستمائة، و فى العام القابل ملكها الروم.

[واقعة أنيجه و لابن الأبار يرثى شيخه أبا الربيع الكلاعى، و قد مات فى حصار أنيجه]

و كانت وقعة أنيجه التى قتل فيها الحافظ أبو الربيع الكلاعى رحمه الله تعالى يوم الخميس لعشر بقين من ذى الحجة سنة أربع و ثلاثين و ستمائة، و لم يزل رحمه الله تعالى متقدما أمام الصفوف زحفا إلى الكفار مقبلا على العدو ينادى بالمنهزمين: أعن الجنة تفرون؟ حتى قتل صابرا محتسبا بَرَدَ الله تعالى مضجعه! و كان دائما يقول: إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها فى صغره، فكان كذلك، و رثاه تلميذه الحافظ أبو عبد الله بن الأبار بقصيدته الميمية الشهيرة التى أولها: [الطويل]

ألمّا بأشلاء العلاء و المكارم تقدّ بأطراف القنا و الصوارم

و عوجا عليها مآربا و مفازة مصارع خضّت بالطلا و الجماجم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٠

نحى و جوها فى الجنان و جبهة مجاسد من نسج الطبا و اللهازم

و هى طويلة.

[من شعر الحافظ أبى الربيع الكلاعى]

و من شعر الحافظ أبى الربيع المذكور: [الطويل]

توالت ليال للغواية جون و وافى صباح للرّشاد مبین

ركاب شباب أزمعت عنك رحلة و جيش مشيب جهّزته منون

و لا أكذب الرحمن فيما أجنّه و كيف و لا يخفى عليه جنين

و من لم يخل أن الرياء يشينه فمن مذهبي أن الرياء يشين

لقد ريع قلبى للشباب و فقده كما ريع بالعلق الفقيد ضنين

و آلمنى و خط المشيب بلّمتى فخطّ بقلبي للشجون فنون

و ليل شبابى كان أنضر منظرا و آنق مهما لا حظته عيون

فآها على عيش تكدر صفوه و أنس خلا منه صفا و حجون

و يا ويح فودى أو فؤادى كلّما تزيّد شيبى كيف بعد يكون

حرام على قلبى سكون بعرّة و كيف مع الشيب الممضّ سكون

و قالوا شباب المرء شعبة جنة فما لى عرانى للمشيب جنون

و قالوا شجاك الشيب حدثان ما أتى و لم يعلموا أن الحديث شجون

و قال أيضا: [الطويل]

أمولى الموالى ليس غيرك لى مولى و ما أحد يا ربّ منك بذا أولى
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦١
تبارك وجه و وجهت نحوه المنى فأوزعها شكرا و أوسعها طولا
و ما هو إلا وجهك الدائم الذى أقلّ جلى عليائه يخرس القولا
تبرأت من حولى إليك و قوتى فكن قوتى فى مطلبى و كن الحولا
و هب لى الرضا ما لى سوى ذاك مبتغى و لو لقيت نفسى على نيله الهولا

[ترجمة الحافظ الكلاعى و ذكر تصانيفه]

و كان - رحمه الله تعالى! - حافظا للحديث، مبرزاً فى نقده، تام المعرفة بطرقه، ضابطاً لأحكام أسانيدده، ذاكراً لرجاله، رياناً من الأدب، خطباً ببلنسية، و استقصى، و كان مع ذلك من أولى الحزم و البسالة، و الإقدام و الجزالة، حضر الغزوات و باشر القتال بنفسه، و أبلى بلاء حسناً، و روى عن أبى القاسم بن حبيش و طبقته، و صنف كتباً منها «مصباح الظلم» فى الحديث، و «الأربعون» عن أربعين شيخاً لأربعين من الصحابة، و «الأربعون السباعية» و «السبعيات» من حديث الصدى، و «حلية الأمالى فى الموافقات و العوالى» و «تحفة الوراد، و نجعة الرّواد» و «المسلسلات» و «الإنشادات» و «كتاب الاكتفاء» فى مغازى رسول الله صلى الله عليه و سلم و مغازى الثلاثة الخلفاء» و «ميدان السابقين، و حلبة الصادقين، المصدقين» فى غرض كتاب الاستيعاب، و لم يكمله، «و المعجم» فىمن وافقت كنيته زوجه من الصحابة، و «الإعلام، بأخبار البخارى الإمام» و «المعجم، فى مشيخة أبى القاسم بن حبيش» و «برنامج رواياته» و «جنى الرطب، فى سنى الخطب» و «نكتة الأمثال، و نفثة السحر الحلال» و «جهد النصيح، فى معارضة المعرى فى خطبة الفصيح» و «الامتثال لمثال المبهج فى ابتداع الحكم و اختراع الأمثال» و «مفاوضة القلب العليل، و منابذة الأمل الطويل، بطريقة المعرى فى ملقى السبيل» و «مجازفتى اللحن، لللاحن الممتحن» مائة مسألة ملغزة، «نتيجة الحب الصميم، و زكاة المنثور و المنظوم، فى مثال النعل النبوية على لايسها أفضل الصلاة و السلام» قال ابن رشيد: لو قال و زكاة النثر و التنظيم لكان أحسن، و له كتاب «الصحف المنتشرة، فى القطع المعشرة» و «ديوان رسائله» سفر، و «ديوان شعره» سفر، و كتب إلى الأديب الشهير أبى بحر صفوان بن إدريس المرسى عقب انفصاله من بلنسية سنة ٥٨٧: [الطويل]

أحنّ إلى نجد و من حلّ فى نجد و ما ذا الذى يغنى حنينى أو يجدى
و قد أوطنوها وادعين و خلفوا محبهم رهن الصباية و الوجد
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٢
تبين بالبين اشتياقى إليهم و وجدى فساوى ما أجنّ الذى أبدى
و ضاقت على الأرض حتى كأنها و شاح بخصر أو سوار على زند
إلى الله أشكو ما ألقى من الجوى و بعض الذى لاقيته من جوى يردى
فراق أخلاء و صدّ أحبّ كأنّ صروف الدهر كانت على وعد
فيا سرحتى نجد، نداء متيم له أبدا شوق إلى سرحتى نجد
ظمئت فهل ظل يبّرد لوعتى ضحيت فهل ظلّ يسكن من وجدى
و يا زمنا قد بان غير مذمم لعلّ لأنس قد تصرّم من ردّ
ليالى نجنى الأنس من شجر المنى و نقطف زهر الوصل من شجر الصّدّ

و سقيا لإخوان بأكناف حاجر كرام السجايا لا يحولون عن عهد
و كم لى بنجد من سرى ممجد و لا كابن إدريس أخى البشر و المجد
أخو هممة كالزهر فى بعد نيلها و ذو خلق كالزهر غبّ الحيا العدّ
تجمعت الأضداد فيه حميدة فمن خلق سبط و من حسب جعد
أيا راحلا أودى بصبرى رحيله و فلل من عزمى و ثلم من حدى
أتعلم ما يلقى الفؤاد لبعدهم ألا مذ نأتم ما يعيد و لا يبدى
فيا ليت شعرى هل تعود لنا المنى و عيش كما نممت حاشيتى برد
عسى الله أن يدنى السرور بقربكم فيدو، و منا الشمل منتظم العقد

[عبارة للقاضى أبى بكر بن العربى عن نزول العدو الكافر بلاد الأندلس]

و قال الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى فى «أحكام القرآن» عند تفسير قوله تعالى:
انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا [التوبة: ٤١] ما صورته: و لقد نزل بنا العدو- قصمه الله تعالى!- سنة سبع و عشرين و خمسمائة، فجاس ديارنا، و
أسر جيرتنا، و توسط بلادنا فى عدد حدد الناس عدده فكان كثيرا، و إن لم يبلغ ما حدوده، فقلت للوالى و المولى عليه: هذا عدو الله
قد حصل فى الشرك و الشبكة، فلتكن عندكم بركة، و لتكن منكم إلى نصره الدين المتعينة عليكم
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٣
حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا- يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار، فيحاط بهم، فإنه هالك لا محالة، و إن يسركم الله له
فغلبت الذنوب، و رجفت بالمعاصى القلوب، و صار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وجاره، و إن رأى المكيدة بجاره، فإننا لله و إنا
إليه راجعون، و حسبنا الله و نعم الوكيل!
و لا خفاء أن هذا كان قبل أخذ العدو الجزيرة و شرق الأندلس و سرقسطه و ميورقة و غيرها مما قدمنا ذكره، و البدايات، عنوان على
النهايات.

[قصيدة لأبى جعفر الوقشى البلنسى يمدح يوسف بن تاشفين و يصف حال الأندلس و يبحث على الجهاد]

و قال أبو جعفر الوقشى البلنسى نزىل مالمقة يمدح أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على: [الطويل]
أبت غير ماء بالنخيل و رودا و هامت به عذب الجمام برودا
و قالت لحاديها أثم زيادة على العشر فى وردى له فأزيدا
غلبتك ما هذا القنوع و ما أنا عهدتك لا تثنين عنه و ريدا
أنونا إذا ما كنت منه قريبه و ضبا إذا ما كان عنك بعيدا
ردى حضرة الملك الظليل رواقه لعمرى ففيها تحمدين و رودا
بحيث إمام الدين يوسع فضله جميع البرايا مبدئا و معيدا
أعاد إليها الأنس بعد شروده و أحيا لنا ما كان منه أبيدا
و لئن أيام الزمان بعدله و كانت حديدا فى الخطوب حديدا
فلا ليلة إلا يروكك حسنهما و لا يوم إلا عاد يفضل عيدا
و منها يصف حال الأندلس و يبحث على الجهاد: [الجهاد]

ألا ليت شعري هل يمدّ لي المدى فأبصر شمل المشركين طريدا
و هل بعد يقضى في النَّصاري بنصرة تغادرهم للمرهفات حصيدا
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٤
و يغزو أبو يعقوب في شنت ياقب يعيد عميد الكافرين عميدا
و يلقي على إفرنجهم عبء كلكل فيتركهم فوق الصّعيد هجودا
يغادرهم جرحى و قتلى مبرّحا ركوعا على وجه الفلا و سجودا
و يفتك من أيدي الطغاة نواعما تبدّلن من نظم الحجول قيودا
و أقبلن في خشن المسوح و طالما سحبن من الوشى الرّقيق برودا
و غبر منهن التراب تراثبا و خدّد منهنّ الهجير خدودا
فحقّ لدعى أن يفيض لأزرق تملكها دعج المدامع سودا
و يا لهف نفسي من معاصم طفلة تجاور بالقدّ الأليم نهودا
و يا أسفى ما إن يزال مردّدا على شمل أعياد أعيد بديدا
و آها بمد الصوت منتحبا على خلوّ ديار لو يكون مفيدا
و قال في آخرها، و هو مما استحسنته الناس:

حملت إليه من نظامى قلادةً يلقبها أهل الكلام قصيدا

غدت يوم إنشاد القريض وحيدة كما قصدت فى المعلومات وحيدا

و لما تمهدت الأندلس لعبد المؤمن و بنيه كان لهم فيها وقائع مع عدوّ الدين، و اجتاز إليها عبد المؤمن، ثم لما ولى بعده ملكه ابنه يوسف، دخل الأندلس سنة ٥٦٦هـ، و فى صحبته مائة ألف فارس من المغرب و الموحّدين، فنزل بإشبيلية، فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش صاحب شرق الأندلس مرسيةً و أعمالها و ما انضاف إليها، فحمل على قلبه، فمرض، فمات، و شرع السلطان يوسف فى استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج، فاتسعت مملكته بالأندلس، و أغارت سراياه على طليطلة إذ هى قاعدة ملكهم، ثم إنه حاصرها، فاجتمعت طائفة الفرنج عليه، و اشتد الغلاء فى عسكره، فرحل عنها، و عاد إلى حضرة ملكه مراکش المحروسة.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٥

[من القصائد الموجهة إلى أبي زكريا عبد الواحد بن أبي حفص ليغيث بلاد الأندلس من الإفرنج]

و لم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى- دمرهم الله تعالى!- على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك و السوقة لأخذ الثار، بالنظم و النثار، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق، و أعضل الداء أهل الغرب و الشرق، فمن القصائد الموجهة فى ذلك قول بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب صاحب إفريقية أبا زكريا عبد الواحد بن أبي حفص: [الكامل]

نادتك أندلس قلب نداءها و اجعل طواعيت الصليب فداءها

صرخت بدعوتك العلية فاحبها من عاطفاتك ما يقى حوباءها

و اشدد بجلبك جرد خيلك أزرها تردد على أعقابها أرزاءها

هى دارك القصوى أوت لإيالة ضمنت لها مع نصرها إيواءها

و بها عبيدك لا بقاء لهم سوى سبل الصّراعة يسلكون سواءها

خلعت قلوبهم هناك عزاءها لما رأت أبصارهم ما ساءها
 دفعوا لأبكار الخطوب و عونها فهم الغداة يصابرون عناءها
 و تنكرت لهم الليالي فاقتضت سزءها و قضتهم سزءها
 تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا لم يضمن الفتح القريب بقاءها
 رش أيها المولى الرحيم جناحها و اعقد بأرشيء النجاء رشاءها
 أشفى على طرف الحياة ذماؤها فاستبق للدين الحنيف ذماءها
 حاشاك أن تفنى حشاشتها و قد قصرت عليك نداءها و رجاءها
 طافت بطائفة الهدى آمالها ترجو بيحيى المرتضى إحياءها
 و استشرقت أمصارها لإمارة عقدت لنصر المستضام لواءها
 يا حسرتى لعقائل معقولة سثم الهدى نحو الضلال هداءها
 إيه بلنسيه و فى ذكراك ما يمرى الشؤون ذماءها لا ماءها
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٦
 كيف السبيل إلى احتلال معاهد شب الأعاجم دونها هيجاءها
 و إلى ربا و أباطح لم تعر من حلال الربيع مصيفها و شتاءها
 طاب المعزس و المقليل خلالها و تطلعت غرر المنى أثناءها
 بأبى مدارس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها
 و مصانع كسف الضلال صباحها فيخاله الرائي إليه مساءها
 ناحت بها الورقاء تسمع شدوها و غدت ترجع نوحها و بكاءها
 عجباً لأهل النار حلّوا جنه منها تمدّ عليهم أفياءها
 أملت لهم فتعجلوا ما أملوا أيامهم لا سؤغوا إملاءها
 بعدا لنفس أبصرت إسلامها فتوكفت عن حزبها إسلاءها
 أما العلوج فقد أحالوا حالها فمن المطيق علاجها و شفاءها
 أهدي إليها بالمكاره جارح للكفر كزه ماءها و هواءها
 و كفى أسى أن الفواجع جمه فمتى يقاوم أسوها أسواءها
 هيهات فى نظر الإمارة كف ما تخشاه، ليت الشكر كان كفاءها
 مولاي هاك معاده أنباءها لتتيل منك سعادة أبناءها
 جرّد ظباك لمحو آثار العدا تقتل ضراغمها و تسب ظباءها
 و استدع طائفة الإمام لغزوها تسبق إلى أمثالها استدعاءها
 لا غرو أن يعزى الظهور لملء لم يبرحوا دون الورى ظهراءها
 إن الأعاجم للأعارب نهبه مهما أمرت بغزوها أحياءها
 تالله لو دبّت لها دبابها لطوت عليها أرضها و سماءها
 و لو استقلت عوفها لقتالها لاستقبلت بالمقربات عفاءها
 أرسل جوارحها تجنك بصيدها صيدا و ناد لطحنها أرحاءها

هَبُوا لها يا معشر التوحيد قد آن الهبوب و أحرزوا عليها
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٧
إن الحفائظ من خلالكم التي لا يهرب الداعي بهن خلاءها
هي نكتة المحيا فحيها بها تجدوا سناها في غد و سناءها
أولو الجزيرة نصره إن العدا تبغى على أقطارها استيلاءها
نقصت بأهل الشرك من أطرافها فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها
حاشاكم أن تضمروا إلغاءها في أزمه أو تضمروا إقصاءها
خوضوا إليها بحرهما يصبح لكم رهوا و جوبوا نحوها ببداءها
وافى الصريخ مثوبا يدعو لها فلتجملوا قصد الثواب ثواءها
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة ساوت بها أحيائها شهداءها
هذي رسائلها تناجى بالتي وقفت عليها ريثها و نجاءها
و لربما أنهت سوابل للنهي من كائنات حملت إنهاءها
وفدت على الدار العزيزة تجتنى آلاءها أو تجتلى آراءها
مستسقيات من غيوث غياثها ما وقعه يتقدم استسقاءها
قد أمّنت في سبلها أهواءها إذ سوغت في ظلها أهواءها
و بحسبها أن الأمير المرتضى مترقب بفتوحها آناءها
في الله ما ينويه من إدراكها بكلاءه يفدى أبي أكلاءها
بشرى لأندلس تحب لقاءه و يحب في ذات الإله لقاءها
صدق الرواة المخبرون بأنه يشفى ضناها أو يعيد رواءها
إن دوخ العرب الصعاب مقادة و أبي عليها أن تطيع إباءها
فكان بفيلقه العرمرم فالقا هام الأعاجم ناسفا أرجاءها
أنذرهم بالبطشة الكبرى فقد نذرت صوارمه الرقاق دماءها
لا يعدم الزمن انتصار مؤيد تتسوغ الدنيا به سراءها
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٨
ملك أمم التيرين بنوره و أفاده لألاؤه لألاءها
خضعت جبابرة الملوك لعزه و نضت بكف صغارها خيلاءها
أبقى أبو حفص أمارته له فسما إليها حاملا أعباءها
سل دعوة المهدي عن آثاره تنبيك أن طباه قمن إزاءها
فغزا عداها و استرق رقابها و حمى حماها و استرد بهاءها
قبضت يدها على البسيطة قبضة قادت له في قدّه أمراءها
فعلى المشارق و المغارب ميسم لهدها شرف و سمه أسماءها
تظمو بتونسها بحار جيوشه فيزور زاخر موجهها زوراءها
وسع الزمان فضاها عنه جلاله و الأرض طرا ضنكها و فضاءها

ما أزمع الإيغال في أكنافها إلا تصيد عزمه زعماءها
 دانت له الدنيا وشمّ ملوكها فاحتلّ من رتب العلا شماءها
 ردت سعادته على أدراجها ليل الزمان و نهنت غلواءها
 إن يعتم الدول العريضة بأسه فالآن يولى جوده إعطاءها
 تقع الجلائل و هو راس راسخ فيها يوقع للسعود جلاءها
 كالطود في عصف الرياح و قصفها لا رهوها يخشى و لا هوجاءها
 سامى الدوائب فى أعزّ ذؤابة أعلت على قمم النجوم بناءها
 بركت بكل محلّة بركاته شفعا يبادر بذلها شفعاها
 كالغيث صبّ على البسيطة صوبه فسقى عمائرها و جاد قواءها
 ينميه عبد الواحد الأرضى إلى عليا فتجنح بأسها و سخاءها
 فى نبعه كرمت و طابت مغرسا و سمت و طالت نصره نظراءها
 ظهرت لمحتدها السماء و جاوزت لسرادقات فخارها جوزاءها
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٦٩
 فئه كرام لا تكفّ عن الوغى حتى تصرّح حولها أكفاءها
 و تكبّ فى نار القرى فوق الدّرا من عزة ألويها و كباءها
 قد خلّقوا الأيام طيب خلائق فثنت إليهم حمدها و ثناءها
 ينضون فى طلب النفائس أنفسا حبسوا على إحرازها أمضاءها
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٣٦٩
 و إذا انتضوا يوم الكريهة ييضهم أبصرت فيهم قطعها و مضاءها
 لا عذر عند المكرمات لهم متى لم تستبن لعفاتهم عذراءها
 قوم الأمير فمن يقوم بمالهم من صالحات أفحمت شعراءها
 صفحا جميلا أيها الملك الرضى عن محكمات لم نطق إحصاءها
 تقف القوافى دونهن حسيرة لا عتيا تخفى و لا إعياءها
 فعمل علياكم تسامح راجيا إصغاءها و مؤملا إغضاءها

[قصيدة لبعض الشعراء يندب طليطلة]

و من ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله تعالى للإسلام: [الوافر]
 لشكلك كيف تبسم الثغور سرورا بعد ما بثست ثغور
 أما و أبى مصاب هدّ منه ثبير الدين فاتصل الثبور
 لقد قصمت ظهور حين قالوا أمير الكافرين له ظهور
 ترى فى الدهر مسرورا بعيش مضى عنا لطيته السرور
 ليس بها أبى النفس شهيم يدير على الدوائر إذ تدور
 لقد خضعت رقاب كنّ غلبا و زال عتوها و مضى الثفور

و هان على عزيز القوم ذلّ و سامح في الحريم فتى غيور
 طليطلة أباح الكفر منها حماها، إن ذا نبأ كبير
 فليس مثلها إيوان كسرى و لا منها الخورتق و السدير
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٠
 محصنه محسنه بعيد تناولها و مطلبها عسير
 ألم تك معقلا للدين صعبا فذللته كما شاء القدير
 و أخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصير
 و كانت دار إيمان و علم معالمها التي طمست تنير
 فعادت دار كفر مصطفاه قد اضطربت بأهلها الأمور
 مساجدها كنائس، أى قلب على هذا يقترّ و لا يطير؟
 فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يكرّر ما تكررت الدهور
 و ينشر كل حسن ليس يطوى إلى يوم يكون به النشر
 أدبيلت قاصرات الطرف كانت مصونات مساكنها القصور
 و أدركها فتور فى انتظار لسرب فى لواحظه فتور
 و كان بنا و بالقينات أولى لو انضمت على الكل القبور
 لقد سخت بحالتهن عين و كيف يصحّ مغلوب قرير
 لئن غبنا عن الإخوان إنا بأحزان و أشجان حضور
 ندور كان للأيام فيهم بمهلكهم فقد وفت الندور
 فإن قلنا العقوبة أدركتهم و جاءهم من الله النكير
 فإنما مثلهم و أشد منهم نجور و كيف يسلم من يجور
 أنأمن أن يحل بنا انتقام و فينا الفسق أجمع و الفجور
 و أكل للحرام و لا اضطرار إليه فيسهل الأمر العسير
 و لكن جرأة فى عقر دار كذلك يفعل الكلب العقور
 يزول الستر عن قوم إذا ما على العصيان أرخيت الستور
 يطول على ليلى، رب خطب يطول لهوله الليل القصير
 خذوا ثار الديانة و انصروها فقد حامت على القتلى التسور
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧١
 و لا تهنوا و سلّوا كل غضب تهاب مضاربا عنه التّحور
 و موتوا كلكم فالموت أولى بكم من أن تجاروا أو تجوروا
 أصبرا بعد سبى و امتحان يلام عليهما القلب الصّبور
 فأمّ الصبر مذكار ولود و أمّ الصقر مقلات نزور
 تخور إذا دهينا بالرزايا و ليس بمعجب بقر يخور
 و نجبن ليس نزار، لو شجعنا و لم نجبن لكان لنا زئير

لقد ساءت بنا الأخبار حتى أمات المخبرين بها الخبير
 أتتنا الكتب فيها كل شرّ و بشرنا بأنحسنا البشير
 وقيل تجمعوا لفراق شمل طليطلة تملكها الكفور
 فقل في خطه فيها صغار يشيب لكربها الطفل الصغير
 لقد صم السميع فلم يعول على نيا كما عمى البصير
 تجاذبنا الأعادي باصطناع فينجذب المخول والفقير
 فباق في الديانة تحت خزي تثبطه الشويهه و البعير
 و آخر مارق هانت عليه مصائب دينه فله السعير
 كفى حزنا بأن الناس قالوا إلى أين التحول و المسير
 أنترك دورنا و نفر عنها و ليس لنا وراء البحر دور
 و لا ثم الضياع تروق حسنا نباكرها فيعجبنا البكور
 و ظلّ وارف و خرير ماء فلا قرّ هناك و لا حرور
 و يؤكل من فواكهها طرى و يشرب من جداولها نمير
 نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٢
 يؤدى مغرم فى كل شهر و يؤخذ كل صائفه عشور
 فهم أحمى لحوزتنا و أولى بنا و هم الموالى و العشير
 لقد ذهب اليقين فلا يقين و غر القوم بالله الغرور
 فلا دين و لا دنيا و لكن غرور بالمعيشه ما غرور
 رضوا بالرقّ لله ما ذا رآه و ما أشار به مشير
 مضى الإسلام فابكك دما عليه فما ينفى الجوى الدمع الغزير
 و نح و اندب رفاقا فى فلاة حيارى لا تحطّ و لا تسير
 و لا تجنح إلى سلم و حارب عسى أن يجبر العظم الكسير
 أنعمى عن مرشدنا جميعا و ما إن منهم إلا بصير
 و تلقى واحدا و يفر جمع كما عن قانص فرت حمير
 و لو أنا ثبتنا كان خيرا و لكن ما لنا كرم و خير
 إذا ما لم يكن صبر جميل فليس بنافع عدد كثير
 ألا رجل له رأى أصيل به مما نحاذر نستجير
 يكر إذا السيوف تناولته و أين بنا إذا ولت كرور
 و يطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح ما هذا الخطير
 عظيم أن يكون الناس طرا بأندلس قتيل أو أسير
 أذكر بالقراع الليث حرصا على أن يقرع البيض الذكور
 يبادر خرقها قبل اتساع لخطب منه تنحسف البدور
 يوسّع للذى يلقاه صدرا فقد ضاقت بما تلقى صدور

تنقّصت الحياة فلا حياة و ودع جيرة إذ لا مجير
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٣
 فليل فيه همّ مستكّن و يوم فيه شرّ مستطير
 و نرجو أن يتيح الله نصرنا عليهم، إنه نعم النصير

[القصيدُ أبي البقاء صالح بن شريف الرندي في رثاء الأندلس]

و من مشهور ما قيل في ذلك قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى: [البسيط]
 لكلّ شيء إذا ما تم نقصان فلا يغزّ بطيب العيش إنسان
 هي الأمور كما شاهدتها دول من سرّه زمن ساءته أزمان
 وهذه الدار لا تبقى على أحد و لا يدوم على حال لها شان
 يمزق الدهر حتما كلّ سابعه إذا نبت مشرفيات و خرصان
 و ينتضى كل سيف للفناء و لو كان ابن ذى يزن و الغمد غمدان
 أين الملوكة ذوو التيجان من يمن و أين منهم أكاليل و تيجان
 و أين ما شاده شدّاد في إرم و أين ما ساسه في الفرس ساسان
 و أين ما حازه قارون من ذهب و أين عاد و شداد و قحطان
 أتى على الكلّ أمر لا مرد له حتى قضوا فكأنّ القوم ما كانوا
 و صار ما كان من ملك و من ملك كما حكى عن خيال الطيف و سنان
 دار الزمان على دارا و قاتله و أمّ كسرى فما آواه إيوان
 كأنما الصعب لم يسهل له سبب يوما و لا ملك الدنيا سليمان
 فجائع الدهر أنواع منوعة و للزمان مسرّات و أحزان
 و للحوادث سلوان يسهلها و ما لما حلّ بالإسلام سلوان
 دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحد و انهّدّ ثهلان
 أصابها العين في الإسلام فارتزأت حتى خلت منه أقطار و بلدان
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٤
 فاسأل بلنسية ما شأن مرسية و أين شاطبة أم أين جيّان
 و أين قرطبة دار العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شان
 و أين حمص و ما تحويه من نزه و نهرها العذب فياض و ملآن
 قواعد كنّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبقى أركان
 تبكى الحنيفة البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان
 على ديار من الإسلام خالية قد أفقرت و لها بالكفر عمران
 حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس و صلبان
 حتى المحاريب تبكى و هي جامدة حتى المنابر ترثى و هي عيدان
 يا غافلا و له في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان

و ماشيا مرحا يلهيه موطنه أبعد حمص تغر المرء أوطان
 تلك المصيبة أنست ما تقدمها و ما لها مع طول الدهر نسيان
 يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
 و حاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
 و راتعين وراء البحر في دعه لهم بأوطانهم عز و سلطان
 أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
 كم يستغيث بنا المستضعفون و هم قتلى و أسرى فما يهتر إنسان
 ما ذا التقاطع في الإسلام بينكم و أنتم يا عباد الله إخوان
 ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار و أعوان
 يا من لذته قوم بعد عزهم أحال حالهم كفر و طغيان
 بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم و اليوم هم في بلاد الكفر عبدان
 فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
 و لو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر و استهوتك أحزان
 يا رب أم و طفل حيل بينهما كما تفرق أرواح و أبدان
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٥
 و طفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت و مرجان
 يقودها العالج للمكروه مكرهه و العين باكية و القلب حيران
 لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام و إيمان

انتهت القصيدة الفريدة، و يوجد بأیدی [بعض] الناس زيادات فيها ذكر غرناطة و بسطة و غيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف، و ما اعتمده منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه، و من له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة، و غالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة و جميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق و المغرب فكأن بعضهم لما أعجبه قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات، و قد بينت ذلك في «أزهار الرياض» فليراجع.

[من بديع نظم صالح بن شريف الرندي]

و صالح بن شريف الرندي صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس، و من بديع نظمه قوله: [السريع]
 سلم على الحى بذات العرار و حى من أجل الحبيب الديار
 و خل من لام على حبهما فما على العشاق في الدل عار
 و لا تقصر في اغتنام المنى فما ليالى الأنس إلا قصار
 و إنما العيش لمن راحه نفس تدارى و كؤوس تدار
 و روحه الراح و ريحانه في طيبه بالوصل أو بالعقار
 لا صبر للشىء على ضده و الخمر و الهم كماء و نار
 مدامة مدنية للمنى في رقة الدمع و لون النصار

مما أبو ريق أباريقها تنافست فيها النفوس الكبار
 معلّتي و البرء من علتي ما أطيّب الخمره لولا الخمار
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٦
 ما أحسن النار التي شكلها كالماء لو كف شرار الشرار
 و بي و إن عدّبت في حبه ببعده عن اقتراب المزار
 ظبي غرير نام عن لوعتي و لا أذوق النوم إلّا غرار
 ذو و جنه كأنها روضة قد بهر الورد بها و البهار
 رجعت للصبوة في حبه و طاعة اللهو و خلع العذار
 يا قوم قولوا بدمام الهوى أهكذا يفعل حب الصغار
 و ليلة تبّته أجفانها و الفجر قد فجر نهر النهار
 و الليل كالمهزوم يوم الوغى و الشهب مثل الشهب عند الفرار
 كأنما استخفى السها خيفة و طولب النجم بثار فثار
 لذاك ما شابت نواصي الدجا و طارح النسر أخاه فطار
 و في الثريا قمر سافر عن غرة غير منها السفار
 كأن عنقودا تتنّى به إذ صار كالعرجون عند السرار
 كأنها تسبك ديناراه و كفها يقتل منه السوار
 كأنما الظلماء مظلومة تحكم الفجر عليها فجار
 كأنما الصبح لمشتاقه عزّ غنى من بعد ذلّ افتقار
 كأنما الشمس و قد أشرقت وجه أبي عبد الإله استنار
 محمد محمد كاسمه شخص له في كل معنى يشار
 أما المعالي فهو قطب لها و القطب لا شك عليه المدار
 مؤتل المجد صريح العلا مهذب الطبع كريم التجار
 تزهي به لخم و ساداتها و تنتمى قيس له في الفخار
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٧
 يفيض من جود يديه على عافيه ما منه تحار البحار
 اليمن من يمناه حكم جرى و اليسر من شيمه تلك اليسار
 أخ صفا منه لنا واحد فالدهر مما قد جنى في اعتذار
 فإن شكرنا فضله مرة فقد سكرنا من نداء مرار
 و نحن منه في جوار العلا تدور للسعد بنا منه دار
 الحافظ الله و أسماؤه لذلك الجار و ذاك الجوار

[رسالة أبي المطرف بن عميرة المخزومي إلى ابن الأبار، في أخذ الفرنج بلنسية]

رجع: و قد رأيت أن أثبت هنا رسالة خاطب بها الكاتب البارع القاضي أبو المطرف بن عميرة المخزومي الشيخ الحافظ أبا عبد الله بن

الأبار، يذكر له أخذ العدو مدينةً بلنسيةً و هي:

[الطويل]

ألا فيئته للدهر تدنو بمن نأى و بقيا يرى منها خلاف الذى رأى

و يا من عذيرى منه يغدر من أوى إليه و لا يدري سوى خلف من وأى

ذخائر ما فى البر و البحر صيده فلا لؤلؤا أبقي عليه و لا وأى

أيها الأخ الذى دهش ناظرى لكتابه، بعد أن أدهش خاطرى من إغابه، و سرنى من بشره إيماض، بعد أن ساءنى من جهته إعراض، جرت على ذكره الصلة فقوم قدح نبعثها، و روى أكناف قلعته، و أحدث ذكرا من عهدنا الماضى فنقط وجه عروسه، و شعشع خمر كؤوسه، و سقى بماء الشيبه ثراه، و أبرز مثال مرآة الغريبة مرآه، فبورك فيه أحوذيا وصل رحمه، و كسا منظره من البهجة ما كان حرمة، و حيا الله تعالى منه وليا على سالف عهدى تمادى، و بشعار ودى نادى، و بين الإحسان شيمته، و أبان و البيان لا تنجاب عنه ديمته، و لا تغلو بغير قلمه قيمته و اعتذر عن كلمه تمنى تبديلها، و دعوة ذكر وجوم النادى لها، ثم أرسلها ترجف

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٨

بوادرها من خيفه، و توغر زعم صدور قلم و صحيفه، و تنذر من ريحائه قريش أن تمنعه عرفها، و تحديق إليه طرفها، و اتقى غارة على غرة، من الناجى برأس طمزة، و لم يأمن هجران المهاجر بعد وصله، و عكر عكرمة المغطى بحلمه على أبى جهله، و عند ذكر كتيبة خالد أحجم، و ذكر يوم أحاطت به فارس فاستلجم، فاعتذر عما قال، و أضم الحذر إلا أن يقال، فمهلا أيها الموفى على علمه، النافث بسحر قلمه، أ تظن منزلتك فى البلاغة و مهيعها لاحب، و منزعا بالعقول لاعب، تسفل و قد ترفعت، أو تخفى و إن تلفعت عرفناك يا سوده، و شهرت حلمه عطارد الملاحه و الجوده، فلم حين تهيب الأخذ الأوحى من قصى غطارفاها، و لو استثار من حفائظها تالدها و طارفاها، لم يذكر يد قومه عند أبيها، و قد رام خطه أشرف على تأيبيها، حين أهاب بكم لمهمه، و دعا منكم أخاه لأمه، و لو ذلك لما خلا له وجه الكعبة، و لا خلص من تلك المضايق الصعبة، و بأن أعرتموه نجدتكم الموصوفه، غلب على ما كان بأيدي صوفه، فكيف نجد اليد عند عمنا، أو نشخذ أسنة الألسنة لذننا، أو كيف نلقاكم بحدنا، و أبوكم بكر معدنا، و ما تيامنكم إلى سبأ بن يشجب، و إن أطلنا فيه التعجب، بالذى يقطع أرحامنا، و يمنع اشتباكنا و التحامنا، بعد أن شددنا فعالنا بفعالكم، و رأينا أقدامنا فى نعالكم، و لو شتمتم توعدتم بأسود سؤددكم عند الإقدام، و إلحاح إلحافكم فى ضرب الهام، لكن نقول إن قومنا لكرام، و لو شاؤوا كان لنا منهم شره و عرام، و أعود من حيث بدأ الأخ الذى أبته شوقى، و أطمع حلاوة عشرته باقيه فى حاسه ذوقى، طارحنى حديث مورد جف، و قطين خف، فيا لله لأتراب درجوا، و أصحاب عن الأوطان خرجوا، قصت الأجنحة و قيل طيروا، و إنما هو القتل أو الأسر أو تسيروا، فتفرقوا أيدي سبا، و انتشروا ملء الوهاد و الربا، ففى كل جانب عويل و زفره، و بكل صدر غليل و حسره، و لكل عين عبره، لا ترقأ من أجلها عبره؛ داء خامر بلادنا حين أتاه، و ما زال بها حتى سجي على موتاه، و شجا ليومها

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٧٩

الأطول كهلهما و فتاه، و أنذر بها فى القوم بحران أنيجه، يوم أثاروا أسدها المهيجه، فكانت تلك الحطمه طل الشؤبوب، و باكورة البلاء المصوب، أثكلتنا إخوانا أبكانا نعيمهم، و لله أحوذيههم و المعيههم، ذاك أبو ربيعنا، و شيخ جميعنا، سعد بشهادة يومه، و لم ير ما يسوءه فى أهله و قومه، و بعد ذلك أخذ من الأم بالمخفق، و هى بلنسية ذات الحسن و البهجة و الرونق، و ما لبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان، و أخرج من جسدها روح الإيمان، فبرح الخفاء، و قيل: على آثار منح ذهب العفاء، و انعطفت النوايب مفردة و مركبه كما تعطف الفاء، فأودت الخفه و الحصافه، و ذهب الجسر و الرصافه، و مزقت الحله و الشملة، و أوحشت الجرف و الرمله، و نزلت بالحارة وقعه الحره، و حصلت الكنيسه من جآذرها و طبائها على طول الحسره، فأين تلك الخمائل و نصرتها، و الجداول و خضرتها، و الأنديه و أرجها، و الأوديه و منرجها، و النواسم و هبوب مبتلها، و الأصائل و شحوب معتلها، دار ضاحكت الشمس بحرها

و بحيرتها، و أزهار ترى من أدمع الطل في أعينها ترذدها و حيرتها، ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها و شقرها، حتى أحاطت بجزيرة شقرها، فأها لمسقط الرأس هوى نجمه، و لفادح الخطب سرى كلمه، و يا لجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها، و روضة أجاد أبو إسحاق نعتها، و إنما كانت داره التي فيها دب، و على أوصاف محاسنها أكب، و فيها أتمه منيته كما شاء و أحب، و لم تعدم بعده محبين قشبيهم إليها ساقوه، و دمعهم عليها أراقوه، و قد أثبت من النظم ما يليق بهذا الموضع، و إن لم يكن له ذلك الموقع: [الطويل]

[قصيدة ختم بها أبو المطرف رسالته لابن الأبار]

أقلوا ملامى أو فقولوا و أكثروا ملومكم عما به ليس يقصر
و هل غير صب ما تنى عبراته إذا صعدت أنفاسه تتحدّر
يحن و ما يجدى عليه حينه إلى أربع معروفها متكر
و يندب عهدا بالمشقر فاللوى و أين اللوى منه و أين المشقر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٠
تغير ذاك العهد بعدى و أهله و من ذا على الأيام لا يتغير
و أقفر رسم الدار إلا بقيه لسائلها عن مثل حالى تخبر
فلم تبق إلا زفرة إثر زفرة ضلوعى لها تنقد أو تتفطر
و إلا اشتياق لا يزال يهزنى فلا غاية تدنو و لا هو يفتر
أقول لسارى البرق فى جنح ليلة كلانا بها قد بات بيكى و يسهر
تعرض مجتازا فكان مذكرا بعهد اللوى، و الشىء بالشىء يذكر
أتاوى لقلب مثل قلبك خافق و دمع سفوح مثل دمعك يقطر
و تحمل أنفاسا كومضك نارها إذا رفعت تبدو لمن يتنور
يقر لعينى أن أعين من نأى لما أبصرته منك عيناى تبصر
و أن يتراءك الخليط الذين هم بقلبي و إن غابوا عن العين حصر
كفى حزنا أنا كأهل محصب بكل طريق قد نفرنا و نفر
و أن كلينا من مشوق و شائق بنار اغتراب فى حشاه تسعر
ألا ليت شعرى و الأمانى ضلّه و قولى ألا يا ليت شعرى تحير
هل النهر عقد للجزيرة مثل ما عهدنا و هل حصباؤه و هى جوهر
و هل للصبا ذيل عليه تجره فيزور عنه موجه المتكسر
و تلك المغانى هل عليها طلاوة بما راق منها أو بما رق تحسر
ملاعب أفراس الصباة و الصبا تروح إليها تارة و تبكر
و قبلت ذاك النهر كانت معاهد بها العيش مطلول الخميلة أخضر
بحيث بياض الصبح أزرار جيبه تطيب و أردان النسيم تعطر
ليال بماء الورد ينضح ثوبها و طيب هواء فيه مسك و عنبر
و بالجبل الأدنى هناك خطا لنا إلى اللهو لا نكبو و لا نتعثر
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨١

جناب بأعلاه بهار و نرجس فأبيض مفتر الثنايا و أصفر
و موردنا في قلب قلت كمقله حذارا علينا من قذى العين تستر
و كم قد هبطنا القاع ندعر وحشه و يا حسنه مستقبلا حين يدعر
نقود إليه طائعا كل جارج له منخر رجب و خصر مضمر
إذا ما رميناه به عبثت به مدلل الأطفاف عنهن تكشر
تضم لأروى النيق حزان سهلها و قد فقدت فيها مهاء و جوذر
كذاك إلى أن صاح بالقوم صائح و أنذر بالبيت المشتت منذر
و فرقهم أيدي سبا و أصابهم على غرة منهم قضاء مقدر

[عود إلى الحديث عن تبدد شمل الجيرة، و طى بساط الجزيرة (الأندلس)]

و نعود إلى حيث كنا من تبدد شمل الجيره، و طى بساط الجزيرة:

أما شاطبة فكانت من قصبته شوساء الطرف، و ببطحائها عروسا في نهاية الظرف فتخلى عن الذرورة من أخلاها، و قيل للكافر: شأنك و أعلاها، فقبل أن تضع الحرب أوزارها، كشط عنها إزارها، فاستحل الحرمة أو تأولها، و ما انتظر أقصر المدء و لا أطولها، و أما تدمير فجاد عودها على الهصر، و أمكنت عدوها من القصر، فداجى الكفر الإيمان، و ناجى الناقوس الأذان، و ما وراءها من الأصقاع التي باض الكفر فيها و فرخ، و أنزل بها ما أنسى التاريخ و من أرخ، فوصفكم على الحادثة فيها أتى، و في ضمان القدرة الانتصاف من عدو عثا و عتا، و إنا لرجوها كرة تفك البلاد من أسرها، و تجبرها بعد كسرها، و إن كانت الدولة العامرية منعت بالقرع ذمارها، و رفعت على اليقاع نارها، فهذه العمرية بتلك المنقبه

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٢

أخلق، و العدو لها أهيب و منها أفرق، و ما يستوى نسب مع البقل نبت، و بالمستفيض من النقل ما ثبت، و آخر علت سماؤه على اللمس، و رسا ركنه في الإسلام رسو قواعد الخمس، و كان كما قال أبو حنيفة في خبر المسيح: جاءنا مثل الشمس، و الأيام العمرية هي أم الوقائع المحكية، و من شاء عدها من اليرموكية إلى الأركية، و هذه الأيام الزاهرة هي زبده حلاوتها، و سجدة تلاوتها، و إمامتها العظمى أيدها الله تعالى، تمهل الكافر مدء إملائه، ثم تشفى الإسلام من دائه، و تطهر الأرض بنجس دمائه، بفضل الله تعالى، المرجو زيادة نعمه قبلها و آلائه، راجعت سيدى مؤديا ما يجب أدائه، و مقتديا و ما كل أحد يحسن اقتدائه، و إنما ناضلت ثعليا، و عهدى بالنضال قديم، و ناظرت جدليا، و ما عندي للمقال تقديم، و أطعته في الجواب و لقرحتي يعلم الله تعالى نكول، و رويتى لو لا حق المسألة بطير الحوادث المرسله عصف مأكول، أتم الله تعالى عليه آلاءه، و حفظ مودته و ولاءه، و متع بخلته الكريمة أخلاءه، بمنه، و السلام، انتهت الرسالة.

[لابن رشيد في رحلته يصف أبا المطرف]

و رأيت في رحلة ابن رشيد لما ذكر أبا المطرف ما صورته: و أما الكتابة فقد كان حامل لوائها، كما قال بعض أصحابنا: ألان الله تعالى له الكلام، كما ألان الحديد لداود عليه السلام، و أخبرني شيخنا أبو بكر أن شيخه أبا المطرف رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم في النوم، فأعطاه حزمة أقلام، و قال: استعن بهذه على كتابتك، أو كما قال صلى الله عليه و سلم، انتهى.

[رسالة الحافظ ابن الأبار التي أجابه عنها القاضي أبو المطرف برسائله السابقة]

و بعد كتبي لهذه الرسالة رأيت أن أذكر رسالة الحافظ ابن الأبار التي هذه جواب عنها، و هي من غرض ما نحن فيه فلنقتبس نور البلاغة منها، و هي:

سيدى و إن وجم لها النادى، و جمجم بها المنادى، ذلك لصغرها عن كبره فى المعارف الأعلام، و صدرها يوغر صدور الصحائف و الأقلام، و أعيذ ريحانة قريش، أن تروح من حفيظتها فى جيش، قد هابتها مغاوير كل حى، و أجابتها الغطاريف من قصى، تدلف بين يديها كتيبة خالد، و تحلف لا- قدحت نار الهيجاء بزند صالد، أو تنصف من غامطها، و تقذف به وسط غظامطها، لا جرم أنى من جريمى حذر، و عما وضحت به قيمتى للمجد معتذر، إلا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٣

أن يصوح من الروض نبتة و جناته، و يصرح بالقبول حلمه و أناته، الحديث عن القديم شجون، و الشأن بتقاضى الغريم شؤن، فلا غرو أن أطارحه إياه، و أفاتحه الأمل فى لقياه، و من لى بمقالة مستقلة، أو إخاله غير مخله، أبت البلاغة إلا- عمادها، و مع ذلك فسأنيء عمادها، درجت اللدات و الأتراب، و خرجت الروم بنا إلى حيث الأعراب، أيام دفننا لأعظم الأخطار، و فجعنا بالأوطان و الأوطار، فالام ندارى برح الألم، و حتام نساى النجم فى الظلم، جمع أوصاب ما له من انفضاض، و مضض اغتراب شذ عن ابن مضاض، فلو سمع الأول بهذا الحادث، ما ضرب المثل بالحارث، يا لله من جلاء ليس به يدان، و ثناء قلما يسفر عن تدان، وعد الجدد العاثر لقاء فأنجز، و رام الجلد الصابر انقضاه فأعجز، هؤلاء الأخوان، مكثهم لا يمتع به أوان، و بينهم كنبت الأرض ألوان، بين هائم بالسرى، و نائم فى الثرى، من كل صنديد بطل، أو منطق غير ذى خطأ و لا- خطل، قامت عليه النوادب، لما قعدت [به] النوائب، و هجمت بيوتها لمنعاها الجماجم و الذوائب، و أما الأوطان المحبب عهدا بحكم الشباب، المشتبب فيها بمحاسن الأحباب، فقد ودعنا معاهدها وداع الأبد، و أخنى عليها الذى أخنى على لبد، أسلمها الإسلام، و انتظمها الانتثار و الاصطلام، حين وقعت أنسرها الطائرة، و طلعت أنحسها الغائرة، فغلب على الجذل الحزن، و ذهب مع المسكن السكن: [البسيط]

كزعزع الريح صكّ الدوح عاصفها فلم يدع من جنى فيها و لا غصن

و آها و واهما يموت الصبر بينهما موت المحامد بين البخل و الجبن

أين بلنسية و مغانيها، و أغاريد ورقها و أغانيها، أين حلى رصافتها و جسرها، و منزلا عطائها و نصرها؟ أين أفيأها تندى غضارة، و ذكاؤها تبدو من خضارة؟ أين جداولها

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٤

الطفاحة و خمائلها؟ أين جنائنها النفاحة و شمائلها؟ شذ ما عطل من قلائد أزهارها نحرها، و خلعت شعشعانية ضحاها بحيرتها و بحرها، فأية حيلة لا حيلة فى صرفها مع صرف الزمان، و هل كانت حتى بانة إلا رونق الحق و بشاشة الإيمان، ثم لم يلبث داء عقرها، أن دب إلى جزيرة شقرها، فأمر عذبتها التميمير، و ذوى غصنها التّضير، و خرست حمائم أدواحها، و ركدت نواسم أرواحها، و مع ذلك اقتحمت دانية، فتزحت قطوفها و هي دانية، و يا لشاطبة و بطحائها، من حيف الأيام و إنحائها، و لهفاه ثم لهفاه على تدمير و تلاعها، و جيان و قلاعها، و قرطبة و نوديبها، و حمص و واديبها، كلها رعى كلؤها، و دهى بالتفريق و التمزيق ملؤها، عض الحصار أكثرها، و طمس الكفر عينها و أثرها، و تلك البيرة بصدد البوار، و رية فى مثل حلقة السوار، و لا مريء فى المريء و خفضها على الجوار، إلى بنات، لواحق بالأمهات، و نواطق بهاك لأول ناطق بهات، ما هذا النفخ بالمعمور؟ أهو النفخ فى الصور؟ أم التفر عاريا من الحج المبرور؟ و ما لأندلس أصيبت بأشرفها، و نقصت من أطرافها؟ قوّض عن صوامعها الأذان، و صمّت بالنواقيس فيها الأذان، أجنّت ما لم تجن الأصقاع؟ أعقت الحق فحاق بها الإيقاع؟ كلا بل دانت للسنة، و كانت من البدع فى أحسن جنه، هذه المروانية مع اشتداد أركانها، و امتداد سلطانها، ألفت حب آل النبوة فى حبات القلوب، و ألوت ما ظفرت من خلعه و لا قلعه بمطلوب، إلى المرابطة بأقاصى الثغور، و المحافظة على معالى الأمور، و الركون إلى الهضبة المنيعه، و الروضة المريعه، من معاداة الشيعة، و موالاة الشريعة، فليت شعرى بم

استوثق تمحيصها؟ و لم تعلق بعموم البلوى تخصيصها، اللهم غفرا طالما ضر ضجر، و من الأنباء ما فيه مزدجر، جرى بما لم نقدره المقدر، فما عسى أن ينفث به المصدور؟ و ربنا الحكيم العليم، فحسبنا التفويض له و التسليم، و يا عجبا لبنى الأصفر أنسيت مرج الصفر، و رميها يوم اليرموك بكل أغلب غضنفر، دع ذا فالعهد به بعيد، و من أتعظ بغيره فهو سعيد، هلا تذكرت العامرية و غزواتها، و هابت العامرية و هبواتها، أما الجزيرة بخيلها محدقة، و بأحاديث فتحها مصدقة، هذا الوقت المرتقب، و الزمان الذى زجيت له الشهور و الحقب، و هذه الإمامة

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٥

أيدها الله تعالى هى المنقذة من أسرها، و المنفذة لسلطانها مراسم نصرها، فيتاح الأخذ بالنار، و يزاح عن الجنة أهل النار، و يعلم الكافر لمن عقبى الدار، حاورت سيدى بشار الفاجى الفاجع، و حاولت براء الجوى من جوابه بالعلاج الناجع، و بوذى لو تقع فى الأرجاء مصاقبة، فترفع من الإزراء معاقبة، أليس لديه أسو المكلوم، و تدارك المظلوم؟ و يديه أزممة المنثور و المنظوم، خيال يختر فى إقناع إياد، و صوغ ما لم يخطر على قلب زيد و لا يخاطر زياد، بست الجبال الطوامح، لما بست و أبو فتحها، و غيضت البحار الطوافح فمن يعبا بالركايا و متحها، أين أبو الفضل بن العميد من العماد الفاضل؟ و صمصامة عمرو من قلمه الفاضل، هذا مدرها الذى فعل الأفاعيل، و أحمدها الذى سما على إبراهيم و إسماعيل، و هما إماما الصناعة، و هماما البراعة و البراعة، بهما فخر من نطق بالضاد، و بسببهما حسدت الحروف الصاد، لكن دفعهم بالراح، و أعرى مدرعهم من المراح، و شرف دونهم ضعيف القصب على صم الرماح، أبقاه الله تعالى و بيانه صادق الأنواء، و زمانه كاذب الأسواء، و لا زال مكانه مجاوزا ذؤابة الجوزاء، و إحسانه مكافئا بأحسن الجزاء، و السلام.

[من إنشاء ابن الأبار فى كتابه المسمى «درر السمط، فى خبر السبط»]

و قد عرفت بابن الأبار فى «أزهار الرياض» بما لا مزيد عليه، غير أنى رأيت هنا أن أذكر فصولا مجموعة من كلامه فى كتابه المسمى «بدر السمط، فى خبر السبط».

قال رحمه الله تعالى: رحمه الله و بركاته عليكم أهل البيت، فروع النبوة و الرسالة، و ينابيع السماحة و البسالة، صفوة آل أبى طالب، و سراة بنى لؤى بن غالب، الذين جاءهم الروح الأمين، و حلّاهم الكتاب المبين، فقل فى قوم شرعوا الدين القيم، و منعوا اليتيم أن يقهر و الأيم، ما قدّم من أديم آدم أطيب من أيهم طينة، و لا أخذت الأرض أجمل من مساعيمهم زينة، لو لا هم ما عبد الرحمن، و لا عهد الإيمان، و عقد الأمان، ذؤابة غير أشابه، فضلهم ما شانهم نقص و لا شابه، سراة محلّتهم سر المطلوب، و قرار محبتهم حبات القلوب، أذهب الله

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٦

عنهم الرجس، و شرف بخلقهم الجنس، فإن تميزوا فبشريعتهم البيضاء، أو تحيزوا فلعشيرتهم الحمراء، من كل يعسوب الكتيبة، منسوب لنجيب و نجيبه، تجاره الكرم، و داره الحرم، نمته العرائين من هاشم أبى النسب الأصرح الأوضح، إلى نبعة فرعها فى السماء و مغرسها سرّة الأبطح، أولئك السادة أحيى و أفدى، و الشهادة بحبهم أوفى و أوودى، و من يكتمها فإنه آثم قلبه.

فصل: ما كانت خديجة لتأتى بخداج، و لا الزهراء لتلد إلا أزاهر كالشراج، مثل النحلة لا تأكل إلا طيبا، و لا تضع إلا طيبا، خلدت بنت خويلد ليزكو عقبها من الحاشر العاقب، و يسمو مرقبها على النجم الثاقب، لم تجد بمثلها المهارى، و لم يلد له غيرها من المهارى، آمت من بعولتها قبله، لتصل السعادة بحبلها حبله، ملاك العمل خواتمه، ربّ ربّات حجال، أنفذ من فحول رجال. [الوافر]

و ما التّأنيث لاسم الشّمس عيب و لا التّذكير فخر للهِلال

هذه خديجة من أخيها حزام أحزم، و لشعار الصدق من شعارات القص أزم، ركنت إلى الركن الشديد، و سدّدت للهدى كما هديت

للتسديد، يوم نبيء خاتم الأنبياء، و أنبيء بالنور المنزل عليه و الضياء.

فصل: و كان قبيل المبعث بين يدي لم الشعث، يثابر على كل حسنى و حسنة، و يجاور شهرا من كل سنة، يتحرى حراء بالتعهد، و يزجى تلك المدة فى التعبد، و ذلك الشهر المقصور على التبرر، المقذور فيه رفع التضمر، شهر رمضان، المنزل فيه القرآن، فيناه، لا ينام قلبه و إن نامت عيناه، جاءه الملك مبشرا بالنجح، و قد كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، فغمره بالكلاءة، و أمره بالقراءة، و كلما تحبس له غطه ثم أرسله، و إذا أراد الله بعبد خيرا عسله [الطويل].

تريدى إدراك المعالى رخيصة و لا بدّ دون الشهد من إبر التحل

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٧

كذلك حتى عاذ بالأرق من الفرق، و قد علق فاتحة العلق، فلا يجرى غيرها على لسانه، و كأنما كتبت كتابا فى جناه.

فصل: و لما أصبح يؤمّ الأهل، و توسط الجبل يريد السهل، و قد قضى الأجل، و ما نضا الوجل، نوجى بما فى الكتاب المسطور، و نودى كما نودى موسى من جانب الطور، فعرض له فى طريقه، ما شغله عن فريقه، فرفع رأسه متأملا، فأبصر الملك فى صورة رجل متمثلا، يشرفه بالنداء، و يعرفه بالاجتباء، و إنما عضد خبر الليلة بعيان اليوم، و أرى فى اليقظة مصداق ما أسمع فى النوم، ليحق الله الحق بكلماته، و على ما ورد فى الأثر، و سرد رواة السير، فذلك اليوم كان عيد فطرنا الآن و غير بدع و لا بعيد، أن يبدأ الوحي بعيد كما ختم بعيد اليوم أكملت لكم دينكم [المائدة: ٣] فبهت عليه السلام لما سمع نداء وراه، و ثبت لا يتقدم أمامه و لا يرجع وراه [الكامل].

توقف الهوى بى حيث أنت، فليس لى متقدم عنه و لا متأخر

ثم جعل فى الخوف و الرجاء، لا- يقبل وجهه فى السماء، إلا- تعرض له فى تلك الصورة، و عرض عليه ما أعطاه الله سبحانه من السورة، فيقف موقف التوكل، و يمسك حتى عن التأمل. [الطويل]

تتوق إليك النفس ثم أردّها حياء، و مثلى بالحياء حقيق

أذود سواد الطرف عنك، و ما له إلى أحد إلا إليك طريق

فصل: و فطنت خديجة لاحتباسه، فأمعنت فى التماسه، تزوجوا الودود الولود، و لفورها بل لفوزها بعثت فى طلبه رسلها، و انبعثت تأخذ عليه شعاب مكة و سبلها. [البسيط]

إن المحب إذا لم يستزر زارا

طال عليها الأمد، فطار إليها الكمد، و المحب حقيقه، من لا يفيق فيقه، بالنفس

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٨

النفيسة سماحه وجوده، و فى وجود المحبوب الأشرف وجوده. [الطويل]

كأن بلاد الله ما لم تكن بها و إن كان فيه الخلق طرا بلاقع

أقضى نهارى بالحديث و بالمنى و يجمعنى و الهمة بالليل جامع

نهارى نهار الناس حتى إذا دجى لى الليل هزتنى إليك المضاجع

لقد نبتت فى القلب منك محبة كما نبتت فى الزاحتين الأصابع

فصل: و بعد لأى ما ورد عليها، و قعد مضييفا إليها، فطفقت بحكم الإجلال تمسح أركانها، و تفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه، فباح لها بالسر المغيب، و قد لاح و سم الكرامة على الطيب المطيب، فعلمت أنه الصادق المصدوق، و حكمت بأنه السابق لا المسبوق،

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، و ما زالت حتى أزال ما به من الغمة، و قالت: إنى لأرجو تكون نبي هذه الأمة. [البسيط]

إن تفرست فيك الخير أعرفه و الله يعلم أن ما خاننى البصر

أنت النبيّ و من يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر

لا- ترهب فسوف تبهر، و سيبدو أمر الله تعالى و يظهر، أنت الذى سجعت به الكهان، و نزلت له من صوامعها الرهبان، و سارت بخبر كرامته الركبان، أنت الذى ما حملت أخفّ منه حامل، و درّت ببركته الشاة فإذا هي حافل. [المنسرح]

و أنت لما ولدت أشرقت ال أرض و ضاءت بنورك الأفق

فنحن فى ذلك الضياء و فى ال نور و سبل الرّشاد نخترق

فصل: و ما لبثت أن غلقت أبوابها، و جمعت عليها أثوابها، و انطلقت إلى ورقة بن نوفل، تطلبه بتفسير ذلك المجمع، و كان يرجع إلى عقل حصيف، و يبحث عن يبعث بالدين الحنيف، فاستبشر به ناموسا، و أخبر أنه الذى كان يأتي موسى، فازدادت إيماننا،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٨٩

و أقامت على ذلك زمانا، ثم رأت أن خبر الواحد قد يلحقه التنفيذ، و درت أن المجتهد لا يجوز له التقليد، طلب العلم فريضة على كل مسلم، فرجعت أدراجها فى ارتياد الإقناع، و ألقى فى روعها إلقاء الخمار و القناع، فهناك وضح لها البرهان، و صحّ لها أن الآتى ملك لا شيطان.

[الطويل]

تولى عليه الروح من عند ربّه ينزل من جوّ السماء و يرفع

نشاوره فيما نريد و قصدنا إذا ما اشتهى أنا نطيع و نسمع

فصل: سبقت لها من الله تعالى الحسنى، فصنعت حسنا و قالت حسنا، و من يؤمن بالله يهد قلبه، ما فتر الوحي بعدها، و لا مطل الحق الحى و عدها، وعد الله لا يخلف الله وعده، دانت لحب ذى الإسلام، فحياها الملك بالسلام، من الملك السلام، من كان لله كان الله

له، أعنت غناء الأبطال، فغناها لسان الحال. [البسيط]

هل تذكّرين فدتك النفس مجلسنا يوم التقينا فلم أنطق من الحصر

لا أرفع الطّرف حولي من مراقبة بقى علىّ، و بعض الحزم فى الحذر

يسرت لاحتمال الأذى و النصب، فبشرت بيت فى الجنة من قصب، هل أمنت إذ آمنت من الرعب، حتى غنيت عن الشعب بما فى الشعب. [البسيط]

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتىّ تلعق الصّبرا

واها لها احتملت عض الحصار، و ما أطاقت فقد النبي المختار. [الوافر]

يطول اليوم لا ألقاك فيه و شهر نلتقى فيه قصير

و الحبيب سمع المحبّ و بصره، و له طول محياه و قصره. [الرمل]

أنت كلّ الناس عندي فإذا غبت عن عيني لم ألق أحد

مكثت للرياسة مواسية و آسية، فثلثت فى بحبوحة الجنة مريم و آسية، ثم ربت البتول

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٠

فبرعت، نطقت بذلك الآثار و صدعت، خير نساء العالمين أربع.

فصل: إلى البتول سير بالشرف التالد، و سبق الفخر بالأُم الكريمة و الوالد حلت فى الجيل الجليل، و تحلت بالمجد الأثيل، ثم تولت إلى الظل الظليل [الوافر].

و ليس يصح فى الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

و أبيها إن أم أبيها، لا تجد لها شبيها، نثره النبي، و طلبه الوصى، و ذات الشرف المستولى على الأمد القصى، كلّ ولد الرسول درج فى

حياته، و حملت هي ما حملت من آياته، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لا فرع للشجرة المباركة من سواها، فهل جدوى أوفر من جدواها، والله أعلم حيث يجعل رسالته، حفت بالتطهير والتكريم، وزفت إلى الكفو الكريم، فوردنا صفو العارفة والمنة، و ولدا سيدي شباب أهل الجنة، عوضت من الأمتعة الفاخرة، بسيدي الدنيا والآخرة، ما أثقل نحوها ظهرا، ولا بذل غير درعه مهرا، كان صفر اليمين من البيضاء والصفراء، وبحالة لا حيلة معها في إهداء الحلة السيرة، فصاهره الشارع وخالله.

وقال في بعض صلوك لا مال له، نرفع درجات من نشاء.

فصل: [الطويل]

أ تنتهب الأيام أفلاذ أحمد و أفلاذ من عاداهم تتعدّد
و يضحى و يظما أحمد و بناته و بنت زياد و ردها لا يصرد
أفى دينه فى أمنه فى بلاده تضيق عليهم فسحة تتورد
و ما الدين إلا دين جدّم الذى به أصدروا فى العالمين و أوردوا
انتهى ما سنع لى ذكره من «درر السمط» و هو كتاب غاية فى بابه، و لم أورد منه غير ما ذكرته، لأين فى الباقي ما تشم منه رائحة التشيع، و الله سبحانه يسامحه بمنه و كرمه و لطفه.

رجع إلى ما كنا بصده فنقول: قد ذكرنا فى الباب الثانى رسالة أبى المطرف بن عميرة

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩١

إلى أبى جعفر بن أمية، و هى مشتملة على التلهف على الجزيرة الأندلسية، حين أخذ العدو بلسية، و ظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقى من الأندلس، فراجعها فيما سبق، و إن كان التناسب التام فى ذكرها هنا فالمناسبة هناك حاصلة أيضا، و الله سبحانه الموفق. و ذكرنا هنالك أيضا جملة غيرها من كلامه - رحمه الله تعالى! - تتعلق بهذا المعنى و غيره، فلتراجع ثمّة.

[للأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبى عبد الله محمد بن الحداد الوادى آشى نزيل تلمسان، فى ضياع بلاد الأندلس]

و رأيت أن أثبت هنا ما رأيته بخط الأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبى عبد الله محمد بن الحداد الوادى آشى نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ما صورته: حدثنى الفقيه العدل سيدي حسن ابن القائد الزعيم الأفضل سيدي إبراهيم العراف أنه حضر مرة لإنزال الطلسم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة من غرناطة بسبب البناء و الإصلاح، و أنه عاينه من سبعة معادن مكتوبا فيه: [البسيط]

إيوان غرناطة الغراء معتبر طلسمه بولاء الحال دوار

و فارس روجه ريح تدبره من الجماد، و لكن فيه أسرار

فسوف يبقى قليلا ثم تطرقه دهيا يخرّب منها الملك و الدار

و قد صدق قائل هذه الأبيات، فإنه طرقت الدهياء ذلك القطر الذى ليس له فى الحسن مثال، و نسل الخطب إليه من كل حدب و انثال، و كل ذلك من اختلاف رؤسائه و كبرائه، و مقدّميه و قضاته و أمرائه و وزرائه، فكلّ يروم الرياسة لنفسه، و يجر نارها لقرصه، و النصرى - لعنهم الله تعالى! - يضربون بينهم بالخداع و المكر و الكيد، و يضربون عمرا منهم بزيد، حتى تمكنوا من أخذ البلاد، و الاستيلاء على الطارف و التلاد، قال الرانس القاضى العلامة الكاتب الوزير أبو يحيى بن عاصم رحمه الله تعالى فى كتابه «جنة الرضا، فى التسليم لما قدر الله تعالى و قضى» ما صورة محل الحاجة منه: و من استقرأ التواريخ المنصوصة، و أخبار الملوك المقصوصة، علم أن النصرى - دمرهم الله تعالى! - لم يدر كوا فى المسلمين ثارا، و لم يرحضوا عن أنفسهم عارا، و لم يخربوا من الجزيرة منازل و ديارا، و لم يستولوا عليها بلادا جامعة و أمصارا، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، و اجتهادهم فى وقوع الافتراق بين

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٢

المسلمين و الاختلاف، و تضييهم بالمكر و الخديعة بين ملوك الجزيرة، و تحريشهم بالكيد و الخلافة بين حماتها في الفتن المبيرة، و مهما كانت الكلمة مؤتلفة، و الآراء لا مفترقة و لا مختلفة، و العلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة، فالحرب إذ ذاك سجال، و لله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال، و للممانعة في غرض المدافعة ميدان رحب و مجال، و روية و ارتجال.

إلى أن قال: و تطاولت الأيام ما بين مهادنة و مقاطعة، و مضاربة و مقارعة، و منازل و منازعة، و موافقة و ممانعة، و محاربة و موادة، و لا- أمل للطاغية إلا- في التمرس بالإسلام و المسلمين، و أعمال الحيلة على المؤمنين، و إضمار المكيدة للموحددين، و استبطان الخديعة للمجاهدين، و هو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، و أنه منطو لأهله على المقصد الأسنى، و مهتم بمراعاة أمورهم، و ناظر بنظر المصلحة لخاصتهم و جمهورهم، و هو يسر حسوا في ارتغائه، و يعمل الحيلة في التماس هلك الوطن و ابتغائه، فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال، و تصدق هذا الكذب بوجه أو بحال، و ليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه، و عرض هذا المسموع على مدركات حسه، و راجع أوليات عقله و تجريبات حدسه، و قاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه، فأنا أنا شدة الله هل بات قط بمصالح النصارى و سلطانهم مهتما، و أصبح من خطب طرقهم مغتما، و نظر لهم نظر المفكر في العاقبة الحسنه، أو قصد لهم قصد المدبر في المعيشة المستحسنة، أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القرية أربابهم و صلبانهم، أو عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أحبارهم و رهبانهم، فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث، و لم يشرب قلبه حب التلث، و يكون صادق اللهجة، منصفاً عند قيام الحجّة، فسيترف أن ذلك لم يخطر له قط على خاطر و لا مر له ببال، و أن عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط و بفعلة ذا اهتبال، و إن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال، و أشد على قلبه من وقع النبال، هذا و عقده التوحيد، و صلواته التحميد، و ملته الغراء، و شريعته البيضاء، و دينه الحنيف القويم، و نبيه الرؤوف الرحيم، و كتابه القرآن الحكيم، و مطلوبه بالهداية الصراط المستقيم، فكيف نعتقد هذه المريبة الكبرى، و المنقبة الشهري، لمن

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٣

عقده التلث، و دينه المليث، و معبوده التصليب، و تسميته التصليب، و ملته المنسوخة، و قضيته المنسوخة، و ختانه التغطيس، و غافر ذنبه القسيس، و ربه عيسى المسيح، و رأيه ليس البين و لا الصحيح، و أن ذلك الرب قد صرّج بالدماء، و سقى الخل عوض الماء، و أن اليهود قتلته مصلوبا، و أدركته مطلوبا، و قهرته مغلوبا، و أنه جزع من الموت و خاف، إلى سوى ذلك مما يناسب هذه الأقاويل السخاف، فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة، من الخير مقدار الذرة، أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة؟ اللهم احفظ علينا العقل و الدين، و اسلك بنا سبيل المهتدين.

[وصف ابن الحداد لخزانة الدار النصرية و ما كان فيها من المتاع و التحف]

ثم قال بعد كلام ما صورته: كانت خزانة هذه الدار النصرية مشتملة على كل نقيسه من الياقوت، و يتيمه من الجوهر، و فريده من الزمرد، و ثمينه من الفيروزج، و على كل واق من الدرود، و خام من العدة، و ماض من الأسلحة، و فاخر من الآلة، و نادر من الأمتعة، فمن عقود فذة، و سلوك جمه، و أقرات تفضل على قرطى مارية نفاسة فائقة و حسنا رائقا، و من سيوف شواذ في الإبداع غرائب في الإعجاب، منسوبات الصفائح في الطبع، خالصات الحلوى من التبر، و من درود مقدرة السرد، متلاحمة النسج، واقية للناس في يوم الحرب، مشهورة النسبة إلى داود نبى الله، و من جواشن سابغة اللبسة، ذهبية الحلية، هندية الضرب، ديباجية الثوب، و من بيضات عسجديه الطرق، جوهرية التنزيد، زبرجدية التقسيم، ياقوتية المركز، و من مناطق لجينية الصوغ، عريضة الشكل، مزججة الصفح، و من درق لمطية، مصمته المسام، لينه المجسه، معروفة المنعة، صافية الأديم، و من قسى ناصعة الصبغة، هلالية الخلقه، منعطفة الجوانب، زارية بالحواجب، إلى آلات فاخرة من أوتار نحاسية، و منابر بلورية، و طيافير دمشقية، و سبحات زجاجية، و صحاف صينية، و أكواب عراقية، و أقداح طباشيرية، و سوى ذلك مما لا يحيط به الوصف، و لا يستوفيه العد، و كل ذلك التهبه شواظ الفتنة، و التقمه تيار

الخلافة و الفرقة، فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٤

بمثله، و تقصر ديار الملوك المؤتلة النعمة عن بعضه فضلا عن كله، انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

[انحياز المسلمين إلى غرناطة بعد استيلاء الفرنج على قواعد بلاد الأندلس]

رجع: و لما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة و إشبيلية و طليطلة و مرسية و غيرها انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة و المرية و مالقة و نحوها، و ضاق الملك بعد اتساعه، و صار تين العدو يلتقم كل وقت بلدا أو حصنا، و يهصر من دوح تلك البلاد غصنا، و ملك هذا النزر اليسير الباقي من الجزيرة ملوك بنى الأحمر، فلم يزالوا مع العدو في تعب و ممارسة كما ذكره ابن عاصم قريبا، و ربما أثنوا في الكفار كما علم في أخبارهم، و انتصروا بملوك فاس بنى مرين، في بعض الأحيان.

[قصد ملوك الإفرنج غرناطة]

و لما قصد ملوك الإفرنج السبعة في المائة الثامنة غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يعيشوا لصاحب المغرب من بنى مرين يستجدونه، و عينوا للرسالة الشيخ أبا إسحاق بن أبي العاص و الشيخ أبا عبد الله الطنجالي و الشيخ ابن الزياد البلشي. نفع الله تعالى بهم! ثم بعد سفرهم نازل الإفرنج غرناطة بخمسة و ثلاثين ألف فارس و نحو مائة ألف رجل مقاتل، و لم يوافقهم سلطان المغرب، فقضى الله تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كسر النصراني في الساعة التي كسر خواتمهم فيها صاحب المغرب، و ظهرت في ذلك كرامة لسيدى أبا عبد الله الطنجالي رحمه الله تعالى!.

[بنو الأحمراء و حروبهم و جهادهم إلى نهاية ملك المسلمين بالأندلس]

ثم إن بنى الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجبل كانوا في جهاد و جلال في غالب أوقاتهم، و لم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتهم الهرم الذي يلحق الدول، فلما كان زمان السلطان أبا الحسن على بن سعد النصراني الغالبى الأحمرى، و اجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل قد بويع بمالقة، بعد أن جاء به [بعض] القواد من عند النصراني و بقى بمالقة برهه من الزمان، ثم ذهب إلى أخيه، و بقى من بمالقة من القواد و الرؤساء فوضى، و آل الحال إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبا الحسن، و انقضت الفتنة، و استقل السلطان أبو الحسن بملك ما بقى بيد المسلمين من بلاد الأندلس، و جاهد المشركين، و افتتح عدة أماكن، و لاحت له بارقة الكرة على العدو الكافر، و خافوه، و طلبوا هدنته، و كشرت جيوشه، فأجمع على عرضها كلها بين يديه، و أعد لذلك

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٥

مجلسا أقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة غرناطة، و كان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر الحجة عام اثنين و ثمانين و ثمانمائة، و لم تزل الجنود تعرض عليه كل يوم إلى الثانى و العشرين من محرم السنة التي تليها، و هو يوم ختام العرض، و كان معظم المنتزهين و المتفرجين بالسيك، و ما قارب ذلك، فبعث الله تعالى سيلا عرما على وادى حدره بحجارة و ماء غزير كأفواه القرب، عقابا من الله سبحانه و تأديبا لهم لمجاهرتهم بالفسق و المنكر، و احتمل الوادى ما على حافتيه من المدينة من حوانيت و دور و معاصر و فنادق و أسواق و قناطر و حدائق، و بلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم، و لم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد، و كان بين رؤساء الإفرنج في ذلك الوقت اختلاف، فبعضهم استقل بملك قرطبة، و بعض بإشبيلية، و بعض بشريش، و على ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات، و ركن إلى الراحة، و أضاع الأجناد، و أسند الأمر إلى بعض وزرائه، و احتجب عن

الناس، ورفض الجهاد والنظر في الملك، ليقضى الله تعالى ما شاء، وكثرت المظالم والمغارم، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه، وكان أيضا قد قتل كبار القواد وهو يظن أن النصارى لا يغزون بعد البلاد، ولا تنقضى بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد، واتفق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها بعد حروب، وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد، وذلك أن كان للسلطان أبى الحسن ولدان محمد و يوسف و هما من بنت عمه السلطان أبى عبد الله الأيسر، وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لها منه بعض ذرية، وكان حظية عنده مقدمة فى كل قضية، فخياف أن يقدم أولاد الرومية، على أولاد بنت عمه السنية، و حدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب، لميل بعضهم إلى أولاد الحره، و بعض إلى أولاد الرومية، و كان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمد حدوه و ضربوه، و لما تم أمد الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الأولاد، و تشكى الناس مع ذلك بالوزراء و العمال لسوء ما عاملوا به الناس من

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٦

الحييف و الجور، فلم يصغ إليهم، و كثر الخلاف و اشتد الخطب، و طلب الناس تأخير الوزير، و تفاقم الأمر، و صح عند النصارى- لعنهم الله تعالى! ضعف الدولة و اختلاف القلوب، فبادروا إلى الحامة فأخذوها غدرا آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع و ثمانين و ثمانمائة، و غدوا للقلعة، و تحصنوا بها، ثم شرعوا فى أخذ البلد، فملؤوا الطرق خيلا و رجالا، و بذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين، و نهبوا الحریم، و الناس فى غفلة نيام من غير استعداد كالسكارى، فقتل من قضى الله تعالى بتمام أجله، و هرب البعض، و ترك أولاده و حريمه، و احتوى العدو على البلد بما فيه، و خرج العامة و الخاصة من أهل غرناطة عند ما بلغهم العلم، و كان النصارى عشرة آلاف بين ماش و فارس، و كانوا عازمين على الخروج بما غنموه، و إذا بالسرعان من أهل غرناطة و صلوا، فرجع العدو إلى البلد، فحاصرهم المسلمون، و شددوا فى ذلك، ثم تكاثر المسلمون خيلا و رجالا من جميع بلاد الأندلس، و نازلوا الحامة، و طمعوا فى منع الماء عن العدو، و تبين للعامة أن الجند لم ينصحوا، فأطلقوا ألسنتهم بأقبح الكلام فيهم و فى الوزير، و بينما هم كذلك و إذا بالندير جاء أن النصارى أقبوا فى جميع عظيم لإغاثة من بالحامة من النصارى، فأقنع جند المسلمين من الحامة، و قصدوا ملاقاة الواردين من بلاد العدو، و لما علم بهم العدو و لّوا الأدبار من غير ملاقاة محتجين بقلتهم، و كان رئيسهم صاحب قرطبة.

[موقعة «الحامة» و «لوشة» و «مالقة و بلش» و «رندة» و حصار «مالقة»]

ثم إن صاحب إشبيلية جمع جندا عظيما من جيش النصارى الفرسان و الرجالة، و أتى لنصرة من فى الحامة من النصارى، و عند ما صح هذا عند العسكر اجتمعوا، و أشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد و لا استعداد، و الصلاح الرجوع إلى غرناطة ليستعد الناس و يأخذوا ما يحتاج إليه الحصار من العدة و العدد، فعندما أقنع المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون، و تشاوروا فى إخلاتها أو سكنائها، و اتفقوا على الإقامة بها، و حصنها، و جعلوا فيها جميع ما يحتاج إليه، و انصرف صاحب إشبيلية، و ترك أجناده، و فرق فيهم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٧

الأموال، ثم عاد المسلمون لحصارها، و ضيقوا عليها، و طمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى فى غفلة عنه، و دخل على النصارى جملة وافر من المسلمين، و خاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى، فعادوا عليهم، و تردى بعضهم من أعلى الجبل، و قتل أكثرهم، و كانوا من أهل بسطة و وادى آش، فانقطع أمل الناس من الحامة، و وقع الإياس من ردها.

و فى جمادى الأولى من السنة تواترت الأخبار أن صاحب قشتالة أتى فى جنود لا تحصى و لا تحصر، فاجتمع الناس بغرناطة، و تكلموا فى ذلك، و إذا به قد قصد لوشة و نازلها قصدا أن يضيفها إلى الحامة، و جاء بالعدة و العدد، و أغارت على النصارى جملة من المسلمين، فقتلوا من لحقوه، و أخذوا جملة من المدافع الكبار، ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة، و ناوشوا النصارى،

فالجؤوهم إلى الخروج عن الخيام، وأخذوها وغيرها، فهرب النصارى، وتركوا طعاما كثيرا وآلة ثقيلة، وذلك فى السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

وفى هذا اليوم بعينه هرب الأميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفا من أبيهما أن يفتك بها بإشارة حظيته الرومية ثريا، واستقرا بوادى آش، وقامت بدعوتهما، ثم بايعتهما تلك البلاد المريئة وبسطه وغرناطة، وهب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة. وفى صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع جميع رؤساء النصارى، وقصدوا قرى مالقة وبلش، فى نحو الثمانية آلاف، وفيهم صاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب إستجة وصاحب أنتقيرة وغيرهم، فلم يتمكنوا من أخذ حصن، ونشبو فى أوعار ومضايق وخنادق وجبال، واجتمع عليهم أهل بشل ومالقة، وصار المسلمون ينالون منهم فى كل محل، حتى بلغوا مالقة، ففر كبيرهم، ومن بقى أسر أو قتل، وكان السلطان أبو الحسن فى ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب، وبقى أخوه أبو عبد الله بمالقة ومع بعض الجند، وقتل من النصارى فى هذه الوقعة نحو ثلاثة آلاف، وأسروا نحو ألفين من جملتها خال السلطان وصاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب أنتقيرة وغيرهم، وهم نحو الثلاثين من الأكابر، وغنم المسلمون غنيمه وافرة من الأنفس والأموال والعدو والذهب والفضة، وبعث ذلك سافر أهل مالقة لبلاد النصارى، فكسروا هنالك كسرة شنيعة قتل فيها أكثر قواد غرب الأندلس.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٨

ولما استقر السلطان أبو عبد الله بن السلطان أبى الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغريئة تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها، وأتى ابنه السلطان أبو عبد الله فى جند غرناطة والجهة الشرقية، والتقوا فى موضع يعرف بالدب، فكسر السلطان أبو عبد الله.

ولما سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بأن عمه بمالقة غنم من النصارى أعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية، وذلك فى ربيع الأول من السنة، إلى أن بلغ نواحي لشانه، وقتل وأسروا غنم، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعهم كبير قبيرة، وحالوا بين المسلمين وبلادهم فى جبال وأوعار، فانكسر الجند، وأسروا من الناس كثير وقتل آخرون، وكان فى جملة من أسر السلطان أبو عبد الله، ولم يعرف، ثم علم به صاحب لشانه، وأراد صاحب قبيرة أن يأخذه منه، فهرب به ليلا، وبلغه إلى صاحب قشتالة، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد، وتفاءل به، فقلما توجه لجهة أو بعث سرية إلا وبعثه فيها.

ولما أسر السلطان أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس، وذهبوا لمالقة للسلطان أبى الحسن، وذهبوا به لغرناطة، وبايعوه، مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره، وأصابه ضرر، ولما تعذر أمره قدم أخاه أبا عبد الله، وخلع له نفسه، ونزل بالمنكب، فأقام بها إلى أن مات، واستقل أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده.

وأما أبو عبد الله ابن السلطان أبى الحسن فهو فى أسر العدو.

وفى شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو فى قوة إلى نواحي مالقة، بعد أن كان فى السنة قبلها استولى على حصون، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون، وقصد ذكوان، فهد أسوارها، وكان بها جملة من أهل الغريئة، ورنده، ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة، فأظفر الله تعالى بهم أهل ذكوان، فقتلهم جميعا، ثم طلبوا الأمان وخرجوا.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص: ٣٩٨

انتقل فى جمادى الأولى إلى رنده وحاصرها، وكان أهلها خرجوا إلى نصره ذكوان وسواها، فحاصر رنده وهد أسوارها، وخرج أهلها على الأمان، وطاعت له جميع تلك البلاد، ولم يبق بغربى مالقة إلا من دخل فى طاعة الكافر وتحت ذمته، وضيق بمالقة، وفرق

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٣٩٩

حصصه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة، و عاد إلى بلاده.

و فى تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحب غرناطة لتحصين بعض البلاد، و بينما هو كذلك إذا بالخبر جاءه أن محله العدو خارجة لذلك الحصن.

[اشتداد المعارك بين الإفرنج و المسلمين و موقعة «البيرة» و عود إلى «مالقة و بلش»]

و فى صبيحة الثانى و العشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على الحصن، كانوا قد سروا إليه ليلا، و أصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين، فقاتلهم المسلمون من غير تعبيه، فاختل نظام المسلمين، و وصل النصارى إلى خباء السلطان، ثم التحم القتال و اشتد، و قوى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شر هزيمة، و قتل منهم خلائق، و قصر المسلمون خوفا من محله سلطان النصارى إذ كانت قادمة فى أثر هذه، و لما رجعت إليهم الفلول رجعوا القهقرى، و استولى المسلمون على غنائم كثيرة و آلات، و جعلوا ذلك كله بالحصن، و لم يحدث شىء بعد إلى رمضان، فتوجه الكافر لحصن قبيل و نازله و هدّ أسواره، و لما رأى المسلمون أن الحصن قد دخل طلبوا الأمان، و خرجوا بأموالهم و أولادهم مؤمنين، و فر الناس من تلك المواضع من البراجلة هارين، و استولى العدو على عدة حصون مثل مشاقر و حصن اللوز، و ضيق العدو بجميع بلاد المسلمين، و لم يتوجه لناحية إلا استأصلها، و لا قصد جهة إلا أطاعته و حصلها، ثم إن العدو دبر الحيلة مع ما هو عليه من القوة، فبعث إلى السلطان أبى عبد الله الذى تحت أسر و كساه و وعده بكل ما يتمناه، و صرفه لشرقى بسطة، و أعطاه المال و الرجال، و وعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين و بايعه من أهل البلاد فإنه فى الهدنة و الصلح و العهد و الميثاق الواقع بين السلاطين، و خرج لبلش فأطاعه أهلها، و دخلت بلش فى طاعته، و نودى بالصلح فى الأسواق، و صرخت به فى تلك البلاد الشياطين، و سرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غرناطة، و كانوا من التعصب و حمية الجاهلية و الجهل بالمقام الذى لا يخفى، و تبعهم بعض المفسدين المحيين تفريق كلمة المسلمين، و ممن مال إلى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة، و وسوس للناس شياطين الفتنة و سماسرتها بتقييح و تحسين، إلى أن قام ربض البيازين بدعوة السلطان الذى كان مأسورا عند المشركين، و وقعت فتنة عظيمة فى غرناطة نفسها بين المسلمين لما أراده الله تعالى من استيلاء العدو على تلك

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٠

الأقطار، و رجموا البيازين بالحجارة من القلعة، و عظم الخطب، و كانت الثورة ثالث شهر ربيع الأول عام أحد و تسعين و ثمانمائة، و دامت الفتنة إلى منتصف جمادى الأولى من العام، و بلغ الخبر أن السلطان الذى قاموا بدعوته قدم على لوشة و دخلها على وجه رجاء الصلح بينه و بين عمه الزغل صاحب قلعة غرناطة، بأن العم يكون له الملك، و ابن أخيه تحت إيالته بلوشة أو بأى المواضع أحب، و يكونون يدا واحدة على عدو الدين، و بينما هم كذلك إذا بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم و محله قوية و عدد و عدد، و نازل لوشة حيث السلطان أبو عبد الله الذى كان أسيرا، و ضيق عليها الحصار، و قد كان دخلها جماعة من أهل البيازين بنية الجهاد و المعاضدة وليهم، و خاف أهل غرناطة و سواها من أن يكون ذلك حيلة، فلم يأت لنصرتهم غير البيازين، و اشتد عليهم الحصار، و كثرت الأفاويل، و صرحت الألسن بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور و صاحب قشتالة، و دخل على أهل لوشة فى ربضهم، و خافوا من الاستئصال، فطلبوا الأمان فى أموالهم و أنفسهم و أهلهم، فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك، و أخذ البلد فى السادس و العشرين لجمادى الأولى سنة إحدى و تسعين و ثمانمائة، و هى - أعنى لوشة - كانت بلد سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب، كما ذكرناه مستوفى فى غير هذا الموضع، و هاجر أهل لوشة إلى غرناطة، و بقى السلطان أبو عبد الله الذى كان مأسورا مع النصارى بلوشة، فصرح عند ذلك أهل غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلا ليدخل إليها العدو الكافر، و يجعلها فداء له، و قيل: إنه سرح له حينئذ ابنه إذ كان مرهونا فى الفداء، و كثر القيل و القال بينهم و بين أهل البيازين فى ذلك، و ظهر بذلك ما كان كامنا فى القلوب، ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده و معه السلطان المذكور.

و في نصف جمادى الثانية خرج إلى إلبيرة فهد بعض الأسوار، و توعّد الناس، فأعطاه أهله الحصن على الأمان، فخرجوا و قدموا على غرناطة، ثم فعل بحصن التلين مثل ذلك، و قاتلوا قتالا شديدا، و لما ضاقوا ذرعا أعطوه بالمقادة على الأمان، فخرجوا إلى غرناطة و أطاع أهل قلنبيرة من غير قتال، فخرجوا إلى غرناطة ثم وصل العدو إلى منت فريد، فرمى عليهم بالمحرقات و غيرها، و أحرق دار العدة، فطلبوا الأمان و خرجوا إلى غرناطة، و انتقل للصخرة فأخذها، و حصّن هذه الحصون كلها، و شحنها بالرجال و العدة، و رتب فيها الخيل لمحاصرة

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠١

غرناطة، ثم عاد الكافر لبلاده، و تعاهد مع السلطان الذي في أسره بأن من دخل في حكمه و تحت أمره فهو في الأمان التام، و أشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه و بين صاحب إفرنسية، فخرج بلش و أطاعته، ثم بعث لمن والاه من البلاد أنه أتى بصلح صحيح و عقد وثيق، و أن من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه، و أن معه وثائق بخطوط السلاطين، فلم يقبل الناس ذلك، إلا القليل منهم مثل أهل البيازين، فلهجوا بهذا الصلح، و أقاموا على صحته الدلائل، و تكلموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح، مع تمكن الفتنة و العداوة في القلوب، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج لتلك الجهات اتبعه الناس، و قاموا بدعوته من غير التباس، فأتى على حين غفلة، و لم يكن يظن إتيانه بنفسه، فأتى البيازين و دخلها و نادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح، فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة، و قالوا: ما بعهد لوشة من قدم، و دخل ربض البيازين بالرجال سادس شوال سنة إحدى و تسعين و ثمانمائة، و عمه بالحمراء، و انتقل للقلعة، و اشتد أمر الفتنة، ثم إن صاحب قشتالة أمّد صاحب البيازين بالرجال و العدة و المال و القمح و البارود و غيرها، و اشتد أمره بذلك، و عظمت أسباب الفتنة، و فشا في الناس القتل و النهب، و لم يزل الأمر كذلك إلى السابع و العشرين من محرم سنة اثنتين و تسعين و ثمانمائة، فعزم أهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عنوة، و تكلم أهل العلم فيمن انتصر بالنصارى و وجوب مدافعتهم، و من أطاعه عصى الله و رسوله، و دخلوا على أهل البيازين دخول فشل، ثم إن صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد و القواد من أهل بسطة و وادي آش و المريّة و المنكب و بلش و مالقة و جميع الأقطار، و تجمعوا بغرناطة، و تعاهدوا، و تحالفوا على أن يدهم واحدة على أعداء الدين، و نصره من قصده العدو من المسلمين، و خاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج بمحلته قاصدا نواحي بلش، و كان صاحب البيازين بعث وزيره إلى ناحية مالقة و إلى حصن المنشأة يذكر و يخوف، و معه النسخة من عقود الصلح، فقامت مالقة و حصن المنشأة بدعوته، و دخلوا في إيالته خوفا من صاحب قشتالة و صولته، و طمعا في الصلح و صحته، ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلش و ذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة، و السبب الحامل لهم على ذلك، فلم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٢

يرجع أهل بلش عما عاهدوا عليه أهل غرناطة و سائر الأندلس من العهود و المواثيق.

و خرج صاحب قشتالة قاصدا بلش مالقة، و نزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين و تسعين و ثمانمائة و حاصرهما، و لما صح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس، فأشاروا بالمسير لإغاثة بلش للعهد الذي عقده، و أتى أهل وادي آش و غيرها و حشود البشرات، و خرج صاحب غرناطة منها في الرابع و العشرين لربيع الثاني من السنة، و وصل بلش، فوجد العدو نازلا عليها برا و بحرا، فنزل بجبل هنالك، و كثر لغط الناس، و حملوا على النصارى من غير تعبئة، و حين حركتهم للحملة بلغ الرّغل أن غرناطة بايعت صاحب البيازين، فالتقوا مع النصارى فشلين و قبل الالتحام انهزموا، و تبددت جموعهم مع كون النصارى خائفين و جلين منهم و لا حول و لا قوة إلا بالله، فرجعوا منهزمين، و قد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان، فقصدوا وادي آش، و عاد النصارى إلى بلش بعد أن كانوا رتبوا جيوشهم للقاء السلطان، و أهل غرناطة، فلما عادوا إلى بلش دخلوا عنوة ربضها، و ضيقوا بها، و كانت ثورة غرناطة خامس جمادى الأولى.

و لما رأى أهل بلش تكالب العدو عليهم و إدبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الأمان، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من

السنة، و أطاعت النصارى جميع البلاد التى بشرقى مالقة و حصن قمارش.

ثم انتقل العدو إلى حصار مالقة، و كان أهل مالقة قد دخلوا فى الصلح و أطاعوا صاحب البيازين، و أتى إليها النصارى بالميرة، و لما نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين و قائد شريش الذى كان مأسورا عندهم، فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فاره و هو حصن مالقة بدعوة صاحب وادى آش، و ارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة و نازلها برا و بحرا، و قاتله أهلها قتالا عظيمًا بمدافعهم و عدتهم و خيلهم و رجلهم، و طال الحصار حتى أداروا على مالقة من البر الخنادق و السور و الأجناف من البحر، و منع الداخل إليها و لم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار، و حاربوا حربا شديدا، و قربوا المدافع و دخلوا الأرباض، و ضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فنى ما عندهم من الطعام فأكلوا المواشى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٣

و الخيل و الحمير، و بعثوا الكتب للعدوتين و هم طامعون فى الإغائنة فلم يأت إليهم أحد، و أثر فيهم الجوع، و فشا فى أهل نجدتهم القتل، و لم يظهروا مع ذلك هلعا و لا ضعفا، إلى أن ضعف حالهم، و يسوا من ناصر أو مغيث من البر و البحر فتكلموا مع النصارى فى الأمان كما وقع ممن سواهم، فعوتبوا على ما صدر منهم و ما وقع من الجفاء، و قيل لهم لما تحقق العدو التجاءهم: تؤمنون من الموت، و تعطون مفتاح القلعة و الحصن، و السلطان ما يعاملكم إلا بالخير إذا فعلتم، و هذا خداع من الكفار، فلما تمكن العدو منهم أخذهم أسرى، و ذلك أواخر شعبان سنة اثنتين و تسعين و ثمانمائة، و لم يبق فى تلك النواحي موضع إلا و ملكه النصارى. و فى عام ثلاثة و تسعين و ثمانمائة خرج العدو الكافر إلى الشرقية و بلش التى كانت فى الصلح، فاستولى عليها، و احتجوا بالصلح، فلم يلتفت إليهم، و أخذ تلك البلاد كلها صلحا، ثم رجع لبلادهم.

[سقوط «بسطة» و غيرها]

و فى عام أربعة و تسعين [و ثمانمائة] خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب، و استولى على ما هنالك من الحصون، ثم نازل بسطة، و كان صاحب وادى آش لما تعين العدو بمحلته بعث جميع جنده و قواده، و حشد أهل نجدة تلك البلاد من وادى آش و المرية و المنكب و البشرات، فلما نزل العدو بسطة أتت الحشود المذكورة و دخلوها و وقعت بين المسلمين و النصارى حروب عظيمة حتى تفهقر العدو عن قرب بسطة، و لم يقدر على منع الداخل و الخارج، و بقى الأمر كذلك رجبا و شعبان و رمضان، و محلات المسلمين نازلة خارج البلد، ثم إن العدو شدّ الحصار و جدّ فى القتال، و قرب المدافع و الآلات من الأسوار حتى منع الداخل و الخارج بعض منع، و اشتد الحال فى القعدة و الحجّة و قل الطعام، و فى آخر الحجّة اختبروا الطعام فى خفيه فلم يجدوا إلا القليل، و كانوا طامعين فى إقلاع العدو عند دخول فصل الشتاء، و إذا بالعدو بنى و عزم على الإقامة، و قوى اليأس على المسلمين، فتكلموا فى الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن، و ظن العدو أن الطعام لم يبق منه شيء، و أن ذلك هو

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٤

الملجئ لهم للكلام، و فهموا عنه ذلك، فاحتالوا فى إظهار جميع أنواع الطعام بالأسواق، و أبدوا للعدو القوّة مع كونهم فى غاية الضعف، و الحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم و هو عين ليرى ما عليه البلد و ما صفة الناس، و عند تحققهم بقاء الطعام و القوّة أعطوهم الأمان على أنفسهم دون من أعانهم من أهل وادى آش و المنكب و المرية و البشرات، فإن دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الأمان، و إلا فلا، فلم يوافق أهل البلد على هذا، و طال الكلام، و خاف أهل البلد من كشف الستر، فاتفقوا على أن تكون القعدة على بسطة و وادى آش و المرية و المنكب و البشرات، ففعلوا ذلك، و دخل جميع هؤلاء فى طاعة العدو على شروط شرطوها و أمور أظهروا بعضها للناس و بعضها مكتوم، و قبض الخواص مالا، و حصلت لهم فوائد.

و فى يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس و تسعين و ثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة، و ملكوها، و لم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه

الشرط و الالتزام، و قالوا لهم: من بقى بموضعه فهو آمن، و من انصرف خرج بماله و سلاحه سالما، ثم أخرج العدو المسلمين؟؟؟؟ من البلد، و أسكنهم بالزبض خوف الثورة، ثم ارتحل العدو للمرية، و أطاعته جميع تلك البلاد، و نزل صاحب وادى آش للمرية ليلقاه بها فلقيه و أخذ الحصون و القلاع و البروج، و بايع له السلطان أبو عبد الله على أن يبقى تحت طاعته فى البلاد التى تحت حكمه كما أحب، فوعده بذلك، و انصرف معه إلى وادى آش، و مكنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور، و أطاعته جميع البلاد، و لم يبق غير غرناطة و قرهاها، و جميع ما كان فى حكم صاحب وادى آش صار للنصارى فى طرفه عين، و جعل فى كل قلعة قائدا نصرانيا، و كان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالا من عند صاحب قشتالة إكراما منه لهم بزعمهم، فتبا لعقولهم، و ما ذلك منه إلا توفير لرجالهم و عدته و دفع بالتى هى أحسن، ثم أخذ برج الملاحه و غيره، و بناه و حصنه، و شحن الجميع بالرجال و الذخيرة، و أظهر الصلحة و الصلح مع صاحب وادى آش، و أباح الكلام بالسوء فى حق صاحب غرناطة مكرما منه و خداعا و دهاء، ثم بعث فى السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما يمكنه عمه من القلاع و الحصون، و يكون تحت

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٥

إيالته، و يعطيه مالا جزيلا على ذلك، و أى بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه، قالوا: و أطعمه صاحب غرناطة فى ذلك، فخرج العدو فى محلاته لقبض الحمراء و الاستيلاء على غرناطة، و هذا فى سر بين السلطانيين، فجمع صاحب غرناطة الأعيان و الكبراء و الأجناد و الفقهاء و الخاصة و العامة و أخبرهم بما طلب منه العدو، و أن عمه أفسد عليه الصلح الذى كان بينه و بين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه، و ليس لنا إلا- إحدى خصلتين: الدخول فى طاعته، أو القتال، فاتفق رأى على الجهاد و الوفاء بما عقده من صلح، و خرج بمحلته. ثم إن صاحب قشتالة نزل على مرج غرناطة، و طلب من أهل غرناطة الدخول فى طاعته، و إلا أفسد عليهم زروعهم، فأعلنوا بالمخالفة، فأفسد الزرع، و ذلك فى رجب سنة خمس و تسعين، و ثمانمائة و وقعت بين المسلمين و العدو حروب كثيرة، ثم ارتحل العدو عند الإياس منهم ذلك الوقت، و هدم بعض حصون، و أصلح برج همدان و الملاحه، و شحنها بما ينبغى، ثم رجع إلى بلاده، و عند انصرافه نزل صاحب غرناطة بمن معه إلى بعض الحصون التى فى يد النصارى ففتحتها عنوة، و قتل من فيها من النصارى، و أسكنها المسلمين، و رجع لغرناطة، ثم عمل الرحلة إلى البشرات فى رجب المذكور، فأخذ بعض القرى، و هرب من بها من النصارى و المرتدين أصحابهم، ثم أتى حصن أندرش فتمكن منه، و أطاعته البشرات، و قامت دعوة الإسلام بها، و خرجوا عن ذمة النصارى، و هنالك عمه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملته و افره، فقصدهم فى شعبان من غرناطة، و استقر عمه بالمرية، و أطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برجه، ثم تحرك عمه مع النصارى إلى أندرش فأخذها لرمضان، و خرج صاحب غرناطة لقرية همدان، و كان برجها العظيم مشحونا بالرجال و العدة و الطعام، فحاصره أهل غرناطة، و نصبوا عليه أنواعا من الحرب، و مات به خلق كثير منهم، و نقبوا البرج الأول و الثانى و الثالث، و أجزؤهم للبرج الكبير، و هو القلعة، فنقبوها ثم أسروا من كان بها، و هم ثمانون و مائة، و احتوا على ما هنالك من عدة و آلات حرب.

[موقعة «شلوبانية» و موقعة مرج غرناطة]

و فى آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب، فلما وصل حصن شلوبانية نزله، و أخذه عنوة بعد حصاره، و امتنعت القلعة، و جاءتهم الأمداد من مالقة بحرا فلم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٦

تقدر على شىء، و ضيقوا بالقلعة، فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلته لمرج غرناطة، فارتحل صاحب غرناطة عن قلعة شلوبانية، و جاء غرناطة ثالث شوال، و بعد وصولهم غرناطة وصل العدو إلى المرج و معه المرتدون و المدجنون، و بعد ثمانية أيام ارتحل العدو لبلاده بعد هدم برج الملاحه و إخلائه و برج آخر، و توجه إلى وادى آش، فأخرج المسلمين منها، و لم يبق بها مسلم فى

المدينة و لا الرّبض، و هدم قلعة أندرش، و حاف على البلاد، و لما رأى ذلك السلطان الرّغل و هو أبو عبد الله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة همّ بالجواز لير العدو فجاز لوهران، ثم لتلمسان، و استقر بها، و بها نسله إلى الآن يعرفون ببنى سلطان الأندلس، و دخل صاحب قشتالة لأقاصى مملكته بسبب فتنة بينه و بين الإفنج ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة و حاصرها و أخذها؛ و أسر من كان بها من النصارى و أرادت فتياهه القيام على النصارى، فجاء صاحب وادى آش ففتك فيهم.

و فى ذى القعدة من السنة رفع صاحب غرناطة من السند و خلت تلك الأوطان من الأناس.

و فى ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة ست و تسعين و ثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة، و أفسد الزرع، و دوخ الأرض، و هدم القرى، و أمر ببناء موضع بالسور و الحفير، و أحكم بناءه، و كانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرف الهمة إلى الحصار و الإقامة، و صار يضيق على غرناطة كل يوم، و دام القتال سبعة أشهر، و اشتد الحصار بالمسلمين، غير أن النصارى على بعد، و الطريق بين غرناطة و البشرات متصله بالمراق و الطعام من ناحية جبل شلير، إلى أن تمكن فصل الشتاء، و كلب البرد، و نزل الثلج، فانسد باب المراق، و انقطع الجالب، و قل الطعام، و اشتد الغلاء، و عظم البلاء، و استولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد، و منع المسلمين من الحرث و السبب، و ضاق الحال، و بان الاختلال، و عظم الخطب، و ذلك أول عام سبعة و تسعين و ثمانمائة، و طمع العدو فى الاستيلاء

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٧

على غرناطة بسبب الجوع و الغلاء دون الحرب، ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات، ثم اشتد الأمر فى شهر صفر من السنة، و قل الطعام، و تفاقم الخطب، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم، و قالوا: انظروا فى أنفسكم و تكلموا مع سلطانكم، فأحضر السلطان أهل الدولة و أرباب المشورة، و تكلموا فى هذا المعنى، و أن العدو يزداد مدده كل يوم، و نحن لا مدد لنا، و كان ظننا أنه يقلع عنا فى فصل الشتاء فخاب الظن، و بنى و أسس، و أقام، و قرب منا، فانظروا لأنفسكم و أولادكم، فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين، و شاع أن الكلام وقع بين النصارى و رؤساء الأجناد قبل ذلك فى إسلام البلد خوفا على نفوسهم و على الناس، ثم عددوا مطالب و شروطا أرادوها، و زادوا أشياء على ما كان فى صلح وادى آش: منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام و الوفاء بالشرط إذا مكنه من حمراء غرناطة و المعائل و الحصون، و يحلف على عادة النصارى فى العهود، و تكلم الناس فى ذلك، و ذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام فى ذلك امتنّ عليهم النصارى بمال جزيل و ذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة، فانقادوا إليها، و وافقوا عليها، و كتبوا البيعة لصاحب قشتالة، فقبلها منهم، و نزل سلطان غرناطة من الحمراء.

[استيلاء النصارى على الحمراء و صورة من شروط الصلح]

و فى ثانى ربيع الأول من السنة - أعنى سنة سبع و تسعين و ثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء و دخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر، و كانت الشروط سبعة و ستين منها تأمين الصغير و الكبير فى النفس و الأهل و المال و إبقاء الناس فى أماكنهم و دورهم و رباعهم و عقارهم، و منها إقامة شريعتهم على ما كانت و لا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم و أن تبقى المساجد كما كانت و الأوقاف كذلك، و أن لا يدخل النصارى دار مسلم و لا يغصبوا أحدا، و أن لا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل، و أن يفتك جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا، و خصوصا أعيانا نصّ عليهم، و من هرب من أسارى المسلمين و دخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكة و لا سواه، و السلطان يدفع ثمنه لمالكة، و من أراد الجواز للعدو لا يمنع، و يجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٨

والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله و يحضر له حاكم من المسلمين و آخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، و لا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب، و لا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، و لا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، و لا- بسفر لجهة من الجهات، و لا يزيدون على المغارم المعتادة، و ترفع عنهم جميع المظالم و المغارم المحدثه، و لا يطلع نصراني للسور، و لا يتطلع على دور المسلمين، و لا يدخل مسجدا من مساجدهم، و يسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه و ماله، و لا يجعل علامة كما يجعل اليهود و أهل الدجن، و لا- يمنع مؤذن و لا- مصل و لا صائم و لا غيره من أمور دينه، و من ضحك منهم يعاقب، و يتكون من المغارم سنين معلومة، و أن يوافق على كل الشروط صاحب رومة و يضع خط يده، و أمثال هذا مما تركنا ذكره. و بعد انبرام ذلك و دخول النصارى للحمرء و المدينة جعلوا قائدا بالحمرء و حكاما مقدمين بالبلد، و لما علم ذلك أهل البشرات دخلوا فى هذا الصلح، و شملهم حكمه على هذه الشروط، ثم أمر العدو الكافر ببناء ما يحتاج إليه فى الحمرء و تحصينها، و تجديد بناء قصورها و إصلاح سورها، و صار الطاغية يختلف إلى الحمرء نهارا و يبيت بمحلته ليلا إلى أن اطمأن من خوف الغدر، فدخل المدينة، و تطوف بها، و أحاط خبرا بما يرومه، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات و أنها تكون له فى سكنها بأندرش، فانصرف إليها و أخرج الأجناد منها، ثم احتال فى ارتحاله لبر العدو، و أظهر أن ذلك طلبه منه المذكور، فكتب لصاحب المريه أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاى أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو، و من وقف على هذا الكتاب فليصرفه و يقف معه و فاء بما عهد له، فانصرف فى الحين بنص هذا الكتاب، و ركب البحر، و نزل بمليله، و استوطن فاسا، و كان قبل طلب الجواز لناحية مراکش، فلم يسعف بذلك و حين جوازه لبر العدو لقي شدة و غلاء و بلاء.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٠٩

[نقض النصارى للعهد]

ثم إن النصارى نكثوا العهد، و نقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع و تسعمائة، بعد أمور و أسباب أعظمها و أقواها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر، ففعلوا ذلك، و تكلم الناس و لا جهد لهم و لا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، و هو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا، و لما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام و قتلوهم، و هذا كان السبب للتنصر، قالوا: لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا- الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت، و بالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية و حاضرة، و امتنع قوم من التنصر، و اعتزلوا النصارى، فلم ينفعهم ذلك، و امتنع قرى و أماكن كذلك منها بلفيق و أندرش و غيرهما، فجمع لهم العدو الجموع، و استأصلهم عن آخرهم قتلا و سبيا، إلا ما كان من جبل بللقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم، و قتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة، و أخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم و ما خف من أموالهم دون الذخائر، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية و يصلى، فشدد عليهم النصارى فى البحث، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك، و منعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد، و قاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا و لم يقبض الله لهم ناصرا، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر و ألف، فخرجت ألوف بفاس، و ألوف آخر بتلمسان من وهران، و جمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب و من لا يخشى الله تعالى فى الطرقات، و نهبوا أموالهم، و هذا ببلاد تلمسان و فاس، و نجا القليل من هذه المضرة، و أما الذين خرجوا بناوحي تونس فسلم أكثرهم، و هم لهذا العهد عمروا قراها الخالية و بلادها، و كذلك بتطاون و سلا و فيجة الجزائر، و لما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكريا جرارا و سكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن، و حصنوا قلعة سلا، و بنوا بها القصور و الحمامات و الدور، و هم الآن بهذا الحال،

و وصل جماعة إلى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٠

القسطنطينية العظمى و إلى مصر و الشام و غيرها من بلاد الإسلام، و هم لهذا العهد على ما وصف، و الله وارث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

[ذكر السلطان الذي ضاعت على عهده بلاد الأندلس]

و السلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس، و محيت رسومها، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغنى بالله، واسطة عقدهم، و مشيد مبانيهم الأنيقة، و سلطان دولتهم على الحقيقة، و هو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس، العائد منها لملكه فى أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس، و هو سلطان لسان الدين ابن الخطيب، و قد ذكرنا جملة من أخباره فى غير هذا الموضع، ابن السلطان أبى الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطرة بمرج غرناطة ابن فرج [بن إسماعيل] بن يوسف بن نصر بن قيس، الأنصارى، الخزرجى، رحمهم الله تعالى جميعا!.

و انتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليئة إلى مدينة فاس بأهله و أولاده معتذرا عما أسلفه، متلهفا على ما خلفه، و بنى بفاس بعض قصور على طريق بنى الأندلس، رأيتها و دخلتها، و توفى رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين و تسعمائة، و دفن بإزاء المصلّى خارج باب الشريعة، و خلف ولدين اسم أحدهما يوسف و الآخر أحمد، و عقب هذا السلطان إلى الآن بفاس، و عهده بذريته بفاس [إلى الآن] سنة ١٠٣٧، يأخذون من أوقاف الفقراء و المساكين، و يعدّون من جملة الشحاذين، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم.

[رسالة سلطان الأندلس المخلوع إلى سلطان فاس، (إنشاء العقيلي)]

و قد رأيت أن أذكر هنا الرسالة التى كتب بها المخلوع المذكور إلى سلطان فاس الشيخ الوطاسى، و هى من إنشاء الكاتب المجيد البارع البليغ أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلي رحمه الله تعالى و سماها «بالروض العاطر الأنفاس، فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس» و نصها بعد الافتتاح: [البيسط]

مولى الملوك ملوك العرب و العجم رعيًا لما مثله يرعى من الدّم

بك استجرنا و نعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١١

حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا و أفضع الخط ما يأتى على الرّغم

حكم من الله حتم لا مردّ له و هل مردّ لحكم منه منحتم

و هى اللّيالى و قاك الله صولتها تصول حتى على الآساد فى الأجم

كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول نمنا بها تحت أفنان من النّعم

فأيقظتنا سهام للزّدى صبب يرمى بأفجع حتف من بهنّ رمى

فلا تتم تحت ظل الملك نومتنا و أى ملك بطلّ الملك لم ينم

بيكى عليه الذى قد كان يعرفه بأدمع مزجت أمواها بدم

كذلك الدهر لم يبرح كما زعموا يشمّ بو الصّغار الأنف ذا الشّمم

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت فالملك بين ملوك الأرض كالزّحم

و ابسط لنا الخلق المرجو باسطه و اعطف و لا تنحرف و اعذر و لا تلم
 لا تأخذنا بأقوال الوشاة و لم نذنب و لو كثرت أقوال ذى الوخم
 فما أطقنا دفاعا للقضاء، و لا أرادت انفسنا ما حلّ من نقم
 و لا ركوبا بإزعاج لسابحة فى زاخر بأكفّ الموج ملتطم
 و المرء ما لم يعنه الله أضيع من طفل تشكى بفقد الأم فى اليتيم
 و كلّ ما كان غير الله يحرسه فإنّ محروسه لحم على و ضم
 كن كالسّمؤال إذ سار الهمام له فى جحفل كسواد الليل مرتكم
 فلم يبح أدرع الكندى و هو يرى أن ابنه البرّ قد أشفى على الرّجم
 أو كالمعلّى مع الصّليل الأروع إذ أجاره من أعاريب و من عجم
 و صار يشكره شكرا يكافىء ما أسدى إليه من الآلاء و النعم

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٢

و لا تعاتب على أشياء قد قدرت و خطّ مسطورها فى اللوح بالقلم
 و عدّ عمّا مضى إذ لا ارتجاع له و عدّ أحرارنا فى جملة الخدم
 إيه حنانيك يا ابن الأكرمين على ضيف ألم بفاس غير محتشم
 فأنت أنت، و لو لا أنت ما نهضت بنا إليها خطا الوخادة الرّسم
 رحماك يا راحما ينمى إلى رحما فى النّفس و الأهل و الأتباع و الحشم
 فكم مواقف صدق فى الجهاد لنا و الخيل عالكة الأشداق للجم
 و السيف يخضب بالمحمر من علق ما ابيضّ من سبل و اسود من لمم
 و لا ترى صدر غضب غير منقصف و لا ترى متن لدن غير منحطم
 حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بها سوى على الصون للأطفال و الحرم
 فقال من لم يشاهدها فربّتما يخال جامحها يقتاد بالخطم
 هيهات لو زبنته الحرب كان بها أعيبى يدا من يد جالت على رخم
 تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا و لا طوت صحّة منها على سقم
 لكن طلبنا من الأمر الذى طلبت و لاتنا قبلنا فى الأعصر الدّهم
 فخاننا عنده الجدّ الخوون، و من تقعد به نكبات الدّهر لم يقم
 فاسودّ ما اخضرّ من عيش دهته عدا بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخدم
 و شتت البين شملا كان منتظما و البين أقطع للموصول من جلم
 فربّ مبنى شديد قد أناخ به ركب البلا فقرته أدمع الدّيم
 قمنا لديه أصيلا نسا نائله أعيأ جوابا و ما بالرّبع من إرم
 و ما ظنّنا بأن نبقى إلى زمن نرى به غرر الأحباب كالحمم
 لكن رضا بالقضا الجارى و إن طويت منّا الضلوع على برح من الألم
 لييك يا من دعانا نحو حضرته دعاء إبراهيم الحجّاج للحرم
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٣

واعط الأمان الذي وصت قواعده على أساس وفاء غير منهدم
خليفة الله وافاك العبيد فكن في كل فضل و طول عند ظنهم
و بين أسلافنا ما قد علمت به من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم
و أنت منهم كأصل مطلع غصنا أو كالشراك الذي قد قد من آدم
و قد خطوت خطاهم في ماثرهم فلم يذموا إذن فيها و لم تدم
وصيت مولى الورى الشيخ الإمام غدا فى الناس أشهر من نار على علم
سلالة الأمراء الجلّة الكبرياء العليّة الظهراء القادة البهم
بنو مرين ليوث فى عرين أبوا رؤيا قرين لهم فى البأس و الكرم
النازليين من البيضاء وسط حمى أحمى من الأبلق السامى و من إرم
و الجائسين بدهم الخيل كل ذرا و الداعسين بسمر الخط كل كمي
يريك فارسهم إن هز عامله فى مارق بلظى الهيجاء مضطرم
ليثا على أجدل عار من اجنحه يسطو بأرقم لداغ بغير فم
فى اللام يدغم من عسالة ألفا و لم نجد ألفا أصلا بمدغم
أهل الحفيظة يوم الزوع يحفظهم من عصمة الله ما يربى على العصم
يا من تطير شرار منه محرقة لكل مدّرع بالحزم محتزم
هم بطائفه التليلث قد فتكوا كمثل ما يفتك السرحان بالغمم
و إن يلثمهم يوم الوغى رهج أنسوك ما ذكروه عن ذوى اللثم
تضىء آراؤهم فى كل معضلة إضاءة السرج فى داج من الظلم
هذا و لو من حياء ذاب محتشم لذاب منهم حياء كل محتشم
طابت مدائجهم إذ طابت انفسهم فاشتتت النسمات اسما من التسم
لله درهم و السحب باخلة بدرهن على الأنعام و النعم
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٤
بحيث الافق يرى من لون حمرة كالشيب يخضب بالحناء و الكتم
هناك تنهل أيديهم بصوب حيا يحيا بالاحداث ما فيها من الرّم
و أن بيتى زياد طالما ذكروا إذا ألمت أحاديث بذكرهم
أحلام عاد و أجسام مطهرة من المعقة و الآفاق و الأثم
يرون حقا عليهم حفظ جارهم فلم يضر نازل فيهم و لم يضم
فروعهم بالدواهى لا يراع، و لا يغم منها بما يعرفون من الغمم
هم البحار سماحا غير أن بها ما قد أناف على الأطواد من همم
و ليس يسلم من حتف محاربهم حتى يكون إليهم ملقى السلم
كم فيهم من أمير أوحد ندس يقرطس الغرض المقصود بالفهم
و لا كسبط أبى حسون من حسنت أمداحه حسن ما فيه من الشيم
هذا كم ابن أبى ذكري الهمام فقل فى أصله المنتقى من مجده العمم

خليفة الله حقا في خليفته كنائب ناب في حكم عن الحكم
 مهما تتر قسما منه تيرة تثل بنازله ما جل من نعم
 فوجهه بدجا أو كفه بجدى أبهى من الزهر أو أندى من اللدِيم
 و فضله و له الفضل المبين جرى كجری الأمثال فى الأقطار و الأمم
 وجوده المتوالى للبرية ما وجوده بينها طرا بمنهدم
 إذا ابتغت نعماً منه العفاة له لم يسمعوا كلمة منه سوى نعم
 و إن يعبس زمان فى وجوههم لم يبصروا غير وجهه منه مبتسم
 وجه تبين سمات المكرمات به كما تبين سمات الصدق فى الكلم
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٥
 و راحة لم تزل فى كل آونة فى نيلها راحة الشاكي من العدم
 لله ما التزمت من نوافله أيام لا فرض مفروض بملترم
 أنسى الخلائف فى حلم و فى شرف و فى سخاء و فى علم و فى فهم
 فجاز معتمدا منهم و معتصدا و امتاز عن واثق منهم و معتصم
 و ناصر الدين فى الإقبال فاق، و فى محبة العلم أزرى بابنه الحكم
 أفعال أعدائه معتلة أبدا متى يرم جزمها بالحدف تنجزم
 فويل أهل القلى من حية ذكر للمثلث اللهام المجر ملتقم
 راموا عداوة من شاء غادرهم مثل الأحاديث عن عاد و عن إرم
 فسوف يأكلهم من جيشه لجب بكل قرم إلى لحمانهم قرم
 و إن الاعراب إذ ساروا لغايته لسائرون إلى لقم على لقم
 و هم كما قاله ماض «أرى قدمى بسعيه نحو حتفى قد أراق دمي»
 فقل إذن للمناوى الناولان أذى يا غر غرك ما أبصرت فى الحلم
 له صوارم لو ناجتتك ألسنها لبشركت بعمر منك منصرم
 و أن روحك عن قرب سيقبضه قبض المسلم ما قد حاز من سلم
 فهو الذى ما له ندى يشابهه من كل متصف بالدهى متسم
 يدبر الأمر تدييرا يخلصه مما عسى أن يرى فيه من الوهم
 و يبصر الغيب لحظ الذهن منه إذا تعمى عن ادراكه ألاحظ كل عمى
 و ينعم النظر المفضى بناظره لصوب وجه صواب واضح اللقم
 ذو منطق لم تزل تجلو نتائجه عن مبطل بخصام المبطل الخصم
 و مسمع ليس يصغى للوشاء فلم ينفق لديه الذى عنهم إليه نمى
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٦
 فعقله لا توازيه العقول، و هل يوازن الطود ما قد طال من أكم؟
 إيه جميع الورى من بدو او حضر نداء مرتبط بالنصر مرتسم
 شدوا و جدوا و لا تعنوا و لا تهنوا قد لقاها الليل بالسواقه الحطم

هذا الإمام المرينى السعيد له سعد يؤيده فى كل مصطدم
 قد أقسمت أنه المنصور السنة من نخبة الأوليا مبرورة القسم
 فشيعوه و والوه تروا عجبا و تظفروا معه بالأجر و الغنم
 و الحمد لله إذ أبقى خلافته كهفا لنا من يخيم فيه لم يرم
 حرز حريز و عز قائم و ندى غمر دراك بلا من و لا سأم
 دامت و دام لها سعد يساعدها فى كل مبتدا منه و مختتم
 فالله عز اسمه قد زانها بحلى من عز أمداحه كالذر فى النظم
 الواهب الألف بعد الألف من ذهب كالجمر يلمع فى مستوقد الضرم
 و الفاعل الفعل لم يهجم به أحد و القائل القول فيه حكمة الحكم
 ذاكم هو الشيخ فاعجب إنه هرم جودا و حاشاه أن يعزى إلى هرم
 و حسنا أن أيدينا به اعتصمت من حبله بوثق غير منقسم
 فما محالفه يوما بمضطهد و لا مؤالفه يوما بمهتضم
 و لا موافيه فى جهد بمطرح و لا مصافيه فى ود بمتهم
 و لا محيا محييه بمنكسف و لا رجاء مرجيه بمنخرم
 و ما تكزومه سرا بمنكشف و لا تنكره جهرا بمكتم
 و ليس لامح مرآه بمكشب و ليس راضع جدواه بمنفطم
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٧
 و لا مقبل يمناه الكريمة فى محل ممتهن بل دست محترم
 و ما وسيلتنا العظمى إليه سوى ما ليس ينكر ما فيها من العظم
 و إنما هى و ما أدراك ما هى من وسيلة ردها أدهى من الوخم
 نبينا المصطفى الهادى بخير هدى محمد خير خلق الله كلهم
 داعى الورى من أولى خيم و أهل قرى إلى طريق رشاد لاحب أمم
 عليه منا صلاة الله ما ذكرت (أمن تذكر جيران بدى سلم)
 و ما تشفع فيها بالشفيع له دخيل حرمة العلباء فى الحرم

ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين، أنت ولينا فاغفر لنا و ارحمنا و أنت خير الغافرين، ربنا عليك
 توكلنا، و إليك أنبنا، و إليك المصير، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا و أن الكافرين لا مولى لهم، نعم المولى و نعم النصير.
 أما بعد حمد الله الذى لا يحمد على السراء و الضراء سواه، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد الذى طلع طلوع الفجر بل
 البدر فلاح، يدعو إلى سبيل كل فلاح، أولى قلوب غافلة و نفوس سواه، و الرضا عن آله و أصحابه و عترته الأكرمين و أحزابه الذين
 تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر و نواه و عزروه و نصرروه فى حال قربه و نواه، فيا مولانا الذى أولانا من النعم ما أولانا لا حظ
 الله تعالى لكم من العزة أرواقا، و لا- أذوى لدوحه دولتكم أغصانا و لا أوراقا، و لا زالت مخضرة العود، مبتسمة عن زهرات البشائر
 متحفة بشمرات السعود، ممتورة بسحائب البركات المتداركات دون برق و لا- رعود، هذا مقام العائذ بمقامكم، المتعلق بأسباب
 ذمامكم، المترجى لعواطف قلوبكم و عوارف إنعامكم المقبل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم،
 و ما الذى يقول من وجهه خجل، و فؤاده وجل، و قضيته المقضية عن التنصل و الاعتذار تجل، بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٨

و اجترائي عليه أكثر، و اجترامى إليه أكبر: اللهم لا برىء فأعتذر، و لا قوى فأنتصر، لكنى مستقيل، مستنيل مستعتب مستغفر و ما أبرئ نفسى، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ [يوسف: ٥٣]، هذا على طريق التنزل و الإنصاف، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف، و أما على جهة التحقيق، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق: و الله إنى لأعلم أنى إن أقررت بما يقوله الناس و الله يعلم أنى منه بريئة لأقول ما لم يكن، و لئن أنكرت ما تقولون لا تصدقونى، فأقول ما قاله أبو يوسف: صبر جميل و الله المستعان على ما تصفون، على أنى لا أنكر عيوبى فأنا معدن العيوب، و لا أجحد ذنوبى فأنا جبل الذنوب، إلى الله أشكو عجرى و بجرى، و سقطاتى و غلطاتى، نعم كل شىء و لا ما يقوله المتقول، المشنع المهول، الناطق بقم الشيطان المسؤل، و من أمثالهم «سبى و اصدق، و لا تفترو و لا تخلق» أمثلى كان يفعل أمثالها، و يحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها؟ و يهلك نفسه و يحبط أعمالها، عياذا بالله من خسران الدين، و إيثار الجاحدين و المعتدين، قد ضللت إذا و ما أنا من المهتدين، و ايم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقطعها، بل لقطفت ما تحت عمامتى من هامتى و قطعها، غير أن الرعاع فى كل وقت و أوان، للملك أعداء و عليه أحزاب و أعوان، كان أحق أو أجهل من أبى ثروان، أو أعقل أو أعلم من أشج بنى مروان، ربّ متهم برى، و مسربل بسربال و هو منه عرى، و فى الأحاديث صحيح و سقيم، و من التراكيب المنطقية منتج و عقيم، و لكن ثم ميزان عقل، تعتبر به أوزان النقل، و على الراجح الاعتماد، ثم إشاعة الأحقاد، المتصل المتداد، و للمرجوح الاطراح، ثم التزام الصراح، بعد التفص من الراح، و أكثر ما تسمعه الكذب، و طبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله تعالى إليه منجذب، و لقد قذفنا من الأباطيل بأحجار، و رمينا بما لا يرمى به الكفار، فضلا عن الفجار، و جرى من الأمر المنقول على لسان زيد و عمرو، ما لديكم منه حفظ الجار و إذا عظم الإنكاء، فعلى تكاءة التجلد الاتكاء، أكثر المكثرون، و جهد فى تعثيرنا المتعثرون، و رمونا عن قوس واحدة، و نظمونا فى سلك

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤١٩

الملاحدة، أكفرا أيضا كفرا، غفرا اللهم غفرا، أعد نظرا يا عبد قيس، فليس الأمر على ما خيل لك ليس، و هل زدنا على أن طلبنا حقا، ممن رام محقه و محقنا، فطاردنا فى سبيله عداة كانوا لنا غائظين، فانفتق علينا فتق، لم يمكننا له رتق و ما كنا للغيب حافظين [يوسف: ٨١]

و بعد فاسأل أهل الحل و العقد، و التمييز و النقد، فعند جهيتهم تلقى الخبر يقينا، و قد رضينا بحكمهم يؤثنا فيوبقنا أو يبرثنا فيقينا، إيه يا من اشرب إلى ملامتنا، و قدح حتى فى إسلامنا، رويدا رويدا، فقد وجدت قوة و أيدا، و يحك إنما طال لسانك علينا، و امتد بالسوء إلينا، لأن الزمان لنا مصغر و لك مكبر، و الأمر عليك مقبل و عنا مدبر، كما قال كاتب الحجاج الموبر، و على الجملة فهبنا صرنا إلى تسليم مقالك جدلا، و ذهبا فأقررنا بالخطا فى كل ورد و صدر، فله در القائل: [الرجز]

إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

و كأننا بمعترف إذا وصل إلى هنا، و عدم إنصافه يعلمه إلها، قد ازور متجانفا، ثم افتر متهانفا، و جعل يتمثل بقولهم: إذا عيروا قالوا مقادير قدرت، و بقولهم: المرء يعجزه المحال، فيعارض الحق بالباطل، و الحالى بالعاطل، و منزع بقول القائل: رب مسمع هائل، و ليس تحته من طائل، و قد فرغنا أول أمس من جوابه، و تركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به و سلم الآن بما يوسعه تسكيتا، و يقطعه تبكيتا، فنقول له: ناشدناك الله تعالى، هل اتفق لك قط و عرض، خروج أمر ما عن القصد منك فيه و الغرض؟ مع اجتهادك أثناءه فى إصدارك و إيرادك، فى وقوعه على وفق اقتراحك و مرادك، أو جميع ما تزاوله بإدارتك، لا يقع إلا مطابقا لإرادتك، أو كل ما تقصده و تنويه، تحرزه كما تشاء و تحويه؟ فلا بد أن يقر اضطرارا، بأن مطلوبه يشد عنه مرارا، بل كثيرا ما يفلت صيده من أشراكه، و يطلبه فيعجز عن إدراكه، فنقول: و مسألنا من هذا القبيل، أيها النبي النبيل، ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ماشينا، مما يسايرنا فى غرضنا منه و يماشينا، كقوله صلى الله عليه و آله و سلم «كل شىء بقضاء و قدر، حتى العجز و الكيس»

«لو اجتمع أهل السماوات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، و لو

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢٠

اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فأخلق به أن يلوذ بأكناف الإحجام، و يزّم على نفثه فيه كأنما ألجم بلجام، حينئذ نقول له و الحق قد أبان وجهه و جللاه، و قهره بحجته و علاه: ليس لك من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله، و في محاجة آدم و موسى ما يقطع لسان الخصم، و يرخض عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من درن الوصم، و كيفما كانت الحال، و إن ساء الرأي و الانتحال، و وقعنا في أوجال و أوحال، فثّل عرشنا، و طويت فرشنا، و نكس لوانا، و ملك مثنوانا، فنحن أمثل من سوانا، و في الشر خيار، و يد اللطائف تكسر من صولة الأغيار، فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفًا، و لا عدمنًا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفًا، و إلا فتلك بغداد دار السلام، و متبوء الإسلام، المحفوف بفرسان السيوف و الأقاليم، مثابة الخلافة العباسية، و مقر العلماء و الفضلاء أولى السير الأويضية، و العقول الإيائية، قد نوزلت بالجيوش و نزلت، و زوولت بالزحوف و زلزلت، و تحيف جوانبها الحيف، و دخلها كفار التتار عنوة بالسيف، و لا تسل إذ ذاك عن كيفية أيام تجلت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبدية، و جرت الدماء في الشوارع و الطرق كالأنهار و الأودية، و قيد الأئمة و القضاة تحت ظلال السيوف المنتصاة بالعمائم في رقابهم و الأردية، و للنجيع سيول، تخوضها الخيول، فتخضبها إلى أرساغها، و تهم ظمأؤها بوردها فنكل عن تجرعها و مساغها، فطاح عاصمها و مستعصمها، و راح و لم يغد ظالمها و متظلمها، و خربت مساجدها و ديارها، و اصطلم بالحسام أشرارها و خيارها، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف، حسبما عرفت أو حسبما تعرف، فلا تك متشككا متوقفا، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا، فأين تلك الجحافل، و الآراء المدارة في المحافل؟ حين أراد الله تعالى بإدائه الكفر، لم تجد

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢١

و لا قلامه ظفر، إذن فمن سلمت له نفسه التي هي رأس ماله، و عياله و أطفاله اللذان هما من أعظم آماله، و كلّ أو جلّ أو أقل ريشه، و أسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه و انتعاشه، ثم وجد مع ذلك سبيلا إلى الخلاص، في حال مياسرة و مساهلة دون تصعب و اعتياص، بعد ما ظن كل الظن أن لا محيد و لا مناص، فما أحقّه حينئذ و أولاه، أن يحمد خالقه و رازقه و مولاه، على ما أسداه إليه من رفته و خيره، و معافاته مما ابتلى به كثير من غيره، و يرضى بكل إيراد و إصدار، تنصرف فيهما الأحكام الإلهية و الأقدار، فالدهر غدار، و الدنيا دار مشحونة بالأكدار، و القضاء لا يرد، و لا يصدّ، و لا يغالب، و لا يطالب، و الدائرات تدور، و لا بدّ من نقص و كمال للبدور، و العبد مطيع لا مطاع، و ليس يطاع إلا المستطاع، و للخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للأذهان عن مده انقطاع.

و ما لي و التكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول، بين يدي ذى الجلال و المجادة و الفضل و الطول؟ فله من العقل الأرجح، و من الخلق الأسجح، ما لا تلتاط معه تهمتي بصفره، و لا تنفق عنده و شايه الواشى لا عدّ من نفره، و لا فاز قدحه بظفره، و المولى يعلم أن الدنيا تلعب باللعب، و تجر براحتها إلى المتاعب، و قديما للأكياس من الناس خدعت، و انحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا و قطعت، و فعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب تلك التي جبت و جدعت، و لئن رهصت و هصرت، فقد نبهت و بصّرت، و لئن قرعت و معضت، لقد أرشدت و وعظت، و يا ويلنا من تنكرها لنا بمرّة، و رميها لنا في غمرّة أي غمرّة، أيام قلبت لنا ظهر المجنّ، و غيم أبقها المصحى و أذجن، فسرعان ما عاينا حبالها منبئة، و رأينا منها ما لم نحسب كما تقوم الساعة بغتة، فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما صرنا إليه من الحور بعد الكور، و انحطاط من النجد إلى الغور. [الطويل]

فيينا نسوس الناس و الأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتصّف

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢٢

فتبا لدينا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا و تصرّف

و أيبها لقد أرهقتنا إرهاقا، و جرعتنا من صاب الأوصاب كأسا دهاقا، و لم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجنب، المنفتح حين سدت الأبواب، و لم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب، و إلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللفهان، و عند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان، و وجه الله تعالى يبقى و كل من عليها فان، و إلى هنا ينتهي القائل ثم يقول: حسبي هذا و كفان.

و لا ريب في اشتمال العلم الكريم، على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث و القديم، من الأخذ باليد عن زلة القدم، و قرع الأسنان و عض البنان من الندم، دينا تدين [حتى] مع اختلاف الأديان، و عادة أطرقت [فيهم] على تعاقب الأزمان و الأحيان.

و لقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها، و أعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس و يكفيها، فلم نر و نحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر، و لا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهرائي الكفر، ما وجدنا عن ذلك مندوحة و لو شاعه، و أمانا من المطالب المشاغب حمه شر لنا لاسعه، و اذكرنا أي اذكرك، قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الإنكار (ألم تكن أرض الله واسعة) و قول الرسول عليه الصلاة و السلام، المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام «أنا برىء من مؤمن مع كافر لا- تترأى نارهما» و قول الشاعر الحاث على حث المطية، المتناقلة عن السير في طريق منجاتها البطيئة: [الوافر]

و ما أنا و التلدد نحو نجد و قد غصت تهامة بالرجال

و وصلت أيضا من الشرق إلينا، كتب كريمة المقاصد لدينا، تستدعي الانحياز إلى تلك الجنبات، و تتضمن ما لا مزيد عليه من الرغبات، فلم نختر إلا- دارنا التي كانت دار آباءنا من قبلنا، و لم نرتض الانضواء إلا لمن بحبله وصل جبلنا، و بريش نبله ريش نبلنا، إدلالا على

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢٣

محل إحاء متوارث لا عن كلاله، و امثالاً لوصاء أجداد لأنظارهم و أقدارهم أصالة و جلاله، إذ قد روينا عن سلف من أسلافنا، في الإيضاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا، أن لا يبتغوا إذا دهمهم داهم بالحضرة المرينية بدلا، و لا يجدوا عن طريقها في التوجه إلى فريقها معدلا، فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج، و ركبنا إلى البحر الفرات ظهر البحر الأجاج فلا غرو أن نرد منه على ما يقر العين، و يشفى النفس الشاكية من ألم البين، و من توصل هذا التوصل، و توسل بمثل ذلك التوسل، تطارحا على سدة أمير المؤمنين، المحارب للمحاربين، و المؤمن للمستأمنين، فهو الخليق الحقيقي بأن يسوغ أصفى مشاربه، و يبلغ أوفى مآربه، على توالي الأيام و الشهور و السنين، و يخلص من الثبور إلى الجبور، و يخرج من الظلمات إلى النور، خروج الجنين، و لعل شعاع سعاده يفيض علينا، و نفحة قبول إقباله تسرى إلينا، فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر، لإنشاد قول الشريف الرضى في الخليفة القادر:

[الكامل]

عظفا أمير المؤمنين فإنا في دوحه العليا لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا، كلانا في المعالي معرق

إلا الخلافة ميزتك، فإنني أنا عاطل منها و أنت مطوق

لا- بل الأحرى بنا و الأحمى، و الأنجح لسعينا و الأرجى، أن نعدل عن هذا المنهاج، و يقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج، و ينشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج: [مخلع البسيط]

الناس يقدونك اضطرارا منهم، و أفديك باختيارى

و بعضهم في جوار بعض و أنت حتى أموت جارى

فعض لخبزى و عش لمائى و عش لدارى و أهل دارى

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢٤

و نستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه، و تعاضمت نعمائه، رحمة تجعل في يد الهداية أعتتنا، و عصمة تكون في مواقف

المخاوف جنتنا، وقبولا يعطف علينا نوافر القلوب، و صنعنا يستنى لنا كل مرغوب و مطلوب، و نسأله و طالما بلغ السائل سؤالا و مأمولا، متابا صادقا على موضوع الندم محمولا، ثم عزاء حسنا و صبورا جميلا، عن أرض أورثها من شاء من عباده معقبا لهم و مديلا، و سادلا عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولا سئنه الله التي قد حلت من قبل و لن تجد لسنة الله تبديلا [الفتح: ٢٣] فليطر طائر الوسواس المرفوف مطيرا، كان ذلك في الكتاب مسطورا لم نستطع عن مورده صدورا، و كان أمر الله قدرا مقدورا، ألا و إن لله سبحانه، في مقامكم العلى الذى أيدته و أعانه، سرا من النصر يترجم عنه لسان من النصل، و ترجع فروع البشائر الصادقة، بالفتوحات المتلاحقة، من قاعدته المتأصلة، إلى أصل، فبمثله يجب اللباز، و العياذ، و لشبهه يحق الالتجاء، و الارتجاء، و لأمر ما آثرناه و اخترناه، بعد أن استرشدنا الله سبحانه و استخرناه، و منه جل جلاله نرغب أن يخير لنا و لجميع المسلمين، و يؤب بنا من حمايته و وقايته إلى معقل منيع و جناب رفيع آمين آمين آمين، و نرجو أن يكون ربنا، الذى هو فى جميع الأمور حسبنا، قد خار لنا حيث أرشدنا و هدانا، و ساقنا توفيقه و حدانا، إلى الاستجارة بملكك حفى، كريم و فى، أعز جارا من أبى دواد، و أحمى أنفا من الحارث بن عباد، يشهد بذلك الدانى و القاصى و الحاضر و الباد، إن أغاث ملهوفما الأسود بن قنان يذكر، و إن أنعش حشاشه هالكك فما كعب بن مامه على فعله وحده يشكر، جلسه كجلس القعقاع بن شور، و مذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب، إلى ثور، إلى التحلى بأمهات الفضائل، التى أضدادها أمهات الرذائل، و هى الثلاث الحكمة و العدل و العفة التى تشملها الثلاثة الأقوال و الأفعال، و الشمائل، و ينشأ منها ما شئت من عزم و حزم، و علم و حلم، و تيقظ، و تحفظ، و اتقاء، و ارتقاء، و وصول، و طول، و سماح و نائل، فبنور حلاه المشرق،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٥

يفتخر المغرب على المشرق، و بمحتده السامى خطره فى الأخطار، و بيته الذى ذكره فى النباهة و النجابه قد طار، يباهى جميع ملوك الجهات و الأقطار، و كيف لا- و هو الرفيع المنتمى و التجار، الراضع من الطهارة صفو ألبان، الناشىء من السراوة وسط أحجار، فى ضئضىء المجد و بحبوح الكرم، و سراوة أسرة المملكة التى أكنافها حرم، و ذؤابه الشرف التى مجاذتها لم ترم، من معشر أى معشر بخلوا إن وهبوا ما دون أعمارهم، و جنبوا إن لم يحموا سوى ذمارهم، بنو مرين، و ما أدراك ما بنو مرين:

سمّ العداة و آفة الجزر النازلون بكلّ معترك

و الطيبون معاقد الأزر

لهم من الهفوات انتفاء، و عندهم من السير النبوية اكتفاء، انتسبوا إلى بر بن قيس، فخرجوا فى البر عن القيس، ما لهم القديم المعروف، قد نفذ فى سبيل المعروف، و حديثهم الذى نقلته رجال الزحوف، من طريق القنا و السيوف، على الحسن من المقاصد موقوف، تحمد من صغيرهم و كبيرهم ذابلهم و لدنهم، فله آباء أنجوبهم و أمهات ولدنهم، شم الأنوف من الطراز الأول، إليهم فى الشدائد الاستناد و عليهم فى الأزمات المعول، و لهم فى الوفاء و الصفاء و الاحتفاء و العناية و الحماية و الرعاية الخطو الواسع و الباع الأطول، كأنما عناهم بقوله جرول: [الطويل]

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا و إن عاهدوا أوفوا و إن عقدوا شدوا

و إن كانت التعماء فيهم جزوا بها و إن أنعموا لا كدروها و لا كدوا

و تعذلنى أبناء سعد عليهم و ما قلت إلّا بالتى علمت سعد

و بقوله الوثيق مبناه، البليغ معناه: [البسيط]

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدوا العناج و شدوا فوقه الكربا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٢٢٦

يزيحون عن النزير كل نازح قاصم، و ليس لهم منهم عائب و لا واصم، فهو أحق بما قاله فى منقر قيس بن عاصم: [الكامل]

لا يفتنون لعيب جارهم و همو لحفظ جوارهم فطن

حلاهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جعل، وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل، ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مستعل، ارفضّ مزنيهم منه غيث ملثّ يمحو آثار اللزبة، وانشق غيلهم منه عن ليث ضار متقبض على برائته للوثبة، فقل لسكان الفلاة لا- تغرنكم أعدادكم و أمدادكم، فلا- يبالي السرحان المواشى سواء مشى إليها التقرى أو الجفلى، بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عرين، ثم يتلع بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع التين، فهو هو كما عرفوه، و عهدوه و ألفوه، أخو المنايا، و ابن جلا و طلاع الثنايا، مجتمع أشده، قد احتنكت سنه و بان رشده، جاد مجدّ، محترم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجد:

[البسيط]

لا يشرب الماء إلا من قليب دم و لا يبيت له جار على وجل

أسدى القلب آدمى الرواء، لابس جلد النمر يزوى العناد و النواء: [الطويل]

و ليس بشاوى عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس و أسهم

و لكته يسعى عليه مفاضة دلاص كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين، و الوجل الوجل لاحقين به خاضعين، قبل أن تساقوا إليه مقرنين فى الأصفاد، و يعيا الفداء بنفائس النفوس و الأموال على الفاد، حينئذ يعض ذو الجهل و الفدامة، على يديه حسرة و ندامة، إذا رأى أبطال الجنود، تحت خوافق الرايات و البنود، قد لفحتهم نار ليست بذات خمود، و أخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذى من قبلهم عاد و ثمود، زعقات توز الكتائب أزا، و همزا محققا للخيل بعد المد المشبع للأعنة همزا، و سلا للهنديّة سلا و هزا للخطيّة هزا، حتى يقول النسر للذئب هلّ تُحسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً [مريم: ٩٨] ثق خليفه الله بذاك، فى كل من رام أذى رعيتك أو أذاك، فتلك عادة الله سبحانه و تعالى فى ذوى الشقاق و النفاق، الذين يشقون عصا المسلمين و يقطعون طريق الرفاق،

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢٧

و ينصبون حبال البغى و الفساد فى جميع النواحي و الآفاق، فلن يجعلهم الله عز و جل من الآمنين، أنى و كيف و قد أفسدوا و خانوا و هو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين، و لا يهدى كيد الخائنين، وها نحن قد وجهنّا إلى كعبة مجدكم و جوه صلوات التقديس و التعظيم، بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدرّ ثناء أبهى من در العقد النظيم، منتظمين فى سلك أوليائكم، متشرفين بخدمة عليائكم، و لا فقد عزه و لا عدمها، من قصد مثابكم العريزة و خدمها، و إن المترامى على سنائكم، لجدير بحرمتكم و اعتنائكم، و كل ملهوف تبوّأ من كنفكم حصنا حصينا، عاش بقيه عمره محروسا من الضيم مصونا، و قد قيل فى بعض الكلام: من قعدت به نكايه الأيام، أقامته إغائه الكرام، و مولانا أيدى الله تعالى ولى ما يرفه إلينا من مكرمة بكر، و يصنعه لنا من صنيع حافل يخلد فى صحائف حسن الذكر، و يروى معنعن حديث حمده و شكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر، و غيره من ينام عن ذلك فيوقظ، و يسترسل مع الغفلة حتى يذكر و يوعظ، و ما عهد منذ وجد إلا سريعا إلى داعى الندى و التكرم، بريئا من الضجر بالمطالبة و التبرم، حافظا للجار الذى أوصى النبي صلى الله عليه و سلم بحفظه، مستفرغا وسعه فى رعيه المستمر و لحظه، آخذا من حسن الثناء فى جميع الأوقات و الآناء بحظه: [الخفيف]

فهو من دوحه السنّا فرع عزّ ليس يحتاج مجتنيه لهزّ

كفه فى الأمحال أغزر وبل و ذراه فى الخوف أمنع حرز

حلمه يسفر اسمه لك عنه فتفهم يا مدعى الفهم لغزى

لا تسل شيئا و لا تستنله نظرة منه فيك تغنى و تجزى

فنداه هو الفرات الذى قد عام فيه الأنام عوم الأوزّ

و حماه هو المنيع الذى ترجع عنه الخطوب مرجع عجز

فدعوا ذهنه يزاول قولي فهو أدرى بما تضمّن رمزي

دام يحيى بكلّ صنع و منّ و يعافى من كلّ بؤس و رجز

و كأننا به قد عمل على شاكلة جلاله، من مد ظلاله، و تمهيد خلاله، و تلقى ورودنا

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢٨

بحسن تهلله و استهلاله، و تأنيسنا بجميل قبوله و إقباله، و إيرادنا على حوض كوثره المترع بزلاله، و الله سبحانه يسعد مقامه العلى و يسعدنا به فى حله و ارتحاله، و مآله و حاله، و يؤيد جنده المظفر و يؤيدنا بتأييده على نزال عدوه و استنزاله، و هز الدوابل لإطفاء ذباله، و هو سبحانه و تعالى المسؤول أن يريه قرّة العين فى نفسه و أهله و خدامه و أمواله، و أنظاره و أعماله، و كافه شؤونه و أحواله، و أحق ما نصل بالسلام و أولى على المقام الجليل مقام الخليفة المولى، أزكى الصلاة و السلام على خاتمة أنبيائه و إرساله، سيدنا و مولانا محمد صلى الله عليه و سلم و على جميع أصحابه و آله، صلاة و سلاما دائمين أبدا موصولين بدوام الأبد و اتصاله، ضامين لمجددهما و مرددهما صلاح فساد أعماله، و بلوغ غاية آماله، و ذلك بمشيئة الله تعالى و إذنه و فضله و إفضاله، انتهى.

[كلمة عن أبى عبد الله العقيلي، منشى الرسالة المذكورة و من شعره]

و كاتب هذه الرسالة على لسان السلطان المخلوع، قال الوادى آشى فى حقه: إنه إمام [هذه] الصناعة، و فارس حلبة القرطاس و البراعة، و واسطة عقد البلاغة و البراعة، الذى كطف الكمال لما نور، و رتب محاسن البديع فى درر فقره و طور و غرف من بحر عجاج، و اقتطف من خاطر وهّاج، أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلي، و ما أحسن قوله فيمن قد ظفر به المسلمون: [الطويل]

الأرب مغرور تنصّر ضلّة فحاق به شؤم الضلال و شرّه

فإن يرتفع عند التصارى بالابتدا فكم عندنا من حرف جبل يجزّه

و قال الوادى آشى أيضا فى موضع آخر ما نصه: و لشاعر العصر، و مالك زمامى النظم و النثر، و الفقيه العالم المتقن المتفنن العارف الأواحد النبيه النبيل، سيدى محمد العربى وصل الله تعالى رفعة قدره، و حرس من غير الأيام أشعة بدره: [السريع]

الحبّ فى جمهور أنواره فأين الاخوان و الأحباب

و أين أين الاجتماعات، قد تهيات لهنّ الاسباب

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٢٩

و أين بنت الجبن؟ لما بدت طارت إليها شوقا الباب

و أين الالبان لأكوابها فى برم الأرزّ تسكاب

و اللحم بالبسباس قد ألفت لطبخه فى القدر الاحطاب

و العود ذو دندنة يطبى آثارها للطار دبداب

و ملح الأصوات قد طورحت و جاء معبد و زرياب

و فضّ للهو ختام و لم يسدّ فى وجه الهوى باب

و قيل للوقار قم قبل أن تسلب عنك الآن الاثواب

و كلّ إنسان و ما يشتهى ليس على مناه حجاب

مسترسلا ليس له عدلّ كلّا و لا عليه رقاب

فى راحة خلعت ارسانها لمثلها تعصر الاعناب

فكلّ بستان قد استأسدت فيه النواوير و الاعشاب

و أطلع التراب أدواحه كأنها العرب الاتراب
لما تحلّت بحلى زهرها داخلها بالحسن الاعجاب
عرانس ليس لها فى سوى مائه إذ ينه خطاب
إمام تبدى ثمرات بدا فى جنباتهنّ الارطاب
كأنه فى العين ياقوت أو كأنه فى الفم جلاب
هيهات هيهات أمان لها خلب برق لك خلاب
ما حوت الرؤوس أمثالها فكيف تحويهن الاذئاب
قد عاق عن ذلك دهر به تعدم الافراح و الاطراب
يروم الإنسان غلابا له و الدهر للإنسان غلاب

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٠

و قال رحمه الله تعالى لما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة: [المجتث]

بالطبل فى كل يوم و بالتفكير نراع

و ليس من بعد هذا و ذاك إلا القراع

يا ربّ جبرك يرجو من هيص منه الذراع

لا تسلبنى صبرا منه لقلبي ادراع

و له رحمه الله تعالى فى الموشحات اليد الطولى، فمن ذلك قوله:

بدر أهل الزمان الرفيع القدر لا تزل فى أمان من كسوف البدر

و له من أخرى:

هل يصحّ الأمان من شبيه البدر

و هو مثل الزمان منتم للغدر

لم يغرّ الأغرّ غير غمر جاهل

عيشه الحلو مرّ و هو فيه ناهل

و الصبا الغض مرّ و هو عنه ذاهل

مرشف البهرمان فوق ثغر الدّرّ

مطمع للأمان باقتراب الدّرّ

و عارض رحمه الله تعالى بهاتين الموشحتين الموشحة المشهورة:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان و حواه صدرى

و ممن عارض هذه الموشحة ابن أرقم إذ قال:

مبسم البهرمان فى المحيّا الدّرّى

صاد قلبى و بان و أنا لم أدر

و الإنصاف أن معارضة العربى أحسن من هذه.

و له أيضا معارضان غير ما تقدم: الأولى قوله:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣١

بان لى ثم بان ذا حدود حمر

ينثنى مثل بان فى ثياب خضر

و الثانية قوله:

هل لمرآك ثان فى سناه الدررى

أو لحوبائى ثان عن هواها العذرى

يا مليحا جلا عن محيا جميل

همت فيه و لا هيما جميل

مل قليلا إلى من إليك يميل

عاشق فيك فان كاتم للسّر

لك منه مكان فى صميم الصدر

و من نظم العربى المذكور لما عرض عليها السلطان رياسة كتابه من قصيدة: [السريع]

أوجه سعدى انحطّ عنه اللثام أم بدر ألقى فضّ عنه الغمام

أم أنا فى حالى لا عقل لى أم حلم قد لاح لى فى المنام

يا لك مرأى من رأى حسنه هاج لقلبه غراما فهام

كأنما أقبس نور البها من وجه مولانا الإمام الهمام

ابن أبى الحسن الأسرى الذى قد كان للأملاك مسك الختام

ضرغام قد أنجب شيها له فى صدق بأس و مضاء اعتزام

حامى و سامى فأفاعيله تنقلها أبناء سام و حام

دام له التصر الذى جاءه و السيف من طلى أعاديه دام

فيا أمير المؤمنين الذى له بعروة اليقين اعتصام

أبشر بجدّ مقبل لم يؤل إلى انصراف لا و لا لانصرام

و عزة لم يفض بنيانها إلى انهداد لا و لا لانهدام

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٢

لله منك ملك جنده زهر النجوم و هو بدر التمام

و منها:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٤٣٢

يطرب من مادحه مثل ما يطرب قلب الصّب سجع الحمام

فيفعل الشعر بأعطافه ما ليس تفعل بهن المدام

و إن حكى فى مدحه يوسف فحسنة يشبه زهر الكمام

و منها:

فداره ليست ببغدادهم مع أنّها تدعى بدار السلام

و منها:

أسأله الإغفاء من كل ما أعجز عن حمل له و الترام

و منها:

مستشفعا له بخير الورى محمد عليه أزكى السلام

و منها:

و كل إنسان و ما اختاره و ربّ ذى عذر قد اضحى يلام

و آخرها:

فالحمد لله على أن غدا للشمل بعد الانصداع التام

و لنختتم هذه الترجمة بقوله: [المنسرح]

جز بالبساتين و الرياض فما أبهج مرثيها و أحلاه

و اعجب بها للنبات ولتك في أسفله ناظرا و أعلاه

و قدس الله عند ذاك و قل سبحانه لا إله إلا هو

سبحان وارث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين و الحمد لله رب العالمين.

تم الجزء الخامس من كتاب نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب و به تم القسم الأول من الكتاب و يليه الجزء السادس مفتتحا

بالقسم الثانى من الكتاب فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٣

فهرس الرسائل و الخطب و الاجازات للجزء الخامس من كتاب نفع الطيب

ابن الأبار: رسالة منه إلى أبى المطرف ابن عميرة ٣٨٢ /٥

ابن حبيش، أبو بكر: إجازة من إنشائه ٢٢٦ /٥

قطعة من إجازة أخرى ٢٢٧ /٥

رسالة فى ما ذا التكريه ٢٢٦ /٥

ابن العربى العقيلى: رسالة على لسان المخلوع النصرى إلى الشيخ الوطاسى ٤١٠ /٥

أبو المطرف: رسالته إلى ابن الأبار عند سقوط بلنسية ٣٧٧ /٥

أبو الحسن المرينى: رسالة منه إلى الملك الصالح (لم يذكر منشؤها) ٢٨٧ /٥

الصفدى، خليل بن أيبك رسالة عن الملك الصالح إلى أبى الحسن المرينى ٢٩٤ /٥

إجازة برواية رسالته السابقه و الواردة من أبى الحسن ٢٩٨ /٥

لسان الدين بن الخطيب:

رسالة على لسان السلطان إلى السلطان المرينى ٣٠٣ /٥

رسالة فى استنهاض السلطان المرينى ٢٠٨ /٥

رسالة إلى سلطان فارس ٣١٢ /٥

رسالة فى الاعتذار عن فرار أبى الفضل المرينى ٣١٥ /٥

رسالة عن الغنى إلى الأمير السعيد ٣٢٣ /٥

رسالة إلى أبى عنان عن أبى الحجاج ٣٢٥ /٥

- رسالة في حاجة الأندلس إلى بر العدو ٥ / ٣٣١
 رسالة عن أبي الحجاج إلى الرعايا ٥ / ٣٣٤
 رسالة توضح ضيق الحال بالأندلس ٥ / ٣٣٦
 قطعة من رسالة طويلة ٥ / ٣٣٧
 ابن زيدون، أبو الوليد: من رسالة له إلى ولادة ٥ / ١٣٣
 ابن سعيد، عبد الملك: رسالته إلى أبيه حين سجن ٥ / ١٢٠
 رسالته يعتذر عن مجلس أنس ٥ / ١٢١
 جواب على رسالة و صلته من اللص ٥ / ١٥٣
 ابن سيد، اللص: رسالته إلى عبد الملك بن سعيد ٥ / ١٢٢
 الأعلم الشنتمري: رسالة في لفظ «المسهب» ٥ / ٢٤
 رسالة في المسألة الزبورية ٥ / ٢٤
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٤

فهرس موضوعات الجزء الخامس

إشارة

- من كتاب نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى أبو عبد الله بن عائشة: ترجمته و بعض شعره ٣
 من شعر أبي عمرو يزيد بن عبد الله اللخمي الإشبيلي ٥
 من شعر ابن الحداد ٦
 من شعر أبي الحسن بن حريق ٦
 من شعر على بن محمد الإيادي التونسي ٧
 من شعر أبي عمر القسطلي ٨
 من شعر ابن خفاجة ٨
 من شعر ابن الأبار ٨
 من شعر أبي العباس الأعمى ٩
 من شعر عبيد الجليل بن وهبون ٩
 من شعر ابن خفاجة ١٠
 من شعر عبيد الله بن جعفر الإشبيلي ١٠
 من شعر أبي الحسن على بن جحدر الزجال ١٠
 من شعر أحمد المعروف بالكساد ١١
 من شعر أبي القاسم الحضرمي المنيشي ١١
 من شعر أبي زيد عبد الرحمن العثماني ١١
 من شعر أبي زكريا يحيى بن محمد الأركشي ١٢

- من شعر أبي عمران الطرياني ١٢
 من شعر أبي عمرو بن الحكم ١٢
 من شعر أبي الحسن علي بن الجعدى القرمونى ١٢
 من شعر أبي الحسن بن لبال ١٣
 من شعر أبي العباس الشريشى ١٣
 من شعر أبي جعفر الشريشى ١٣
 من شعر عمرو بن غياث ١٣
 من شعر الوزير أبي بكر بن أبي مروان ١٤
 من شعر أبي القاسم بن أبي بكر ١٤
 من شعر عبد الله الجزيرى ١٤
 من شعر عبد الملك الجزيرى ١٥
 من شعر أبي الحسن علي بن حفص الجزيرى ١٦
 من شعر أبي الحسن بن سعيد ١٧
 من شعر أحمد بن بلال ١٧
 من شعر أبي الوليد القسطلى ١٨
 من شعر أبي كثير الطريفى ١٨
 من شعر أبي عامر بن الجد ١٨
 من شعر أبي عبد الله الشلبى ١٨
 من شعر أبي بكر محمد بن الملح ١٩
 من شعر أبي بكر محمد بن عبد القادر الشلبى ٢٠
 من شعر أبي الحسن علي ابن السيد البطليوسى ٢٠
 من شعر أبي بكر محمد بن الروح الشلبى ٢٠
 من شعر أبي بكر بن المنخل ٢١
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٥
 من شعر أبي بكر بن عمار ٢١
 من شعر ابن صارة فى ابن الأعلم ٢١
 من شعر الرمادى ٢٢
 من شعر أبي الفضل بن الأعلم و ترجمته و ترجمه أبيه ٢٢
 من شعر أبي علي إدريس بن اليمانى العبدري ٢٣
 مهاجاة بين ابن طيفور و الحافظ الهيثم ٢٣
 من شعر الحجارى صاحب المسهب ٢٤
 بحث فى ضبط كلمة المسهب ٢٤
 أخبار تتعلق بسبويه و كتابه فى النحو ٢٧

- نسب سيويه و تفسير لقبه ٣٠
- من شعر الإلبيري ٣٢
- من شعر ابن صارة ٣٢
- من شعر ابن هانيء الأندلسي ٣٢
- من شعر القسطلي ٣٣
- من شعر أبي العباس الجراوي ٣٣
- من شعر أبي بحر صفوان بن إدريس ٣٣
- من شعر أبي بكر بن مجبر ٣٤
- من شعر بعضهم في الباذنجان ٣٤
- من شعر ابن خروف في وصف دمشق ٣٤
- من شعر أبي القاسم بن هشام ٣٥
- من شعر أبي الوليد الوقشي ٣٥
- من شعر أبي الحسن بن عيسى ٣٥
- من شعر أبي ذر الخشني ٣٥
- من شعر محمد بن أبي خالص الرندي ٣٦
- من شعر عبد الملك بن مفوز ٣٦
- من شعر ابن زيدون ٣٦
- من شعر الهيثم فيمن أصابه جرب ٣٦
- من شعر أبي الحسين النفزي ٣٦
- من شعر ابن صارة ٣٧
- من شعر المعتمد بن عباد ٣٧
- من شعر ابن زيدون ٣٩
- من شعر المعتمد بن عباد ٣٩
- من تطير الرشيد بن المعتمد ٣٩
- من شعر المعتمد ٤٠
- بين المعتمد و ابن اللبانة ٤١
- من شعر ابن اللبانة ٤١
- من شعر لسان الدين بن الخطيب ٤٢
- ابن زيدون يمدح المعتمد بن عباد ٤٣
- من شعر أبي القاسم أسعد يمدح المعتصم ٤٤
- من شعر ابن خلصة المكفوف ٤٤
- من شعر ابن الحداد ٤٥
- من شعر ابن وهبون ٤٦

- من شعر ابن أبي وهب ٤٦
 من شعر ابن اللبانة ٤٦
 من شعر القزاز ٤٦
 من شعر أبي الحسن بن الحاج ٤٧
 من شعر ابن خفاجة ٤٩
 من شعر ابن الرفاء ٥١
 من شعر أبي محمد بن عبد البر ٥١
 من شعر أبي القاسم السميصر ٥١
 من شعر ابن شاطر السرقسطي ٥٢
 من شعر الحصري ٥٢
 من شعر عبد الصمد ٥٢
 من شعر ابن عبد الحميد البرجي ٥٢
 من شعر عبادة ٥٢
 من شعر ابن المطرف المنجم ٥٣
 من شعر أبي الحسن بن اليسع ٥٣
 بين المستنصر و ابن سيد الناس ٥٣
 من شعر أبي العباس الرصافي ٥٣
 من شعر أبي الربيع بن سالم ٥٤
 من شعر أبي القاسم بن الأبرش ٥٤
 من شعر أبي الحسن بن حريق ٥٤
 من شعر أبي القاسم بن العطار الإشبيلي ٥٤
 من شعر أبي العباس اللص ٥٥
 من شعر أبي إسحاق الإلبيري ٥٥
 من شعر الوزير أبي الوليد بن مسلمه ٥٥
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٦
 من شعر أبي الطاهر إسماعيل الخشني ٥٥
 من شعر أبي المعالي الإشبيلي ٥٦
 من شعر أبي القاسم بن الأنقر السرقسطي ٥٦
 من شعر أبي وهب الزاهد ٥٦
 من شعر أبي عبد الله بن محمد بن فتح ٥٦
 من شعر أبي القاسم محمد بن نصير ٥٦
 بين محمد بن ميمون و أبيه في جارية ٥٧
 من شعر المعتمد بن عباد ٥٧

- من شعر أبي عامر البرياني ٥٨
 من شعر السمسير ٥٨
 من شعر أبي بكر بن منخل ٥٨
 من شعر محمد بن عبد الحق الإشبيلي ٥٩
 من شعر أبي محمد بن صاره ٥٩
 من شعر أبي محمد الطائي ٥٩
 من شعر الحافظ ابن حزم ٥٩
 من شعر أبي عبد الله الجبلي الطيب ٥٩
 من شعر محمد بن عبد الله الحضرمي ٥٩
 من شعر ابن الأبار ٦٠
 من شعر التجاني ٦١
 من شعر أبي الحسين بن مفوز ٦٢
 من شعر أبي العباس بن مكنون ٦٢
 أول اتصال الحجاري بابن سعيد ٦٣
 من شعر ابن مرزقان في وصف شمعة ٦٤
 من شعر ابن الأصبغ الإشبيلي ٦٥
 من شعر ابن حجاج الغافقي ٦٥
 من شعر أبي وهب النحوي ٦٦
 من شعر محمد بن يحيى القلظاط ٦٦
 من شعر أحمد بن المبارك الحبيبي ٦٦
 من شعر إبراهيم بن إدريس العلوي ٦٧
 من شعر أبي محمد المرواني ٦٧
 البازي الأشهب أحد اللصوص في عصر المعتمد بن عباد ٦٨
 منصور بن عبد المؤمن و شيخ مغفل بناء ٦٨
 أحمد المقريني المعروف بالكساد ٦٨
 محمد بن أحمد القرموطي المرسي ٦٩
 من شعر أبي عبد الله محمد بن سالم القيسي ٦٩
 من شعر أبي عبد الله الإشبيلي الخطيب ٦٩
 من شعر أبي زيد العثماني ٦٩
 من صاحب دانية إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر ٧٠
 من شعر بعض الهجائين في رنده ٧١
 من شعر حبلان الشاعر الرندي ٧١
 من شعر أبي بكر الرندي ٧٢

- من شعر أرقم أحد بنى ذى النون ٧٢
 من شعر أبى محمد بن سفيان ٧٢
 من شعر ابن أرفع رأسه ٧٣
 من شعر أحمد عبد المؤمن الطليطلى ٧٣
 من شعر أبى محمد عبد الله بن العسال ٧٣
 من شعر الوزير أبى جعفر الوقشى ٧٤
 من شعر أبى الوليد هشام الوقشى ٧٥
 من شعر أبى الحسين بن أبى جعفر الوزير ٧٥
 من شعر أبى الحسين على بن الحماره ٧٧
 تبخر اهل الاندلس فى العلوم ٧٨
 بين ابن حبيش و اليفرنى فى استعمال ما ذا ٧٨
 أبو زكريا يحيى بن على بن سلطان اليفرنى ٨٢
 من شعر صالح بن شريف الرندى ٨٣
 نقد جماعة لكتاب المقرب لابن عصفور ٨٤
 من شعر أبى جعفر بن صفوان الملقى ٨٥
 من شعر محمد بن إدريس الأصطبوني ٨٥
 من شعر محمد التطيلي الهذلى ٨٦
 بين يحيى السرقسطى و ابن حسداى الوزير ٨٧
 من شعر أبى الحسن بن الحداد ٨٨
 من شعر أبى زكريا بن مطروح ٨٨
 من شعر أبى البركات بن الحاج البلفيقى ٨٩
 من شعر أبى الحجاج يوسف الفهرى ٨٩
 من شعر بعضهم فى الرثاء ٨٩
 من شعر أبى جعفر البغيل ٨٩
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٧
 من شعر أبى جعفر أحمد بن أيوب الملقى ٩٠
 من شعر أبى جعفر أحمد بن طلحة ٩٠
 من شعر أبى جعفر الغسانى ٩٠
 من شعر أبى بكر يحيى بن بقى ٩٠
 من شعر المتوكل بن الأفطس ٩٠
 من شعر أبى عبد الله بن خلصة ٩١
 من شعر ابن اللبانه ٩١
 من شعر أبى على بن اليمانى ٩١

- من شعر أبي جعفر بن الدودي ٩٢
 من شعر ابن أبي الخصال ٩٢
 من شعر غالب الحجام ٩٢
 من شعر ابن عائشة ٩٢
 من شعر أبي محمد بن سفيان ٩٣
 من شعر ابن الزرقاني ٩٣
 من شعر يحيى السرقسطي ٩٣
 من شعر الرصافي ٩٤
 من شعر أبي بكر الصابوني ٩٤
 من شعر ابن أبي ركب ٩٤
 من شعر الرصافي ٩٥
 بين ابن حزم و بعض الأدباء ٩٥
 من شعر أبي بكر بن مجبر ٩٦
 بين الوقشي و ابن سراج ٩٦
 من شعر أبي الحسن بن أضحي ٩٧
 الوزير أبو الحسن بن أضحي و بعض أخباره ٩٧
 أم السعد بنت عصام الحميري (سعدونة) ١٠٠
 حسانه التميمية ١٠٠
 أم العلاء بنت يوسف الحجارية ١٠٢
 أمه العزيز ١٠٢
 أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ١٠٣
 الشاعرة الغسانية البجانية ١٠٣
 العروضية مولاة عبد الرحمن بن غلبون ١٠٣
 حفصة الركونية ١٠٤
 أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ١١٠
 بين أبي جعفر و ابن سيد المعروف باللص ١٢٣
 من شعر ابن سيد المعروف باللص ١٢٩
 بين أبي الحكم بن هرودس و أبي جعفر ١٣٠
 من نظم أبي الحكم بن هرودس ١٣٠
 من نظم أخيل بن إدريس ١٣١
 من أخبار أحمد بن سيد المعروف باللص ١٣٢
 عود إلى أخبار أبي جعفر بن سعيد ١٣٢
 ولادة بنت المستكفي ١٣٣

- اعتماد جارية المعتمد بن عباد ١٣٨
 حديث عن المعتمد بن عباد عن الفتح ١٤٠
 حديث آخر عن المعتمد ١٤٢
 ثورة عبد الجبار بن المعتمد بن عباد ١٤٤
 زيارة لسان الدين لقبر المعتمد ١٥٠
 من شعر ابن عبدون ١٥١
 من شعر اللورقي يهجو آل عباد ١٥١
 الفتح يتحدث عن أولياء بني عباد ١٥٢
 الأديب أبو جعفر بن البني ١٥٣
 أبو الحسن بن لسان ١٥٦
 الأديب أبو بكر عبد المعطي ١٥٩
 أبو بكر يحيى بن بقى ١٦١
 لأبي عبد الله الحوضي يمدح سلطان تلمسان ١٦٥
 عود إلى بني عباد ١٦٥
 وصف ابن اللبائنة للمعتضد ١٦٦
 ابن جاح يرد على المعتضد ١٦٧
 المعتمد على الله بن المعتضد بن عباد ١٦٨
 ترجمة الفتح للراضي بالله بن المعتمد ١٧٢
 أولاد المعتمد ١٧٨
 من مدائح الداني في بني عباد مقتل بني المعتمد ورتاء ابن حمديس ١٧٨
 من شعر الداني في المعتمد ١٧٩
 رتاء أبي بحر عبد الصمد للمعتمد ١٨١
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٨
 بين الداني و ابن عمار ١٨٢
 امرأة تلقى المعتمد و ابن عمار بغير حياء ١٨٢
 ابن وهبون و المعتمد ١٨٣
 أبو العرب الصقلي و المعتمد ١٨٣
 بحث المعتمد في بيت للمتنبى ١٨٣
 كلام للصفدي في بيت المتنبى ١٨٤
 المعتمد و جارية من جواريه ١٨٤
 لابن وهبون في وصف فيل من الفضة في قصر المعتمد ١٨٥
 من شعر العزيز ابن الملح ١٨٥
 لابن زيدون يرثي المعتضد و يمدح المعتمد ١٨٦

- من ابن زيدون إلى المعتمد بن عباد ١٨٩
- أهدى ابن زيدون تفاحا إلى المعتمد و كتب معه ١٨٩
- و كتب إليه أيضا ١٨٩
- ابن زيدون يعمى بيت فيفكه المعتمد ١٩٠
- مما كتب به ابن زيدون إلى المعتمد ١٩٠
- بين ابن حمديس و المعتمد بن عباد ١٩٢
- من شعر ابن حمديس ١٩٢
- عود إلى ذكر اعتماد الرميكية حظية المعتمد ١٩٣
- بنات المعتمد يزرنه في سجنه بأغمات يوم عيد، كاسفات الببال، فيقول فيهن شعرا ١٩٤
- المعتمد يحمل في السفين من الأندلس إلى العدو، و شعر له في ذلك ١٩٥
- و في هذا يقول ابن اللبائنة ١٩٥
- القصر الزاهي من قصور المعتمد، و شعر له يشتاقه فيه و هو أسير بسجن أغمات ١٩٥
- الحجاري يحدث عن جارية أهداها ابن تاشفين إلى المعتمد بن عباد ١٩٦
- الفتح بن خاقان يتحدث عن حصار المعتمد ١٩٧
- من حكايات مجالس أنس المعتمد ما حدث به الفتح بن خاقان عن ذخر الدولة ١٩٨
- و منها ما حكاه الفتح أيضا عن ابن اللبائنة ١٩٩
- حديث مجلس آخر يحكيه الفتح عن ذخر الدولة ١٩٩
- حديث مجلس آخر بالسند السابق ٢٠٠
- حديث مجلس آخر يحكيه الفتح عن إقبال الدولة بن مجاهد ٢٠١
- للمعتمد في غلام رآه طالعا من ثنيات الوغى ٢٠٢
- و له فيه أيضا ٢٠٢
- رجع إلى أخبار النساء ٢٠٢
- العبادية جارية المعتضد عباد ٢٠٢
- للمعتضد في العبادية و قد سهر هو ليلة و هي نائمة ٢٠٣
- العبادية تجيب المعتضد بديها ٢٠٣
- بشينة بنت المعتمد بن عباد ٢٠٣
- حفصة بنت حمدون الحجارية ٢٠٤
- زينب المرية ٢٠٥
- غاية المنى، جارية أندلسية قدمت للمعتصم بن صمادح ٢٠٥
- حمدة (و يقال حمدونة) بنت زياد المؤدب من وادي آش ٢٠٦
- نسب بعض الأدياء لحمدة بنت زياد أبياتا تنسب في المشرق إلى المنازى ٢٠٧
- كلمة عن المنازى الشاعر و قدمه على أبي العلاء المعرى ٢٠٧
- عودة إلى حمدة بنت زياد و أختها زينب بنت زياد الوادي آشى ٢٠٨

- عائشة بنت أحمد القرطبية ٢٠٨
 مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري ٢٠٩
 أسماء العامرية، من أهل إشبيلية ٢٠٩
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٣٩
 أم الهناء بنت عبد الحق بن عطية القاضي ٢١٠
 مهجة القرطبية، صاحبة ولادة بنت المستكفي بالله ٢١٠
 هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي ٢١١
 الشلية، و كانت في عهد السلطان يعقوب المنصور ٢١١
 زوجها لبعض قضاة لوشة فاقت علماء عصرها في معرفة الأحكام ٢١١
 نزهون الغرناطية ٢١٢
 بينها وبين الوزير أبي بكر بن سعيد ٢١٢
 بينها وبين المخزومي الهجاء ٢١٢
 حديث لابن سعيد عن اجتماع نزهون و ابن قزمان و ما جرى بينهما ٢١٣
 بين نزهون و أبي بكر الكتندى ٢١٤
 من شعر ابن الزقاق ٢١٥
 من شعر الخفاجي ٢١٧
 لابن صارة ٢١٧
 للأديب أبي القاسم بن العطار ٢١٨
 لأبي جعفر بن خاتمة ٢١٩
 للوزير ابن جزى ٢١٩
 لأبي الحجاج النصرى (السلطان) ٢١٩
 لأبي القاسم بن حاتم ٢٢٠
 للفقير ابن سعيد يخاطب الفقيه الفخار ٢٢٠
 لابن جبير اليحصبي فيمن أهدى له تفاحا ٢٢٠
 لقاضى مالقة إبراهيم البدوى ٢٢٠
 حديث عن مصحف بجامع العديس بإشبيلية ٢٢٠
 من شعر ابن عبدون ٢٢١
 لأبي عبد الله بن المناصف قاضى بلنسية ٢٢١
 للوزير ابن عمار ردا على أبي المطرف بن الدباغ و قد شفع عنده فى غلام طر عذاره ٢٢١
 من شعر ابى الوليد الوقشى قاضى طليطلة ٢٢٢
 لأبي عبد الله بن الصفار، و هو من بيت القضاء و العلم بقرطبة ٢٢٢
 لأبي مروان الجزيرى ٢٢٢
 أبيات لأبي عمرو بن مهيب فى حمود بن إبراهيم الهرغى رواها محيى الدين بن عربى ٢٢٣

- آيات لعبد الله الجذامي، و شيء من ترجمته عن «الإحاطة» للسان الدين ٢٢٣
- لعبد الله بن أحمد المالقي، آيات كتبها إلى أبي نصر الفتح بن خاقان صاحب «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس» ٢٢٣
- لمحمد بن الحسن المذحجي ٢٢٤
- لمحمد بن عبد الرحمن الغرناطي ٢٢٤
- لأبي محمد الكلاعي الجياني و قد دخل على القاضي ابن رشد فقام له ٢٢٤
- لأبي عبد الرحمن بن حجاج البلنسي ٢٢٥
- لأبي محمد بن برطله ٢٢٥
- لابن وضاح، و أنشده أبو بكر بن حبيش ٢٢٥
- ترجمه أبي بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش، و بعض أخباره ٢٢٦
- للوزير الكاتب أبي بكر بن القبطرنة يستجدي بازيا من المنصور بن الأفطس ٢٢٧
- بين ابن عمار و المعتمد بن عباد و قد أهديت للمعتمد باكورة نرجس، فكتب يستدعي حضوره لمجلس أنس ٢٢٨
- ابن عمار يكتب للمعتمد و قد أصطح مع أم الربيع في يوم غيم و احتجب عن الندماء ٢٢٨
- بين ابن عمار و بعض إخوانه، و قد كتبوا له يستدعون منه شرابا ٢٢٩
- بين ذى الوزارتين القائد أبي عيسى بن لبون، و ابن اليسع ٢٢٩
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٤٠
- للحجاري في وصف زيه البدوي ٢٢٩
- لأبي العباس بن خليل ٢٢٩
- لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي ٢٣٠
- لأبي عبد الله محمد بن صالح الكناني ٢٣٠
- لأبي العباس أحمد بن الغماز البلنسي ٢٣٠
- لأبي إسحاق الإلبيري الغرناطي ٢٣١
- لأبي عبد الله بن العريف ٢٣٢
- لأبي القاسم بن الأبرش ٢٣٢
- لأبي العباس بن صقر الغرناطي ٢٣٢
- لأبي عبد الله محمد بن الأبار القضاعي ٢٣٣
- من ترجمه ابن الأبار عن الغبريني في كتابه «عنوان الدراية» ٢٣٣
- ابن علوان يحدث عن اتصال سنده به ٢٣٣
- المؤلف يحدث عن اتصال سنده به ٢٣٤
- لابن عبد ربه ٢٣٤
- للصدر أبي العلاء بن قاسم القيسي ٢٣٤
- للأعمى التطيلي ٢٣٤
- للقاضي أبي العباس بن الغماز البلنسي ٢٣٤
- لأبي إسحاق الإلبيري ٢٣٥

- لأبي الطاهر الجياني المعروف بابن أبي ركب ٢٣٥
 بين ابن ركب و ابن زرقون ٢٣٦
 لأبي عبد الله بن خميس الجزائري ٢٣٦
 لأبي محمد بن هارون القرطبي ٢٣٧
 للأستاذ أبي محمد بن صارة ٢٣٧
 لأبي عبد الله بن الحاج البكري الغرناطي ٢٣٨
 لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي ٢٣٨
 لأبي بكر يحيى التظلي ٢٣٩
 بين بعض المغاربة و الملك الكامل بن العادل بن أيوب ٢٣٩
 لأبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي أبيات يرويها أبو الوليد المعروف بابن الخليفة ٢٣٩
 لأبي الحسن عبد الملك بن عياش الأزدي ٢٤٠
 لأبي إسحاق بن خفاجة و قد أربى على الثمانين ٢٤٠
 لأبي محمد عبد الوهاب بن محمد القيسي المالقي ٢٤٠
 لعبد الحق الإشبيلي الأزدي ٢٤٠
 لأبي الفضل عبد المنعم بن عمر الغساني الجلياني ٢٤٠
 لعبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القضاعي الطروشاني ٢٤١
 لأبي الحكم عبد المحسن البننسي ٢٤١
 لأبي حاتم عمر بن محمد بن فرج يمدح كتاب «الشهاب» للقضاعي ٢٤١
 لأبي محمد غانم بن الوليد المخزومي المالقي ٢٤١
 لأبي العباس أحمد بن العريف ٢٤٢
 لأبي محمد المحاربي ٢٤٣
 لأبي عبد الله غريب الثقفي القرطبي ٢٤٣
 لأبي الحسن سليمان بن الطراوة النحوي المالقي ٢٤٣
 لأبي الربيع بن سالم ٢٤٤
 لأبي الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلي الإشبيلي ٢٤٤
 لأبي بكر الزبيدي اللغوي ٢٤٤
 لأبي الوليد هشام بن محمد، القيسي، الشلبي، المعروف بابن الطلا ٢٤٤
 لابن حوط الله ٢٤٥
 ترجمة أبي محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حوط الله عن «الإحاطة» ٢٤٥
 لأبي المتوكل الهيثم بن أحمد السكوتي الإشبيلي، ورد و هم في نسبة أبياته ٢٤٥
 لأبي محمد القاسم بن الفتح الحجاري المعروف بابن أفريلو ٢٤٦
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٤١
 لأبي بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبر ٢٤٦

- لأبي الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري المنصفي البلنسي ٢٤٦
- لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ القرشي الأموي، مخمسا أبيات عز الدين بن جماعة قاضي القضاء ٢٤٧
- لأبي عبد الله الحميدي ٢٤٧
- بين الحميدي و من ذم أهل الحديث ٢٤٨
- لأبي بكر محمد بن محرز الزهري البلنسي ٢٤٩
- لأحمد بن سعيد بن حزم ٢٤٩
- للقاضي أبي العباس أحمد بن الغماز ٢٤٩
- لابن الزقاق ٢٥٠
- لأبي عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي ٢٥٠
- لأيمن به محمد الغرناطي ٢٥٠
- لأبي بكر الزبيدي اللغوي ٢٥١
- لبعض فقهاء طليبة ٢٥٢
- لأبي بكر بن مفاوز أبيات أوصى أن تكتب على قبره ٢٥٢
- لابن صفوان الخطيب ٢٥٢
- لبعض قدماء الأندلس ٢٥٢
- تذييل لآخر على هذا الشعر ٢٥٣
- لأبي جعفر أحمد السياسي القيسي المري ٢٥٣
- لأبي إسحاق بن أبي العاصي ٢٥٣
- لأبي جعفر أحمد بن الزيات المالقي ٢٥٣
- لأبي محمد عبد الله بن محمد بن صارة البكري الشنتريني ٢٥٤
- لأبي محمد بن صاحب الصلاة، الداني ٢٥٤
- لأبي الحكم عبيد الله الأموي مولاهم ٢٥٤
- لأبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري ٢٥٥
- لأبي جعفر بن خاتمة ٢٥٥
- للحافظ أبي عبد الله الحميدي ٢٥٧
- لأبي بكر مالك بن جبير ٢٥٧
- لأبي عبد الله محمد بن جبير اليحصبي ٢٥٧
- لأبي زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلني ٢٥٨
- تذييل المؤلف عليه ٢٥٨

الباب الثامن من القسم الأول في خروج الأندلس عن يد المسلمين

أول من جمع فلول النصاري ٢٥٩

رواية عيسى بن أحمد الرازي ٢٦٠

- رواية المسعودى صاحب مروج الذهب ٢٦٠
 أول ما استرد الفرنج من بلادهم، و ما قيل فى ذلك من الشعر ٢٦٠
 وصف طليطلة ٢٦١
 وصف قصر بناه يحيى بن ذى النون فى طليطلة، عن ابن بدرون ٢٦٢
 تاريخ أخذ طليطلة، عن ابن خلكان وغيره ٢٦٢
 وقعة الزلاقة التى نشأت عن أخذ طليطلة ٢٦٢
 كتب دارت بين ملوك الأندلس و ابن تاشفين ٢٦٣
 رواية ابن الأثير فى كتابه «الكامل» ٢٦٤
 رواية أبى عبد الله الحميرى فى «الروض المعطار» ٢٦٥
 رواية ابن خلكان ٢٦٨
 عود إلى رواية صاحب «الروض المعطار» ٢٦٩
 كتاب من ابن عباد إلى ابنه ياشبيليه ٢٧٤
 مبدأ غدر ابن تاشفين ب ابن عباد وغيره ٢٧٥
 بعض أخبار المعتمد بن عباد، عن ابن القطاع ٢٧٧
 و عن ابن بسام فى «الذخيرة» ٢٧٧
 من غدر ابن تاشفين ٢٧٨
 فتوى علماء الأندلس لابن تاشفين بجواز خلع المعتمد بن عباد ٢٧٨
 حديث الفتح بن خاقان عما صنع مع المعتمد بن عباد و أهله ٢٧٨
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٤٢
 ابن تاشفين فى ضيافة ابن عباد ٢٧٨
 رجل يدخل على المعتمد ينصحه فى شأن ابن تاشفين ٢٧٩
 ملك على بن يوسف بن تاشفين، و الثورة عليه ٢٨١
 ملك عبد المؤمن بن على بالأندلس ٢٨١
 يوسف بن عبد المؤمن بن على ٢٨٢
 لمطرف التجيبى فى أبى إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ٢٨٣
 ملك يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ٢٨٣
 ملك محمد الناصر بن يعقوب ٢٨٥
 المستنصر بن الناصر ٢٨٥
 عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ٢٨٦
 العادل بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، و من بعده من بنى تاشفين ٢٨٦
 بنو الأحمر ٢٨٦
 بنو مرين ٢٨٧
 كتاب من السلطان أبى الحسن المرينى إلى الملك الصالح بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر ٢٨٧

جواب سلطان مصر على هذا الكتاب من إنشاء خليل بن أيك ٢٩٤

الصفدى شارح لامية العجم ٢٩٨

صورة إجازة من الصفدى لعز الدين أبى يعلى حمزة بن موسى بن أحمد بن شيخ السلامية برواية كتاب السلطان أبى الحسن المرينى و

جواب سلطان مصر عليه ٢٩٨

السلطان أبو الحسن المرينى يكتب بيده ثلاثة مصاحف و يهدىها للمساجد الثلاثة ٢٩٩

وصف بعض المشاركة للسلطان أبى الحسن المرينى ٢٩٩

هدية من السلطان أبى الحسن المرينى إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون برواية الخطيب أبى عبد الله بن مرزوق ٣٠١

رواية المقرئ مؤرخ مصر لهذه الهدية ٣٠١

و من إنشاء لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه إلى أحد السلاطين من بنى السلطان أبى الحسن المرينى ٣٠٣

و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه فى استنهاض عزم السلطان المرينى صاحب فاس لنصرة الأندلس ٣٠٨

و من إنشاء لسان الدين فى مخاطبة سلطان فاس أيضا، فى المعنى السابق ٣١٢

و من إنشاء لسان الدين عن سلطان الأندلس إلى السلطان المرينى صاحب فاس، يعتذر عن فرار الأمير أبى الفضل المرينى الذى كان

معتقلا بغرناطة ٣١٥

و من إنشاء لسان الدين على لسان الفتى مخاطبا لسلطان فاس و المغرب أبى عنان ٣١٨

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج ٥؛ ص ٤٤٢

نته من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه إلى الأمير أبى بكر السعيد بن أبى عنان سلطان المغرب و قد ولاه أبوه جبل الفتح ٣٢٣

و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب أبا عنان سلطان المغرب ٣٢٥

و من إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أمير المسلمين عبد الله يوسف بن أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر إلى سلطان المغرب

٣٢٩

و من إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بالأندلس و انقطاعها، و أنها لا غنى لها عن بر العدو ٣٣١

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص: ٤٤٣

و من إنشاء لسان الدين من جملة رسالة على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب الرعايا ٣٣٤

و من إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بضيق حال المسلمين ببلاد الأندلس ٣٣٦

و من رسالة أخرى من إنشاء لسان الدين فى المعنى السابق ٣٣٧

أخذ الكفار قواعد بلاد الأندلس ٣٣٨

أخذهم طليطلة ٣٣٨

أخذهم بلنسية ٣٣٩

أخذهم بربرشتر قصبه بلد برطانية ٣٤٠

ذكر بعض فظائع الإفرنج التى كانوا يعملونها حين يستولون على البلاد ٣٤١

أخذ الإفرنج مدينتى تطيلة و طرشونة ٣٤٥

القبيدة السينية التى ألقاها ابن الأبار القضاعى بين يدى أبى زكريا بن أبى حفص سلطان إفريقية و قد أقبل عليه يستغيثه ٣٤٦

تغلب الإفرنج على بلنسية ٣٥٠

وقعه كتنده ٣٥٠

- الاستيلاء على لوشة ٣٥١
- الاستيلاء على المرية ٣٥١
- أبو محمد بن عبد الله بن علي الرشاطي ٣٥١
- عودة المرية إلى المسلمين ثم فقدانها ٣٥٢
- أخذ الإفرنج كورة ماردة ٣٥٤
- الملك المظفر محمد بن المنصور بن الأفضس ملك بطليوس و ماردة ٣٥٤
- أبو عبد الله محمد الفازازي (ترجمة) ٣٥٥
- أخذ الإفرنج جزيرة ميورقة ٣٥٦
- شعر بعض أهل جزيرة ميورقة ٣٥٨
- أخذ جزيرة شقر ٣٥٨
- أخذ مدينة سرقسطة ٣٥٨
- أخذ شرق الأندلس شاطبة و غيرها ٣٥٩
- أخذ مدينة قرطبة ٣٥٩
- أخذ مدينة مرسية ٣٥٩
- حصار إشبيلية ٣٥٩
- واقعه أنيجه ٣٥٩
- لابن الأبار يرثي شيخه أبا الربيع الكلاعي، و قد مات في حصار أنيجه ٣٥٩
- من شعر الحافظ أبي الربيع الكلاعي ٣٦٠
- ترجمة الحافظ الكلاعي و ذكر تصانيفه ٣٦١
- من قصيدة له أرسل بها إلى الأديب أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي عقب انفصاله من بلنسية ٣٦١
- عبارة للقاضي أبي بكر بن العربي عن نزول العدو الكافر بلاد الأندلس ٣٦٢
- قصيدة لأبي جعفر الوقشي البلنسي يمدح يوسف بن تاشفين و يصف حال الأندلس و يحث على الجهاد ٣٦٣
- عبد المؤمن و بنوه في الأندلس ٣٦٤
- من القصائد الموجهة إلى أبي زكريا عبد الواحد بن أبي حفص ليغيث بلاد الأندلس من الإفرنج ٣٦٥
- قصيدة لبعض الشعراء يندب طليطلة ٣٦٩
- القصيدة النونية الشهيرة التي أنشأها الأديب الشهير أبو البقاء صالح بن شريف الرندي يرثي فيها بلاد الأندلس ٣٧٣
- من بديع نظم صالح بن شريف الرندي ٣٧٥
- رسالة كتبها القاضي أبو المطرف بن عميرة المخزومي إلى الحافظ أبي عبد الله بن الأبار، يذكر فيها أخذ الفرنج بلنسية ٣٧٧
- قصيدة ختم بها أبو المطرف رسالته لابن الأبار ٣٧٨
- عود إلى الحديث عن تبدد شمل الجيرة، و طى بساط الجزيرة (الأندلس) ٣٨١
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٥، ص: ٤٤٤
- وصف شاطبة و ضياعها (لأبي المطرف) ٣٨١
- لابن رشيد في رحلته يصف أبا المطرف ٣٨٢

- رسالة الحافظ ابن الأبار التي أجابه عنها القاضي أبو المطرف برسالته السابقة ٣٨٢
- من إنشاء ابن الأبار في كتابه المسمى «درر السمط، في خبر السبط» ٣٨٥
- للأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان، في ضياع بلاد الأندلس ٣٩١
- وصف ابن الحداد لخزانة الدار النصرية و ما كان فيها من المتاع و التحف ٣٩٣
- انحياز المسلمين إلى غرناطة بعد استيلاء الفرنج على قواعد بلاد الأندلس ٣٩٤
- قصد ملوك الإفرنج غرناطة ٣٩٤
- بنو الأحمراء و حروبهم و جهادهم إلى نهاية ملك المسلمين بالأندلس ٣٩٤
- موقعة «الحامة» ٣٩٤
- موقعة «لوشة» ٣٩٧
- موقعة «مالقة و بلش» ٣٩٧
- موقعة «رندة» ٣٩٨
- حصار «مالقة» ٣٩٨
- اشتداد المعارك بين الإفرنج و المسلمين ٣٩٩
- موقعة «البيرة» ٤٠١
- عود إلى «مالقة و بلش» ٤٠٢
- سقوط «بسطة» و غيرها ٤٠٣
- موقعة «شلوبانية» ٤٠٤
- موقعة مرج غرناطة ٤٠٤
- استيلاء النصارى على الحمراء و صورة من شروط الصلح ٤٠٧
- نقض النصارى للعهد ٤٠٩
- ذكر السلطان الذي ضاعت على عهده بلاد الأندلس ٤١٠
- نص رسالته كتبها أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي على لسان سلطان الأندلس المخلوع إلى سلطان فاس، و تسمى هذه الرسالة «الروض العاطر الأنفاس، و في التوسل إلى الإمام سلطان فاس» ٤١٠
- كلمة عن أبي عبد الله العقيلي، منشئ الرسالة المذكورة ٤٢٨
- من شعر أبي عبد الله العربي ٤٢٩
- نموذج من موشحاته ٤٣٠
- و من شعره أيضا ٤٣١

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبَحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجلَ اللهُ تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقه لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسايل الديتية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافية على أساس معارف القرآن و اهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواء برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في أكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابلة للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدّه مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديّه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" و "مفترق" و فاني / بنايه "القائمية"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوفّي الحجم المتزايد و المتسعّ للامور الدينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركز صاحب هذا البيت (المُسمّى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَل اللهُ تعالى فرجه الشريف) أن يُوفّق الكلّ توفيقاً مترائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

